

دراسات منهجية هادفة
حول الأصول الثلاثة
الله . الرسول . الاسلام

الرسول

صلى الله عليه وسلم

سعيد حوى

جزآن معاً

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠



اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الأسماء للنشر والتوزيع
القاهرة

دراسات منهجية هادفة
حول الأصول الثلاثة
لنبي الرسل، الإسلام

الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الجزء الأول

« ستري في هذا البحث ، بالدليل والبرهان أن محمدا
رسول الله حقا ، وأن محمدا أعظم الناس في كل شيء ،
وأن الذين يتخذون غيره قدوة، حمقى وناقصون » ..

بقلم

سعيد حوى

يطلب من : مكتبة وهبة

١٩ شارع الجمهورية - عابدين

تليفون ٩٣٧٤٧٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

من بين هذه المخلوقات التي تعد بالبلايين يظهر هذا الانسان بشكل متميز جدا ، وتميزه عن بقية المخلوقات يجعله عالما وحده تنطوي فيه العوالم ويبقى بعد ذلك بقية من التفرد ..

ونواحي هذا التفرد في الانسان كثيرة نشير الى ما يلي منها :

١ - في خلقته : قال تعالى : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » (التين : ٤) فما من شيء في الانسان الا وقد ركب وصور على أحسن مثال وأجمله وأعدله وأكمله ، قارن بين الانسان وبين أي مخلوق آخر من حيث الخلقة تجد تشابها في ما لا بد منه للحى كحى ، ثم ترى بعد ذلك أوجه التمايز : يد الانسان تمتاز على يد أي مخلوق آخر ، ولولا هذا لما كانت حضارات ، وقامة الانسان وانتصاب جسمه لا يشبهه فيه غيره ، وبشرة الانسان وأعضاؤه كل ذلك فيه تميز ، وهو في الانسان أكمل وأعدل وأجمل من الظفر الى الشعر الى الأنف الى الأذن الى الوجه الى القدم الى أي شيء ..

٢ - في علمه : قال تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » (البقرة : ٣١) وقال : « علم الانسان ما لم يعلم » (العلق : ٢٥) فالانسان وحده أعطى ملكة التعلم بشكل لا مثيل له عند غيره . فالمادة لا تعقل أصلا ، وكذلك النبات ، وعلم الحيوان محصور ضمن حدود طعامه وشرابه وسفاده ، والخطر الذي يتهده ، ولا يتعلم شيئا الا بصعوبة . أما الانسان فيعقل ذاته ويعقل غيره ، ويركب ويحلل ، يعرف الأشياء ، ولماذا وجدت وكيف وجدت وكيف يستفاد منها ، ويعرف القوانين التي تربط بين الأشياء أو التي تخضع لها الأشياء ، وآثار علم الانسان واضحة جليلة وتميز الانسان في ذلك واضح جلي .

٣ - في إرادته : قال تعالى : « انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » (الانسان : ٣) ان العلم شيء سلبي ، والذي يجعله

يجابيا ، هو الارادة ، وكلما كانت الاحاطة في موضوع أتم كان مجال الاختيار أوسع ولما كان الانسان أكثر علما فهو أوسع ارادة ، ومجال الارادات أمامه أكثر وهو بالتالى يملك أكبر قدر من الارادة • ولذلك تراه يستطيع أن يتصرف أمام الحادث الواحد بأكثر من أسلوب فاذا ظلم قد يعفو أو ينتقم وقد يكظم غيظه أو يظهره وقد يؤخر الانتقام لتسنع له الفرصة وقد يجبن • وقد يترفع وقد يسف وقد يرد بالمثل وقد يطغى وقد •• مواقف كثيرة أمام الحادث الواحد ، أما الحيوان فله تصرف واحد أمام الحادث الواحد على ضالة عدد مواقفه ومحدوديتها •• وهكذا فتميز الانسان في صفة الارادة واضح جلى •

٤ — في مكانته وامكاناته : ان مكانة الانسان في الوجود هي السيادة ، وذلك أن كل شيء مسخر له : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » (البقرة : ٢٦) « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض » (لقمان : ٢٠) • « هو أنشاكم من الأرض واستعمركم فيها » (هود : ٦١) وامكانيات الانسان تبلغ أن تستفيد من طاقات هذا الكون • فقدرة الانسان هائلة يكفى لمعرفة تميزها على سبيل المثال أن نذكر أن كل الحيوانات لا تستطيع أن تصنع حتى فأسا بينما صنع الانسان الأقمار الصناعية والقنابل الذرية ••

٥ — في ملكة البيان عنده : قال تعالى : « الرحمن • علم القرآن • خلق الانسان • علمه البيان » (الرحمن : ١ — ٤) ان الحيوانات كلها لا تخرج من أفواهاها الا أصوات مبهمه ، أما الانسان فانه يستطيع أن يخرج هذه الأصوات وزيادة على ذلك فانه يستطيع أن يخرج سبعا وعشرين حرفا تتركب منها مليارات الكلمات فى كل لغات العالم يتكلم بها الانسان • فيسخر ويضحك ويبكى ويفسد ويصلح ويشعر أو ينثر ويبين عن خلجات خاطر واشراقه الوجدان ، وقوانين الكون والسماء والأرض ، ويغنى وينشد ، ان تميز الانسان فى ملكة البيان من أبرز خصائصه ••

٦ — فى عقله وادراكه وخياله وتصوره : ان الحيوان يشترك مع الانسان فى حواسه ولكن الانسان يمتاز عنه ادراكا وتصورا وخيالا أرقى وأعلى • فالانسان والحيوان يشاهدان زرقه البحر ولكن شتان بين النظرتين • فزرقه البحر ألهم بسببها الانسان شعرا ونثرا وعلمًا

ومتعة وتأملات وإشارات الى أشياء كثيرة ، وتضع السم للذبابة في ماء السكر فتأكل منه وتموت وتأتى الأخرى والأخرى ويمتن جميعا ولا يخطر لواحدة منهن أن تتعظ ، ترى كم انسانا يأكل من طعام مات منه غيره ورآه ؟ ..

٧ - في استعداده الأخلاقى : هناك أخلاق عالية وأخلاق سافلة ، أخلاق راقية وأخلاق منحطة ، أخلاق فاضلة وأخلاق مردولة ، والانسان عنده استعداد لأن يتدنى فيكون أخبث الموجودات أو يتعالى فيكون مثال طهر . وعنده استعداد ليكون فى أحد حيزى الخير أو الشر أو يخلط بين الجانبين على حين الحيوان يبقى ذا خلق واحد فى الغالب ، فالغل والحقد والحسد والغش والكبر والرياء والغضب والطمع والبذخ والبطر والفخر والخيلاء والصلف والمداينة والعجب والمكر والخيانة والمخادعة والقسوة والفظاظة والجفاء والطيش وقلة الحياء وقلة الرحمة ، ثم أضداد هذه المعانى كلها وأمثال هذه وهذه كثير كل ذلك ، مما يمكن أن يتخلق به الانسان ومن ثم كان استعداد الانسان الأخلاقى سمة بارزة تميزه عن أى مخلوق آخر ..

والسؤال الآن هو : ماذا يترتب على الانسان نتيجة لهذا التفرد ؟

ان القاعدة على قدر ما تعطى تطائب ضمن استطاعتك هى قاعدة هذا الموضوع ، فان الله جلت حكمته الذى سخر الكون للانسان قد رتب على ذلك أن جعل الانسان هو المسئول الوحيد أمامه من هذه المخلوقات المرئية كلها فقال : « **أحسب الانسان أن يترك سدى** » (القيامة : ٣٦) وقال : « **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون** » (المؤمنون : ١١٥) وقال : « **انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا** » (الأحزاب : ٧٢) فانه عز وجل جعل الانسان بهذا التفرد خليفة فى الأرض « **واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة** » (البقرة : ٢٠) « **هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض** » (فاطر : ٣٩) والاستخلاف يعنى ما يلى :

- ١ - أن المستخلف فى الملك ليس مالكا أصيلا .
- ٢ - أن عليه أن يتصرف حسب أمر المستخلف لا حسب أمره هو .
- ٣ - ألا يشق عصا الطاعة ويتعدى الحدود المقررة له .

٤ — أن يفعل ما يريد المستخلف لا ما يريده هو .

وهذا كله يعنى أن الانسان ليس حرا بل هو عبد لله الذى أقامه هذا المقام فى الوجود قال تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » (الذاريات : ٥٦) فسيادة الانسان على الكون فى مقابل عبوديته لله . وما لم يعط الانسان عبوديته لله يكون قد اقام نفسه مقام الجماد والنبات والحيوان غير المسئولين . لذلك نرى القرآن قد ألح على عدم انسانية من لا يلتزم بطاعة الله فقال تعالى : « واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة » (المنافقون : ٤) وقال : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة » (البقرة : ٧٤) وقال : « ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون » (الأنفال : ٥٥) وقال : « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » (الأنفال : ٢٢ — ٢٣) وقال : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » (الأعراف : ١٧٩) وقال : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » (محمد : ١٢) « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » (الجمعة : ٥) وقال : « كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » (الأعراف : ١٧٦) ان القيام بأمر الله هو وحده الذى يطلق طاقات الانسان كلها فى طريقها الصاعد نحو الكمال ، وترك أمر الله يعنى اطلاق هذه الطاقات نحو الحيوانية الحرة ..

* * *

ولا يقوم الانسان بأمر الله الا اذا عرفه حق معرفته وعرف ما يأمر به ، ولا يتم للانسان هذا الا بمعرفة الرسول الذى يصطفيه الله للقيام بهذه المهمة ، ذلك أن الله لم تقتض حكمته أن يتصل بكل انسان على حدة ليبلغه أمره بل اقتضت حكمته أن يصطفى من الناس رسولا يقوم بهذا نيابة عنه « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » (الحج : ٧٥) وفى ذلك حكم منها :

١ — ان الاتصال بعالم الغيب يحتاج لأهلية خاصة واستعداد عظيم ، ولم يعط كل انسان مثل هذا « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (الأنعام : ١٢٤) اذ أن حكمة الله اقتضت ألا تجعل الناس درجة واحدة اذ لا تستقيم

الحياة البشرية بذلك • فمن للمهن ، ومن للحرف ومن لقضاء حاجات الناس ، ومن للخدمة ومن للسيادة ومن للتبعية ، اذا كان الناس على نسق واحد قال تعالى : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » (الزخرف : ٣٢) وكانسجام مع هذا القانون العام اصطفى الله بشرا ليكونوا رسلا « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم • اهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » (الزخرف : ٣١ — ٣٢) •

٢ — ان امتحان الانسان واختباره هدف أساسى من أهداف التكليف « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا » (الملك : ٢) وامتحان الانسان هدف آخر « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون • وكان ربك بصيرا » (الفرقان : ٢٠) • « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، اليس الله باعلم بالشاكرين » (الأنعام : ٥٣) وانسجاما مع هذا جرت سنة الله أن يختار انسانا رسولا ليمتلي الآخرين به • انه الاختبار العظيم الذى من نجاح به تخلص من رجس الحسد ، وشهوة الاستعلاء وتمحص خالصا للحق محبا له • ولأهمية ذلك نلاحظ أنه حتى الرسل امتحنوا بهذا المعنى « واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أقررتم وأخفتم على فلكم اصرى ، قالوا أقررنا » (آل عمران : ٨١) •

٣ — ومن أهم ما امتحن به الانسان تكليفه بالايمان بالغيب الذى قام على صدق المخبر به الدليل وهذا لا يتم الا اذا كان بين الله وخلقه واسطة هو الرسول ، هذا مع ملاحظة أن الرسل ممتحنون بشيء من هذا « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بأمره ما يشاء » (الشورى : ٥١) « قال رب أرني أنظر اليك ، قال لن ترانى » (الأعراف : ١٤٣) واذن كانت حكمة الله أن يصطفى رسلا من البشر يعرفهم على ذاته ويعرفهم على ما يريد منهم ومن خلقه ويأمرهم أن يعرفوا الناس عليه وعلى تكاليفه ليتحقق بذلك انسانيتهم ولتتطهر بذلك أنفسهم ، وليعيشوا محققين ما من أجله خلقوا ••

وهؤلاء الرسل يمثلون ذروة الكمال البشرى لانهم يمثلون ذروة انعبوديه لله ويقومون بأضخم مهمة في الوجود وهى مهمة ارشاد الانسان الى طريقه الصحيح ، اثنى انكمال بتخليصه من آدران نفسه وكل مؤثر حيوانى أو مادى أو غريب عن فطرتها ، حتى تصبح ربانية « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تطمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » (ال عمران : ٧٩) « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تطمون » (البقرة : ١٥١) « لن يستتفك المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستتفك عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا » (النساء : ١٧٢) .

وبعد : كيف نعرف نحن بقية البشر رسل الله ؟ ان معرفة الرسول واتباعه يترتب عليها هدايتى واستحقاقى ثواب الله بينما جهلى وكفرى به حال وجوده ودعوته لى يترتب عليها بقاى على ضلالى واستحقاقى عذاب الله فى الدنيا والآخرة لذلك كان مهما جدا أن أعرف كيف أهتدى الى الرسول ، وبدون معرفة هذا قد يلتبس على الأمر فأعتبر غير الرسول رسولا فأضل أو أجهل الرسول فأعذب « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (الاسراء : ١٥) .

لذلك فقد جعل الله للرسل علامات يعرفون بها . هذه العلامات هى :

١ — الصفات الشخصية لصاحب الرسالة : فليس من المعقول أن يكون الرسول كذابا اذ أن الكذاب لا يصدق فى الأمور العادية فضلا عن مثل هذه القضية الكبرى فالأخلاقية العالية سمة لا بد منها لانسان مرسل من عند الله ليظهر البشر من كل شر ويدله على كل خير . فاذا ما كان شريرا تظهر عليه صفات الأشرار فأثنى يجعله الله محل دعوته ، كما أنه ليس من المعقول أن يكون أبلها أو غير ذكى اذ المغفل أو عادى الذكاء لا يسلم له الناس عقولهم ولا يستطيع هو أن يقنع هذه العقول ، ومهمة الرسول لا تقوم الا اذا كان أكبر الناس عقلا وفطنة كى يستطيع اقامة الحجة على الناس ، كما أنه ليس من المعقول أن يدعو الرسول الى شىء ويكون سلوكه مخالفا لما اليه يدعو . فهو يدعو الى طاعة الله فليس من المعقول أن يعصيه . ويدعو الى ترك معصيته فلا يعقل ألا يطيعه اذا كان صادقا . فينبغى اذن أن يكون مظهرا كاملا للطاعة وترك المعصية . كما أنه ليس من المعقول أن يرسل رسولا ولا تكون عنده

امكانية تبليغ ارساله المكلف بها الى اصحابها • وبدون هذا لا تقوم
الحاجة الى الناس وهذا يحتاج الى شخصية فذة عظيمة • اذ دعوة
الرسول ليست كغيرها من الدعوات التي ترضى شهوات البشر ، بل
هي دعوة مهمتها كبح جماح النفس البشرية وعلى هذا فامام عملية التبليغ
عقبات ومخاطر وصعوبات واضطهاد لا يصبر عليها الا صادق مع الله •
ثم الرسول هو قدوة البشر في طريقهم الى الله ، فلا بد أن يكون أرقى
البشر في كل جانب من جوانب الحياة وعنده دائماً الحل الأمثل للبشر •
٢ — المعجزات : والمعجزات هي الأمر الخارق للعادة الذي يظهر

على يد الرسول أو النبي • وهي علامة على الرسالة لأنها تخرج من
عالم الأسباب كلها ، بحيث يعجز الانسان كانسان أن يأتي بها وذلك
أن قدرة الانسان محدودة ضمن قوانين الكون ، وقدرة الله وحدها هي
المطلقة ، فكون الرسول تظهر معه آثار القدرة المطلقة فذلك دليل على
أن له صلة مع الله • ويخلط الناس عادة بين المعجزة التي هي علامة
رسالة الرسول وبين السحر وآثار الرياضة الروحية • والذي نحب أن
نقرره هنا هو أن السحر والشعوذة نوعان من العلوم التي تخضع
لقوانين هذا الكون وان كانا مجهولين الا للقليل من الناس ولكن أي
انسان تعلم علم السحر يستطيع أن يفعل ما يفعل وكذلك فيما يتعلق
بآثار الرياضة الروحية ، فلعالم الروح قوانينه التي من اكتشفها قد
تظهر معه بعض آثارها ولكنها ما خرجت عن كونها من الأسباب العادية
لذ أن أي انسان يستطيع أن يفعل ما فعلوه اذا سلك نفس طريقهم •
أما المعجزة فلا علاقة لها بعالم الأسباب أصلاً فليست كأثر عن علم
أو تجربة أو قانون اذ من شروط المعجزة ألا يستطيع أحد من البشر
أن يأتي بها •

ان المعجزة تكون بقدرة الله الذي يقول للشيء كن فيكون • ان
عيسى عليه السلام كان يبرئ الأبرص وقد يشفى البرص على يد
طبيب ولكن الفارق بين الحالتين أن ذلك بقدرة الله وهذا بمعرفة القوانين
انتى بثها الله بالكون • ان الانسان يستطيع بذكائه وامكانياته أن يستخرج
الماء من أعماق الأرض أو أن يركب بالوسائل المعروفة من الأوكسجين
والهيدروجين ماء ، ولكن الفارق بين الماء المستخرج والمصنوع ،
وبين الماء الذي خرج بضرب عصا موسى أو نبع حيث وضع محمد
صلى الله عليه وسلم أصابعه كالْفارق بين صنع الله وصنع الانسان ،

صنع الله بكنمه كن وصنع الانسان بالعمل والجهد والآلة والفكر والعلم والاسباب وربط القانون بالقانون ، وهكذا استطاع الانسان أن يجاوز سطح الأرض ، ويسير بالفضاء ، ولكن الفارق بين هذا وبين خروج محمد رسول الله الى السماء كالقارق بين كل ما صنع الله وصنع المخلوق ، الخروج كان بكلمة الله وصعود الانسان الى هذا الفضاء ، كان بالارتقاء بالأسباب • فالمعجزة اذن لا دخل لأى سبب كوتى فيها سواء أكان روحيا أو ماديا أو أى شىء آخر • ومن هنا كانت ذات دلالة كاملة على أن صاحبها رسول الله ••

٣ — النبوءات : النبوءة هى الاخبار عن المستقبل وكون وقوعها دليلا على صحة دعوى الرسالة يعود الى أن علم الانسان محدود بالزمان الحاضر والماضى ومحجوب عن المستقبل ، والله وحده ذو العلم المحيط بكل زمان ومكان ، وما كان ويكون ، فكون الرسول يخبر عما سيكون ويقع كما أخبر ، فذلك دليل على أن له صلة بالله ، وكما أن المعجزة تخرج عن عالم الأسباب حتى تصلح دليلا ، فكذلك هنا المقصود بالاخبار عن انغيب مما ليس له علاقة بنتائج تقترب على مقدمات أو توقعات دلت عليها طوالع ، فهذا يستطيعه كثير من الناس بما أوتوا من حكمة وحكمة وخبرة ومعرفة وتجربة ••

٤ — الثمرات : ان ثمرات الرسول تدل عليه من انسجام دعوته مع قواعد الفطرة ، الى الأخلاقية العظيمة التى تظهر على أتباعه ، كأن يحكم الحق القوة ، ويظهر الوفاء على الغدر ، وان كان فى الغدر منفعة وتصبح نفس الانسان منضبطة انضباطا كاملا بالخير ، فيؤدى الحقوق ويقيم الواجبات ويعيش لله وبالله عادلا فى دنياه حريصا على آخرته ، تفجرت طلاقاته كلها ، وسارت فى طريقها الصحيح ، فنمت ملكاته العليا كلها وانضبطت ملكاته الدنيا جميعا • ان ثمرات دعوة الرسول تختلف اختلافا جوهريا عن ثمرات أى دعوة أخرى حتى لتكاد الفطرة تحسن بحدسها اذا رأت ثمرات النبوة أن سبب هذه الثمرات لابد أن يكون وراءه عناية ربانية خاصة ••

٥ — البشارات : ان الأنبياء كلهم رسل الله الواحد الأحد ، وقد يأمر الله الرسول السابق أن يبشر برسول لاحق فتكون نبوءة للأول وتمهيدا للثانى • وليس هذا شرطا فى كل رسالة ولكنه متوقع وجوده ومتأكد حصوله وقد يذكر بالبشارة اسم الرسول اللاحق أو صفاته أو

كلامه؛ وإبشارة يستأنس بها إذا وجدت بقية العلامات • •
هذه علامات خمس يتم بعضها بعضا نتعرف بها على صدق مدعى
الرسالة ونمتحن كل رسالة بها • •

قدمنا هذا الكلام بين يدي الأبواب الخمسة التي لها علاقة بهذه
القضايا الخمس والتي نتحدث بها عن رسالة النبي العربي محمد صلى
الله عليه وسلم وثبوتها • هذه الرسالة التي ختم الله بها النبوة « ولكن
رسول الله وخاتم النبيين » (الأحزاب : ٤٠) ونسخ بها كل شريعة
سابقة وكلف الانسانية كلها بها ، بحيث لا يستحق أحد رحمته الا اذا
التزم بها ، ومن لم يلتزم بها استحق عذابه • وتم بها انتقال الرسالة
من طور القومية الى طور الانسانية الشاملة ؛ اذ أن رسل الله قبل محمد
كانوا يبعث الواحد منهم الى قومه خاصة • وبعث محمد الى الناس عامة •
فأصبحت الانسانية كلها يبعثته ملزمة بشريعة واحدة هي شريعته وليس
أمام أحد من البشر خيار سوى سلوك الطريق الذي هدى اليه • والا
فانه يكون من الضالين • ولما كانت هذه الرسالة لها مثل هذه الأهمية •
جعل الله عز وجل فيها ومعها من واضحات الأدلة ومشرقات البراهين
الكثير الكبير بحيث لا يبقى معه حجة لمحاج أو شبهة لأحد •

هذه الأبواب الخمسة • مستجد ان شاء الله في كل واحد منها ما يؤكد
لك هذا المعنى بشكله الكامل بحيث لا تشك معه أن محمدا رسول الله
وأنه لا عذر لأحد كفر به أو أعرض عن شريعته •

وهذه الأبواب الخمسة على الترتيب التالي :

الباب الأول : الصفات •

الباب الثاني : المعجزات •

الباب الثالث : النبوءات •

الباب الرابع : الثمرات •

الباب الخامس : البشارات •

وبذلك ينتهى المبحث الثانى من مباحث هذا الكتاب ليبدأ المبحث
الثالث وهو الاسلام دين الله وشريعته التي بلغنا اياها رسوله صلى الله
عليه وسلم وبذلك نكون قد عرفنا المكلف وهو الله في المبحث الأول
والتكليف وهو الاسلام في المبحث الثالث ومبلغ التكليف والقدوة فيه
وهو الرسول في المبحث الثانى وهو هذا فالى الباب الأول من هذا المبحث •

الباب الأول

الصفات

بدأنا بهذا الباب بقصد التعريف على جوانب في شخصية الرسول من ناحية ومن ناحية أخرى كي يكون بمثابة مفتاح للأبواب الأخرى وقد حاولنا أن نمشي معه على اقتراب التالي :

١ - مقدمة : نستعرض فيها صفات الرسول الجسمية ليفصح كيف أن تركيبه الجسمي متناسب مع الرسالة التي كلف بها .

٢ - المذهب الأول : ويبحث في الصفات الأساسية للرسول وكيف كان للرسول منها أعلى ما يتصور في حق بذر .

٣ - الفصل الثاني : ويبحث في كون الرسول هو القدوة العليا تتبصر في كل جانب من جوانب الحياة لأنه كان في كل جانب في الذروة العليا من الكمال .

وجعلنا المقدمة تحت عنوان : تكوين الرسول الجسمي .

وجعلنا الفصل الأول تحت عنوان : الصفات الأساسية .

وجعلنا الفصل الثاني تحت عنوان : القدوة العليا .

ونأمل ألا تنتهي من هذا الباب الا وقد اتضح لطالب الحق أن محمدا لا يمكن أن يكون الا رسول الله حقا صلى الله عليه وسلم .

المقدمة

تكوين الرسول الجسدي

ان أول ما يقع بصر الانسان على رسول الله يشعر أنه أمام جمال مدهش لا مثيل له . ومظهر يوحى بثقة مطلقة لا حد لها وهذا ما ينعقد عليه اجماع من شاهدوه عليه الصلاة والسلام .

أخرج الدارمي والبيهقي عن جابر بن سمرة قال : رأيت النبي في ليلة اضحيان (أى مقمرة مسفرة) فجعلت أنظر اليه والى القمر فلهو كان أحسن في عيني من القمر .

وأخرج الترمذي والبيهقي عن أبي هريرة قال : ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله كأن الشمس تجري في وجهه وما رأيت أحدا أسرع في مشيه منه كأن الأرض تطوى له انا لنجهد وانه غير مكترث .

وأخرج الشيخان عن البراء قال : كان رسول الله بعيد ما بين المنكبين يبلغ شعره شحمة أذنيه ما رأيت شيئا أحسن منه .

وأخرج مسلم عن جابر بن سمرة في وصف وجه رسول الله قال : بل مثل الشمس والقمر مستديرا .

وأخرج الشيخان عن البراء قال : كان رسول الله أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير .

وأخرج مسلم عن أبي الطفيل أنه قيل له صف لنا رسول الله قال : كان أبيض مليح الوجه .

وأخرج الدارمي والبيهقي والطبراني وأبو نعيم عن أبي عبيدة قال : كنت اربيع بنت معوذ صفى لى رسول الله قالت : لو رأيته قلت الشمس طالعة .

وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال : كان رسول الله ضخم القدمين حسن الوجه لم أر بعده مثله .

وأخرج أبو موسى المدينى فى كتاب الصحابة عن أمد بن أمد الحضرمى
قال : رأيت رسول الله فما رأيت قبله ولا بعده مثله •

وأخرج الدارمى عن ابن عمر قال : ما رأيت أشجع ولا أجود
ولا أضوأ من رسول الله •

وأخرج أحمد والبيهقى عن محرش الكعبى قال : اعتمر النبى من
الجعرانة ليلاً فنظرت الى ظهره كأنه سبيكة فضة •

ومن شعر عمه أبى طالب فيه :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد والبيهقى عن على قال : كان النبى
ليس بالذاهب طولا وفوق الربعة اذا جاء مع القوم غمرهم أبيض ضخم
الهامة (أى الرأس) أغر أبلج أهدب الأشفار (أى طويل شعر العين
أسوده) كأن العرق فى وجهه اللؤلؤ لم أر قبله ولا بعده مثله •

ومن وصف هند بن أبى هالة له : كان رسول الله فخما مفخما يتلألأ
وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر •• عظيم الهامة رجل الشعر •• أزهر
اللون واسع الجبين أزج الحواجب سوابغ فى غير قرن •• بينهما عرق
بدره الغضب (الحاجب الأزج المقوس الطويل الوافر الشعر) أقنى
العرنين (العرنين الأنف أو ما صلب منه والقنأ طول الأنف ودقة أرنبته
واحداداب وسطه) له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم (الأشم
الطويل قصبة الأنف) كث اللحية أدعج (الدعج شدة سواد العين)
سهل الخدين ضليع الفم أشنب مفلج الأسنان (أى لأسنانه رونق وغير
متراكبة) دقيق المسربة (أى خفيف شعر ما فوق السرة) كأن عنقه جيد
دمية فى صفاء • معتدل الخلق بادن متماسك سواء البطن والصدر عريض
الصدر بعيد ما بين المنكبين •• أنور المتجرد •• طويل الزندين رحب
الراحة •• ثثن الكفين والقدمين سابل الأطراف (أى طويل الأصابع)
خمسان الاخمسين •• ذريع المشية اذا مشى كأنما ينحط من صبيب
واذا التفت التفت جميعا خافض الطرف نظره الى الأرض أكثر من نظره
الى السماء ••

وكان اذا مس أحدا أحس بطمأنينة عجيبة وروح عجيب •

أخرج أحمد عن سعد بن أبى وقاص قال : اشتكيت بمكة فدخل

على رسول الله يعودنى فوضع يده على جبته فمسح وجهى وصدرى
وبطنى فما زلت يخيل الى أنى أجد برد يده على كبدى حتى الساعة •

وأخرج مسلم عن جابر بن سمرة قال : مسح رسول الله خدى
فوجدت ليدته بردا وريحانا كأنما أخرجها من جونة عطار • وأخرج الشيخان
عن أنس قال : ما مسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف رسول الله
ولا شممت مسكا ولا عنبرا أطيب من ريح رسول الله صلى الله عليه
وسلم •

وكان منظره يوحى لمن يراه بأنه أمام نبي •

أخرج الترمذى عن عبد الله بن سلام قال : لما قدم النبی المدينة
جئته لأنظر اليه فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب •
وعن أبى رمثة التميمى قال : أتيت النبی ومعى ابن لى غاريتة
فلما رأيته قلت هذا نبي الله •

ويقول عبد الله بن رواحة فى وصفه :

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره ينبىك بالخبر

هذه بعض آثار مما ورد فى وصف تكوينه الجسمي نقلناها بين
يدى صفاته وكمالاته الخلقية العظيمة لتتضح صورته من جميع جوانبها
عليه السلام •

الفصل الأول

الصفات الأساسية

انه لابد لكل رسول لله أن يكون متصفا بصفات أساسية أربع حتى يكون أهلا للرسالة . هذه الصفات الأربع هي :

١ — الصدق المطلق الذى لا ينقض فى كل حال . بحيث لو امتحن كل قول له لكان مطابقا للواقع اذا وعد أو عاهد أو جد أو داعب أو أخبر أو تنبأ واذا انتقضت هذه الصفة أى نقض ، فان دعوى الرسالة تنتقض من أساسها لأن الناس لا يثقون برسول غير صادق ، والرسول الصادق لا يمكن أن تجد فى جزء من أجزاء كلامه شيئا من الباطل فى أى حال من الأحوال وفى أى جانب من الجوانب .

٢ — الالتزام الكامل بما يدعو اليه نيابة عن الله اذ مهمة الرسالة تبليغ الناس ما كلفهم به الله فاذا لم يقم الرسول نفسه بهذه التكليف دل ذلك على عدم تفاعله مع التكليف وهذا دليل كذبه فى دعوى الرسالة . اذ الرسول الذى يتصل به الله أعرف بجلال الله وبالتالى لا يعصى له أمر لأن عصيان أمر الله خيانة ، وغير الأمناء ليسوا أهلا لحمل رسالة الله .

٣ — التبليغ الكامل المستمر لمضمون الرسالة وعدم المبالاة معه بسخط الناس أو تعذيبهم أو ايذائهم أو كيدهم أو مؤامراتهم أو ارجافهم ، والاستقامة على أمر الله وعدم الانجراف عنه ، مهما كانت المغريات والاستمرار على ذلك . اذ بدون التبليغ لا تظهر الرسالة وبدون الاستمرار عليه والصبر لا تستقر . والخضوع لضغط الناس أو لاغرائهم دليل كذب دعوى البلاغ عن الله . اذ لا يبلغ رسالة الله الا من رغب بالله عن غيره وكان الله وحده هو العظيم عنده ولا يبالى بغير رضاه .

٤ — العقل العظيم اذ لا يسلم الناس ولا يتبعون انسانا الا اذا كان أرجحهم عقلا ليطمئنوا على أنه لا يسير بهم فى الطريق الخاطيء كما أنه بدون العقل العظيم لا يستطيع صاحب الرسالة أن يقنع

الآخرين بالحق الذي في رسالته . خاصة أصحاب المدارك الواسعة والعقول الكبيرة ولا يستطيع أن يرد هجمات المبطلين والمتكبرين والمنحرفين والمنتهجين بالانحراف . فلا بد أن يكون الرسول أذكى الخلق وأفطنهم وأعقلهم وأحكمهم وأكملهم مدارك كي تقوم به الحجة .

فاذا اجتمعت هذه الصفات الأربع لانسان يذكر أنه رسول الله مع بقية العلامات التي يعرف بها الرسول دون وجود مانع يحيل الدعوى ، كان ذلك برهانا ودليلا على صحة الدعوى اذ لا يوجد مبرر لتكذيب الصادق ولا يوجد تعليل لحرارة الالتزام غير التسليم ، وعدم الانصراف عن التبليغ مع توفر دواعي الانصراف لا تعلل الا بالاخلاص للدعوة وصاحبها ، ودعوة حجتها معها ، وصاحبها قادر على اقامة الحجة في أى جانب من جوانبها فيها دليل حقيقتها .

وسنرى في هذا الفصل كيف أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان المثل الأعلى في كل صفة من هذه الصفات بحيث لا تستطيع أن تدرس واحدة منها عنده الا وتسلم أن صاحبها رسول الله حقا . وسندرس هذه الصفات على الترتيب المذكور هنا فنبداً بصفة الصدق عنده عليه الصلاة والسلام .

١ - صدقه عليه السلام

وطريقتنا في استعراض هذه الصفة أن نأتى بالشهادات عليها وهذه الشهادات ثلاث :

- (أ) شهادة الخصوم .
- (ب) شهادة الأتباع .
- (ج) شهادة الواقع ، وشهادة الواقع تتمثل في أربع : في الاخبار وفي الوعد ، والعهد ، وفي المزاح والمداعبة وفي النبوءات .

(أ) شهادة الخصوم :

وشهادة الخصوم في هذا الفصل لها وزنها الكبير . اذ تدلك على دبلغ الثقة التي كان يتمتع بها رسول الله عند الجميع ، ولكن بعض الناس استغرب واستكبر فأنكر دون وجود مبرر لهذا الإنكار وهذه نصوص تؤكد لك هذا الذي قلناه :

« أخرج البيهقي عن المغيرة بن شعبة قال : ان أول يوم عرفت

(٢ - الرسول)

فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى أمشى أنا وأبو جهل في بعض أزقة مكة إذ لقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى جهل : يا أبا الحكم هلم الى الله ورسوله أدعوك الى الله . فقال أبو جهل : يا محمد هل أنت منته عن سب آلهمتا ؟ هل تزيد الا أن نشهد أنك قد بلغت ؟ فنحن نشهد أن قد بلغت ، فوالله لو أنى أعلم أن ماتقول حق لا تتبعك فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل على فقال : والله انى لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعنى شىء أن بنى قصى قالوا : فينا الحجابة . قلنا نعم ثم قالوا : فينا السقاي قلنا نعم ، ثم قالوا : فينا الندوة فقلنا نعم ، ثم قالوا : فينا اللوا فقلنا نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا حتى اذا تحاكت الركب قالوا : منا نبى والله لا أفعل » وأخرجه ابن أبى شيبة بنحوه .

وأخرج الترمذى عن على أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم : انا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله تعالى « **فانه لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** » (الأنعام : ٣٣)

« وأخرج ابن عساكر عن معاوية (رضى الله عنه) قال : خرج أبو سفيان الى بادية له مردفا هند وخرجت أسير أمامهما وأنا غلام على حمارة لى إذ سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو سفيان انزل يا معاوية حتى يركب محمد فنزلت عن الحمارة وركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار أمامنا هنيهة ثم التفت الينا فقال يا أبا سفيان بن حرب ويا هند بنت عتبة والله لتمتن ثم لتبعثن ثم ليدخلن المحسن الجنة والمسيء النار . وأنا أقول لكم بحق وانكم لأو من أنذرتهم ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « **حم . تنزيل . الرحمن الرحيم** » (فصلت : ١ - ٢) . حتى بلغ « **قالتا أتينا طائعين** » (فصلت : ١١) فقال له أبو سفيان : أفرغت يا محمد ؟ قال نعم ونز رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمارة وركبتها وأقبلت هند على أبى سفيان : ألهذا الساحر أنزلت ابنى قال : لا والله ما هو بساح ولا كذاب » وأخرجه الطبرانى أيضا .

وروى البخارى ومسلم قصة أبى سفيان عند هرقل كما حدث به أبو سفيان ابن عباس ومنها سؤال هرقل لأبى سفيان هذا : « قال : ف كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال . قلت لا » وفى آخر القص

يقول هرقل لأبى سفيان : « وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال . فزعمت أن لا فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى » .

وأخرج الشيخان والترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت « وأنذر عشيرتك الأقربين » (الشعراء : ٢١٤) صعد صلى الله عليه وسلم على انصفا فجعل ينادى يا بنى فهر يا بنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا فقال : رأيتمكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك الا صدقا قال : فانى نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، قال أبو لهب : تبأ لك يا محمد ألهذا جمعتا فنزلت : « تبأ يدا أبى لهب وتب » (المسد : ١) من هذه النصوص يتبين لك أن الثقة بصدق محمد صلى الله عليه وسلم كانت متوفرة ولم يكن هذا الموضوع فيه شك أبدا وهذا الذى يعلل لنا :

١ — ظاهرة الايمان به من قبل من حاربوه واحدا فواحدا طوعا لا اكراها أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعمر بن الخطاب .. ذلك لأنهم ما كانوا يشكون فى أن محمدا صادق . ولكن فاجأهم بشيء لم يسمعوا به هم ولا آباؤهم فأنكروه ، حتى اذا ذهب هول المفاجأة وحكموا عقولهم التقى صدق الفكر بالثقة الأساسية بشخص محمد صلى الله عليه وسلم فتولد عن ذلك ايمان .

٢ — ظاهرة الاخلاص له بعد الايمان : فبعضهم لم يؤمن الا آخرا بعد أن غلب كبقايا قريش فانهم أخيرا غلبوا للاسلام ، وكان يمنعهم من ذلك ثارات وأحقاد وشبهات وشهوات . حتى اذا دخلوا فيه تسليما للأمر الواقع واذا بهم مخلصون لرسول الله كآتم ما يكون الاخلاص . ومتقانون فى الاسلام بعد أن زانت عن أعينهم غشاوات . من بعدها تبينوا أن محمدا هو الأخ الكريم والابن الكريم فكانت معرفتهم به وثقتهم بشخصيته أساسا لاخلاصهم فى طريقهم الجديد الذى ساروا به بعد ذلك فرحين .

وبعد فهذه شهادة خصوم : بعضهم أسلم بعد خصومة شديدة وبعضهم مات على كفره ولكن الجميع حتى فى أشد حالات الخصومة كانوا مؤمنين أن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق .

(ب) شهادة الأتباع :

ونقدم لشهادة الأتباع بما يلي :

١ — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان دائم الخلطة لأصحابه في طعامهم وشرابهم وسفرهم وصلاتهم ومجالسهم وهو عليه السلام كان يحب البساطة والصراحة ويكره التكلف ، وبعض الصحابة خالط الرسول صلى الله عليه وسلم قبل النبوة وبعدها عشرات السنين .

٢ — وهؤلاء الأصحاب لم يكونوا أغرارا ولا مغفلين ولا منعزلين عن العالم ، بل بعضهم من مكة التي كان العرب سنويا يقصدونها للحج ، وتسلم الجزيرة العربية كلها لأهلها بالفضل والزعامة عدا عن صلات أهلها بواسطة التجارة مع اليمن ومع الشام حيث مراكز الحضارة . وبعض أصحابه من المدينة حيث الصلات الفكرية مع اليهود وما ينشأ عن ذلك من تفتح ذهني .

كما أن هؤلاء الأصحاب أثبتوا في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد مماته أنهم أرجح الناس عقولا وأكثرهم دهاءا وحنكة ومعرفة بالرجال والشعوب وسياسة الأمم بدليل أنهم نجحوا رغم محدودية وسائلهم بفتح أعظم الدول المتحضرة وقتذاك وإدارتها وكسب مودة شعوبها ودمجهم بعد ذلك في الأمة الإسلامية .

فاذا ما اجتمعت هاتان الناحيتان : الخلطة الدائمة . وذكاء المخالطين ، فإن أمر الكاذب يفتضح ، وأمر الصادق يتضح .

وانظاهرة الواضحة في حياة أصحابهم أنهم كلما ازدادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خلطة ازدادوا به إيمانا وتصديقا بل أكثرهم اختلاطا به أكثرهم إيمانا به وطاعة له وقد بلغ هذا معهم لدرجة أنه أصبح الموت من أجل ما يريد الرسول صلى الله عليه وسلم أحب إليهم من الحياة ، وانفاق المال أحب إليهم من إمساكه ، والطاعة أحب إليهم من المعصية . ودين الرسول صلى الله عليه وسلم أحب إليهم من الأموال والأولاد والمساكن والزوجات والوطن . وكل هذا من مظاهر التصديق الكامل إذ لمولا التصديق لما كان شيء من هذا . فقد قتل منهم الابن أباه ، وأراد الأب قتل ابنه فعلام يفعلون هذا لولا أن إيمانهم برسول الله وتصديقهم به وصل إلى ذروة النذرى . وهذه أمثلة كل منها يعتبر أثرا من آثار التصديق الكامل ودليلا عليه نذكرها بلا تعليق وفي كل منها شهادة من

صاحبها • بعد تجربة على أن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق لا شك في ذلك •

١ — أخرج الحافظ أبو الحسن الطرابلسي عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما اجتمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم — وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا — ألح أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظهور فقال : يا أبا بكر انا قليل • فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته ، وقام أبو بكر في الناس خطيبا ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فكان أول خطيب دعا الى الله والى رسول الله صلى الله عليه وسلم • وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين ، فضربوا في نواحي المسجد ضربا شديدا ووطيء أبو بكر وضرب ضربا شديدا ، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه ، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه •

وجاء بنو تميم يتعمدون فأجلت المشركين عن أبي بكر وحملت بنو تميم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله • ولا يشكون في موته ، ثم رجعت بنو تميم فدخلوا المسجد وقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة ، فرجعوا الى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تميم يكلمون أبا بكر حتى أجاب • فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله ؟ فمسوا منه بالسنتهم وعذلوه ، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : انظري أن تطعميه شيئا أو تسقيه اياه ، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : والله ما لي علم بصاحبك • فقال : اذهبي الى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : ان أبا بكر يسألك عن محمد ابن عبد الله فقالت ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وان كنت تحبين أن أذهب معك الى ابنك ، قالت : نعم • فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دنفا • فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت والله ان قوما نالوا منك هذا لأهل فسق وكفر • واني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم • قال : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : هذه أمك تسمع • قال : فلا شيء عليك منها • قالت : سالم صالح • قال : أين هو ؟ قالت : في دار ابن الأرقم • قال : فان لله على أن لا أذوق طعاما ولا أشرب

شراباً أو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس ، خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فأكب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبله وأكب عليه المسلمون . ورق له رسول الله صلى الله عليه وسلم رقعة شديدة . فقال أبو بكر : بأبى وأمى يا رسول الله ، ليس بى بأس إلا ما نال الفاسق من وجهى ، وهذه أمى برة بولدها ، وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار . قال : فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاها إلى الله فأسلمت .

٢ — وأخرج ابن اسحاق عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما أسلم عمر رضى الله عنه قال : أى قریش أنقل للحديث ؟ فقل له جميل بن معمر الجمحى فغدا عليه ، قال عبد الله : وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل — وأنا غلام أعقل كل ما رأيت — حتى جاءه فقال له : أعلمت يا جميل أنى أسلمت ودخلت فى دين محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : فوالله ما راجعه حتى قام يجرد رداءه واتبعه عمر واتبعته أنا حتى قلم على باب المسجد يصرخ بأعلى صوته : يا معشر قریش — وهم فى أنديتهم حول الكعبة — ألا ان ابن الخطاب قد صبأ . قال يقول عمر من خلقه : كذب ولكنى قد أسلمت وشهدت أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وثاروا إليه فما برح يقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم ، قال : وطلع فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا . قال : فبينما هم على ذلك اذ أقبل شيخ من قریش عليه حلة حبرة وقميص موشى حتى وقف عليهم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر . قال : فمه ! رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون ؟ أترون بنى عدى يسلمون لكم صاحبهم هكذا ؟ خلوا عن الرجل . قال : فوالله لكأنما كانوا ثوبا كسب عنه . قال فقلت لأبى — بعد أن هاجر إلى المدينة — يا أبت : من الرجل الذى زجر القوم عنك بمكة — يوم أسلمت وهم يقاتلونك ؟ قال : ذاك أى بنى : العاص بن وائل السهمى . وهذا اسناد جيد قوى — كذا فى البداية .

٣ — وأخرج البخارى فى التاريخ عن مسعود بن خراش رضى الله عنه بينما نحن نطوف بين الصفا والمروة اذا أناس كثير يتبعون

حتى شابا موثقا بيده في عنقه • قلت : ما شأنه • قالوا : هذا طلحة ابن عبيد الله — رضى الله عنه — صبا • وامرأة وراءه تدمدم وتسبه • قلت من هذه ؟ قالوا : الصعبة بنت الحضرمي أمه •

٤ — وأخرج البيهقي وابن سعد والحارث وابن المنذر وابن عساكر وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب رضى الله عنه : أن صهييا رضى الله عنه : أقبل مهاجرا نحو النبي صلى الله عليه وسلم فتبعه نفر من قريش مشركون ، فنزل فانتضى كنانته فقال : قد علمتم يا معشر قريش انى أرماكم رجلا بسهم ، وأيم الله لا تصلون الى حتى أرميكم بكل سهم في كنانتي ثم أضربكم بسيفي ما بقى في يدي منه • ثم شأنكم بعد ذلك وان شئتم دلتكم على مالى بمكة وتخلوا سبيلى • قالوا : نعم • فتعاهدوا على ذلك فدلهم ، فأنزل الله على رسوله القرآن : **« ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله »** (البقرة : ٢٠٧)

حتى فرغ من الآية • فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم صهييا قال : ربح البيع يا أبا يحيى • • ربح البيع يا أبا يحيى ! وقرأ عليه القرآن • ٥ — وأخرج الحاكم عن سليمان بن بلال رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج الى بدر أراد سعد بن خيثمة وأبوه جميعا الخروج معه ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأمر أن يخرج أحدهما فاستهما • فقال خيثمة بن الحارث لابنه سعد (رضى الله عنهما) انه لابد لأحدنا من أن يقيم فأقم مع نسائك • فقال سعد : لو كان غير الجنة لآثرتك به انى أرجو الشهادة في وجهي هذا ، فاستهما ، فخرج سهم سعد ، فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بدر • فقتله عمرو بن عبد ود • وأخرجه أيضا ابن المبارك عن سليمان وموسى ابن عقبة عن الزهري ، كما في الاصابة •

٦ — وأخرج الطبراني عن ابن عمر — أن عمر — رضى الله عنهما ، قال يوم أحد لأخيه : خذ درعى يا أخى ! قال أريد من الشهادة مثل الذى تريد ، فتركها جميعا ، قال الهيثمي رجاله رجال الصحيح •

٧ — وأخرج ابن اسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أخى بنى عدى بن النجار قال : انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك الى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار — رضى الله عنهم — وقد ألقوا بأيديهم • فقال : فما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم • قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟

فموتوا على ما مات عليه رسول الله . ثم استقبل القوم . فقاتل حتى قتل .

٨ — وأخرج الحاكم عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لطلب سعد بن الربيع رضى الله عنه وقال لى : ن رأيت فآثرته منى السلام . وقل له : يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تجدك ؟ قال : فجعلت أطوف بين القتلى . فأصبتة وهو فى آخر رمق وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم . فقلت له : يا سعد : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليك السلام ويقول لك أخبرنى كيف تجدك ؟ قال : على رسول الله السلام ، وعليك السلام . قل له : يا رسول الله أجدنى أجد ريح الجنة ، وقل لقومى الأنصار : لا عذر لكم عند الله ان يخلص الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيكم شفر يطرف . قال : وفاضت نفسه — رحمه الله — قال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد ، ولم بخرجاه . وقال الذهبى : صحيح . ثم أخرج الحاكم من طريق ابن اسحاق أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة حدثه عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من ينظر لى ما فعل سعد ابن الربيع — رضى الله عنه — فذكر الحديث بنحو منه — وقال : فقال سعد : أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى من الأموات ، وأقرئه السلام وقل له : يقول سعد : جزاك الله عنا ، وعن جميع الأمة خيرا .

٩ — وأخرج البيهقى عن مالك بن غمير رضى الله عنه وكان قد أدرك الجاهلية . قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : انى لقيت العدو ولقيت أبى فيهم ، فسمعت لك منه مقالة قبيحة فلم أصبر حتى طعنته بالرمح — أو حتى قتلتة ، فسكت عنه النبى صلى الله عليه وآله وسلم . ثم جاء آخر فقال : انى لقيت أبى فتركته وأحببت أن يليه غيرى . فسكت عنه . قال البيهقى وهذا مرسل جيد .

١٠ — وأخرج البزار عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن أبى وهو فى ظل أطم فقال : غير علينا ابن أبى كبشة . فقال ابنه عبد الله بن عبد الله رضى الله عنه : يا رسول الله والذى أكرمك لئن شئت لأتيتك برأسه ؟ فقال : لا ، ولكن بر أباك وأحسن صحبته . قال الهيثمى رواه البزار ورجاله ثقات .

١١ — وذكر ابن هشام عن أبى عبيدة وغيره من أهل العلم بالمغازى

أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لسعيد بن العاص رضى الله عنه ومربه : انى أراك تظن أنى قتلت أباك . انى لو قتلتك لم أعتذر اليك من قتله . ولكنى قتلت خالى العاص بن هشام بن المغيرة ، فأما أبوك فانى مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه ، فحدثت عنه وقصد له ابن عمه على فقتله . كذا فى البداية . وزاد فى الاستيعاب والاصابة : فقال له سعيد بن العاص : لو قتلتك لكنت على الحق وكان على الباطل ، فأعجبه قوله .

١٢— وأخرج ابن سعد عن الزهرى قال : لما قدم أبو سفيان ابن حرب المدينة جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يريد غزو مكة فكلمه أن يزيد فى مدنة الحديدية فلم يقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام فدخل على ابنته أم حبيبة رضى الله عنها . فلما ذهب ليجلس على فراش النبى صلى الله عليه وسلم طوته دونه . فقال : يا بنية ! أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت امرؤ نجس مشرك . فقال : يا بنية ! لقد أصابك بعدى شر . وذكر ابن اسحاق نحوه بلا اسناد ، كما فى البداية وزاد : فلم أحب أن تجلس على فراشه .

١٣ — وأخرج الطبرانى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما كان يوم أحد حاص أهل المدينة حيصة . وقالوا : قتل محمد حتى كثرت الصوارخ فى ناحية المدينة . فخرجت امرأة من الأنصار محرمة فاستقبلت بأبيها وابنها وزوجها وأخيها — أى قتلى — لا أدري أيهم استقبلت به أولا . كلما مرت على أحدهم قالت : من هذا ؟ قالوا : أبوك أخوك زوجك ابنك . تقول : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ يقولون : أمامك حتى دفعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت بناحية ثوبه ثم قالت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله لا أبالى اذ سلمت من عطب .

* * *

هذه نصوص تبين لك مدى الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم عند أتباعه المخالطين له مما يدلك على أن تصديقهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بلغ حدا لا مثيل له .

(ج) وأخيرا شهادة الواقع :

ان شهادة الواقع أعلى الشهادات لأن الانسان يصل بامتحانه الى

النيقين الذي لا يخالطه شك ونعنى بهذا أن يقوم الانسان باجراء اختبار كامل لكل ما ورد عن الرسول من قول أو فعل • فاذا ما وجد أن كل قول أو فعل مما يمكن أن يدخل تحت الاختبار لا يخرج عن الحق والصدق • لم يبق أمام الانسان الا طريق واحد هو الايمان والتصديق • وسنرى في الباب الثانى القادم أن الاختبار الكامل للقرآن يجعلك على مثل الشمس وضوحا أن القرآن كله حق وصدق وأنه من عند الله ، وسنرى في انبأب الثالث ان شاء الله أن الاختبار الكامل لنبوءاته ، يدل على أن المستقبل كان كسفا لها وتوكيدا • أما هنا فسننقل نماذج من مزاحه ومداعباته لنرى أنها لا تخرج عن الحق والصدق ، ونماذج من وعوده وعهوده وصدقه فيها ، ونماذج من أحاديثه التى يستطيع الانسان أن يعرف صدقها بالاختبار ، لنرى العجب فى مطابقة ما عرفه انسان عصرنا بعد التجربة ، لما نطق به شفقا رسول الله من عصور • ثم نختم هذا الموضوع بالتذكير أن المصدر الوحيد الذى نستطيع أن نأخذ عنه انعلم بالغيبات بثقة هو رسول الله • فهو الحجة وحده فى هذا ، وكلامه حجة على غيره فيه ، مع مناقشة بعض القضايا التى لها علاقة بهذا الأمر ونبدأ باستعراض ما ذكرنا :

١ — نماذج من صدقه فى مزاحه ومداعباته :

ان الناس عادة لا يلتزمون الصدق فى المزاح ولكن رسول الله داعب صادقاً ومزاح صادقاً وألزم أمته الصدق فى كل حال • أخرج أحمد عن أنس بن مالك : أن رجلاً أتى النبى فاستحمله فقال رسول الله : انا حاملوك على ولد ناقة فقال : يا رسول الله • ما أصنع بولد ناقة ؟ فقال رسول الله : وهل تلد الابل الا النوق • رواه أبو داود والترمذى • وقال زيد بن أسلم : أن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت الى النبى فقالت : ان زوجى يدعوك قال : ومن هو ؟ أهو الذى بعينه بياض ؟ قالت والله ما بعينه بياض فقال : بلى ان بعينه بياضا فقالت لا والله • فقال : ما من أحد الا وبعينه بياض • هو أراد البياض المحيط بالحدقة وهى فهمت البياض على الحدقة الذى يكون الرجل أعور به •

وأخرج أحمد عن أنس : أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهرا ، وكان يهدى النبى الهدية من البادية فيجهزه النبى اذا أراد أن يخرج • فقال رسول الله : ان زاهرا باديتنا ونحن حاضروه وكان رسول الله

يخيه وكان رجلا دميما • فأتاه رسول الله وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرجل فقال : أرسلنى من هذا ؟ فالتفت فعرف النبى فجعل لا يألوا ما ألصق ظهره بصدر النبى حين عرفه وجعل رسول الله يقول : من يشتري العبد ؟ فقال : يا رسول الله اذن والله تجدنى كاسدا فقال رسول الله : لكن عند الله لست بكاسد • أو قال : لكن عند الله غال • رواته ثقات فأنت ترى من سياق الحديث أنه عنى بالعبد عبد الله وكلنا عبد الله •

وأخرج الترمذى فى الشمائل عن الحسن قال : أتت عجوز النبى فقالت : يا رسول الله ادع الله أن يدخلنى الجنة فقال : يا أم فلان ان الجنة لا تدخلها عجوز فولت تبكى فقال : أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز ان الله تعالى يقول : « انا أنشاناهن انشاء • فجعلناهن أبكارا » (الواقعة : ٣٥ ، ٣٦) •

وأخرج الترمذى فى الشمائل عن أنس قال : قال لى رسول الله يا ذا الأذنين • قال أبو أسامة يعنى يمازحه • وكل انسان له أذنان فأنت ترى من هذه الأمثلة أنه داعب ومازح دون أن يخرج عن الحق والصدق ولكنه استعمل هذا الصدق استعمالا لطيفا ، على غير المتعارف • ففهم المخاطب فهما كانت فيه نكتة وهكذا كانت مداعباته كلها حقا •

أخرج الترمذى عن أبى هريرة قال : قالوا : يا رسول الله انك تداعبنا • قال : انى لا أقول الا حقا • انها نبوة صدق وما كان للنبوة أن يكون للباطل عندها أو معها نصيب •

٢ — نماذج من صدقه فى وعوده وعهوده :

أخرج أبو داود عن عبد الله بن أبى الخنساء قال : « بايعت النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعدته أن آتية بها فى مكانه ذلك • فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه فقال يا فتى لقد شققت على ، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك » • وأخرج ابن حبان والحاكم : « كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس فقال : ان لى عندك موعدا يا رسول الله • قال : صدقت فاحتكم ما شئت • قال : احتكم ثمانين ضائنة وراعيها • قال : هى لك وقال : احتكمت يسيرا • » •

وأخرج الحاكم عن حويطب بن عبد العزى فى قضية اسلامه وكيف أنه عندما دان مشركا تولى مطالبة الرسول صلى الله عليه وسلم بالجلء عن مكة فى عمرة القضاء بعد انتضاء مدة الثلاثه أيام المتفق عليها يقول حويطب : « ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرة القضاء وخرجت قريش من مكة كنت فيمن تخلف بمكة أنا وسهيل بن عمرو لأن نخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مضى الوقت ، فلما انقضت الثلاثة أقبلت أنا وسهيل بن عمرو فقلنا : قد مضى شرطك فاخرج من بلدنا فصاح : يا بلال لا تغب الشمس وواحد من المسلمين بمكة ممن قدم معنا » ..

وهذه فقرات من كتاب « بطل الأبطال » يحلل فيها صاحبه بعض مواقف الوفاء بالعهد والوعد التى وقفها رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قبل سنة من هذه الحديبية كانت قريش تحاصر المدينة وقد جمعت لذلك الأحزاب من أهل القرى والأعراب فنقض بنو قريظة عهدهم مع رسول الله . واشتد بذلك الكرب وزلزل المؤمنون زلزالا شديدا ، ولكن الله نصر عبده ، وأعزه وألقى الرعب فى قلوب المشركين ، ولم تمض الا فترة وجيزة حتى كان جيش الاسلام بقيادة رسول الله يزحف الى مكة ، فنزل الحديبية وبعثت قريش رسلا الى محمد صلى الله عليه وسلم . وهاهو ذا عروة بن مسعود الثقفى رسولها يعود اليها يصف حال محمد وجنده بهذه العبارة :

« انى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وانى والله ما رأيت ملكا فى قومه قط مثل محمد فى أصحابه » . كان محمد فى منعة وقوة ولكنه كان يعلن أنه لا يريد الحرب ، ويقول : لا تدعونى قريش اليوم الى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم الا أعطيتهم اياها . فلما جاءه سهيل بن عمرو مفوضا من قريش لعقد الهدنة يرجع بها محمد وجيشه عن دخول مكة ، كان من شروط هذه الهدنة شرط ظاهر انغبين وهو أن محمدا يسلم الى قريش من لجأ اليه من المسلمين بغير اذن وليه ولا يطلب تسليم من لجأ الى قريش من أتباعه .

ذلك الشرط أهاج أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حتى أن عمر رضى الله عنه كان يذهب تارة الى أبى بكر وتارة أخرى الى الرسول ويقول : ألسنا المسلمين ! أليسوا المشركين ! ألسنت رسول الله ! .. فعلام نعطى الدنيا فى ديننا ؟ فيقول الرسول : أنا عبد الله ورسوله لن

أخالف أمره ولن يضيعني ويقول أبو بكر : أشهد أنه رسول الله • فقبول المسلمين هذا الشرط هو استسلام منهم لأمر لم يدركوا سره وكان ذلك أعظم بلاء وامتحان نصبرهم وبينما هم على هذه المضاضة وقد فرغ انرسول من الجدل مع مفوض قريش سهيل بن عمرو ولم يكتب العقد يوم يمض جاءهم أبو جندل مستصرخا يرسف في قيوده وأبو جندل هذا هو ابن سهيل بن عمرو نفسه فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه وقال : يا محمد لقد لجت القضية بيتي وبينك — أي فرغنا من المناقشة — قبل أن يأتيك هذا • قال محمد : صدقت • وأبو جندل ينادي : يا معشر المسلمين ! أأرد إلى المشركين يفتتونني في ديني ؟ تصوروا ذلكم المقام • مقام محمد وهو الشجاع الذي حدثكم عن شجاعته المنقضة النظير وهو القوى الذي خرج من المدينة زاحفا بجيش • سمعتم الآن وصف عروة بن مسعود له تصوره وهو يرى أقرب أصحابه (في حالة تذمر) ثم تصوروا لاجئا يرسف في القيود وهو من أبناء الأعرزة في قريش يرسف فيها (اتباعا) لمحمد ودين محمد ثم انظروا إليه لا يحتال ولا يتردد ولما يكتب ولما يمض يقول لسهيل صدقت لقد لجت القضية ويرد صاحبه باكيا إلى أعدائه تصوروا كل ذلك ثم ليكتب إلى من يشاء بمثل واحد في تاريخ البشر كله كهذا المثل يخبره محمد في رعاية الكلمة التي قالها ولما تكتب ولما تمض » •

ويقول صاحب الكتاب ذاكرا مثلاً آخر :

ثم انظروا إلى وفائه للمشركين أيضا : كان بين شروط هدنة الحديبية أن من شاء دخل في عقد محمد وعهده • ومن شاء دخل في عقد قريش وعهدها • فدخلت خزاعة على شركها في عهد محمد فلما نقضت قريش عهدها معه ونصرت حليفها بكرا عليها • ذهب عمرو بن سائب الخزاعي يطالب (رسول الله) بالعهده ويطلب (منه) نصر حلفائه فوقف على رسول الله وهو في المسجد ينشده ويقول :

يارب انى ناشد محمدا جلف أبينا وأبيه الأتدا
فانصر هداك الله نصرا اعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا
في فيلق كالبحر يجرى مزبدا ان قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا

فكان ذلك الاعتداء على المشركين من حلفاء المسلمين سببا (في تجهيز

أضخم جيش عرفته الجزيرة والسير لنصرة الحليف وكان من آثار ذلك فتح مكة كما هو معروف) هذه أمثلة سقناها من وفاء (رسول الله) لأعداء الملة وقد عاهدهم .. أو قبل محالفتهم على غيرهم » .
هذه نماذج من صدقه في وعده وعهده وسواها كثير فما حدث أن وعد رسول الله أو عاهد فأخلف أو غدر . روى البخارى أن هرقل لما سأل أبا سفيان عن محمد هل يغدر أجاب أبو سفيان : لا — فقال هرقل بعد ذلك : وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر وكذلك الرسل لا تغدر » .

ان الغدر نوع من أنواع الكذب والخلف بالوعد كذب . والرسول عليه السلام منزّه عن ذلك ، ومن النماذج القليلة التي ذكرناها ، ترى أنه ما أحد من البشر غير الرسل وصل الى ما وصل اليه الرسول في انوفاء ، لشرف الكلمة ، الا اذا كان تلميذا من تلامذته ، يقتدى به . لقد كانت كلمة الرسول هي الضمان الذي ما بعده ضمان ، حتى أن ألد خصومه وأغرقهم في عداوته كان لا يتردد اذا تأكد أن محمداً أمناً أن يثق بنفسه في أحضان المسلمين ، ثقة منه أن كلمة محمد ضمان لا يعدله ضمان . ومن تتبع حوادث السيرة وجد الأمثلة الكثيرة على هذا ، انها صفة الصدق عند الأنبياء لا تتخلف .

٢ — نماذج من حديثه الذي صدقته علوم عصرنا من غير النبوءات :

(١) قال عليه السلام في الحديث الصحيح : « اذا وقع الذباب في أناء أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فان في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء » ..

ان هذا الحديث ذكر قضيتين كلتاها لم تكن معروفة قديما ، أولاها أن الذباب ناقل داء وهذا شيء أصبح الآن معروفا لدى الجميع أن الذباب ناقل جراثيم ممتاز . والثانية وهي التي يجهلها الكثير أن الذباب يحمل مضادات للجراثيم من النوع الممتاز كذلك وهذا تحقيق كتبه الدكتور عز الدين جواله حول الموضوع ننقل منه ما يلزمنا هنا يقول :

« قبل الخوض في هذا الموضوع لنتذكر ما يلي :

١ — من المعروف منذ القديم أن بعض المؤذيات يكون في سمها نفع ودواء ، فقد يجتمع الضدان في حيوان واحد فالعقرب في أبرتها سم سام ، وقد يداوى سمها بجزء منها وفي ذلك يقول العلماء « وقد وجدنا

تكون أحد جناحي الذباب داء والآخر شفاء ودواء فيما أقامه الله من عجائب خلقه وبدائع فطرته شواهد ونظائر ، منها النحلة يخرج من بطنها شراب نافع ويكمن في برتها السم النافع ، والعقرب تهيج الداء بابرتها ويتداوى من ذلك بجرمها » .

٢ — وفي الطب يحضر لقاح من ذيبب الأفاعى والحشرات السامة يحقن به لديغ العقرب أو لديغ الأفعى . بل وينفع في تخفيف آلام السرطان أيضا .

٣ — ان الطب الحديث استخرج من مواد مستقذرة أدوية حيوية قلبت فن المعالجة رأسا على عقب فالبنسلين استخرج من العفن والاستربتومايسين من تراب المقابر . الخ أو بمعنى أدق من طفيليات العفن وجراثيم تراب المقابر . أما والحالة كذلك ، فهل يمتنع عقلا ونظريا أن يكون في الذباب هذه الحشرة القذرة ، والتي تنقل القذر طفيلي أو جرثوم يخرج أو يحمل دواء يقتل هذا الداء الذي تحمله .

٤ — من المعروف في فن الجراثيم أن للجرثوم ذيفان (مادة منفصلة عن الجرثوم) وأن هذا الذيفان اذا دخل بدن الحيوان كون البدن أجساما ضد هذا الذيفان ، لها قدرة على تخريب الذيفان والتهام الجراثيم تسمى بمبيدات الجراثيم .

فهل يستبعد القول بأن الذباب تلتهم الجراثيم فيما تلتهم ، فيكون في جسم الذباب الأجسام الضدية المبيدة للجراثيم والتي مر ذكرها : ولها القدرة على الفتك بالجراثيم الممرضة التي ينقلها الذباب الى الطعام أو الشراب . فاذا وقعت في الطعام فما علينا الا أن نغصس الذبابة فيه فتخرج تلك الأجسام الضدية فتبيد الجراثيم التي تنقلها وتقضى على الأمراض التي تحمّلها » .

وبعد كلام الدكتور عز الدين يستمر فينقل تحقيقا للطبيين المصريين محمود كمال ومحمد عبد المنعم حسنين في اثبات ما في الحديث ننقل بعضا منه ، يقولان :
« ما تقوله المراجع العلمية :

في عام ١٨٧١ وجد الأستاذ الألماني « بريفلد » من جامعة هال بألمانيا أن الذبابة المنزلية مصابة بطفيلي من جنس الفطريات سماه « امبوزاموسكى » وهو طفيلي يعيش الذبابة على الدوام وبالتدقيق

فيه وجده من نوع من الفطور التي تسمى « انتوموفترالى » تنتمى الى أهم فصيلة فى الفطور الأشنية وهى المسماة بالفطور الأشنية المرتبطة أو المتحدة ، وهو من النوع الثانى للفطر المسمى الفطور الأشنية الطفيلية وهذا طفيلي يقضى حياته فى الطبقة الدهنية الموجودة داخل بطن الذبابة بشكل خلايا مستديرة فيها خميرة خاصة سيأتى ذكرها . ثم لا تلبث هذه الخلايا المستديرة أن تستطيل فتخرج من الفتحات أو من بين مفاصل حلقات بطن الذبابة فتصبح خارج جسم الذبابة .

ودور الخروج هذا يمثل الدور التناسلى لهذا الفطر ، وفى هذا الدور تتجمع بذور الفطر داخل الخلية ، فيزداد الضغط الداخلى للخلية من جراء ذلك ، حتى اذا وصل الضغط الى قوة معينة لا تحتملها جدر الخلية انفجرت الخلية وأطلقت البذور الى خارجها بقوة دفع شديدة ، تدفع البذور الى مسافة ٢ سم خارج الخلية ، على هيئة رشاش مصحوبا بالسائل الخلوى . وعلى هذا اذا أمعنا النظر فى ذبابة ميتة ومتركة على الزجاج نشاهد :

(أ) مجالا من بذر هذا الفطر حول الذبابة المذكورة .

(ب) ويشاهد حول القسم الثالث والآخر من الذبابة على بطنها وعلى ظهرها وجود الخلايا المتفجرة . والتي خرجت منها البذور وقد برز منها رؤوس الخلايا المستطيلة التى مر ذكرها . وقد جاءت مكتشفات العلماء الحديثة مؤيدة ما ذهب اليه « بريفلد » ومبينة خصائص عجيبة لهذا الفطر الذى يعيش فى بطن الذبابة منها :

١ - فى عام ١٩٤٥ أعلن أكبر أستاذ فى علم الفطريات وهو « لانجيرون » أن هذا الفطر الذى يعيش دوما فى بطن الذبابة على شكل خلايا مستديرة فيها خميرة خاصة « أنزيم » قوية تحلل وتذيب من أجزاء الحشرة الحاملة للمرض .

٢ - فى عام ١٩٤٧ - ١٩٥٠ تمكن العالمان الانجليزيان « آرنشتين وكوك » والعالم السويسرى « روليوس » من عزل مادة سموها « جافاسين » استخرجوها من فصيلة الفطور التى تعيش فى الذباب وتبين لهم أن هذه المادة مضادة للحياة تقتل جراثيم مختلفة من بينها جراثيم غرام السالبة والموجبة والديزونتاريا والتيفوئيد .

٣ - وفى عام ١٩٤٨ تمكن « بريان وكورتيسر وهمنغ وجيفرس » من بريطانيا من عزل مادة مضادة للحياة أسموها

« كلوتيزين » وقد عزلوها عن فطريات تنتمي الى نفس فصيلة الفطريات التي تعيش في الذباب وتؤثر في جراثيم غرام السالبة كالتيفوئيد والديزونتاريا .

٤ — وفي عام ١٩٤٩ تمكن عالمان انجليزيان هما « كومسي وفارمر » وعلماء آخرون من سويسرا هم « جرمان وروث واثلنجر وبلاوتر » من عزل مادة مضادة للحياة أيضا أسموها « انياتين » عزلوها من فطر ينتمي الى فصيلة الفطر الذي يعيش في الذباب ووجدوا لها فعالية شديدة جدا ، وتؤثر بقوة على جراثيم غرام موجب وسالب وعلى بعض فطريات أخرى كالزحار والتيفوئيد والكوليرا .

٥ — وفي عام ١٩٤٧ عزل « موفيتش » مواد مضادة للحياة من مزرعة للفطريات الموجودة على نفس جسم الذبابة : فوجدها ذات مفعول قوى على الجراثيم السالبة لصيغة غرام ، كالزحار والتيفوئيد وما يشابهها ووجدتها ذات مفعول قوى على الجراثيم المسببة لأمراض الحميات ذات الحضانة القصيرة المدة . وان جرما واحدا من هذه المادة يمكنه أن يحفظ أكثر من ١٠٠٠ لتر من اللبن المتلوث بالجراثيم المذكورة .
والخلاصة . . يستدل من كل ما سبق أنه :

١ — يقع الذباب على الفضلات والمواد القذرة والبراز وما شابه ذلك ، فيحمل بأرجله أو يمج كثيرا من الجراثيم المرضية الخطرة .
٢ — يقع الذباب على الأكل فيلمس بأرجله الملوثة الحاملة للمرض هذا الطعام ، أو هذا الشراب ، فيلوئه بما يحمل من سم ناقع ، أو يتبرز عليه فيخرج مع ونيهما تلك الجراثيم الدقيقة الممرضة .

٣ — فإذا حملت الذبابة من الطعام . وألقيت خارجه دون غمس ، بقيت هذه الجراثيم في مكان سقوط الذبابة ، فإذا التهمها الأكل وهو لا يعلم طبعا . دخلت فيه الجراثيم ، فإذا وجدت أسبابا مساعدة : تكاثرت ثم صالت وأحدثت لديه المرض . فلا يشعر الا وهو فريسة للحمى طريحا للفراش .

٤ — أما إذا غمست الذبابة كلها ، أو مقلت في الطعام فماذا يحدث ؟ إذا غمست الذبابة أحدثت هذه الحركة ضغطا داخل الخلية الفطرية الموجودة مع جسم الذبابة فزاد توتر البروز والسائل داخلها زيادة تؤدي لانفجار الخلايا ، وخروج الانزيمات الحالة لجراثيم المرض والقاتلة (٢ - الرسول)

له • فتقع على الجراثيم التي تنقلها الذبابة بأرجلها فتهلكها وتبيدها ،
ويمصبغ الطعام طاهرا من الجراثيم المرضية •

• — وهكذا يضع العلماء بأبحاثهم تفسيراً للحديث النبوي المؤكد
لضرورة غمس الذبابة كلها في السائل أو الغذاء ليخرج من بطنها الدواء
الذي يكافح ما تحمله من داء •

ويستنتج من ذلك أن العلم الحديث قد حقق ما أخبر عنه صلى الله
عليه وسلم •

فقد أثبت العلم الحديث أن الذباب ينقل الجراثيم والأقذار بأرجله
من النفايات والكتف والمزابل الى الأطعمة والأشربة ، وإلى فتحات
أنوفه والتنفس فيسبب الأمراض المعدية من تيفوئيد وسل وكوليرا
وغيرها ، وهذا ما أخبر عنه المصطفى صلى الله عليه وسلم من أن بأحد
جناحي الذبابة داء •

والداء يجب الوقاية منه والبعد عنه ، ولا يكون ذلك إلا بمكافحة
الذباب وابتاده والاحتباس منه •

ويقرر العلم الحديث أيضا كما رأينا أن في الذباب طفيليا له ذيفان
يسد الجراثيم ، ويفتك بها بشدة وأن هذا الذيفان لا ينفصل عن جرثومه
إلا بعد وصول توتره الى درجة معينة ، يكفى لبلوغه الضغط عليه بغمسه
ولو في الشراب أو الطعام • وهذا ما ورد في الحديث عنه صلى الله
عليه وسلم ، « وما ينطق عن الهوى • إن هو إلا وحى يوحى »
(النجم : ٣ ، ٤) •



(ب) عن عائشة أن فاطمة بنت أبي حبيش سألت النبي صلى الله
عليه وسلم فقالت : انى أستحاض فلا أظهر أفأدع الصلاة ؟ فقال :
« لا •• ان ذلك دم عرق ، ولكن دعى الصلاة قدر الأيام التي كنت
تحيضين فيها ثم اغتسلى وصلى » •

المسألة هنا كما يلي : للمرأة عادة شهرية يخرج فيها الدم من
رحمها كأثر من آثار عدم تلقيح بويضة الأنثى بماء الذكر والدم الذي
يخرج منها في هذه الحالة يسمى دم حيض وهذه المرأة يخرج منها الدم
دائما وكانت تتصور أن هذا الدم كله دم حيض ولكن الرسول أفهمها أن
هذا الدم ليس دم حيض ولكنه نزيف عرق •

فماذا يقول العلماء المختصون المعاصرون الآن في هذه الناحية ؟

يقولون : ان الدم الوحيد الذى يخرج من الرحم هو دم الحيض والنفاس أما الدم الآخر الذى يكون في غير هذا فمرجه الى نزيف يحدث في بعض الأغشية مما لا علاقة له بالرحم ، ودم الحيض الذى يخرج منه ، فهل كان حديث أهل الاختصاص في عصرنا الا مصدقا لما قائله عليه السلام من عصور لم يكن هذا فيها معروفا ؟

* * *

(ج) روى مسلم عن طارق الجعفى أنه سأل النبی عن الخمر فنہاہ عنه فقال : انما أصنعها للدواء فقال : « انه ليس بدواء ولكنه داء » .
ان هذا الحديث يذكر أن الخمر من أسباب المرض وليست من أسباب الشفاء . فماذا يقول الأطباء في عصرنا ؟ ننقل للجواب على هذا ما ذكره صاحب كتاب « روح الدين الاسلامي » في هذا الموضوع وقد نقل هو قسما من بحثه عن كتاب « الاسلام والطب الحديث » يقول :
« الخمر أساسها مادة الكحول بكميات مختلفة ، وهذه المادة توجد بنسبه خفيفة جدا في جسم الانسان في عملية هضم المواد السكرية .. ولها فوائد طيبا ولكن يظهر أن هذه الفوائد قاصرة على هذا القدر البسيط جدا (وطبعا الحديث لم يذكر أن ما يجرى داخل الجسم من عملية التخمير فيه ضرر ولكن الكلام فيما نخمره ثم نشربه) فان زاد عن ذلك أحدث ضررا خصوصا اذا كان التعاطى لمدة طويلة ، فانه يحدث التهابا مزمنيا في الأعصاب وفي الكلى ، وتصلبا في الشرايين وتحجرا في الكبد ، وضعفا في القلب ورب سائل يقول : لم لا يؤخذ منه مقدار بسيط ؟ (وطبعا لا يسأل هذا السؤال الا انسان يجهل أن الجسم متى اعتاد على الكحول ، طلبه وغلب الانسان ، فلم يعد يستطيع الصبر عنه) والجواب أن الكحول يختلف عن أغلب المواد في أنه حتى بالمقادير البسيطة يحدث ضعفا في قوة الارادة والحكم ، وترداد به الانفعالات النفسانية ، وهذا هو الخطر ، لأن الشخص يصبح شخصا آخر ، وارادته تصبح غير ارادته الطبيعية ، ومع علمه بضرر الزيادة في حالته الاعتيادية لا يقوى على منع نفسه ، وهو تحت تأثير البسيط منه وقد يحدث الشيء البسيط منه حركة انتعاش ولكن ضعف الارادة المتولدة منه يجعل الشخص عبدا لعادة شرب الخمر .

وان تأثير الخمر يبدأ بمجرد وصول عشرة جرامات من الكحول الى ادم للشخص البالغ ، وهذا القدر يوجد في كأس واحدة من الويسكي أو الكونياك ، وقد لا يصل الشخص الى درجة السكر ، ولكن على كل حال له أثر ملموس في حالة الشخص الجسمية والعقلية ، واذا فحص الشخص في هذه الحالة ، نجد أن درجة ادراكه وتقديره قد تغيرت فعلا ، فهو مثلا اذا كتب على الآلة الكاتبة ، زادت أخطاؤه عن المعتاد ، واذا قاد سيارة لم يتبع بالضبط قوانين المرور • وقد ثبت من الاحصائيات أن أكثر من ١٣ في المائة من حوادث المرور سببها الخمر •

والجرعة الواحدة من الخمر تحدث شيئا من الارتفاع في ضغط الدم ، وهذا الارتفاع وحده قد لا يكون له ضرر كبير ولكن الضرر يتضاعف اذا كان الشخص مرتفع الضغط من نفسه ، ثم اذا كانت كمية الخمر وافرة كانت كافية لأن تحدث هيجانا يزيد في الضغط لدرجة ينفجر معها شريان في المخ ، يسبب شللا قد ينجو منه الشخص جزئيا أو لا ينجو كلية ، اذ من المعلوم أن الشخص الذي ضغطه الدموى مرتفع يجب أن يلتزم الهدوء في حياته ، لأن أى هيجان يزيد في ارتفاع الضغط يعرضه لانتفجار شريانى ، والسكران لا يمكنه أن يضبط عواطفه ، وبالتالي لا يمكنه أن يضمن لنفسه هذا الهدوء •

والخمر تحدث عند غير المعتود عليها احتقانا في المعدة ، قد يسبب غنيانا أو قيئا ، واذا كانت الجرعة كبيرة سببت التهابا في المعدة وعسر هضم يمتد الى بضعة أيام •

ويرى بعض الأطباء أن الخمر ولو كانت قليلة جدا ، فهي ضارة بالخميرات في طول القناة الهضمية • وهذه الخميرات ضرورية لسير حركة الهضم سيرا طبيعيا • والخمر لها تأثير في الوراثة • فقد شوهد أن أولاد السكرين ينشأون غير صحيحي الجسم ، ضعفاء البنية ناقصي العقول ، ويكون لديهم ميل الى الاجرام ودافع الى الشر • وأن من يبحث في كتب الطب يتولاه العجب عندما يقرأ مسببات الأمراض المختلفة • اذ يجد للخمر نصيب الأسد في ذلك •

لقد أصبحت فكرة التداوى بالخمر محض خرافة وتؤكد كونها داء بعشرات الطرق ، وأقل ما فيها ما ذكره « بتنام » في كتابه أصول الشرائع : النبيذ في الأقاليم الشمالية يجعل الانسان كالأبله وفي الأقاليم الجنوبية يصير كالمجنون •

ولعله وضح بعد هذا كيف أن كلمة الرسول لا ينقصها شيء لأنها محض الحق والصدق الذي لا تزيده الأيام الا تثبيتا وتأكيدا •

(د) عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان لكل داء دواء فاذا أصيب دواء الداء برأ باذن الله » رواه مسلم ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أنزل الله من داء الا أنزل له دواء » رواه البخاري • وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله تعالى أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء فتداووا ولا تتداووا بحرام » أخرجه أبو داود • هذه الأحاديث تلح على أن لكل داء دواء فماذا قال الواقع ؟

لقد قال الواقع ولا يزال يقول كل يوم أن ذلك حق لا مرية فيه ، خفى كل يوم يكشف أهل الاختصاص دواء لداء لم يكن له دواء معروف • ولعلك تلاحظ أن العلماء مقبلون على محاولة اكتشاف دواء كل داء بروح الوثائق أنه لا بد أن يكون لكل داء دواء وان جهلوه الآن ، ولكن لا بد واجدوه • فأخذت هذه القضية مأخذ البيهية في أذهانهم ، وفي ذلك كله تجد كيف أن كلمة رسول الله لا تنتقص بل هي الصدق كل الصدق •

(هـ) مما قرره علماء الظواهر الطبيعية في عصرنا أن ما ينزل سنويا من الأمطار في العالم لا يتغير مقداره بتاتا ، فلا يزيد ولا ينقص ولو بقدرارا بسيطا ، وعللوا ذلك بأن ما تقدمه الشمس من الحرارة نسبته ثابتة • والعوامل الأخرى التي تشارك في وجود ظاهرة المطر تبقى ثابتة بالنسبة لمجموع الكرة الأرضية • فعلى هذا تكون نسبة بخار الماء في الجو سنويا ثابتة ونسبة الأمطار بالتالي لا تتغير بتاتا في كل عام ، وأما ما نراه من كون المطر ينزل في منطقة واحدة بنسب مختلفة خلال سنين ، فهذا لا يؤثر على جوهر القضية : لأنه ينقص في مكان على حساب زيادته في مكان آخر ، فالنسبة بالنسبة للعالم كله واحدة وان اختلفت بالنسبة لكل منطقة على حدة •

وانظر بعد هذا الذي قدمناه الى هذا الأثر تجد أن علماء عصرنا ما زادوا على أن أكدوا مضمونه ليكون جزءا من شهادة الواقع على صدق لرسول عليه السلام والأثر هو : « ما عام بأمطر من عام » •

(و) روى أبو داوود والترمذى عن ابن عباس حديث دخوله وخالد ابن الوليد مع رسول الله على ميمونة • ومن الحديث قال : قال صلى الله عليه وسلم : « من أطعمه الله طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه ، ومن سقاه الله لبنا فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فانه ليس شيء يجزىء من الطعام والشراب الا اللبن » •
ان هذه الحقيقة التى أشار اليها الحديث وهى كون الحليب هو الغذاء الكامل وأى غذاء آخر يبقى فيه نقص كغذاء منفرد ، أصبحت الآن تجدها فى أى كتاب عن علم التغذية يصدر الآن ، وذلك بعد أن تقدمت وسائل التحليل والتجريب ، وتقدمت الانسان دالة له اعلى ما ينفع ويضر ، فان النتيجة التى أوصلت اليها انسان عصرنا فى هذا الموضوع كانت متناسقة تماما مع ما أشار اليه الرسول فى الحديث بشكل واضح ، وهذه الحقيقة على بساطتها تدل كيف أن الكلمة النبوية كلها حق وصديق لا يزيدها مرور الأيام الا ثباتا •

* * *

(ز) نشر الدكتور « جراد فنتسر » فى مجلة كوسموس الألمانية مقالا تحت عنوان : الأخطار التى تنشأ عن اقتناء الكلاب والاقتراب منها • جاء فيه :

« ان ازدياد شغف الناس بالكلاب فى هذا العهد الأخير ، يضطرننا الى لفت الأنظار للأخطار التى تتجم عن ذلك وخاصة اذا دفع اقتنائوها الى مداعبتها وتقبييلها ، والسماح لها بلحس الأيدي وتركها تلتق فضلات انطعام من أوانيها ، فكل ما ذكر مع نبوه عن الذوق السليم ، ومنافاته للآداب ، لا يتفق وقوانين الصحة فان الأخطار التى تهدد صحة الانسان وحياته بسبب هذا التسامح لا يستهان بها ، فان الكلاب تصاب بدودة شريطية تتعدها الى الانسان وتصيبه بأمراض عضالة قد تصل الى حد انعوان على حياته » •

وقد ثبت أن جميع أجناس الكلاب حتى أصغرها حجما لا تسلم من الاصابة بهذه الديدان الشريطية •

وقد روى فى اقليم فريزلاند بهولندة حيث تستخدم الكلاب فى الجر ، أن فى كل مائة منها ١٢ اصابة • ووجد فى اسلانده شخص مصاب بهذه الآفة فى كل ٤٣ شخصا من أهاليها • وشوهد أن هذه النسبة تزيد فى أستراليا اذ ثبت وجود شخص فى كل ٣٩ شخصا من سكانها مصابا

بها • وثبت كذلك أنها كانت سببا مباشرا للكثير من الأمراض في الأقطار الأخرى •

ثم يقول : ومما تجب على الناس مراعاته عدم مداعبة الكلاب ، وتعويد الأطفال التوقي منها • فلا تترك تعلق أيديهم ولا يجوز ابقاء الكلاب بمحال نزهة الأطفال ، وميادين رياضتهم ، ويجب أن لا تطعم الكلاب في الأواني المعدة لأكل الناس وأن لا يسمح لها بدخول متاجر المأكولات والأسواق العامة أو المطاعم • وعلى وجه عام يجب إبعادها عن كل ما له صلة بمأكل الانسان ومشربه •

وان من كشوفات عصرنا استخراج كثير من مبيدات الجراثيم من التراب وخاصة تراب المقابر ، لأنه أكثر من غيره تلوثا ، فمثلا انستربتومايسين والتتراسكلين والنيوماسين ، وكلها من مبيدات الجراثيم استفيد من التراب في استخراجها لوجود ذيفان في جراثيمه يقضى على أنواع من الجراثيم الأخرى •

ضع ما مر كله في ذهنك واقرا هذا الحديث :

روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله قال : « طهور اناء أحدكم اذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولا هن بالتراب » • انك ترى أن كشوفات عصرنا قد برهنت على صدق ما دلنا عليه الحديث •



٤ — وأخيرا : فانه ما من كلمة قالها رسول الله الا وكان الحق والصدق ملأها • ولكن كلام رسول الله ينقسم الى قسمين :

١ — ما له علاقة بالغيب •

٢ — ما له علاقة بالمشهود المحسوس •

فالنوع الثانى فقط هو الذى يستطيع الانسان أن يختبره فاذا ما ثبت صدقه فيه كان ذلك آية صدقه على الأول مع جعل الله علامات أخرى تكون دليل صدقه فى أمر الغيب ، هى المعجزات والنبوءات • فرسول ثبت صدقه فى كل شىء مع هذه المؤيدات فلا يبقى مجال أمام الانسان إلا التسليم له •

ونحب أن نذكر هنا بعض الملاحظات المهمة بمناسبة كلامنا عن صفة انصدق عنده عليه السلام :

الملاحظة الأولى : ان معرفة صحة الحديث ، وتأكد ثبوته عن رسول

الله • ينبغي أن يسبق دراسة المضمون • لأن كثيرا من الكلام دس عليه وقد قام العلماء بتمحيص الصحيح من كل ما روى عنه عليه السلام كما سيمر معنا في كتابنا « جند الله ثقافة وأخلاقا » فلا بد من الرجوع الى ما أثبتوه أولا ، ليكون تحليل المضمون قائما على أساس سليم ، وينبغي أن يتوفر هذا في كل دراسة لها علاقة برسول الله •

الملاحظة الثانية : ان بعض الألفاظ في اللغة العربية نقلت من مدلولاتها اللغوية الى مدلولات شرعية ، فصارت تطلق على كلا المدلولين ، وقد تستعمل في القرآن وفي حديث الرسول تارة بالاستعمال الأول ، وتارة بالاستعمال الجديد فلا بد لدارس النص من أن يتأكد أولا من نوعية استعمال اللفظ في النص الخاص الذي يدرسه • فمثلا كلمة « السماء » ذكرت أحيانا في القرآن للدلالة على المعنى اللغوي وهو كل ما علا • وذكرت أحيانا للدلالة على السماء التي هي سكن الملائكة وفيها ما فيها من عالم الغيب فلا بد لدارس نص فيه مثل هذا أن يعرف بواسطة القرائن أولا المقصود الحقيقي من اللفظ في هذا المحل • وقد أخطأ كثيرون بفهم النصوص نتيجة لعدم وضوح هذا عندهم ، فعرضوا قضايا على أنها حقائق وهي ليست كذلك ، وأنكروا قضايا هي من باب الحقائق ، وهم في كلا الحالين متوهمون ، وجعلوا توهمهم من الاسلام ، فحملوا الاسلام ما ليس منه جهلا •

الملاحظة الثالثة : ان بعض الأمور تكون نتيجة لعوامل كثيرة ، كل عامل من هذه العوامل يكون سببا من عدة أسباب مؤثرة فيه ، وفي هذه الحال • لو ذكر انسان سببا فقط ولم يذكر الآخر لا يعنى هذا أنه ينفي البقية • فمثلا قد يكون الكسل نتيجة لاجتماع الحر والتعب والضجر والعادة والملل ، وقد تجتمع هذه الأسباب كلها عند انسان ، فلو قُت لهذا الانسان : الحر جعلك تكسل لا يعنى هذا أنني أنفي الأسباب الأخرى لكسله ، وهناك كثير من القضايا ربطها الله بأسباب حسية وأسباب غيبية كالموت مثلا • فان له سببا حسيا هو المرض وآخر غيبيا هو قبض الروح من قبل الملك الموكل بذلك ، وأمر كثيرة من هذا النوع ، والقرآن والحديث قد يتحدثان في موقف عن السبب الحسي لقضية ، وقد يتحدثان في موقف آخر عن السبب الغيبي لها ولا يعنى أن ذكر أحدهما في موطن نفى الثاني •

ومن هنا نجد أن كثيرين من الناس يتوهمون في فهم بعض النصوص ، فتراهم اذا قرأوا نصا يتحدث عن السبب الغيبي فقط لقضية لها سبب حسي كذلك ، انهم ينفون السبب الحسي أو العكس في القضايا المقابلة ، وذلك جهل عظيم يقابله جهل الذين يثبتون السبب الحسي فقط ، ولا يثبتون معه السبب الغيبي الذي أخبرنا به الرسول الصادق . ان القوارع والجوائح والمصائب التي تصيب بنى البشر لها أسبابها العادية ، ولا يتنافى هذا مع كونها بقدره الله واراדתه انتقاما من الناس بما صنعوا وتذكيرا لهم حتى يرجعوا ، قال تعالى : « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم » (الرعد : ٣١) .

الملاحظة الرابعة : تمتلئ كتب التصوف الاسلامي بالحديث عن انكشاف بعض عوالم الغيب للناس من الصوفيين ويقولون : ان أى انسان يفعل ما يفعلون يصل الى مثل الذى يصلون اليه من مثل هذه المشاهدات التي تزيد في يقين الانسان ، ويلاحظ أن من الذين يقولون مثل هذا الكلام ناسا مجمعا على توثيقهم وصدقهم . وهذا لا شك من جملة المؤكدات لصدق رسالة الرسول . ولكننا نحب هنا أن نذكر بعض النضوابط لنعرف حدود ما يمكننا قبوله من هذا الكلام فنقول :

١ — ان امكانية رؤية بعض عوالم الغيب ضمن شروط معينة جائزة .
أشار اليها الرسول صلى الله عليه وسلم ووقعت لبعض الصحابة ، فقد روى أحمد قول رسول الله لأصحابه وهو يسمع عذاب القبر : « نولا فمرغ قلوبكم وتزيدكم في الحديث لسمعتهم ما أسمع » . وقد روى مسلم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وحنظلة : « والذي نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة وساعة وساعة وساعة وساعة » . وأخرج البخاري عن أسيد بن حضير قال : بينما هو بقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده اذ جالت الفرس فسكت فسكنت الفرس ثم قرأ فجالت وكان ابنه يحيى قريبا منها فانصرف فأخذه ثم رفع رأسه الى السماء فاذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم فقال : وتدرى ما ذلك ؟ قال : لا . قال : « تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر اليها الناس ، لا تتواري منهم » . وأخرج الشيخان والترمذي عن البراء قال : كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوطة بشطنتين فتغشته سحابة

فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال : « تلك السكينة تنزلت للقرآن » .
٢ — لكننا لا نستطيع قبول كلام يدعى صاحبه أنه رأى من مثل هذا
لا بشروط منها :

(أ) أن يكون ممن تقبل شهادته فالفاسق والمبتدع والضال جميع هؤلاء لا تقبل شهادتهم وكلامهم في مثل هذه القضايا .

(ب) وأن يكون هذا الاطلاع كأثر من آثار التزامه بشريعة الله ، وسنة رسول الله . فلا نقبل كلام انسان ادعى أنه شاهد من مثل هذا باتباعه طريقا لم يشرعه لنا رسول الله ، لأنه بعمله فسق والفاسق لا شهادة له .

(ج) وأن يكون ما اطلع عليه من عالم الغيب متفقا مع ما أخبر عنه رسول الله في هذه القضية ، لأن رسول الله وحده الذى لا يمكن أن يكون في كلامه خطأ ، ولأن الله جعله الحجة على الناس في كل شيء ، فلا نقبل كلام انسان ينقضه نص .

(د) وألا يكون مدعاه أنه شاهد شيئا تستحيل مشاهدته شرعا في قوانين كوننا الحالية ، أو يرتب على مشاهدته تشريعات محدثة فمن توفرت فيه هذه الشروط وأخبرنا أنه قد حدث له من هذه الكشوفات ، فلا علينا لو قبلنا كلامه اذ لا مبرر لتكذيبه ، ولم يعرف عنه الا الصدق ، ولعل الفارق بين العقل الخرافى والعقل العلمى هو التثبت لا الانكار دون مبرر ، فهذا نوع من المرض العقلى يشبه المرض الآخر .

الملاحظة الخامسة : ان هناك ظواهر غيبية كثيرة تحتاج الى تحليل

ووضع لها في محلها الصحيح :

- ١ — ظاهرة الأحلام .
- ٢ — ظاهرة التنويم المغناطيسى .
- ٣ — ظاهرة تحضير الأرواح .
- ٤ — ظاهرة الاتصال بعالم الجن .
- ٥ — ظاهرة التلباثى .

هذه الظواهر أخذت محلها الآن في معرض الحقائق وكل منها يدعم قضية الايمان بعالم الغيب من زاوية من الزوايا ، بصرف النظر عن تحليل هذه الظواهر ، الا أنها جميعا تشير الى قضية واحدة هي وجود عالم غيبى كما أخبر الرسل ، تمثل هذه الظواهر جزءا منه .

فانكشاف شيء من المستقبل البعيد للانسان وهو في حالة النوم ، ووقوعه في كثير من الأحيان حرفيا دون أن يكون في بعض الحالات تفكير مسبق عنه ، دليل على وجود علم محيط بالمستقبل ، هو غيب بالنسبة لنا .

وظاهرة التتويم المغناطيسى تدل بشكل لا يقبل الجدل ، على وجود أنروح وعلى أن لها قوانينها وعالمها الخاص ، فالانسان في حالة النوم المغناطيسى ، تكون حواسه كلها معطلة ، وحتى الأفعال الانعكاسية كذلك تكون في حالة شلل تام ، حتى لو وخزت النائم بابرّة فانه لا يظهر عليه أى شعور ، ومع ذلك فانك تسأله عن أشياء بعيدة عنه ، فيحدثك عنها وكأنه يراها وهو لا يعرفها في حالة اليقظة ، ولا يستطيع لو كان مستيقظا أن يجيب على أى سؤال مما أجاب عليه وهو نائم ، فاذا استيقظ من هذا النوع من النوم فانه لا يتذكر شيئا مما سئل عنه وأجاب . وهذه نقول عجيبة سجلت في حالات التتويم المغناطيسى :

نقل « بيو » في كتابه : المخابرات على التتويم المغناطيسى هذه المحاورّة بين منوم ومنومة كما نقلها « شارول » قالت المنومة : هل تسمع ما يأمرنى به ؟ فقال الدكتور : من هو الذى يأمرك ؟ فقالت هى : ألسنت تسمعه فقال : كلا ، لم أسمع شيئا ولم أر أحدا . فقالت : حقيقة لأنك نائم وأنا يقظى . فقال لها الدكتور : كيف ذلك أتدعين أنى نائم وأنت يقظى ، مع أنك تحت تأثير ارادتى في الحالة المغناطيسية ، أنك تتوهمين أنك يقظى لكونك تكلمينى ، وانك متمتعة بنوع من الارادة ، ولكنك في الحقيقة لا تستطيعين أن تفتحي جفنيك . فقالت : انى أكرر لك القول بأنك أنت النائم وأنا بالعكس اليقظى تماما على مثل الحالة التى سنكون عليها جميعا في يوم ما لأفسر لك ذلك . ان كل الذى تستطيع أن تراه أنت ليس الا أشكالا غليظة مادية ، فلا يمكن أن تميز الا أشكالها الظاهرة ، ولكن جمالها الحقيقى محجوب عنك تماما أما أنا ففى حالة وقوف وظائف أعضائى الآن وفي حالة حرية روحى من علائقها الاعتيادية ، فانى أرى ما هو مستور عنك وأسمع ما لا يمكنك سماعه ، وأفهم كل ما هو غير مفهوم لديك الى أن قالت : وانى بمجرد الارادة أستطيع أن أسمع الأصوات البعيدة عنى ولو كان بينى وبينها حائّة فرسخ . وبالاختصار فانى لا أحتاج أن تأتى الأشياء الى أنا بل أذهب إليها

حيثما كانت ، وأحكم على حقيقتها بطريقة أضبط مما يحكم بها عليها أى
إنسان آخر لا يكون فى الحالة التى أنا عليها .

ونقل « أكراكوف » فى كتابه : المذهب الروحى وفن استحضار
الأرواح ما يلى :

ان زوجة الانجليزى الشهير « دومرجان » معتادة على تنويم امرأة
وجعل روحها تخرج من جسدها وتذهب الى المحل الذى تعينه لها فقالت
نُها يوما وهى تحت تأثير النوم المغناطيسى : اذهبى الى منزلى القديم
فقالت المنومة : قد فعلت وطرقت الباب بشدة . قالت زوجة دومرجان :
فذهبت فى اليوم التالى لأتأكد من صدقها . وسألت عما حصل فى تلك
اللحظة فأجابنى السكان بأنهم سمعوا طرقا شديدا على الباب . فذهبوا
اليه فلم يجدوا أحدا فعلموا أن ذلك فعل الأشقياء من الأطفال .

وينقل أكراكوف كذلك حادثة أخرى لها علاقة بظاهرة تحضير
الأرواح ، هى أنه كان يحضر روحا مع ثلة من اخوانه ، وكانت الواسطة
امرأة شهيرة هى مدام « دسبرانس » فشاهد أن الروح تجسدت من
نصفها الأعلى وأن الواسطة التى هى المرأة قد فقدت أطرافها السفلى
تماما . وقد فحصوا ذلك بأيديهم وأعينهم وهم فى غاية الدهشة .
فلم يجدوا لأطرافها أثرا ثم لما ذهبت الروح عادت اليها أطرافها .
وقد شاهد مثل هذه الحادثة التى فيها يفنى جسد الواسطة كله أو بعضه
علماء آخرون .

وظاهرة تحضير الأرواح كظاهرة التنويم المغناطيسى أصبحت منتشرة
فى كل مكان فى العالم . وهى تدل بمجملها على وجود عالم الغيب ، اذ
الأرواح التى تحضر : قسم منها يذكر أنه أرواح بشر ، وأخرى تذكر
أنها أرواح جن ، وهى كما رأيت فى بعض مظاهرها ، تريك كيف أن بعض
الأجسام لا ترى مع وجودها اذا كانت فى حالة روحية معينة .

وأما ظاهرة التلباثى وهى الظاهرة التى تحدث لبعض الناس .
اذ يشاهدون حوادث بعيدة جدا بشكل خارق ، فهى كذلك تدل على أن
فى الانسان شيئا غير الجسد ، وأما ظاهرة الاتصال بالجن وهى ظاهرة
موجودة بشكل واضح فى بعض المناطق ولها خصائصها الغريبة . فهى
تؤكد بشكل ما وجود عالم الجن والشياطين الذى أخبر عنه الرسل .
هذه الظواهر كلها تشير وتؤكد الى أن هناك عالم غيب ولكن هذه الظواهر

كلها لا يصح أن تكون وسيلة من وسائل المعرفة وطريقا من طرق الهداية إذ ما من واحدة منها فيها ضمانات على أنها طريق سليم للمعرفة إذ يختلط بها الكذب بالصدق ، والحق بالباطل ، وروح الشيطان بروح الانسان . وليست هناك مسئولية محددة ، كما أن للدجل في كثير من أحوالها نصيبا . لذلك يبقى أمام الانسان طريق وحيد مأمون لمعرفة عالم الغيب . هو طريق الرسول المؤيد بالمعجزة من عالم الغيب ، وهي شهادة ضمان كاملة على الحق . عدا عن كون البلاغ يأتيها عن مصدر ثقة مسئول مشاهد لنا معروف . وما دام الرسول وحده هو المصدر الوحيد للمعرفة في موضوع عالم الغيب . فينبغي أن يعرض استخدام هذه القضايا على هديه . ليعرف حكم الجواز أو عدمه . كما ينبغي أن يعرض ما يأتيها منها على هديه ليعرف وجه الحق فيه ، ولا يصح أبدا أن نعتبر أمثال هذه الطرق وسيلة من وسائل المعرفة الجازمة أو طريقا من طرق الهداية المستقلة .

الملاحظة السادسة : ان سبب التزامنا الكامل بقول الرسول كمقياس وحيد للحق . هو أنه وحده الذي كلفنا الله باتباعه وتصديقه ، وألزمنا ذلك وأقام علينا الحجة فيه بالعلامات الكثيرة التي جعلها مؤيدة له ، وشاهد صدق عليه . فكان هذا ضمانا لنا بأنه على الحق والصدق اللذين لا شبهة فيهما . لأن الله وحده هو المحيط علما بكل شيء ، والمنزه عن كل خطأ ، وهذا رسوله الذي ينطق بأمره ووحيه ، فهو كذلك منزّه عن الخطأ والباطل برعاية الله وتعليمه . وهذه شهادة الواقع تثبت أن الحق كل الحق في كل كلمة قالها رسول الله .

ذكرنا هذه الملاحظات الستة في معرض الحديث عن صفة الصدق عند رسول الله لأن الذي يحرف بعض الناس عن الايمان شبهة لها علاقة بواحدة من هذه الملاحظات ، كذلك الذي يستبعد وجود عالم غيبي ، أو كذلك الذي أشكل عليه نص ، اما لأن النص غير صحيح النسبة لرسول الله أو لعدم حمل الحديث على المعنى المراد أو لقصور الاطلاع وهكذا . . . وعلى كل فان ما كتبناه هنا عن صفة الصدق لرسول الله هو مقدمة البرهان عليها . والا فان هذا البحث كله بأبوابه الخمسة كله برهان عليها وتأكيد لمضمونها بالشكل الذي يثلج القلب باذن الله ببرد اليقين .

والآن ننتقل لاستعراض الصفة الأساسية الثانية للرسول وحظه الأكمل منها عليه الصلاة والسلام وهي :

٢ — التزامه الكامل بتطبيق ما يدعو اليه عليه السلام

شهدت البشريه في تاريخها الطويل انفصالا بين المثل والواقع . بين المقال والفعال ، بين الدعوى والحقيقة ، وكان دائما المثل والمقال والدعوى ، أكبر من الواقع والفعال والحقيقة ، وهذا شيء يعرفه من له أدنى معرفه بالتاريخ والحياة ، غير أن هذه الظاهرة تكاد تكون مفقودة في واقع أتباع الرسل المخلصين وعلى عكسها تماما في حياة الرسل ، اذ دائما في حياة الرسل تجد أن واقعهم أعظم من كل تصور نظري ، فهم وحدهم الذين دعوا الانسانية الى أعظم قمم السمو ، ومثلوا هم بسلوكهم العملى هذه الذروة بشكل رائع مدهش عجيب ، وهذا بحد ذاته من ادلة صدقهم . اذ الالتزام بالسمو لا تطيقه النفس البشرية عادة ما لم تتهذب هذه النفس بدافع الخضوع لأمر الله بعد الايمان به ، ومعرفه أمره ، ويستطيع الانسان أن يعرف هذا بالتجربة ، اذا شاهد أحوال الكافرين ، فمثلا قد يحاول كافر أن يقلد مسلما في صلاته متظاهرا بالايمان ، فاذا ما راقبت مثل هذا وجدته عمليا لا يبقى على حالة واحدة بالتطبيق ، كما أن تطبيقه يكون بسيطا جدا ، ولو لم يكن في وضع يراه الناس فانه لا يفعل شيئا أصلا ، فعندما ترى في المقابل الرسل بعبادتهم العجيبة الكثيرة لله ، مع قيامهم بأمر الله كما كلفهم على ما فيه من مشقة أو جهد ، دون تكلف بل بكامل الرضا والسعادة فذلك لا شك دليل صدق لا يحصى .

ولما كان الكلام هنا خاصا بالحديث عن محمد رسول الله ، وظهور هذا في حياته العملية على أعلى ما يخطر بعقل بشر ، رأينا أن نختار بعضا من الأوامر القرآنية التي وجهها الله لرسوله في قضايا متعددة لنرى كيف كان قيام رسول الله بها دليلا كاملا على أنه رسول الله ، وحرصنا أن تكون الأوامر التي ندرسها مختلفة الجوانب لنرى كيف كان يقيم رسول الله كل أمر أمر به بشكل كامل . بحيث لا يكون تنفيذه لأمر مضيقا لأمر آخر ، كما نرى عند بعض الناس ، اذ نراهم مقبلين على تنفيذ أمر الله في العبادة مثلا ، مفرطين ببقية أوامر الله وتكاليفه ، لكن رسول الله كان يقوم بكل أمر بما لا يسبق اليه ، مع احاطته وعدم تفريطه بأي جانب من جوانب الاسلام الذي كلف به ، وأمر أن يدعو اليه ، حتى أن الدارس المتصف بحياته في هذا الجانب لا يتمالك الا أن يشهد أنه رسول الله حقا . يقول الجالندي ملك عمان لما بلغه أن رسول الله يدعو

للى الإسلام : (والله لقد دلنى على هذا النبى الأمى أنه لا يأمر بخير
الا كان أول آخذ به ولا ينهى عن شر الا كان أول تارك له وانه يغلب
فلا يبطر ويغلب فلا يضجر ويفى بالعهد وينجز الموعد وأشهد أنه نبى) •
والأوامر التى اخترناها لرؤية تطبيقه العملى لها هى ما يلى :
(١) قوله تعالى : « بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » •

(الزمر : ٦٦)

(٢) قوله تعالى : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو »
(البقرة : ٢١٩) « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة
الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى » (طه : ١٣١) •

(٣) قوله تعالى : « واخفض جناحك للمؤمنين » (الحجر : ٨٨) •

(٤) قوله تعالى : « يا أيها النبى جامد الكفار والمنافقين واغلق
عليهم » (التوبة : ٧٣) •

(٥) قوله تعالى : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع
أهواءهم واحفرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك » (المائدة :
٤٩) • « كونوا قوامين بالقسط » (النساء : ١٣٥) •

فلنر نماذج من تطبيقه لكل أمر من الأوامر الآتفة الذكر مع ملاحظة
أن كل أمر من أوامر الله له ، كان يقوم به على مثل هذا • بحيث لاتجد
أمرا من أوامر الله الا وله من تنفيذه أعلى حظ يتصوره بشر لانه أعلى
انسان مثل العبودية لله على الأرض •

(١) نماذج من تنفيذه للأمر الأول

« بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » (الزمر : ٦٦) :

أخرج الشيخان عن عائشة قالت : كان النبى يقوم الليل (أى مصليا
لله) حتى تتفطر قدماه فقلت له : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك
ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال : « أفلا أكون عبدا شكورا ! »
وذكر المغيرة عن رسول الله مثل هذا •

وأخرج البخارى عن عائشة أن رسول الله كان يصلى احدى عشرة
ركعة (أى فى الليل) يسجد السجدة من ذلك قدر ما يقرأ أحدكم خمسين
آية قبل أن يرفع رأسه ويركع ركعتين قبل صلاة الفجر ثم يضطجع على
شقه الأيمن حتى يأتية المنادى للصلاة •

وأخرج الشيخان عن ابن مسعود قال : « صليت مع النبي ليلة فلم يزل قائما حتى هممت بأمر سوء قيل : ما هممت ؟ قال : هممت أن أجلس وأدعه » .

وأخرج مسلم عن حذيفة قال : « صليت مع النبي ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت : يركع عند المائة ثم مضى فقلت : يصلى بها في ركعة (أى بالبقرة) فمضى فقلت : يركع بها ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها (وهذه السور تعدل سدس القرآن) يقرأ حترسلا اذا مر بآية فيها تسبيح سبح واذا مر بتعوذ تعوذ ثم ركع فجعل يقول : سبحان ربي العظيم فكان ركوعه نحوا من قيامه ثم قال : سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ثم قام طويلا قريبا مما ركع ثم سجد فقال : سبحان ربي الأعلى فكان سجوده قريبا من قيامه » .

وروى مسلم عن عائشة قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا فاتته الصلاة (أى قيام الليل) من وجع أو غيره صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة » .

وأخرج مالك والترمذي وأبو داود عن عائشة قالت : فقدته صلى الله عليه وسلم من الفراش فالتصت فوقعت يدي على بطن قدميه وهو ساجد يقول : « اللهم انى أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .
وأخرج البخاري عن أنس قال : كان رسول الله يفطر من الشهر حتى تظن أن لا يصوم منه ويصوم حتى تظن أن لا يفطر منه شيئا وكان لا تشأ أن تراه من الليل مصليا الا رأيته ولا نائما الا رأيته » .

وروى الترمذي عن عائشة قالت : « كان رسول الله يتحرى صوم الاثنين والخميس » .

وروى النسائي عن ابن عباس قال : « كان رسول الله لا يفطر أيام البيض في حضر ولا سفر » .

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر قال : « كان رسول الله يعتكف العشر الأواخر من رمضان » .

وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت : « كان رسول الله اذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل كله وأيقظ أهله وجد وشد

وروى البخارى ومسلم عن عائشة قالت : « لم يكن النبى يصوم من شهر أكثر من شعبان فانه كان يصوم شعبان كله وفى رواية : كان يصوم شعبان الا قليلا » .

وعن ابن مسعود قال : قال لى رسول الله : اقرأ على القرآن فقلت : اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ فقال : انى أحب أن أسمع من غيرى فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت هذه الآية : « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » (النساء : ٤١) فقال : حسبك فالتفت فاذا عيناه تذرفان (أى يبكى) رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود ومالك .

وعن عائشة قالت : « كان رسول الله يذكر الله على كل أحيائه » . وروى أبو داود والترمذى بإسناد حسن صحيح عن ابن عمر قال : كنا نعد لرسول الله فى المجلس الواحد مائة مرة : « رب اغفر لى وتب على انك أنت التواب الرحيم » .

وروى مسلم عن الأغر المزنى أن رسول الله قال : « انه ليغان على قلبي ونى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » .

وقال الحسن بن على : سألت أبى عن دخول رسول الله (أى إلى بيته) فقال : « كان دخوله لنفسه مأذونا له فى ذلك وكان اذا أوى الى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء : جزءا لله وجزءا لأهله وجزءا لنفسه ، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس فرد ذلك على العامة بالخاصة » . وهذه نماذج متممة لما تقدم عن مناجاته لله وذكره له فى بعض أحواله :

عن جويرية زوج النبى أن رسول الله خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهى فى مسجدتها ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة فقال : ما زلت على الحال التى فارقتك عليها ؟ قالت : نعم ، قال : لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : « سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته » .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كبر للصلاة سكت هنيهة قبل أن يقرأ ، فقلت : يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، سكوئك بين التكبير والقراءة ما تقول ؟ قال : أقول : « اللهم نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس » . اللهم (٤ - الرسول)

اعلمنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد » أخرجه للخمسة الا الترمذى
وهذا لفظ الشيخين •

زاد أبو داود والنسائى فى أوله : « اللهم باعد بينى وبين خطاياى
كما باعدت بين المشرق والمغرب » •

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول فى سجوده : « اللهم اغفر لى ذنبى كله دقه وجله ، أوله
وآخره ، سره وعلا نيته » •

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك
اللهم اغفر لى » يتأول القرآن ، أى يطبق ما جاء فى القرآن من أمر الله •
وفى أخرى لمسلم وأبى داود والنسائى كان يقول فى ركوعه
وسجوده : « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » •

وعن جابر رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
إذا ركع قال : « اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت ، وعليك توكلت
أنت ربى خشع سمعى وبصرى ولحمى ودمى وعظامى لله رب العالمين »
أخرجه النسائى •

وعن ابن أبى أوفى رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم إذا رفع ظهره من الركوع قال : « سمع الله لمن حمده ، اللهم
ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شىء بعد »
أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى •

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول بين السجدة : « اللهم اغفر لى وارحمنى واجبرنى
واهدنى وارزقنى » أخرجه أبو داود والترمذى واللفظ له •

وعن على رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
إذا سجد قال : « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهى
لذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين »
ثم يكون آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : « اللهم اغفر لى ما قدمت
وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به منى
أنت المقدم وأنت المؤخر لا اله الا أنت » •

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول بعد التشهد : « اللهم انى أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ

بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة الدجال ، وأعوذ بك من فتنة
المحيا والممات » •

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم ليلة حين فرغ من صلاته يقول : اللهم انى أسألك رحمة من
عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمرى ، وتلم بها شعئى وترد بها
غائبى ، وترفع بها شاهدى ، وتركى بها عملى ، وتلهمنى بها رشدى ،
وترد بها ألفتى ، وتعصمنى بها من كل سوء • اللهم أعطنى ايمانا و يقينا
ليس بعده كفر ، ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة • اللهم
انى أنزل بك حاجتى ، وان قصر رأبى وضعف عملى وافتقرت الى
رحمتك ، فأسألك يا قاضى الأمور ، ويا شافى الصدور كما تجير بين
البحور أن تجيرنى من عذاب السعير ، ومن دعوة الثبور ، ومن فتنة
القبور • اللهم ما قصر عنه رأبى ، ولم تبلغه مسألتى ولم تبلغه نيتى
من خير وعدته أحدا من خلقك أو خير أنت معطيه أحدا من عبادك ، فانى
راغب اليك فيه وأسألك برحمتك يا رب العالمين •

اللهم يا ذا الحبل الشديد والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد
والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود ، الركع السجود ، الموفين
بالعهود ، انك رحيم ودود ، وانك تفعل ما تريد • اللهم اجعلنا هادين
مهيئين غير ضالين ولا مضلين ، سلما لأوليائك حربا لأعدائك ، نحب بحبك
من أحبك ، ونعاضد بعداوتك من خالفك • اللهم هذا الدعاء وعليك الاجابة
وهذا الجهد وعليك التكلان • اللهم اجعل نورا فى قلبى ، ونورا فى قبرى ،
ونورا من بين يدى ، ونورا من خلفى ، ونورا عن يمينى ، ونورا عن
شمالى ونورا من فوقى ونورا من تحتى ونورا فى سمعى ونورا فى
بصرى ونورا فى شعرى ونورا فى بشرى ونورا فى لحمى ، ونورا فى دمى ،
ونورا فى مخى ، ونورا فى عظامى ، اللهم أعظم لى نورا ، وأعطنى
نورا ، واجعل لى نورا سبحانه الذى تعطف العز وقال به ، سبحانه الذى
لبس المجد وتكرم به ، سبحانه الذى لا ينبغي التسبيح الا له سبحانه
ذى الفضل والنعم • سبحانه ذى المجد والكرم سبحانه ذى الجلال
والاكرام » •

وعن ثوبان رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم اذا سلم يستغفر ثلاثا ويقول : اللهم أنت السلام ومنك السلام ،
تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والاكرام » •

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يتهجد قال : اللهم ربنا لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحي ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنجيون حق ، ومحمد — صلى الله عليه وسلم — حق ، والصاعة حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا اله الا أنت » •

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا أمسى : أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله • لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير • رب أسألك خيراً ما فى هذه الليلة وخيراً ما بعدها ، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها • رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر • رب أعوذ بك من عذاب فى النار ، وعذاب فى القبر ، وإذا أصبح قال ذلك : أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله » •

عن أنس رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوى الى فراشه قال : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا • وكفانا وآوانا فكم من لا كافى له ولا مؤوى » •

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه نفث فى يديه وقرأ المعوذتين ، وقل هو الله أحد ، ويمسح بهما وجهه وجسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات فلما اشتكى كان يئمرنى أن أفعل ذلك به » •

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استيقظ من الليل قال : لا اله الا أنت سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك لذنبى وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علماً • ولا ترغ قلبى بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة انك أنت الوهاب » •

وعن على رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند مضجعه : اللهم انى أعوذ بوجهك الكريم وبكلماتك التامات من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها • اللهم أنت تكشف المغرم والمأثم

اللهم لا يهزم جندك ، ولا يخلف وعدك ولا ينفع ذا الجد منك الجد •
سبحانك اللهم وبحمدك » •

عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خرج من بيته قال : بسم الله توكلت على الله • اللهم انا نعوذ بك من أن نزل أو نضل أو نضل أو نضل أو نضل أو نضل • أو نجعل أو يجعل علينا » •
وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلسه حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه : اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك • ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكثر هماً ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا » •

وعن مالك « أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا وضع رجله في الغرز وهو يريد السفر يقول : بسم الله اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل • اللهم ازو لنا الأرض وهون علينا السفر • اللهم انى أعوذ بك من وعاء السفر وكآبة المنقلب ومن سوء المنظر في المال والأهل » •

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قفل من السفر يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث مرات ، ثم يقول : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو عنى كل شيء قدير آيئون تائبون ، عابدون ساجدون لربنا حامدون • صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » •

وعن عبد الله الخطمي رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ودع أحدا قال : أستودع الله دينكم وأمانتكم ، وخواتيم أعمالكم » •

وله في أخرى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك » •

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أقبل الليل عليه في السفر قال : يا أرض ربى وربك الله ، أعوذ بالله من شرك وشر ما خلق فيك وشر ما يدب عليك ، أعوذ بالله من

أسد وأسود ، ومن الحية والعقرب • ومن ساكن البلد ووالد وما ولد » •
وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند الكرب : لا اله الا الله العظيم الحليم ، لا اله الا الله رب العرش العظيم • لا اله الا الله رب السموات والأرض ورب العرش الكريم » •

وعن أنس رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كربه أمر يقول : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث وقال : أظنوا بي اذا الجلال والاکرام » •

عن الخدرى رضى الله عنه قال : « كان النبی صلى الله عليه وسلم اذا استجد ثوباً قال : اللهم لك الحمد أنت كسوتنى هذا — ويسميه — : أسألك خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » •
وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : « كان النبی صلى الله عليه وسلم اذا أكل أو شرب قال : الحمد لله الذى أطعنا وسقانا وجعلنا مسلمين » •
وعن أنس رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل الخلاء لقضاء الحاجة يقول : اللهم انى أعوذ بك من الخبث والخبائث » •

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان النبی صلى الله عليه وسلم اذا خرج من الخلاء قال : غفرانك » •

عن فاطمة بنت الحسين بن على عن جدتها فاطمة الكبرى رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل المسجد صلى على محمد — صلى الله عليه وسلم — وقال : رب اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك ، واذا خرج صلى على محمد — صلى الله عليه وسلم — وقال : رب اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب فضلك » •

عن طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا رأى الهلال قال : اللهم أهله علينا باليمن والايمان ، والسلامة والاسلام ، ربى وربك الله » •

وعن قتادة رضى الله عنه قال : « انه بلغه أن النبی صلى الله عليه وسلم كان اذا رأى الهلال قال : هلال خير ورشد ثلاث مرات ، آمنت بالذى خلقك ثلاث مرات ، ثم يقول : الحمد لله الذى ذهب بشهر كذا وجاء بشهر كذا » أخرجه أبو داود •

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسلم اذا سمع الرعد والصواعق قال : اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا عصفت الريح قال : اللهم انى أسألك خيرا وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » .
عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه : اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير . واجعل الموت راحة لى من كل شر » .
وعن أنس رضى الله عنه قال : « كان أكثر دعاء النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

عن أنس رضى الله عنه قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم انى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » .
وعن أنس أيضا رضى الله عنه قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم انى أعوذ بك من الجذام والبرص ، والجنون ومن ساء الأسقام » .

وعن ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم انى أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع ، أعوذ بك من هؤلاء الأربع » .

وعنه رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم انى أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق » .
وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثّر أن يقول قبل موته : سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب اليه ، فقلت له فى ذلك ، قال : أخبرنى ربى أنى سأرى علامة فى أمتى ، فاذا رأيتها أكثر من قول : سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب اليه .
فقد رأيتها : « اذا جاء نصر الله والفتح » . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره ، انه كان توابا » .
(النصر : ١ - ٣) .

هذه نماذج من عبادته عليه الصلاة والسلام لله شكرا وهذا كله
وام نذكر اقامته للصلوات الخمس ولا لروايتها ، ولم تتعرض لكل ما
أثر عنه من عبادة لله جل جلاله ، فهل بلغ احد في عبادة الله وشكره ما بلغه
رسول الله ، وهل يستطيع أحد أن يتصور أن هذا ممكن الوقوع والحصول
بهذا الكمال والجلال ، وبهذه الكثرة والسعة وبهذا الانسجام والتوافق
مع هذه المعرفة العظيمة لله وكمالاته • لولا أن محمدا رسول الله
يقوم بأمره كأعظم ما يقوم به أحد •

* * *

(٢) نماذج من تنفيذه لأمر الله في المثال الثاني

« ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » (البقرة : ٢١٩) •
« ولا تملن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا
لنفقتهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى » (طه : ١٣١) •
روى البخارى ومسلم عن أنس أن النبي قال : « اللهم لا عيش
الا عيش الآخرة » •

وروى البخارى عن أبى ذر رضى الله عنه قال : كنت أمشى مع
النبي صلى الله عليه وسلم في حرة بالمدينة فاستقبلنا أحد فقال : يا أبا ذر
فقلت : لبيك يا رسول الله فقال : ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا
ذهبا تمضى على ثلاثة أيام وعندى منه دينارا الا شيء أرصده لدين
الا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وعن يمينه وعن شماله
ومن خلفه •

وروى مسلم عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : ذكر عمر
ابن الخطاب رضى الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال : لقد رأيت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم يتوى ما يجد من الدقل
ما يملأ به بطنه • الدقل : ردىء التمر •

روى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : توفى رسول
الله صلى الله عليه وسلم وما في بيتى من شيء يأكله ذو كبد الا شطر
شعير في رفالى •

وروى البخارى عن عمر بن الحارث أخى جويرية بنت الحارث
أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم
عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا الا بغلته البيضاء
التي كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة •

وروى ابن جابر عن جابر رضى الله عنه أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله فأعطاه ثم أتاه آخر فسأله فوعده فقام عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فقال : يا رسول الله .. سألت فأعطيت ، ثم سألت فأعطيت ، ثم سألت فوعدت ثم سألت فوعدت فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كرهها ، فقام عبد الله بن حذافة السهمي رضى الله عنه فقال : أنفق يا رسول الله ولا تخش من ذي العرش اقلالا ، فقال : « بذلك أمرت » • كذا في الكنز ج ٣ ص ٣١١ •

وأخرج البزار باسناد حسن والطبراني عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم على بلال رضى الله عنه وعنده صبر من تمر فقال : ما هذا يا بلال ؟ قال : أعد ذلك لأضيافك قال : ما تخشى أن يكون لك دخان في نار جهنم أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش اقلالا • وأخرجه أبو نعيم في الحلية ج ١ ص ١٤٩ عن عبد الله نحوه ورواه أبو يعلى والطبراني عن أبي هريرة رضى الله عنه بنحوه باسناد حسن وكما في الترغيب ج ٢ ص ١٧٤ •

وأخرج أبو يعلى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : أهديت للنبي صلى الله عليه وسلم ثلاث طوائر فأطعم خادمه طائرا • فلما كان من الغد أتته^(١) بها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أنك أن ترفعى شيئا لغد ، فان الله يأتي برزق كل غد • قال الهيثمي ج ١ ص ٢٤١ ورجاله ثقات •

وأخرج الطبراني في الكبير — ورواته ثقات — محتج بهم في الصحيح — عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة دنانير وضعها عند عائشة رضى الله عنها فلما كان عند مرضه قال : يا عائشة ابعتي بالذهب الى على ، ثم أغمى عليه وشغل عائشة ما به حتى قال ذلك مرارا ، كل ذلك يغمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشغل عائشة رضى الله عنها ما به ، فبعث الى على فتصدق بها • وأمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديد الموت ليلة الاثنين فأرسلت عائشة رضى الله عنها بمصباح لها الى امرأة من نسائها فقالت : أهدى لنا في مصباحنا من عكتك السمن فان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسى في حديد الموت •

(١) لعل المقصود إحدى زوجاته صلى الله عليه وسلم •

ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث عائشة بمعناه • كذا في
الترغيب ج ٢ ص ١٧٨ وعن أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت :
أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتصدق بذهب كان عنده في
مرضه • قالت : فأفاق ، قال : ما فعلت ؟ قلت : شغلني ما رأيت منك •
قال : فهلما بها قال : فجاءت بها إليه سبعة أو تسعة — أبو حازم
يشك — دنانير • فقال حين جاءت بها : ما ظن محمد لو لقي الله
وهذه عنده وما تنفي هذه من محمد صلى الله عليه وسلم لو لقي الله
وهذه عنده ، قال الهيثمي (ج ١٠ ص ٢٤٠) : رواه أحمد بأسانيده ،
ورجال أحدهما رجال الصحيح •

أخرج أحمد بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :
حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلى
الله عليه وسلم وهو على حصير • قال : فجلست فإذا عليه أزاره وليس
عليه غيره وإذا الحصير قد أثر في جنبه وإذا أنا بقبضة من شعير
نحو الصاع ، وقرظ في ناحية في الغرفة • وإذا أهاب معلق فابتدرت عيناى
فقال : ما يبكيك يا ابن الخطاب فقال : يا نبي الله ، وما لى لا أبكى
وهذا الحصير قد أثر في جنبك وهذه خزانة لا أرى فيها إلا ما أرى ،
وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نبي الله وصفوته وهذه
خزانة • قال : يا ابن الخطاب • أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم
الدنيا •

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما شبع آل محمد صلى الله عليه
وسلم من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض وفي رواية : ما شبع
آل محمد صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث
ليال تباعا حتى قبض •

وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول : والله
يا ابن أختي ان كنا ننظر الى الهلال ثم الهلال : ثلاثة أهلة في شهرين
وما أوقد في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار • قلت :
يا نخالة فما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان التمر والماء إلا أنه كان
لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار وكانت لهم
منايح وكانوا يرسلون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانها
فبستقينا « متفق عليه » •

وعن أنس رضي الله عنه قال : لم يأكل النبي صلى الله عليه وسلم
على خوان حتى مات ، وما أكل خبزا مرققا حتى مات •

وعن خالد بن عمر العدوى قال : خطبنا عتبة بن غزوان وكان أميراً على البصرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام الا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك فاتزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها فما أصبح اليوم منا أحد الا أصبح أميراً على مصر من الأمصار واني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً • رواه مسلم •

وعن جابر رضي الله عنه قال : ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال لا • متفق عليه •

وعن أنس رضي الله عنه قال : ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام شيئاً الا أعطاه ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع الى قومه فقال : يا قوم أسلموا فان محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، وان كان الرجل ليسلم ما يريد الا الدنيا فما يلبث الا يسيراً حتى يكون الاسلام أحب اليه من الدنيا وما عليها • رواه مسلم •

وعن عمر رضي الله عنه قال : قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً فقلت : يا رسول الله لغير هؤلاء كانوا أحق به منهم ؟ فقال : انهم خيروني أن يسألوني بالفحش فأعطيهم أو ييخلوني ولست بباخل • وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه قال : بينما هو يسير مع النبي صلى الله عليه وسلم مقفله من حنين فعلقه الأعراب يسألونه حتى اضطروه الى سمرة فخطفت رداءه فوقف النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « أعطوني ردائي فلو كان لي عدد هذه العضاة نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً • رواه البخاري • مقفله : حال رجوعه • السمرة : شجرة ، والعضاة : شجر له شوك •

وأخرج أحمد عن جابر رضي الله عنه قال : أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس ببابه جلوس والنبي صلى الله عليه وسلم جالس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلا والنبي صلى الله عليه وسلم جالس وحوله نساؤه وهو صلى الله عليه وسلم ساكت فقال عمر : لأكلمن النبي صلى الله عليه وسلم لعله يضحك • فقال عمر : يا رسول الله .. لو رأيت ابنة زيد — امرأة عمر — سألتني النفقة

آنفا فوجأت عنقها فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال : هن حولي يسألنني النفقة • فقام أبو بكر الى عائشة ليضربها وقام عمر الى حفصة كلاهما يقولان : تسألان النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده • فنهاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن : والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا المجلس ما ليس عنده • قال : وأنزل الله عز وجل الخيار فبدأ بعائشة فقال : انى أذكر لك أمرا ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك ، قالت : وما هو ؟ قال : فتلا عليها : « يا أيها النبي قل لأزواجك » — الآية (الأحزاب : ٢٨) — قالت عائشة : أفيك أستأمر أبوى ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله ، وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت • فقال صلى الله عليه وسلم : ان الله تعالى لم يبعثنى معنفا ولكن بعثنى معلما ميسرا لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت الا أخبرتها • وأخرجه مسلم والنسائى ، وعند ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قالت عائشة : أنزلت آية التخيير فبدأ بى أول امرأة من نسائه فقال صلى الله عليه وسلم : انى ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تعجلى حتى تستأمرى أبويك ، قالت : وقد علم أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه • قالت ثم قال : ان الله تبارك وتعالى قال : « يا أيها النبي قل لأزواجك » — الآيتين • قالت عائشة : فقلت : أفى هذا أستأمر أبوى ؟ فانى أريد الله ورسوله والدار الآخرة • ثم خير نساءه كلهن فقلن مثل ما قالت عائشة ، وأخرجه البخارى ومسلم عن عائشة مثله •



هذه الأمثلة على الزهد والانفاق وتحمل خشونة الحياة والاقبال على الله طلبا لمرضاته ، وحرصا على نيل ثوابه فى اليوم الآخر وهى يسير من كثير ، تبين كيف قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر الله حق القيام بحيث لا يسبق ولا يلحق ، اذ لو رجعت الى الأمرين اللذين ذكرنا الأمثلة على تطبيقهما • فانك لا تستطيع أن تجد أبلغ من هذا فى تنفيذ أمر الله وانه لجافاة لكل واقع بشرى وتتكب عن كل حقائق النفس البشرية ، أن نتصور أن مثل هذا التطبيق والتنفيذ ، بهذا الشكل ، لمثل هذه الأوامر ، يمكن أن يكون ، لولا أن صاحبه رسول الله حقا • صغرت لديه الدنيا بما فيها وهان لديه المال بكل أنواعه لمعرفته بأن الله أعظم كل شيء ويهون فى سبيله كل شيء •

(٣) نماذج من تنفيذ الأمر الثالث

«واخفض جناحك للمؤمنين» (الحجر : ٨٨) •

وعاتب الله رسوله صلى الله عليه وسلم لأنه أتاه مرة مؤمن مسلم وهو يعرض دعوة الاسلام على زعيم من زعماء المشركين فلم يقبل على المسلم • تقول عائشة : أنزلت «عيسى وتولى» (عيسى : ١) في ابن أم مكتوم الأعمى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول : يا رسول الله أرشدني وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : أترى بما أقول بأسا ؟ فيقول لا قفى هذا «أنزلت» أخرجه مالك والترمذى •

وآيات العتاب هي : «عيسى وتولى • أن جاءه الأعمى • وما يدريك لعله يزكى • أو يذكر فتنتفه الذكرى • أما من استغنى • فأنت له تصدى • وما عليك ألا يزكى • وأما من جاءك يسعى • وهو يخشى • فأنت عنه تلهى» (عيسى : ١ - ١٠) •

فكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا العتاب وبعد ذلك الأمر في علاقته بالمؤمنين عوامهم وخواصهم ؟

أخرج أبو نعيم في الدلائل عن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشد الناس لطفًا ، والله ! ما كان يمتنع في غداة باردة من عبد ولا من أمة ولا صبي أن يأتيه بالماء فيغسل وجهه وذراعيه وما سأل سائل قط الا أصغى إليه أذنه فلم ينصرف حتى يكون هو الذى ينصرف عنه ، وما تناول أحد بيده الا ناوله إياها فلم ينزع حتى يكون هو الذى ينزعها منه •

وعند يعقوب بن سفيان عن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صافح — أو صافحه — الرجل لا ينزع يده ، وإن استقبله بوجه لا يصرفه عنه ، حتى يكون الرجل ينصرف عنه ، ولا يرى مقدما ركبتيه بين يدي جليس له • ورواه الترمذى وابن ماجه ، كما في البداية ج ٦ ص ٣٩ •

وعند أبي داود عنه قال : ما رأيت رجلا قط التقم أذن النبي صلى الله عليه وسلم فينحى رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحى رأسه ، وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذا بيده رجل فترك يده حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده .

تفرد به أبو داود كذا في البداية ج ٦ ص ٣٩ .

* * *

وأخرج البزار عن أبي هريرة رضى الله عنه أن أعرابيا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم يستعينه في شيء قال عكرمة رضى الله عنه : أراه قال : في دم ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ثم قال : أحسنت اليك ؟ قال الأعرابي : لا ولا أجملت ، فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا اليه ، فأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم أن كفوا ، فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ منزله دعا الأعرابي الى البيت فقال : انما جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت ، فزاده رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا وقال : أحسنت اليك ؟ فقال الأعرابي : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا ! قال النبي صلى الله عليه وسلم : انك جئتنا فسألتنا فأعطيناك فقلت ما قلت وفي نفس أصحابي عليك من ذلك شيء فاذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب عن صدورهم ! فقال : نعم ، فلما جاء الأعرابي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال وانا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضى ، كذا يا أعرابي ؟ فقال الأعرابي : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ان مثلى ومثل هذا الأعرابي كمثلى رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدها الا نفورا فقال لهم صاحب الناقة : خلوا بيني وبين نائقتي فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها ! فتوجه اليها وأخذ من قشام الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها وانى لو أطعتمكم حيث قال ما قال لدخل النار .

* * *

وأخرج الطبراني عن أبي غالب قال : قلت لأبي أمامة رضى الله عنه حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن يكثر الذكر ويقصر الخطبة

ويطيل الصلاة ولا يأنف ولا يستكبر أن يذهب مع المسكين والضعيف حتى يفرغ من حاجته . واسناده حسن ، كما قال الهيثمي في (ج ٩ ص ٢٠) وأخرجه البيهقي والنسائي عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه نحوه كما في المعايمة (ج ٦ ص ٤٥) .

* * *

وأخرج الترمذي في الشمائل (ص ٢٥) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل بوجهه وحديثه على أشرف القوم يتألفهم بذلك فكان يقبل بوجهه وحديثه على حتى ظننت أني خير القوم فقلت : يا رسول الله ! أنا خير أو أبو بكر رضي الله عنه . فقال : أبو بكر ، فقلت : يا رسول الله أنا خير أم عمر رضي الله عنه . فقال : عمر . فقلت : أنا خير أم عثمان رضي الله عنه ، فقال : عثمان فلما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فصدقني فلوددت أني لم أكن سألته . وأخرجه الطبراني عنه نحوه واسناده حسن كما قال الهيثمي (ج ٩ ص ١٥) وقال في الصحيح : بعضه بغير سياقه . وعند البزار والطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن أحد يأخذ بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسله ولم يكن يرى ركبتيه — أو ركبته — خارجا عن ركبة جليسه ولم يكن أحد يصافحه إلا أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه ، واسناد الطبراني حسن .

* * *

وعند أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : ان كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجئ فتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ينزع من يدها حتى تذهب به حيث شئت . (رواه ابن ماجه) . وعند أحمد عنه قال : ان كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنتلق به في حاجتها . ورواه البخاري في كتاب الأدب من صحيحه معلقا كما في البداية ج ٦ ص ٣٩ ، وروى مسلم في صحيحه ج ٢ ص ٢٥٦ عن أنس أن امرأة كان في عقلها شيء فقالت : يا رسول الله ان لي اليك حاجة فقال : يا أم فلان انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك ! فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها . وأخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ص ٥٧ عن أنس مثله .

* * *

وأخرج مسلم (ج ٢ ص ٢٥٣) عن أنس رضى الله عنه قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أخذ أبو طلحة رضى الله عنه بيدي فانطلق بى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ان أنسا غلام كيس فليخدمك قال : فخدمته فى السفر والحضر ، والله ما قال لى لشيء صنعت ؟ لم صنعت هذا هكذا ولا لشيء لم أصنع : لم لم تصنع هذا هكذا ؟ وعنده أيضا عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا فأرسلنى يوما لحاجة فقلت : والله لا أذهب وفى نفسى أن أذهب لما أمرنى به نبي الله صلى الله عليه وسلم فخرجت حتى أمر على الصبيان وهم يلعبون فى السوق فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض بقفاى من ورائى ، قال : فنظرت اليه وهو يضطك فقال : يا أنس اذهب حيث أمرتك ، قال : قلت نعم أنا أذهب يا رسول الله ، قال أنس : والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشيء صنعت : لم فعلت كذا وكذا ؟ ولشيء تركته : هلا فعلت كذا وكذا وعنده أيضا قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، والله ، ما قال لى أفا قط ، ولا قال لى لشيء : لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا ؟

وعند أبى يعيم فى الدلائل صفحة ٥٧ عن أنس رضى الله عنه قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم سنين فما سببنى سبة قط ولا ضربنى ضربة ولا انتهرنى ولا عبس فى وجهى ولا أمرنى بأمر فتوانيت فيه فعاقبنى عليه ، فان عاتبنى عليه أحد من أهله قال : دعوه فلو قدر شيء لكان .

وأخرج البزار عن جابر رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أتاه الوحي أو وعظ قلت : نذير قوم أتاهم العذاب ، فاذا ذهب عنه ذلك رأيت أطلق الناس وجها وأكثرهم ضحكا وأحسنهم بشرا . قال الهيثمى ج ٩ ص ١٧ : أسنده حسن .

وامرج البیهقي وابن النجار عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاءت عجوز الى انبى صلى الله عليه وسلم فقال لها : من أنت ؟ قالت : جثامة ! لمزية قال : بل أنت حنانة المزنية ، كيف أنتم ، كيف حالكم ؟ كيف كنتم

بعدنا ؟ قالت بخير بأبى أنت وأمى يا رسول الله فلما خرجت قلت :
يا رسول الله ؟ تقبل على هذه العجوز هذا الاقبال ؟ فقال : يا عائشة هذه
كانت تأتينا زمان خديجة وان حسن العهد من الايمان •

* * *

وأخرج البخارى فى الأدب ص ١٨٨ عن أبى الطفيل رضى الله عنه
قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يقسم لحما بالجعرانة وأنا يومئذ
غلام أحمل عضو البعير فأنته امرأة فبسط لها رداءه • قلت من هذه ؟
قال : أمه التى أرضعته •

* * *

وروى الطبرانى عن الحسن بن على رضى الله عنهما وقد سأل أباه
عن بعض صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان من سؤاله وجواب
على ما يلى :

قال الحسن : وسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه ؟ فقال : « كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يخزن لسانه الا مما يعنيههم ويؤلفهم
ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويؤليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس
منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه ، يتفقد أصحابه ،
ويسأل الناس عما فى الناس ، ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح
ويؤهيه (يجعله ضعيفا واهيا بالمنع والزجر عنه) معتدل الأمر غير
مختلف لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لكل حال عنده عتاد ، ولا يقصر
عن الحق ولا يجوزه ، الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده
أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة » •
قال فسألته عن مجلسه كيف كان ؟ فقال : « كان رسول الله صلى
الله عليه وسلم لا يجلس ولا يقوم الا على ذكر ، ولا يوطن الأماكن
وينهى عن ايطانها ، واذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس
ويأمر بذلك ، يعطى كل جلسائه نصيبه ، ولا يحسب جلسيه أن أحدا أكرم
عليه منه ، من جالسه أو قاومه فى حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ،
ومن سأله حاجة لم يرده الا بها أو ليسور من القول • قد وسع الناس
منه بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا له أبناء عنده فى الحق سواء
مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا
تؤبن (تعاب) فيه الحرم • ولا تشنى فلتاته (أى لا تشاع زلاته وهفواته

والمراد لا فلتات في مجلسه) متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى ، متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون الصغير ، يؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب » .

قال فسألته عن سيرته في جلسائه فقال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ (أى سىء الخلق) ، ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا فحاش ، ولا عياب ، ولا مزاح ، يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يؤئس منه راجيه ، ولا يخيب فيه ، وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحدا ولا يعيره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم الا فيما يرجو ثوابه ، اذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، واذا تكلم سكثوا واذا سكث تكلموا لا يتنازعون عنده الحديث ، يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته حتى ان كان أصحابه ليستحبونه في المنطق (وفي الكثر ليستحبونهم) ، ويقول : اذا رأيتم صاحب حاجة فارفدوه ولا يقبل الثناء الا من مكافىء ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز ، فيقطعه بانتهاء ، أو قيام » .

هذه أمثلة من مواقفه مع المؤمنين ، وتواضعه وخفض جناحه لهم ، أرجع بعد دراستها الى الآية التي أمرته بذلك فهل تراه الا قائما بها حقا وهل ترى انسانا يبلغ عشر ما بلغه محمد صلى الله عليه وسلم من المجد ويبقى يعامل المستضعفين والكبار والصغار والرؤساء والأتباع هذه المعاملة على سواء ؟ وهل هذا وضع طبيعى للنفس البشرية لولا أن الله هذبها وكانت مؤمنة بالله فعلا متصلة به حقيقة طائفة له طاعة فناء ، اللهم ما كان هذا ليكون لولا أن محمدا عبدك ورسولك .

(٤) نماذج من تنفيذ الأمر الرابع

« يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم » (التوبة : ٧٣)

ان خلق الرحمة عند رسول الله لا يدانيه فيه أحد من خلق الله أخرج الشيخان عن أنس أن نبى الله قال : انى لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتى مما أعلم من وجد أمه من بكائه ، ووسعت رحمته الناس حتى قال الله له : « فطعك باخع نفسك

على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » (الكهف : ٦) وقد ظهرت هذه السجية على طبيعتها يوم فتح مكة اذ عفا عن أهلها بعد أن فعلوا فيه ما فعلوا كما ظهرت على سجيته بعد انتهاء غزوة بدر وأسر الأسرى ولم يكن نزل عليه من أمر الله في القضية شيء وانما هو الاجتهاد الذي أذن فيه لرسول الله في هذه القضايا وكان أمام الرسول اقتراحان في شأن الأسرى اقتراح أبى بكر واقتراح عمر وكان اقتراح أبى بكر أخذ الفداء واطلاق السراح . وكان اقتراح عمر القتل حتى يعلم الله أنه ليس في قلوب المسلمين رحمة بالكافرين ، وأخذ رسول الله برأى أبى بكر لأنه أقرب لطبعه ، وهو الذى لاقى من قومه ما لاقى ثم ان الله عاتبه في هذه القضية على اللين وليس من اثم ولكن الله يريد أن يأخذ رسوله بالحزم فقال له « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » (الأنفال : ٦٧) ثم نزلت أوامر الله تطالب رسول الله بالجهاد والشدة والغلظة على الكافرين فأصبحت ترى رسول الله بعد هذه الرحمة الكبيرة والصبر الطويل والتحمل الكثير والمسألة الدائمة . المقاتل الشديد والمنفذ الذى طاعة الله فوق كل عواطفه ، بل عواطفه هى تنفيذ أمر الله ، واستعراض بسيط لحياته الحربية عليه السلام يرينا أن هذا النوع من القتال الذى خاضه عليه السلام ما كان ليكون من صنع بشر ، لولا أن هذا الانسان ينفذ أمر الله ، معتمدا عليه ، فانه ما من مقدمة في حياة الرسول تشير الى مثل هذه النتائج ، لولا أن المسألة ربانية الطريق بدءا وختاما ، أسلوبا وتنفيذا . رب يأمر وعبد رسول ينفذ :

يؤمر ألا يخشى شيئا فلا يخاف الا الله ويؤمر بأن يتوكل على الله ويعتمد عليه وحده فيدخل أى معركة بما يتوفر له من قوة دون خوف من أى حشد يقابله ، ويؤمر ألا يكون في قلبه رحمة بالكافرين فيضرب حتى يستأصل ، ويؤمر بمتابعة القتال فيقاتل ولما يسترح ، ويؤمر بالعمل المتواصل حتى يخضع أعداء الله فلا يكاد ينتهى من تهيئة غزوة الا الى غيرها ، ومن اخضاع منطقة الا الى منطقة أخرى . وهكذا حتى يضع أتباعه على الطريق لاختضاع العالم بعده لسلطان الله .

كان عدد أصحابه يوم بدر ثلاث مائة وخمسة عشر رجلا ، وعدد المشركين حوالى ثلاثة أضعاف تفوقهم بالعدة ويدخل الرسول صلى الله عليه وسلم المعركة وينتصر بها ولا يعتمد الا على الله .

روى مسلم وأبو داود والترمذى عن عائشة (رضى الله عنها)

قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بدر فلما كان بحرة النوبة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة • ففرح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه • فلما أدركه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم جئت لأتبعك وأصيب معك فقال صلى الله عليه وسلم : تؤمن بالله ورسوله ؟ قال : لا • قال فارجع فلن أستعين بمشرك • قالت : ثم مضى حتى إذا كان بالشجرة أدركه الرجل فقال : كما قال أول مرة • فقال له صلى الله عليه وسلم كما قال أول مرة قال فارجع فلن أستعين بمشرك • ثم رجع فأدركه بالبيداء • فقال له كما قال أول مرة • وقال : هل تؤمن بالله ورسوله ؟ قال : نعم • قال : فانطلق • فانطلق معه •

وروى مسلم عن أبي الطفيل رضى الله عنه قال : قال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه : ما منعنى أن أشهد بدرا إلا أنى خرجت أنا وأبى الحسيل فأخذنا كفار قريش فقالوا انكم تريدون محمدا فقلنا : ما نريد إلا المدينة فأخذوا منا عهد الله وميثاقه أن لا نقاتل معه فلما أتينا المدينة ذكر ذلك له صلى الله عليه وسلم فقال : انصرفا نفى لهم ونستعين بالله تعالى عليهم •

وأخرج الشيخان واللفظ لمسلم عن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وكان أجود الناس وكان أشجع الناس ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا وقد سبقهم الى الصوت وهو على فرس لأبى طلحة رضى الله عنه عرى فى عنقه السيف وهو يقول لم تراعوا قال : وجدناه بحرا أو انه لبحر وكان فرسا يبطىء • وأخرج البخارى عن أبى اسحاق : سمع البراء بن عازب رضى الله عنه وسأله رجل من قيس : أفررتم عن رسول الله يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله لم يقرر •

والمعروف أن رسول الله ثبت يوم حنين بعشرة من أصحابه أدار بهم المعركة التى فر فيها اثنا عشر ألفا ثم كان النصر بعد الهزيمة وفى غزوة أحد كان المشركون أضعاف المسلمين ودخل الرسول صلى الله عليه وسلم المعركة ، وأفشل المعركة بعض المتسرعين الذين لم يلتزموا خطة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصيب المسلمون يومها أصابات كثيرة وانفصل الجيشان ورجع كل الى بلده ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كاد يصل الى المدينة حتى أمر من دخل المعركة بالجهاز السريع

فخرجوا بجراحهم وآلامهم وساروا وراء قريش فبلغ قريشا الخبر ففرت وتحولت الهزيمة الى انتصار وأكثر من هذا فقد قطع على قريش خط الرجعة اذ فكروا وهم عائدون أن يرجعوا الى المدينة ليدخلوها فاتحين مستأصلين لجذور الاسلام . مع ملاحظة أن رسول الله بقى يقاتل يوم أحد حتى كف المشركون أنفسهم عن القتال ولم يفر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا .

وفي غزوة الأحزاب تجمعت الجزيرة العربية كلها لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقض يهود بنى قريظة عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصبح المسلمون في وضع لا يطيقه أحد من البشر يتهددهم الخطر من جوانب لا تعد وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انسحبت الأحزاب ولم يتمهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انسحابهم حتى سار الى قريظة لتأديب هؤلاء الناكثين للعهد فحاصروهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ حليفهم بالجاهلية فأخذ سعد العهد عليهم وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يلتزموا بحكمه فأعطوه فحكم سعد أن تقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وذرايرهم فقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم في يوم واحد أربعمئة رجل صبرا .

وهاجم الدولة الرومانية وهي يومها من هي ، وقوته لم تبلغ الا قليلا مما فتح لأصحابه بعد ذلك أن يدخلوا معاركهم مع الدولة الرومانية والدولة الفارسية بأن واحد على قلة في العدة والعدد وانتصروا بتلك الشعلة التي أشعلها بهم الله على يد رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويكفى أن تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا بنفسه كما يروى مسلم تسع عشرة غزوة هذا عدا عن السرايا والبعوث الحربية التي كان يرسلها . هذا مع أن بقاءه في المدينة كانت مدته كلها عشر سنوات . والحديث عن غزواته طويل جدا نجده مفصلا في كتب السيرة . ويكفى أن نذكر أن من آثارها توحيد الجزيرة العربية كلها ، بينها وحجازها ونجدها وسواحلها ، حتى لم يبق فيها شبر لم يخضع لسلطان الله ، وفتح لأتباعه طريق العمل العالى . من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا . ونحن هنا لا نريد التفصيل وانما نريد فقط ابراز ما به يظهر التطبيق الكامل لما أمر به رسول الله وهو بالتالى ما دعا اليه فكان في كل شيء لا تخالف أعماله دعوته .

(٥) نماذج من تطبيقه للأوامر في المثال الخامس

« كونوا قوامين بالقسط » (النساء : ١٣٥) « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذروهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك » (المائدة : ٤٩) •

أخرج البخارى عن عروة أن امرأة سرقت في عهد رسول الله في عزوة الفتح ففرع قومها الى أسامة بن زيد يستشفعونه قال عروة : فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله وقال : أتكلمنى فى حد من حدود الله تعالى ؟ فقال أسامة : استغفر لى يا رسول الله فلما كان العشى قام رسول الله خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فانما أهلك الناس أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد • والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ثم أمر رسول الله بتلك المرأة فقطعت يدها فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت قالت عائشة : كانت تأتى بعد ذلك فأرفع حاجتها الى رسول الله •

وأخرج أبو داود عن العرياض بن سارية السلمى قال : نزلنا مع رسول الله قلعة خيبر ومعه من معه من المسلمين وكان صاحب خيبر رجلاً مارداً متكبراً فأقبل الى النبى فقال : يا محمد ألكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا ؟ فغضب رسول الله وقال : يا ابن عوف اركب فرسك ثم ناد أن الجنة لا تحل الا للمؤمن وأن اجتمعوا للصلاة فاجتمعوا ثم صلى بهم ثم قام فقال : أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئاً الا ما فى القرآن الا انى والله لقد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء انها لمثل القرآن أو أكثر وان الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب الا باذن ولا ضرب نساءهم ولا أكل ثمارهم اذا أعطوا الذى عليهم •

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى أنه كان ليهودى عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه فقال : يا محمد •• ان لى على هذا أربعة دراهم وقد غلبنى عليها قال : أعطه حقه قال : والذي بعثك بالحق ما أقدر عليها قال : أعطه حقه قال : والذي نفسى بيده ما أقدر عليها قد أخبر أنك تبعثنا الى خيبر فأرجو أن تغنمنا شيئاً فأرجع فأقضيه ، قال : أعطه حقه ، وكان رسول الله اذا قال ثلاثاً لم يراجع فخرج

ابن أبي حدرد الى السوق وعلى رأسه عصابة وهو متزر ببردة فنزع عن رأسه فاتزر بها ونزع البردة فقال اشتر منى هذه البردة فباعها منه بأربعة دراهم فمرت عجوز فقالت مالك يا صاحب رسول الله فأخبرها فقالت : ها دونك هذا البرد — لبرد عليها طرحته عليه • وأخرجه أحمد أيضا •

وأخرج ابن ماجه عن أبي سعيد قال : جاء أعرابي الى النبي يتقاضاه دينا كان عليه فاشتد عليه حتى قال : أخرج عليك الا قضيتنى ، فانتهره أصحابه فقالوا : ويحك تدري من تكلم ؟ فقال : انى أطلب حقى فقال النبي : هلا مع صاحب الحق كنتم ؟ ثم أرسل الى خولة بنت قيس فقال لها : ان كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمر فنقضيك فقالت : نعم بأبى وأمى يا رسول الله فاقترضه فقضى الأعرابي وأطعمه فقال : أوفيت أوفى الله لك فقال : أولئك خيار الناس انه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعت •

وأخرج أبو داود عن أسيد بن حضير : أن رجلا من الأنصار كان فيه مزاح فبينما هو يحدث القوم ويضحكهم اذ طعنه النبي في خاصرته بعود كان في يده فقال : اصبرنى يا رسول الله (أى مكنى من نفسك لأقتص منك) قال : اصطبر فقال : ان عليك قميصا وليس على قميص فرفع النبي قميصه فاحتضنه وجعل يقبل كشحه (الكشح ما فوق شد الازار من جانب البطن) وقال انما أردت هذا يا رسول الله •

أخرج الطبرانى عن عبد الله بن سلام باسناد رجاله ثقات قال : لما أراد الله هدى زيد بن سعة قال زيد بن سعة ما من علامات النبوة شىء الا وقد عرفتھا فى وجه محمد حين نظرت اليه الا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ولا تزيدہ شدة الجهل عليه الا حلما قال زيد بن سعة : فخرج رسول الله يوما من الحجرات ومعه على ابن أبى طالب فأتاه رجل على راحلته كالبهوى فقال : يا رسول الله .. لى نفر فى قرية بنى فلان قد أسلموا ودخلوا فى الاسلام وكنت حدثتهم ان أسلموا أتاهم الرزق رغدا وقد أصابتهم سنة وشدة وقحط من الغيث فأنا أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الاسلام طمعا كما دخلوا فيه طمعا فان رأيت أن ترسل اليهم بشىء تغيثهم به فعلت فنظر الى رجل بجانبه أراه عليا فقال : يا رسول الله ما بقى منه شىء قال زيد بن سعة : فدنوت اليه فقلت : يا محمد هل لك أن تبيعننى تمرا معلوما فى حائط بنى فلان

انى أجل معلوم الى أجل كذا وكذا قال : لا تسمى حائط بنى فلان قلت : نعم فبايعنى فأطلقت هميانى فأعطيته ثمانين مثقالا من ذهب فى تمر معلوم الى أجل كذا وكذا فأعطانى الرجل وقال (يظهر أنها فأعطاهما انرجل) : أعدل عليهم وأغثم قال زيد بن سحنة فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاث خرج رسول الله ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فى نفر من أصحابه فلما صلى على الجنازة ودنا الى الجدار ليجلس اليه أنيته فأخذته بمجامع قميصه وردائه ونظرت اليه بوجه غليظ قلت له : يا محمد ألا تقضىنى حقى فوالله ما علمتم بنى عبد المطلب الا مطلا ولقد كان بمخالطكم علم • ونظرت الى عمر وعيناه تدوران فى وجهه كالفلك المستدير ثم رمانى ببصره فقال : يا عدو الله أتقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أسمع ؟ وتصنع به ما أرى ؟ فوالذى نفسى بيده لولا ما أحاذر قوته لضربت بسيفى رأسك ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر الى فى سكون وتؤدة • فقال : يا عمر أنا وهو كنا أحوج الى غير هذا أن تأمرنى بحسن الأداء وتأمره بحسن اتباعه ، اذهب به يا عمر فأعطه حقه وزده عشرين صاعا من تمر مكان ما رعته • قال زيد : فذهب بى عمر فأعطانى حقى وزادنى عشرين صاعا من تمر • فقلت : ما هذه الزيادة يا عمر ! قال أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أزيدك مكان ما رعتك وقال : وتعرفنى يا عمر ؟ قال : لا • قلت : أنا زيد ابن سحنة • قال : الحبر • قلت : الحبر • قال : فما دعاك الى أن فعلت برسول الله ما فعلت ؟ وقلت له ما قلت ؟ قلت : يا عمر • • لم يكن من علامات النبوة شيئا الا وقد عرفت فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت اليه الا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ولا تزیده شدة الجهل عليه الا حلما وقد اختبرتهما ، أشهدك يا عمر أنى قد رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبيا وأشهدك أن شطر مالى — فانى أكثرها مالا — صدقة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال عمر : أو على بعضهم فانك لا تسعهم ، قلت : أو على بعضهم • فرجع عمر وزيد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال زيد : أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وآمن به وصدقه وبايعه ، وشهد معه مشاهد كثيرة ، ثم توفى فى غزوة تبوك مقبلا غير مدبر — رحم الله زيدا •

من هذه الآثار يتبين كيف قام رسول الله بالقسط ، وأقامه على

نفسه وأتباعه وأصحابه بلا محاباة ولا مداراة ولا مDAHنة ، فكان في ذلك في القمة التي لا يرقى إليها راق في تنفيذ أمر الله وتطبيقه .

هذه نماذج رأينا فيها خمسة أوامر لله ورأينا كيف أن رسول الله قام بها بالشكل الذي لا يبقى معه مزيد لمستزيد ، وهذا الذي رأيناه هنا هو الذي نراه في كل أمر أمر الله به عباده حتى أن عائشة لما وصفت خلق رسول الله قالت : « كان خلقه القرآن » وهذا واقع لا يعرفه حق المعرفة الا من درس القرآن ودرس معه سيرة رسول الله تفصيلا ، فانه يرى بوضوح أنه ما من أمر وجهه الله لخلقه ، الا وكان رسول الله أعظم الخلق تنفيذا له وتطبيقا ، بلا تفريط بأمر من أوامر الله وأى أمر من أوامر الله درست تنفيذ رسول الله له ذلك هذا التنفيذ على أن محمدا رسول الله ، وقد رأيت في الأمثلة الماضية هذه النماذج العالية من الالتزام الرائع الذي يجعلك كل موقف من مواقفه تستبعد وقوعه من غير رسول ، أو تابع رسول يقتدى به ، وهذه الصفة التي مرت معنا هي التي يسميها علماء المسلمين الأمانة ، اذ الأمانة عندهم تعنى القيام بما كلف الله به عباده أخذا من قوله تعالى :

« انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان ، انه كان ظلوما جهولا » (الأحزاب : ٧٢) فالأمانة هي التكليف وحملها هو اقامة ما كلف الله به عباده والرسول هم قدوة البشر في القيام بأمر الله فلا بد أن يكونوا أكثر الخلق أمانة أى التزاما صادقا بما يدعون الخلق اليه نيابة عن الله ، ووجود هذا الالتزام مع بقية شروط الرسالة ، دليل من جملة الأدلة التي تثبت أن هذا الملتزم بما يدعو اليه الخلق من فضائل هو رسول الله رب العالمين . والآن وقد وضح أن لرسول الله الحظ الأعلى من الصفة الثانية التي ينبغى أن يتصف بها كل من كان رسولا لله حقا ، فلنتقل الى الصفة الأساسية الثالثة لكل رسول وهي تبليغ دعوة الله مهما كانت الظروف ، لنرى كذلك أن لرسول الله الحظ الأعلى منها ، ونرى في كل موقف من مواقفه فيها ما يثبت أنه رسول الله حقا .

٢ — تبليغه عليه السلام دعوة الله وقيامه بذلك كاملا

لقد سلك رسول الله كل طريق سليم لتبليغ دعوة الله على الوجه الأكمل ، وسلك الناس في المقابل كل طريق يخطر بالبال ليشنوه عن القيام بأمر الله فلم يفعل :

اتصل بالأفراد اتصالا شخصيا ، وعرض نفسه على قبائل العرب ورحل من أجل تبليغ الدعوة وتتبع مواطن اجتماع الناس ليبلغهم ، وأرسل الرسل نيابة عنه لتبليغ الدعوة واستقدم الوفود ليأخذوا عنه ويرجعوا مبلغين • وراسل الأمراء والملوك داعيا لهم الى الله وكلف أصحابه أن يتعلموا ويلموا ويعلموا وأمر جنده ألا يحاربوا قبل أن يدعوا الى الاسلام ، ثم حمل جميع المسلمين أمانة البلاغ ليبلغوا العالم دعوة الله • حتى لا يبقى أحد من البشر الا وقد بلغ ، وقامت عليه الحجة ، وفي المقابل ما ترك الآخرون طريقا الا سلكوه لانهاء الدعوة والداعية •

سلكوا طريق الايذاء له ولاتباعه ليشنوه عن التبليغ فما فعل • وسلكوا طريق الاغراء ليشنوه عن التبليغ فما فعل • وسلكوا طريق الانضغاط العائلي ليشنوه عن التبليغ فما فعل • وسلكوا طريق الاستهزاء والاعراض والسخرية والاتهامات ليشنوه عن التبليغ فما فعل • وسلكوا معه طريق المقاطعة الشاملة له ولمن آزره ليشنوه عن التبليغ فما فعل • وقرروا قتله وملاحقته ليشنوه عن التبليغ فما فعل • وطال الزمن والمستجبيون قليلون ، والجميع يحاولون ايقاسه واستمر ، ثم حاربوه ليستأصلوا دعوته ويستأصلوه وصبر واستمر رغم هذا كله ، ثم انتصر وانتصر دينه ولا زال ينتصر ويتقدم رغم الأوضاع السياسية السيئة للمسلمين ، وكل ذلك ببركات الداعية المبلغ الأول •

وقبل أن نستعرض نماذج عن هذا كله • نحب أن نؤكد التذكير بشيء حتى لا يلهينا العرض عن الغاية •

كنه هذا الشيء هو : أن اثباتنا هذه الصفات لرسول الله وبرهاننا على ذلك ، كل هذا من أجل الوصول الى برد اليقين بالايمان به • واتباعه عن ثقة بأنه لا حق الا ما أخبرنا أنه حق ، فمن عرفته بالصدق طوال حياته وتأكدت من تحريه له تطمئن اذا أخبرك عن شيء • والرسول كذلك ، وقيام الرسول بتكاليف دعوته على ما فيها من مخالفة لهوى النفس ومن

جهد ونصب دون انتظار مكافأة ما في الحياة الدنيا طاعة لله ، دليل آخر على رسالته اذ غير هذا الطريق لطالب غير الله أسهل •

وأما عملية التبليغ فليست هي عند الرسل كبقية عمليات التبليغ الأخرى التي يقوم بها بقية البشر ، في الدعوة لفكرة ما ، ومن ثم كانت عملية التبليغ عند الرسل دليلا على صدقهم في كونهم مرسلين من عند الله •

ان غير الرسل يدعون الناس الى شيء تألفه نفوسهم وتهواه • أى أنهم يأتون الناس من قبل ما يشتهون فلا يعانون شيئا ولا يحتاجون الى تضحية ، وأحيانا يضحون ولكن ينتظرون كسبا ماديا أكثر من تضحيتهم • وتراهم دائما يلاحظون السلامة الا اذا أتاها ما لم يكن بالاحتساب • وترى الحياة عزيزة جدا عليهم وما أسهل ما ينسون دعوتهم اذا يئسوا من الكسب أو النصر • ونحن لا نغنى بالطبع هنا أتباع الرسل اذ هؤلاء يعملون بروح الاقتداء بالرسل فعندهم من حرارة اخلاصهم أن حماية النفس مقدمة عند أصحاب الدعوات الباطلة على التبليغ عند الرسل لدعوة الحق مقدم على كل شيء •

ان الرسل يبلغون الناس رسالة الله التي فيها ضبط نفوس البشر ، حتى تستقيم على السنن الصحيح للحياة ، وهم بهذا يدخلون في صراع مع أهواء البشر ، ولكل انسان هوى ، فهم يدخلون في صراع مع الناس جميعا ، والصعوبة التي يعانونها من أعدائهم يعانون قريبا منها في تربية أتباعهم والارتقاء بهم اذ البشر هم البشر على كل حال ، وتجاوز الرسول لهذه العقبات كلها • وثباته على دعوة الحق بلا مداراة ولا مواربة بل مطالبة للنفس البشرية بواجباتها كاملة ، وصبره على ذلك ، وتحمله كل شيء في هذا السبيل مرضاة لله • كل هذا دليل على حرارة الصدق والاخلاص للدعوة والله المكلف بها • وسنرى في كل نموذج نقدمه عن عملية التبليغ عند رسول الله وما رافقه شاهد صدق على هذا الذي قدمناه •

وسنقدم نوعين من النماذج :

١ — نماذج عن مواقف الكافرين منه ليثبته عن الاستمرار بالتبليغ •

٢ — نماذج عن الطرق التي سلكها للقيام بعملية التبليغ •

(١) نماذج النوع الأول

(أ) ايذاؤه وصبره على ذلك :

١ — أخرج الطبراني عن الحارث بن الحارث قال قلت لأبي : ما هذه الجماعة ؟ قال : هؤلاء القوم الذين اجتمعوا على صابىء لهم . قال : فنزلنا فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى توحيد الله عز وجل والايمان وهم يردون عليه ويؤذونه حتى انتصف النهار وانصدع الناس عنه ، أقبلت امرأة قد بدا نحرها تحمل قدحا ومنديلا فتناولته منها وشرب وتوضأ ثم رفع رأسه فقال : يا بنية خمرى عليك نحرى ولا تخافين على أبيك . قلنا : من هذه ؟ قالوا : هذه زينب بنته . رضى الله عنها .

وعنده أيضا عن منبت الأزدي قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية وهو يقول : يا أيها الناس قولوا : لا اله الا الله تفلحوا . فمنهم من تفل في وجهه ومنهم من حثا عليه التراب ومنهم من سبه حتى انتصف النهار . فأقبلت جارية بعس من ماء فغسل وجهه ويديه وقال : يا بنية لا تخشى على أبيك غيلة ولا ذلة . فقلت : من هذه ؟ قالوا : زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي جارية وضيئة .

٢ — وأخرج البيهقي عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال : لما مات أبو طالب عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم سفيه من سفهاء قريش فألقى عليه ترابا فرجع الى بيته ، فأنت امرأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي فجعل يقول : أى بنية . لا تبكى فان الله مانع أباك .

٣ — وعن ابن أبي شيبه عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : ما رأيت قريشا أرادوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم الا يوما اتهموا به وهم جلوس في ظل الكعبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند المقام . فقام اليه عقبة بن أبى معيط فجعل رداءه في عنقه ثم جذبته حتى وجب لركبتيه ساقطا وتصايح الناس فظنوا أنه مقتول فأقبل أبو بكر رضى الله عنه يشتد حتى أخذ بضبعي رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائه ويقول : « اتقتلون رجلا أن يقول ربي الله » (غافر : ٢٨) .

ثم انصرفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى . فلما قضى صلاته مر بهم — وهم جلوس

في ظل الكعبة — فقال : يا معشر قريش .. أما والذي نفس محمد بيده .
ما أرسلت اليكم الا بالذبح وأشار بيده الى حلقه . فقال أبو جهل :
ما كنت جهولا . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت منهم .
٤ — وأخرج أحمد عن عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو
رضي الله عنه قال :

قلت له : ما أكثر ما رأيت قريشا أصابت من رسول الله صلى الله
عليه وسلم فيما كانت تظهر من عداوته .

قال : حضرتهم — وقد اجتمع أشرافهم في الحجر — فقالوا : ما
رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، وشتم آباؤنا
وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا وسب آلهتنا . لقد صبرنا منه على أمر
عظيم — أو كما قالوا — قال فبينما هم في ذلك اذ طلع عليهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشي حتى استقبل الركن ثم مر بهم طائفاً
بالبيت . فلما مر بهم غمزوه ببعض ما يقول .

(غمزوه : أي أشاروا اليه) قال : فعرفت ذلك في وجهه ثم مضى .
فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجهه ثم مضى . فلما مر
بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فقال :

أتسمعون يا معشر قريش أما والذي نفس محمد بيده .. لقد جئتكم
بالذبح . فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل الا على رأسه طائر
واقع حتى أن أشدهم فيه وضاعة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول
حتى انه ليقول :

انصرف يا أبا القاسم ، انصرف راشدا ، فوالله ما كنت جهولا .
فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان الغد اجتمعوا
في الحجر — وأنا معهم — فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما
بلغكم عنه حتى اذا بادلكم بما تكرهون تركتموه . فبينما هم في ذلك
اذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا اليه وثبة رجل واحد .
فأطافوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا وكذا ؟ لما كان يبلغهم من
عيب آلهتهم ودينهم . قال فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .
أنا الذي أقول ذلك . قال : فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع رداءه
وقام أبو بكر رضي الله عنه دونه يقول وهو يبكي : « اتقتلون رجلا أن
يقول ربي الله » ؟ ثم انصرفوا عنه فان ذلك لأشد ما رأيت قريشا بلغت
منه قط .

٥ — وأخرج البزار والطبراني عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وأبو جهل ابن هشام وشيبة وعتبة ابنا ربيعة وعقبة بن أبي معيط وأمّية بن خلف ورجلان آخران كانوا سبعة وهم في الحجر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فلما سجد أطل السجود .

فقال أبو جهل : أيكم يأتى جزور بنى فلان فيأتينا بفرثها فنكفئه على محمد — صلى الله عليه وسلم — فانطلق أشقاهم عقبة بن أبي معيط فأتى به فألقاه على كتفيه ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساجد . قال ابن مسعود : وأنا قائم لا أستطيع أن أتكلم ليس عندي منعة تمنعني فأنا أذهب ، إذ سمعت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبلت حتى ألفت عن عاتقه ثم استقبلت قريشا تسبهم فلم يرجعوا اليها شيئا ، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه كما كان يرفعه عند تمام السجود . فلما قضى صلى الله عليه وسلم صلاته قال :

اللهم عليك بقريش — ثلاثا — عليك بعتبة وعقبة وأبى جهل وشيبة . ثم خرج من المسجد فلقية أبو البختري بسوط يتخصر به ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم أنكر وجهه فقال : مالك ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : خل عني ؟

قال : علم الله لا أخلى عنك أو تخبرني ما شأنك ؟ فلقد أصابك شيء . فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم أنه غير مغل عنه أخبره فقال : ان أبا جهل أمر فطرح على فرث ، فقال أبو البختري : هلم الى المسجد فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وأبو البختري فدخلا المسجد ثم أقبل أبو البختري الى أبى جهل فقال : يا أبا الحكم أنت الذى أمرت بمحمد — صلى الله عليه وسلم — فطرح عليه الفرث ؟ قال : نعم .

قال : فرفع السوط فضرب به رأسه .

قال : فتار الرجال بعضها على بعض .

قال : وصاح أبو جهل : ويحكم هي له انما أراد محمد — صلى الله عليه وسلم — أن يلقي العداوة بيننا وينجو هو وأصحابه .

٦ — وأخرج أبو نعيم في دلائل النبوة ص ١٠٣ : عن عروة بن الزبير رضى الله عنهما قال : ومات أبو طالب وازداد من البلاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة فعمد الى ثقيف يرجو أن يؤووه وينصروه

فوجد ثلاثة نفر منهم سادة ثقيف وهم اخوة : عبد ياليل بن عمرو ،
وخبيب بن عمرو ، ومعوذ بن عمرو . فعرض عليهم نفسه وشكا اليهم
البلاء وما انتهك قومه منه فقال أحدهم : أنا أسرق ثياب الكعبة ان كان
الله بعثك بشيء قط ؟

وقال الآخر : والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا كلمة واحدة أبدا لئن
كنت رسولا لأنت أعظم شرفا وحقا من أن أكلمك .
وقال الآخر : أعجز الله أن يرسل غيرك ؟

وأفشوا ذلك في ثقيف الذي قال لهم ، واجتمعوا يستهزئون برسول
الله صلى الله عليه وسلم وقعدوا له صفين على طريقه ، فأخذوا بأيديهم
الحجارة فجعل لا يرفع رجله ولا يضعها الا رضحوها بالحجارة وهم في
ذلك يستهزئون ويسخرون فلما خلاص من صفيهم وقدماه تسيلان الدماء
عمد الى حائط من كرومهم فأتى ظل حبله من الكرم فجلس في أصلها
مكروبا موجعا تسيل قدماه الدماء فاذا في الكرم عتبة بن ربيعة وشيبة
ابن ربيعة ، فلما أبصرهما كره أن يأتيهما يعلم من عداوتهما لله ولرسوله وبه
الذي به فأرسلا اليه غلامهما عداسا بعنب وهو نصراني من أهل نينوى .
فلما أتاه وضع العنب بين يديه فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « بسم الله » فعجب عداس ، فقال له رسول الله صلى الله
عليه وسلم : من أي أرض أنت يا عداس ؟ قال : أنا من أهل نينوى .
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من أهل مدينة الرجل الصالح
يونس بن متى ؟

فقال عداس : وما يدريك من يونس بن متى ؟
فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم من شأن يونس ما عرف ،
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحقر أحدا يبلغه رسالات
الله تعالى .

قال : يا رسول الله أخبرني خبر يونس بن متى ، فلما أخبره رسول
الله صلى الله عليه وسلم من شأن يونس بن متى ما أوحى اليه من
شأنه خر ساجدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جعل يقبل
قدميه وهما تسيلان الدماء .

فلما أبصر عتبة وأخوه شيبة ما فعل غلامهما سكتا . فلما أتاهما
قالا له : ما شأنك ؟ سجدت لحمد وقبلت قدميه ولم نرك فعلت هذا
بأحد منا .

قال : هذا رجل صالح حدثني عن أشياء عرفتھا من شأن رسول بعثه الله تعالى الينا يدعى يونس بن متى ، فأخبرني أنه رسول الله ، فضحكا وقالوا : لا يفتنك عن نصرانيتك ، انه رجل يخدع ، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة .

وذكر في البداية (ج ٣ ص ١٣٦) عن موسى بن عقبة : وقعد له أهل الطائف صفين على طريقه . فلما مر جعلوا لا يرفع رجله ولا يضعهما الا رضخوهما بالحجارة حتى أدموه فخلص منهم وهما يسيلان الدماء . وفيما ذكر ابن اسحاق : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يتس من خير ثقيف وقد قال لهم — فيما ذكر لي — : ان فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني . وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيذئثرهم ذلك عليه . فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه الى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه . ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد الى ظل حبله من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران اليه ويريان ما يلقي من سفهاء أهل الطائف .

من هذه القصص . . قصص الايذاء الرهيب نعرف ما لاقى وهو الشريف الهاشمي ذو النفس الحساسة ، ابن الأشراف ومع ذلك تحمل واستمر ، وليس بيده ألا يستمر ، وكما أودى هو أودى أتباعه كذلك وقتل بعضهم . . ومع ذلك صبروا وأمرهم بالصبر وهذا شيء يجرح الضمير أن يرى الانسان الناس يعذبون بسبب دعوته لولا أن ذلك هو الحق الذي لا ريب فيه وأن الانسان ليس مخيرا في سلوكه بل هو الذي لا بد منه للقيام بحق الله وانها لرسالة الله .

(ب) محاولة اغرائه ورفضه لذلك :

قال ابن اسحاق : وحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي ، قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيدا ، قال يوما وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم الى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ، وكيف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد . قم اليه فأكلمه ، فقام اليه عتبة حتى جلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن أخي . . انك منا حيث قد علمت ،

من السطة في العشيرة (السطة : الشرف) والمكان في النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تتظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها ، قال : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع ، قال يا ابن أخي ، ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد به ملكا ، ملكناك علينا ، وان كان هذا الذي يأتيك رثيا تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه • أو كما قال له ، حتى اذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه ، قال :

أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم •

قال : فاسمع مني ••

قال : أفعل ••

فقال : بسم الله الرحمن الرحيم « حم • تنزيل من الرحمن الرحيم • كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون • بشيرا ونذيرا فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون • وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه » • (فصلت : ١ - ٥) •

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرأها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمدا عليهما ، يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السجدة منها ، فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك •

فقام عتبة الى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس اليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش •• أطيعوني واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله (٦ - الرسول)

ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم وكنتم أسعد انفس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم •

وقال ابن اسحاق : اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث (ابن كلفة) أخو بنى عبد الدار ، وأبو البختري بن هشام ، والأسود بن المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأميه بن خلف ، أو من اجتمع منهم ، قال : اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه ، حتى تعذروا فيه ، فبعثوا اليه :

ان أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فأتهم •

فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بدأ ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس اليهم ، فقالوا له : يا محمد انا قد بعثنا اليك لنكلمك ، وانا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيل الا قد جئته فيما بيننا وبينك •

— أو كما قالوا له — فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تطلب به الشرف فينا ، فنحن نسودك علينا ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رثيا تراه قد غلب عليك — وكانوا يسمون التابع من الجن رثيا — فربما كان ذلك ، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه ، أو نعذر فيه •

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتمكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى اليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فان

تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوه على أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم • قالوا : يا محمد فان كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك فانك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ، ولا أقل ماءً ، ولا أشد عيشاً منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ولييسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فانه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول ، أحق هو أم باطل ؟ فان صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولا كما تقول .

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه : ما بهذا بعثت اليكم ، انما جئتكم من الله بما بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به اليكم ، فان تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه على أصبر لأمر الله تعالى ، حتى يحكم الله بيني وبينكم •

قالوا : فاذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك • سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بهذا عما تراك تبتغي ، فانك تقوم بالأسواق كما تقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك ان كنت رسولا كما تزعم • فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت اليكم بهذا ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا ، أو كما قال : فان تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم •

قالوا : فأسقط السماء علينا كسفا ، كما زعمت ، ان شاء ربك فعل • فاننا لا نؤمن لك الا أن تفعل •

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك الى الله ، ان شاء أن يفعله بكم فعل ، قالوا : يا محمد ، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم اليك فيعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا ، اذا لم نقبل منك ما جئتنا به ! انه قد بلغنا أنك انما يعلمك هذا رجل باليمامة ، يقال له : الرحمن ، وانا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرنا اليك يا محمد ،

وانا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلك ، أو تهلكنا ، وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة ، وهى بنات الله ، وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا .

فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قام عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم — وهو ابن عمته — فهو لعائلة بنت عبد المطلب فقال له : يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك ، فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ثم سألوك أن تجعل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ، أو كما قال له : فوالله لا أؤمن بك أبدا حتى تتخذ الى السماء سلما ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر اليك حتى تأتينا ، ثم تأتى معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول . وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك ، ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهله حزينا آسفا لما فاتته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ولما رأى من مبادئهم اياه .

قارن بين الصورتين : اضطهاد بدون حدود ، واغراء الى هذا المستوى ، ولا خيار . خذ ما تريد واترك ما أنت عليه أو تضطهد هذا الاضطهاد المر . ومحمد صلى الله عليه وسلم فى الحالتين هو هو لا الاضطهاد يؤثر فى صده عن عملية التبليغ ولا الاغراء يثنيه . وفى موقفه فى كلا الحالتين شهادة على أنه رسول الله حقا وأنه صاحب دعوة هداية أولا وآخرا .

* * *

(ج) محاولتهم أن يضغطوا عليه عائليا :

أخرج الطبرانى فى الأوسط والكبير عن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه قال : جاءت قريش الى أبى طالب فقالوا : يا أبا طالب ، ان ابن أخيك يأتينا فى أفنيتنا وفى نادينا فيسمعنا ما يؤذينا به ، فان رأيت أن نكفه عنا فافعل ، فقال لى : يا عقيل ، التمس لى ابن عمك ، فأخرجته من كبس (أى بيت صغير من أكباس أبى طالب) . فأقبل يمشى معى يطلب الفىء يمشى فيه فلا يقدر عليه حتى انتهى الى أبى طالب . فقال

له أبو طالب : يا ابن أخى ، والله ! ما علمت ان كنت لى لمطاعا وقد جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم فى كعبتهم وفى ناديتهم تسمعهم ما يؤذيتهم ، فان رأيت أن تكف عنهم • فخلق ببصره الى السماء فقال : والله ! ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار • فقال أبو طالب : والله ما كذب ابن أخى قط • ارجعوا راشدين • قال الهيثمى (ج ٦ ص ١٤) : رواه الطبرانى وأبو يعلى باختصار يسير من أوله : ورجال أبى يعلى رجال الصحيح ، انتهى • وأخرجه البخارى فى التاريخ بنحوه كما فى البداية (ج ٣ ص ٤٢) •

وعند البيهقى أن أبا طالب قال له — صلى الله عليه وسلم — : يا ابن أخى ان قومك قد جاؤنى وقالوا كذا وكذا فابق على وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك •

فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قد بدا لعمه فيه وأنه خاذله ومسلمه وضعف عن القيام معه • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عم • • لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فى طلبه ، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى • فلما ولى قال له حين رأى ما بلغ برسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابن أخى فأقبل عليه فقال : امض على أمرى وافعل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا — كذا فى البداية (ج ٣ ص ٤٢) •

والذى يعرف عادة العرب فى احترام الأكابر منهم وطاعتهم لأمرائهم ومشايخ بيوتهم يدرك مدى الأثر الكبير الذى يحدثه تدخل أبى طالب شيخ بنى هاشم نتيجة ضغط قومه عليه • ومحمد صلى الله عليه وسلم الحى الخجول المذهب ما كان ليخالف أمر عمه ورغبته لو كانت المسألة مسألة شخصية ولكن الأمر أكبر من ذلك • انه أمر الله الذى هو أكبر من كل عرف ومن كل اعتبار ومن كل ضغط • وفى ذلك شهادة كاملة لمن عرف عادات القبائل العربية على أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم •

* * *

(د) سلوكهم طريق الاستهزاء والسخرية والاعراض والانتهاكات :

من سيرة ابن هشام ننقل هذه المقاطع :

— ثم ان الوليد بن المغيرة اجتمع اليه نفر من قريش ، وكان ذا سن

فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، انه قد حضر هذا الموسم وان وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا ، قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس ، فقل وأقم لنا رأيا نقول به ، قال : بل أنتم فقولوا أسمع ، قالوا : نقول كاهن ، قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا بسجعه ، قالوا : فنقول : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ، ولا تخالجه ولا وسوسته ، قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله : رجزه ، وهزجه ، وقريضه ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم ، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله ان لقوله لحلاوة ، وان أصله لعذق (النخلة) وان فرعه لجناة — قال ابن هشام : ويقال : لعذق (الغدق : الماء الكثير) — وما أنتم بقائلين من هذا شيئا الا عرف أنه باطل ، وأن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد الا حذروه اياه وذكروا لهم أمره .

— وقال ابن اسحاق :

ثم ان قريشا اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أسلم معه منهم ، فأغروا برسول الله صلى الله عليه وسلم سفهاءهم ، فكذبوه وآذوه ، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مظهر لأمر الله لا يستخفى به ، مباد لهم بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، وفراقه اياهم على كفرهم .

— وقال ابن اسحاق :

وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث منوك الفرس وأحاديث رستم واسبنديار ، فكان اذا جلس رسول الله

صلى الله عليه وسلم مجلسا فذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه ، فها أنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا مني ؟

— وقال :

فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب ، حين سألوه عما سألوا عنه ، حال الحسد منهم له بينهم وبين اتباعه وتصديقه ، فعتوا على الله وتركوا أمره عيانا ، ولجوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » (فصلت : ٢٦) أى اجعلوه لغوا وباطلا واتخذوه هزوا ، لعلكم تغلبونه بذلك ، فانكم ان ناظرتموه أو خاصمتموه يوما غلبكم .

— وقال : فقال أبو جهل يوما وهو يهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الحق : يا معشر قريش ، يزعم محمد انما جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشرة ، وأنتم أكثر الناس عددا ، وكثرة ، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم ، فأنزل الله تعالى عليه في ذلك قوله : « وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا » (المدثر : ٣٠ ، ٣١) الى آخر القصة .

فلما قال ذلك بعضهم لبعض ، جعلوا اذا جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن وهو يصلى فيتفرقون عنه ، ويأبون أن يستمعوا له ، فكان الرجل منهم اذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلى ، استترق السمع دونهم ، فرقا منهم ، فان رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ، ذهب خشية أذاهم ، فلم يستمع ، وان خفض رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته ، فظن الذي يستمع أنهم يستمعون شيئا من قراءته وسمع هو شيئا دونهم ، أصاخ له يستمع منه .

تصور حرب الدعاية الفظيعة التي لجأوا اليها ، وهم قريش موطن ثقة العرب ، والذين تأتيهم العرب سنويا للحج ، وهم يشوهون اسمه عاما بعد عام ، ويحاولون أن يحاربوه بكل سلاح من أسلحة القول ،

والعربي نفسه لا تسمح أبدا أن يقف موقف المتهم ، ومع ذلك بقي رسول الله صلى الله عليه وسلم صابرا على هذه الحرب الدعائية الفظيعة ، هذه المدة الطويلة ! ثلاثة عشر عاما ، ما ونى وما كل ، وهو يقوم بعملية التبليغ المستقيمة النظيفة •

أن استمرار الداعية في مثل هذا الجو المحموم وحده ، دليل على صدقه فيما يدعو اليه ، والا فكيف نعلل استمرار رجل في دعوة يلاقى ما لاقى ، مع العرض عليه كل متاع الدنيا ، ثم لا يرضى الا بحمل الناس على دعوته مع هذا الموقف الشديد منه • أن هذا لا يعطل الا بصدقه في دعوته ، وأنه يبلغها مأمورا من الله عز وجل ، وقد وضح له أن النكوص عن طريقه وراءه ما وراء الذي يعصى أمر الله من عقاب الله •



(هـ) استعمال سلاح المقاطعة :

قال ابن اسحاق : فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلدا أصابوا به أمنا وقرارا ، وأن النجاشي قد منع من لجأ اليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وجعل الاسلام يفسد في القبائل ، اجتمعوا واثتمروا بينهم أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب ، على أن لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئا ، ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي — قال ابن هشام : ويقال : النضر بن الحارث ، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فشل بعض أصابعه •

قال ابن اسحاق : فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب الى أبي طالب بن عبد المطلب ، فدخلوا معه في شعبة واجتمعوا اليه وخرج من بنى هاشم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب الى قريش ، فظاهرهم •

وقال ابن اسحاق : وحدثني حسين بن عبد الله : أن أبا لهب لقي هند بنت عتبة بن ربيعة حين فارق قومه وظاهر عليهم قريشا ، فقال :

يا بنت عتبة هل نصرت اللات والعزى وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما ؟
قالت : نعم فجزاك الله خيرا يا أبا عتبة •

— وأخرج أبو نعيم في الحلية ج ١ ص ٩٣ عن سعد رضى الله عنه
قال : « كنا قوما يصيينا ظلف العيش بمكة مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم وشدته ، فلما أصابنا البلاء اعترفنا لذلك ومرنا عليه وصبرنا
له ، ولقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة خرجت من
الليل أبول ، وإذا أنا أسمع بقعقة شئ تحت بولى فاذا قطعة جلد
بعير ، فأخذتها فغسلتها ثم أحرقتها فوضعتها بين حجرين ثم أستفها
وشربت عليها من الماء ففويت عليها ثلاثا » •

هذه المقاطعة التى كان من آثارها ما رأيت استمرت ثلاث سنين
متواليات • لا بيع ولا شراء ولا زواج ولا ازواج ولا طعام ولا شراب •
يقول السهيلي : كانت الصحابة اذا قدمت غير الى مكة يأتى أحدهم
السوق ليشتري شيئا من الطعام قوتا لعياله فيقوم أبو لهب فيقول :
يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا وقد
علمتم مالى ووفاء ذمتى فأنا ضامن أن لا خسار عليكم ، فيزيدون عليهم
في السلعة قيمتها أضعافا ، حتى يرجع أحدهم الى أطفاله وهم يتضاغون
من الجوع ، وليس في يده شئ يطعمهم به ، ويغدو التجار على أبى لهب
فيربحهم فيما اشترؤا من الطعام واللباس •

ثلاث سنوات متواليات على هذه الحال والمسلمون وأقارب رسول
الله صلى الله عليه وسلم من المشركين أنفسهم ممن يحمونه عصبية
ببى هاشم وببنى المطلب ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم صابر وهو
يرى هذه المناظر المؤلمة • زوجه خديجة الطاعنة فى السن عمه أبو طالب
الطاعن فى السن أسرته أقاربه يعانون هذه الحياة المجهدة ، ومع ذلك
ما فكر لحظة فى إيقاف عملية التبليغ والجهر بالدعوة ، وليس هناك
ظاهريا بارقة أمل ، فالجزيرة العربية كلها مجمعة على الوقوف ضده مع
قريش ، ومع ذلكبقى مستمرا لا لقاء ولا مداينة ولا تنازل ولا أى
شئ آخر • فمن يستطيع أن يتحمل هذا لولا ايمان بالله وثقة به وصدق
بوعده ووعيدة ، واتصال بالله كامل يستسلم صاحبه لأمر الله فيه • انها
صفات الأنبياء ولا يمكن أن تملك الا بأن صاحبها رسول الله حقا •

(و) محاولتهم قتله :

— قال ابن اسحاق :

ثم ان قريشا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم واسلامه واجتماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم ، مشوا اليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له : — فيما بلغنى — يا أبا طالب : هذا عمارة بن الوليد ، أنهد فتى في قريش وأجمله ، فخذ به فلك عقله ونصره ، واتخذه ولدا فهو لك ، وأسلم اليينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم ، فنقتله ، فانما هو رجل برجل • فقال : والله لبئس ما تسوموننى ، أتعطونى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ! هذا والله ما لا يكون أبدا • قال : فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بن قصي : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا ، فقال أبو طالب للمطعم : والله ما أنصفونى ، ولكنك قد أجمعت خذلانى ، ومظاهرة القوم على فاصنع ما بدا لك — أو كما قال — فحقب الأمر وحميت الحرب وتنايذ القوم وبادى بعضهم بعضا •

— وقال ابن اسحاق :

فلما قام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو جهل : يا معشر قريش ان محمدا قد أبى الا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا ، وانى أعاهد الله لأجلس له غدا بحجر ما أطيق حمله — أو كما قال — فاذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبدا ، فامض لما تريد •

— وقال ابن اسحاق :

وكان اسلام عمر — فيما بلغنى — أن أخته فاطمة بنت الخطاب ، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلمها سعيد بن زيد وهما مستخفيان باسلامهما من عمر ، وكان نعيم ابن عبد الله النحام رجل من قومه ، من بنى عدى بن كعب قد أسلم ، وكان أيضا يستخفى باسلامه فرقا من قومه ، وكان خباب بن الارت يختلف الى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن ، فخرج عمر يوما متوشحا

سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا من أصحابه قد ذكروا أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق ، وعلى بن أبي طالب في رجال من المسلمين رضى الله عنهم ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ولم يخرج فيمن خرج الى أرض الحبشة . فلقبه نعيم ابن عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر ؟

فقال : أريد محمدا هذا الصابى ، الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها ، فأقتله . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أتري بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ! أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟
فقال : وأى أهل بيتى ؟

قال : خنتك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما . قال : فرجع عمر عامدا الى أخته وخنته .

— وقال ابن اسحاق : من خبر اجتماع الملا من قريش وتشاورهم في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض : ان هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم . فانا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأيا . قال : فتشاوروا ثم قال قائل منهم : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيرا والنابعة ، ومن مضى منهم مع هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم ، فقال الشيخ النجدى : لا والله ، ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه الى أصحابه ، فلاؤشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى ، فانظروا في غيره ، فتشاوروا ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا فوالله لا نبالى أين ذهب ولا حيث وقع ، وإذا غاب عنا وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت . فقال الشيخ النجدى : لا والله ، ما هذا برأى ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتكم أن يحل على من العرب فيغلب

عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه . ثم يسير بهم اليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد . دبروا فيه رأيا غير هذا .

قال : فقال أبو جهل بن هشام : والله ان لى فيه رأيا ، ما أراكم وقعتم عليه بعد .

قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسييا وسيطا (الشريف في قومه) فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا اليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل ، فعقلناه لهم (العقل : الدية) قال : فقال الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل ، هذا الرأي الذى لا أرى غيره فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له .

هذه نماذج من قرارات القوم بشأن اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم . واذن الفترة التى قضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة لم تكن فترة أمن من كل الجوانب . ومع هذه التهديدات المتواصلة وهذا الجو الذى يحطم الأعصاب . نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما انقطع فترة عن القيام بعملية التبليغ والجهاد بها . ومجابهة الناس بما يدعوا له ، ان هذا كله ليس عاديا في بيئة عربية وعلى النفسية العربية لولا أن المسألة مسألة وحى من الله وأمر .

* * *

(ز) ملاحقة خطواته ومحاولة ايتاسه منهم :

أخرج ابن اسحاق عن ربيعة بن عباد رضى الله عنه قال : انى لغلाम شاب مع أبى بمنى ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب فيقول : يا بنى فلان . . انى رسول الله اليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به . قال : وخلفه رجل أحول وضىء له غدירתان عليه حلة عدنية . فاذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وما دعا اليه قال ذلك الرجل : يا بنى فلان . . ان هذا انما يدعوكم أن تسلخوا اللات

والعزى من أعناقكم وحلفائكم من الجن من بنى مالك بن أقيش الى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه .
قال : فقلت لأبى : يا أبت .. من هذا الرجل الذى يتبعه ويرد عليه ما يقول ؟ قال هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب .
— وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج فى المواسم فيدعو القبائل ، ما أحد من الناس يستجيب له ويقبل منه دعاءه ، فقد كان يأتى القبائل بمجنة وعكاظ وبمنى حتى يستقبل القبائل يعود اليهم سنة بعد سنة حتى أن القبائل منهم من قال : ما آن لك أن تياس منا ؟
لقد بقى مستمرا فى عملية التبليغ على وتيرة واحدة وبدأب متواصل ، رغم هذه الظروف غير المواتية ، والتي تجعل الانسان العادى يياس أو يفتر . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، فلولا أنه رسول الله حقا يقوم بهذا كله ايمانا بالله وتنفيذا لأمره وتصديقا بوعده وخوفا من وعيده لما أمكنه الاستمرار وتجاوز شيء من هذا .

* * *

ونكتفى بهذه الأمثلة على نخطيه العقبات أمام البلاغ لننتقل الى عرض نماذج من عمله الدائب المستمر الشامل فى تبليغ دعوة الله أى الى :

(٢) نماذج النوع الثانى

(وهو الطرق التى سلكها لايصال دعوة الله الى الناس) .

(أ) دعوته الناس للاجتماع من أجل أن يبلغهم :

أخرج أحمد عن ابن عباس قال : لما أنزل الله : « وأنذر عشيرتك الأقربين » (الشعراء : ٢١٤) أتى النبى الصفا فصعد عليه ثم نادى : يا صباحاه .. فاجتمع الناس اليه بين رجل يجىء اليه وبين رجل يبعث رسوله فقال رسول الله : يا بنى عبد المطلب .. يا بنى فهر .. يا بنى كعب رأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمنى ؟ قالوا : نعم . قال : فانى نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبأ لك سائر اليوم أما دعوتنا الا لهذا ؟ وأنزل الله : « تبأ يدا أبى لهب وتب » (المسد : ١) .

(ب) ذهابه الى أماكن تجمع الناس وتبليغهم دعوة الله :

أخرج أحمد عن رجل من بنى مالك بن كنانة قال : رأيت رسول الله بسوق ذي المجاز يتخللها يقول : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » قال : وأبو جهل يحثي عليه التراب ويقول : لا يغوينكم هذا عن دينكم فانما يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى وما يلتفت اليه رسول الله ..

وأخرج أحمد عن ربيعة عن عباد من بنى الديل وكان جاهليا فأسلم قال : رأيت رسول الله في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » والناس مجتمعون عليه وراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين يقول : انه صابىء كاذب يتبعه حيث ذهب فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب .

وأخرج البخارى في التاريخ وأبو زرعة والبغوى وابن أبى عاصم والطبرانى عن الحارث بن الحارث بن الحارث الغامدى قال : قلت لأبى ونحن بمنى : ما هذه الجماعة ؟ قال : هؤلاء اجتمعوا على صابىء لهم ، قال : فتشرفت فلذا برسول الله يدعو الناس الى توحيد الله وهم يردون عليه الحديث .

وأخرج الطبرانى عن مدرك قال : حججت مع أبى فلما نزلنا منى اذا نحن بجماعة فقلت لأبى : ما هذه الجماعة ؟ قال : هذا الصابىء فاذا رسول الله يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا .

وأخرج ابن اسحاق عن الزهرى : أنه عليه السلام أتى كندة في منازلهم وفيهم سيد لهم يقال له مليح فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه .

وعن محمد بن عبد الرحمن بن حصين : أنه (أى رسول الله) أتى كلبا في منازلهم الى بطن يقال لهم بنو عبد الله فدعاهم الى الله وعرض عليهم نفسه حتى أنه ليقول : يا بنى عبد الله .. ان الله قد أحسن اسم أبيكم فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم .

وفي البداية عن عبد الله بن كعب بن مالك : أن رسول الله أتى بنى حنيفة في منازلهم فدعاهم الى الله وعرض عليهم نفسه فلم يك أحد من العرب أقبح ردا عليه منهم .

وعن ابن اسحاق عن الزهرى أنه (أى رسول الله) أتى بنى عامر ابن صعصعة فدعاهم الى الله وعرض عليهم نفسه فقال له رجل منهم

يقال له بحيرة بن فراس : والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ثم قال له : رأيت ان نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر الى الله يضعه حيث يشاء . فقال له : أفنهدف نحورنا للعرب دونك فاذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه . فلما صدر الناس رجعت بنو عامر الى شيخ لهم قد كانت أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم الموسم . فكانوا اذا رجعوا اليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم . فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم فقالوا : جاءنا فتى من قريش ثم أحد بنى عبد المطلب يزعم أنه نبي يدعونا الى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به الى بلادنا . فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بنى عامر .. هل لها من تلاف ؟ هل لذنا بها من مطلب ؟ والذي نفس فلان بيده ما تقولها اسماعيلي قط ، وانها الحق فأين رأيكم كان عنكم ؟

وأخرج الحافظ أبو نعيم عن العباس رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أرى لى عندك ولا عند أخيك منعة فهل أنت مخرجى الى السوق غدا حتى نقر فى منازل قبائل الناس ؟ وكانت مجمع العرب . قال فقلت : هذه كندة ولفها وهى أفضل من يحج البيت من اليمن وهذه منازل بكر بن وائل ، وهذه منازل بنى عامر ابن صعصعة ، فاختر لنفسك ؟ قال : فبدأ بكندة فأتاهم فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من أهل اليمن . قال : من أى اليمن ؟ قالوا : من كندة . قال : من أى كندة ؟ قالوا : من بنى عمرو بن معاوية ، قال : فهل لكم الى خير ؟ قالوا : ما هو ؟ قال : تشهدون أن لا اله الا الله ، وتقيمون الصلاة وتؤمنون بما جاء من عند الله . قال عبد الله بن الأجلح : وحدثنى أبى عن أشياخ قومه أن كندة قالت له : ان ظفرت تجعل لنا الملك من بعدك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الملك لله يجعله حيث يشاء . فقالوا : لا حاجة لنا فيما جئتنا به .

وقال الكلبي : فقالوا : أجئتنا لتصدنا عن آلهتنا وننابذ العرب . الحق بقومك فلا حاجة لنا بذلك . فانصرف من عندهم فأتى بكر بن وائل فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من بكر بن وائل . فقال : من أى بكر ابن وائل ؟ قالوا : من بنى قيس بن ثعلبة . قال : كيف العدد ؟ قالوا : كثير مثل الثرى . قال : فكيف المنعة ؟ قالوا : لا منعة جاورنا فارس

فنحن لا نمتنع منهم ولا نجير عليهم • قال : فتجعلون الله عليكم ان هو ابقاكم حتى تنزلوا منازلهم ، وتستكحوا نساءهم ، وتستعبدوا أبناءهم أن تسبحوا الله ثلاثا وثلاثين وتحمدوه ثلاثا وثلاثين ، وتكبروه أربعاً وثلاثين • قالوا : من أنت ؟ قال : أنا رسول الله • ثم انطلق فلما ولى عنهم قال الكلبى : وكان عمه أبو لهب يتبعه فيقول للناس : لا تقبلوا قوله ، ثم مر أبو لهب فقالوا : هل تعرف هذا الرجل ؟ قال : نعم ، هذا فى الذروة منا فعن أى شأنه تسألون ؟ فأخبروه بما دعاهم اليه وقالوا : زعم أنه « رسول الله » قال : ألا لا ترفعوا برأسه قولاً فإنه مجنون يهذى من أم رأسه • قالوا : قد رأينا ذلك حين ذكر من أمر فارس ما ذكره •



(ج) رحلته من أجل التبليغ :

أخبر الطبرانى عن عبد الله بن جعفر قال : لما توفى أبو طالب خرج النبى الى الطائف ماشياً على قدميه يدعوهم الى الاسلام فلم يجيبوه فانصرف فأتى ظل شجرة فصلى ركعتين ثم قال : اللهم انى أشكو اليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ! أنت أرحم الراحمين ، الى من تكلنى ؟ الى عدو يتجهمنى أم الى قريب ملكته أمرى ان لم تكن غضبان على فلا أبالى غير أن عافيتك أوسع لى • أعوذ بوجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بى غضبك أو يحل بى سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا قوة الا بالله •



(د) تكليفه من أسلم تبليغ من لم يسلم :

أخرج أبى عاصم عن الأحنف بن قيس قال : بينما أنا أطوف بالببيت فى زمن عثمان اذ أخذ رجل من بنى ليث بيدي فقال : ألا أبشرك ؟ قلت : بلى قال : أتذكر اذ بعثنى رسول الله الى قومك فجعلت أعرض عليهم الاسلام وأدعوهم اليه فقلت أنت : انك لتدعونا الى خير وتأمر به وانه ليدعو الى الخير فبلغ ذلك النبى فقال : اللهم اغفر للأحنف •

وأخرج الدارقطنى عن ابن عمر قال : دعا النبى عبد الرحمن ابن عوف فقال : تجهز فانى باعئك فى سرية — فذكر الحديث وفيه : فخرج عبد الرحمن حتى لحق بأصحابه فسار حتى قدم دومة الجندل

فلما دخلها دعاهم الى الاسلام ثلاثة أيام فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبع بن عمرو الكلبي وكان نصرانيا ، وكان رأسهم فكتب عبد الرحمن — مع رجل من جهينة يقال له رافع بن مكيث — الى النبي يخبره فكتب إليه النبي أن تزوج ابنة الأصبع فتزوجها وهي تماضر التي ولدت له بعد ذلك أبا سلمة بن عبد الرحمن •

وأخرج ابن اسحاق عن محمد بن عبد الرحمن التميمي قال : بعث رسول الله عمرو بن العاص يستنفر العرب الى الاسلام وذلك أن أم العاص بن وائل كانت من بنى بلى فبعثه رسول الله اليهم يتألفهم بذلك • • وأخرج البيهقي عن البراء أن رسول الله بعث خالد بن الوليد الى أهل اليمن يدعوهم الى الاسلام • قال البراء : فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد فأقمنا ستة أشهر يدعوهم الى الاسلام فلم يجيئوه • ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره أن يقفل خالدا الا رجلا كان ممن مع خالد ، فأحب أن يعقب مع علي فليعقب معه • قال البراء : فكنت فيمن عقب مع علي • فلما دنونا من القوم خرجوا الينا ثم تقدم • فصلى بنا علي ثم صفنا صفا واحدا ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت همدان جميعا ، فكتب علي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلامهم • فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب خر ساجدا ثم رفع رأسه فقال : السلام على همدان • • السلام على همدان •

* * *

(هـ) تكليفه من تعلم أن يعلم من لم يعلم :

أخرج أبو نعيم في الحلية عن عروة بن الزبير رضي الله عنه : أن الأنصار لما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله وأيقنوا واطمأنت أنفسهم الى دعوته فصدقوه وآمنوا به — كانوا من أسباب انخير وواعدوه الموسم من العام المقبل فرجعوا الى قومهم — بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ابعث الينا رجلا من قبلك فيدعو الناس الى كتاب الله فانه أدنى أن يتبع فبعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير رضي الله عنه أخا بني عبد الدار ، فنزل بني غنم على أسعد بن زرارة يحدثهم ويقص عليهم القرآن فلم نزل مصعب عند سعد بن معاذ يدعو ويهدي الله على يديه حتى قل دار من (٧ - الرسول) .

دور الأنصار الا أسلم فيها ناس لا محالة ، وأسلم أشرافهم ، وأسلم عمرو بن الجموح وكسرت أصنامهم • ورجع مصعب بن عمير الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يدعى المقرئ •

وروى الطبراني في الكبير عن بكير بن معروف عن علقمة •• عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم ويتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعجلنهم العقوبة » •

ثم نزل فقال قوم : من ترونه عنى بهؤلاء ؟ قال : الأشعريين هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب فبلغ ذلك الأشعريين فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله •• ذكرت قوما بخير وذكرتنا بشر فما بالنا ؟ فقال : ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهنهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون أو لأعجلنهم العقوبة في الدنيا ، فقالوا : يا رسول الله أنعظن غيرنا ؟ فأعاد قوله عليهم فأعادوا قولهم : أنعظن غيرنا ؟ فقال ذلك أيضا ، فقالوا : أمهلنا سنة فأمهلهم سنة يفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون • كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » • (المائدة : ٧٨ ، ٧٩) •

* * *

(و) ارساله الرسل والرسائل لتبليغ الملوك والأمراء :

أخرج البيهقي عن ابن اسحاق قال : بعث رسول الله عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه وكتب معه كتابا :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى النجاشي الأصحم ملك الحبشة •• السلام عليك فاني أحمد اليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول انطاهرة الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته كما خلق آدم بيده ونفخه واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالة على

طاعته وأن تتبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني فاني رسول الله وقد بعثت اليك ابن عمي جعفرًا ومعه نفر من المسلمين فاذا جاءوك فأقرهم ودع التجبر فاني أدعوك وجنودك الى الله عز وجل وبلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى » •

وأخرج البخاري عن ابن عباس حديث أبي سفيان مع هرقل وفيه نص رسالة رسول الله اليه وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم • من محمد عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم •• سلام على من اتبع الهدى أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فان عليك اثم الأريسيين : « يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » • (آل عمران : ٦٤) •
وأخرج ابن جرير من طريق ابن اسحاق نص رسالة الرسول الى كسرى وهي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس •• سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله وأدعوك بدعاء الله فاني أنا رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين فان تسلم تسلم وان أبيت فان اثم المجوس عليك » •
وأخرج البيهقي نص رسالة الرسول الى أهل نجران وهي :

« باسم اله ابراهيم واسحاق ويعقوب من محمد النبي رسول الله الي أسقف نجران وأهل نجران •• سلم انتم فاني أحمد اليكم اله ابراهيم واسحاق ويعقوب أما بعد •• فاني أدعوكم الى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم الى ولاية الله من ولاية العباد فان أبيتم فالجزية فان أبيتم فقد أذنتكم بحرب •• والسلام » •

وقد أرسل الرسول عليه السلام رسائل - شابهة الى المقوقس والى ملك اليمامة والى المنذر بن ساوى عظيم البحرين والى الحارث ابن أبي شمر الغساني والى الحارث بن عبد كلال الحميري والى ملكي عمان ابني الجلندي وغيرهم •

* * *

هذه نماذج من عملية التبليغ عند رسول الله تعطيك صورة مبسطة عن

قيامه عليه السلام بتبليغ أمر الله ودينه وشريعته ، واستيفاء هذا الموضوع حقه يحتاج الى مجلد ضخم على الأقل • اذ أن رسول الله خلال ثلاثة وعشرين عاما بعد النبوة ، لم يهدأ ولم يسترح ولم يفوت فرصة يستطيع بها أن يبلغ رسالة الله الا وبلغ ، بالاتصال الشخصي والعرض الجماعي ، وفي السفر والحضر وبنفسه وأتباعه وبالمشافهة والخطاب ، ثم عمم الأمر على أمة جميعا بأن عليهم واجب البلاغ عنه • حتى لا يبقى انسان من البشر الا وقد بلغته دعوته • وانظر الى نتائج هذا كله تجد أنه عليه السلام لم يمت الا والجزيرة العربية كلها مستجيبة لأمر الله • وأكبر الدول المجاورة للجزيرة العربية قد بلغتها الدعوة ولم يمض عصر الخلفاء الراشدين الا وكان أكثر العالم المعروف وقتذاك قد بلغته الدعوة ، فمن مستجيب ومن معرض قامت عليه الحجة فأصر على الكفر عنادا ، وما من انسان يستطيع أن يتصور مثل هذا الحماس للتبليغ المنقطع النظير يمكن أن يكون الا وليد اقتناع كامل بصدق الدعوة والداعية ، وما كان الداعية ليعطى هذا الحماس لأتباعه ، لو لم يكن هو في أعلى حالات الصدق والقيام بالواجب والشعور بالمسؤولية أمام الله ان قصر فيه •

ان تاريخ العالم كله لا يقص علينا ، أن أحدا قد استوعبت دعوته من قبل الآخرين في حياته كما حدث لرسول الله الذي لم يمت الا وعشرات الآلاف من أتباعه يحفظون من الكتاب المنزل عليه الكثير ، ومن أحاديثه وتعاليمه الكثير الكبير ، ثم حفظت نصوص تعاليمه حرفيا لكل الأجيال الآتية بعد ، لأنها كلها مكلفة باتباعه ومحاسبة أمام الله ان لم تفعل • اذا بلغ واحد منها دعوته • أما من لم تبلغه دعوته فقد اقتضت حكمة الله ألا يعتبر مسئولا ، ولكن عمليا • وذلك كله من آثار قيام الرسول بواجب التبليغ لم يبق أحد منذ زمن بعيد الا في النادر لم تبلغه دعوة رسول الله ، وأنت ترى الآن الدعاة الى الله على صراط رسول الله منتشرين في العالم كله ، لقد قام رسول الله بعملية التبليغ حق القيام ، وكما رأيت فان في كل موقف من مواقفه فيها ما يجعلك على برد اليقين ، بأن هذه المواقف ما كانت لتكون ، لولا أن رسول الله محمدا صادق في دعوى الرسالة عن الله •

فالى الصفة الأساسية الرابعة الملازمة للتبليغ ولجوهر الرسالة عن

الله وهى العقل العظيم والفتانة لترى كيف أن لرسول الله الحظ الأعلى منها :

* * *

٤ — عقله العظيم وفتانته عليه السلام

١ — ان الصفة الرابعة للرسول عليهم الصلاة والسلام هى الفتانة وهى الصفة الملازمة للتبليغ . اذ الرسول معرض وهو يقوم بعملية انتبليغ لمناقشات الخصوم أو لتساؤلات الأتباع أو لاعتراضات المشككين وانتقاداتهم ، فلا بد أن يكون من الذكاء ، وقوة البيان وحدة العارضة ما يستطيع به أن يبهت الآخرين فلا تقوم لهم حجة ، اذ لو قامت لهم حجة لما كان له عليهم سلطان وذلك مقتضى قوله تعالى : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة » (النساء : ١٦٥) . وهذا لا يتم الا بأن تكون دعوة الرسول حقا كلها ، اذ غير الحق لا تكون حجته واضحة ، والباطل دائما حجته داحضة ، ولا يتم كذلك الا بعقل يستطيع احكام الحجة فى العرض . فكم حق لم يجد عقلا فضاع ، ولا يتم هذا كله الا بفصاحة وبيان يمكن بهما عرض الحجة بالشكل الأكمل . ولا يتأتى هذا الا لأعلم الناس وأذكى الناس وأفصح اناس .

فالناس يتفاوتون علما ويختلفون اختصاصا . فمنهم رجل الدين . ومنهم السياسى . ومنهم الاقتصادى . ومنهم الطبيب ، ومنهم رجل الحكمة ومنهم ومنهم . . وكل واحد من هؤلاء ينبغى أن تقام عليه الحجة لو اعترض من جانب اختصاصه فما لم يكن الرسول أعلم الخلق فى كل جانب من حيث صلة هذا الجانب برسالته لا يستطيع اقامة الحجة . والناس يتفاوتون ذكاء وقوة حجة وعارضة ، والرسول مهمته أن يقيم الحجة على كل البشر فما لم يكن أذكى البشر فانه لا يستطيع أن يفعل .

وانسان يحتاج الى هذا كله لا بد له من لسان مبين ، وفصاحة عظيمة ، حتى قال موسى يوم كلفه الله بالوحى : « رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى . يفقهوا قولى » (طه : ٢٥ — ٢٨) . وباجتماع هذه الجوانب كلها تتحقق صفة الفتانة عند الرسول وتدل بذلك على صاحبها أنه رسول الله حقا مع استكمال بقية الشروط . فالحق الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والحجة الكاملة البينة الخاصة فيه .
والعرض السليم الكامل الأداء .
والزام الخصوم العجز عن أن يكون لهم موقف حق الا بالمتابعة .
كل هذا لا يتأتى الا لدعوة الله المحيط علما بكل شيء ولرسوله الذي
يختاره أهلا لحمل دعوته « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس »
(الحج : ٧٥) « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (الأنعام : ١٢٤) .

٢ — وباستعراضنا لهذه الجوانب عند رسول الله محمد صلى الله
عليه وسلم نجد أن له من كل شيء ذروة ، فمن حيث أن دعوته كلها حق
فذلك لا مزية فيه وتحقيق ذلك في كل بحوث هذا الكتاب .
ومن حيث الفصاحة فهو أفصح العرب على الإطلاق وأبينهم لغة
ونطقا وأداء .

ومن حيث اقامة الحجة فانك لا تجد انسانا ، يستطيع اقامة الحجة
المقنعة على كل انسان حسب مستواه العقلي بكل بساطة ، كما كان
يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وبهذا تأتى له أن يقيم الحجة على
الناس بدينه كله ، عقيدة وعبادات وسلوكا ومنهاج حياة ، هذا مع
توفيق الله له وحكمته جل جلاله بأن كان القرآن الكريم قد فصل كل شيء ،
وحاج كل انسان فحجه ، فكان القرآن مع حديث رسول الله صلى الله
عليه وسلم الصحيح كما فحصه علماء الحديث — وهما محفوظان —
حجة لله على البشر في كل جيل الى قيام الساعة .

٣ — ولتوضيح ظهور هذه الجوانب عند رسول الله صلى الله عليه
وسلم . سنختار نماذج من مناقشاته يقيم بها الحجة على آخرين ومن
خطبه أو كتبه يدعو بها الى شيء من شريعته ومن كلمه المعلن بالحكمة
في الأمر أو النهي أو الخير مما يدل على مدى ملكة الاقتناع التي وهبها
الله لرسوله حتى جعله أكمل الخلق في كل خلق .

— أخرج عبد الله بن أحمد وأبو يعلى عن سعيد بن أبي راشد
قال : رأيت التتوخي رسول هرقل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
بحمص وكان جارا لي شيخا كبيرا قد بلغ الفناء أو قرب فقلت ألا
تخبرني عن رسالة هرقل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسالة

رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هرقل ؟ قال : بلى •• وذكر الحديث ومن جملة :
» فانطلقت بكتابه (أى كتاب هرقل) حتى جئت تبوك فاذا هو

جالس بين أصحابه على الماء •
فقلت : أين صاحبكم ؟

قيل هاهو ذا فأقبلت أمشى حتى جلست بين يديه فناولته كتابى موضعه فى حجره ثم قال : ممن أنت • قلت : أنا أحد تنوخ • فقال : هل لك فى الحنفية ملة ابراهيم ؟ قلت : انى رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع اليهم • قال : « انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » (القصص : ٥٦) •

الى أن قال : ثم انه ناول الصحيفة رجلا عن يساره فقلت : من صاحب كتابكم الذى يقرأ لكم ؟ قالوا : معاوية فاذا فى كتاب صاحبى : يدعونى الى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين فأين النار ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله فأين الليل اذا ذهب النهار •

قال الهيثمى : رجال أبى يعلى ثقات ورجال عبد الله بن أحمد كذلك • — أخرج ابن خزيمة عن عمران بن خالد بن طليق بن محمد بن عمران ابن حصين قال : حدثنى أبى عن أبيه عن جده أن قريشا جاءت الى الحصين — وكانت تعظمه — فقالوا له : كلم لنا هذا الرجل فانه يذكر آلهتنا ويسبهم • فجاءوا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : أوسعوا للشيخ • وعمران وأصحابه متوافرون • فقال حصين : ما هذا الذى بلغنا عنك • انك تتستم آلهتنا وتذكرهم وقد كان أبوك حصية وخيرا ؟ فقال : يا حصين ان أبى وأباك فى النار ، يا حصين كم تعبد من اله ؟ قال سبعا فى الأرض وواحدا فى السماء • قال : فاذا أصابك الضر من تدعو ؟ قال : الذى فى السماء قال : فاذا هلك المال من تدعو ؟ قال : الذى فى السماء • قال : فيستجيب لك وحده وتشرکہم معه ، أرضيته فى الشكر أم تخاف أن يغلب عليك ؟ قال : لا واحدة من هاتين ، قال : وعلمت أنى لم أكلم مثله •

قال : يا حصين أسلم تسلم •

قال : ان لى قوما وعشيرة فماذا أقول ؟

قال : قل اللهم أستهديك لأرشد أمرى وزدنى علما ينفعنى •

فقالها حصين فلم يقم حتى أسلم • فقام اليه عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه فلما رأى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم بكى وقال :
بكيت من صنع عمران ، دخل حصين وهو كافر فلم يقم اليه عمران ولم يلتفت ناحيته فلما أسلم قضى حقه فدخلني من ذلك الرقة •
فلما أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه : قوموا فشيّعوه الى منزله ، فلما خرج من سدة الباب رآته قريش فقالوا صبا وتفرقوا عنه • كذا في الاصابة ج ١ ص ٣٣٧ •

— أخرج أحمد عن أبي تميمة الهجيمي عن رجل من قومه أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قال : شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه رجل فقال : أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قال أنت محمد ؟

فقال : نعم • قال : ما تدعو ؟ قال : أدعو الله عز وجل وحده —
من اذا كان لك ضر فدعوته كشفه عنك ومن اذا أصابك عام فدعوته أنبت لك • ومن اذا كنت في أرض قفر فأضلك فدعوته رد عليك •
فأسلم الرجل ثم قال : أوصني يا رسول الله ، فقال : لا تسب شيئا •
أو قال أحدا • شك الحكم — قال : فما سببت بعيرا ولا شاة منذ أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم •

— أخرج أحمد عن عدي بن حاتم قال : لما بلغني خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم كرهت خروجه كراهية شديدة فخرجت حتى وقعت ناحية الروم — وفي رواية حتى قدمت على قيصر • قال : فكرهت مكاني ذلك أشد من كراهتي لخروجه •

قال : قلت : والله لو أتيت هذا الرجل فان كان كاذبا لم يضرني وان كان صادقا علمت ، قال : فقدمت فأتيته • فلما قدمت قال الناس : عدي ابن حاتم ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي : يا عدي بن حاتم أسلم تسلم — ثلاثا • قال : قلت : اني على دين • قال : أنا أعلم بدينك منك ، فقلت : أنت تعلم بديني مني ؟ قال : نعم ، أليست من الركوسية^(١) وأنت تأكل مرباع^(٢) قومك ؟ قلت : بلى ، قال : هذا لا يحل لك في دينك ، قلت : نعم ، فلم يعد أن قالها فتواضعت لها ،

(١) الركوسية : دين النصاري والصابئين •

(٢) مرباع : ربع الغنيمة •

قال : أما انى أعلم الذى يمنعك من الاسلام تقول : انما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة لهم وقد رمتهم العرب • أتعرف الحيرة ؟

قلت : لم أرها وقد سمعت بها •

قال : فوالذى نفسى بيده ليطمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالببيت فى غير جوار أحد • وليفتحن كنوز كسرى ابن هرمز ، قال : قلت : كنوز ابن هرمز ؟

قال : نعم ، كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد • قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تأتى من الحيرة تطوف بالببيت فى غير جوار ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى • والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قالها • كذا فى البداية ج ٥ ص ٦٦ وأخرجه البغوى أيضا فى مجمعه بمعناه ، كما فى الإصابة ج ٤٦٨ •

وأخرج أحمد عن عدى بن حاتم قال : جاءت خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا بعقرب فأخذوا عمتى وناسا فلما أتوا بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فصفوا له ، قالت : يا رسول الله بأن الوافد وانقطع الولد وأنا عجوز كبيرة ما بى من خدمة فمن على من الله عليك فقال : ومن وافدك ؟

قالت : عدى بن حاتم •

قال : الذى فر من الله ورسوله ؟

قالت : فمن على ، فلما رجع ورجل الى جنبه — نرى أنه على — قال : سليه حملانا ، قال : فسألته فأمر لها ، قال عدى : فأنتنى فقالت : لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها وقالت : ايته راغبا أو راهبا فقد أتاه فلان فأصاب منه وأتاه فلان فأصاب منه ، قال : فأنتيته فاذا عنده امرأة وصبيان — أو صبى — فذكر قربهم منه ، فعرفت أنه ليس ملك كسرى وقيصر • فقال له : يا عدى بن حاتم ؟ ما أفرك ؟ أفرك أن يقال : لا اله الا الله ، من من اله الا الله ؟ ما أفرك ؟ أفرك أن يقال : « الله أكبر » •

فهو شىء أكبر من الله عز وجل ؟ فأسلمت فرأيت وجهه قد استبشر • — أخرج أبو يعلى عن حرب بن سريج قال : حدثنى رجل من بُعدوية قال : حدثنى جدى قال : انطلقت الى المدينة فنزلت عند الوادى فاذا رجلان بينهما عنزة واحدة واذا المشتري يقول للبائع : أحسن مايعتنى • قال : فقلت فى نفسى هذا الهاشمى الذى قد أضل الناس ،

أهو هو ؟ قال : فنظرت فإذا رجل حسن الجسم ، عظيم الجبهة دقيق الأنف دقيق الحاجبين • وإذا من ثغرة نحره الى سرتة مثل الخيط الأسود شعر أسود وإذا هو بين طمرين • قال : فدنا منا فقال : السلام عليكم ؛ فرددنا عليه ، فلم ألبث أن دعا المشتري فقال : يا رسول الله قل له : يحسن مبايعتي ، فمد يده وقال : أموالكم تملكون انى أرجو أن ألقى الله عز وجل يوم القيامة لا يطلبنى أحد منكم بشيء ظلمته فى مال ولا فى دم وعرض الا بحقه ، رحم الله امراً سهل البيع ، سهل الشراء ، سهل الأخذ ، سهل العطاء ، سهل القضاء ، سهل التقاضى ، ثم مضى •

فقلت : والله لأقصن هذا فانه حسن القول : فتبعته فقلت : يا محمد فالتفت الى جميعه فقال : ما تشاء ؟

قلت : أنت الذى أضلت الناس وأهلكتهم وصددتهم عما كان يعبد آباؤهم •

قال : ذاك الله •

قال : ما تدعو اليه ؟

قال : أدعو عباد الله الى الله •

قال : فقلت : ما تقول ؟

قال : اشهد أن لا اله الا الله وأنى محمد رسول الله وتؤمن بما أنزله على ، وتكفر باللات والعزى ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة •

قال : قلت : وما الزكاة ؟

قال : يرد غنينا على فقيرنا •

قال : قلت : نعم الشيء تدعو اليه •

قال : فلقد كان وما فى الأرض أحد يتنفس أبغض الى منه فما برح حتى كان أحب الى من ولدى ووالدى ومن الناس أجمعين •

قال : فقلت : قد عرفت ، قال : قد عرفت ؟

قلت : نعم •

قال : أتشهد أن لا اله الا الله وأنى محمد رسول الله وتؤمن بما أنزل على ؟ قال : قلت : نعم يا رسول الله انى أرد ماء عليه كثير من الناس فأدعوهم الى ما دعوتنى اليه فانى أرجو أن يتبعوك ، قال : نعم فادعهم ، فأسلم أهل ذلك الماء رجالهم ونساؤهم فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه •

— وذكر البخارى وأبو داود وأتم ما ذكرنا رزين مساجلة جرت

بين المسلمين وبين أبي سفيان بعد موقعة أحد وقد أصيب المسلمون فنادى أبو سفيان جماعة من المسلمين يسألهم ويقول وهذا نص الحادثة كما رواها « فأشرف أبو سفيان (أى على المكان الذى كانوا فيه) فقال : أفى القوم محمد ؟ فقال : (أى الرسول وكان معهم) : لا تجيبوه . فقال : أفى القوم ابن أبي قحافة ؟ فقال : لا تجيبوه . فقال : أفى القوم ابن الخطاب ؟ فلم يجبه أحد ، فقال : ان هؤلاء قتلوا ، ولو كانوا أحياء لأجابوا : فلم يملك عمر رضى الله عنه نفسه . فقال : كذبت يا عدو الله ، أبقى الله لك ما يحزنك . قال أبو سفيان أعل هبل . فقال صلى الله عليه وسلم : أجيبوه . فقالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا الله أعلا وأجل . قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم . فقال صلى الله عليه وسلم : أجيبوه . قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم . قال أبو سفيان يوم بيوم والحرب سجال ، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى . فقال صلى الله عليه وسلم : أجيبوه ، قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا لا سواء ، قتلنا فى الجنة وقتلاكم فى النار . أخرجه البخارى وأبو داود الى قوله : لم تسؤنى ، وأخرج باقيه رزين .

— وعن ابن اسحاق من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين — وقسم للمتألفين من قريش (أى حديثو العهد بالاسلام ليتمكن الاسلام فى قلوبهم) وسائر العرب ما قسم ، ولم يكن فى الأنصار منها شئ قليل ولا كثير — وجد (أى تغيرت قلوبهم) هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى قال قائلهم :

لقى والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه . فمشى سعد بن عبادة رضى الله عنه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ان هذا الحى من الأنصار ، قد وجدوا عليك فى أنفسهم فقال : فيم ؟ قال : فيما كان فى قسمك هذه الغنائم فى قومك وفى سائر العرب ، ولم يكن فيهم من ذلك شئ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : ما أنا الا امرؤ من قومي .

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمع لى قومك فى هذه حظيرة . فاذا اجتمعوا فأعلمنى . فخرج سعد فصرخ فيهم ، فجمعهم

في تلك الحظيرة فجاء رجل من المهاجرين فأذن له فدخلوا وجاء آخرون فردهم — حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له • أتاه فقال : يا رسول الله قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار حيث أمرتني أن أجمعهم فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام فيهم خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : يا معشر الأنصار • ألم آتكم ضللا فهداكم الله ، وعالة (أى فقراء) فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى • ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا تجيبون يا معشر الأنصار ؟

قالوا : وما نقول يا رسول الله ! وبماذا نجيبك ؟ المن لله ولرسوله • قال : والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم : جئتنا طريدا فأويناك ، وعائلا فأسيناك ، وخائفا فأمناك ، ومخذولا فنصرناك • فقالوا : المن لله ولرسوله •

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة (أى في شيء تافه اذ اللعاعة نبت ناعم لا يعمر طويلا) من الدنيا ؟ تألفت بها قوما أسلموا ووكلتكم الى ما قسم الله لكم من الاسلام ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار ، أن يذهب الناس الى رحالهم بالشاء والبيعير ، وتذهبون برسول الله الى رحالكم فوالذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعبا ، وسلكت الأنصار شعبا ، لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار • قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم (أى بلوها بدموعهم) وقالوا : رضينا بالله ربا وبرسوله قسما ثم انصرف ، وتفرقوا • وهكذا رواه الامام أحمد من حديث ابن اسحاق ولم يروه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه وهو صحيح •

— وأخرج مالك عن عطاء بن يسار :

أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : استأذن على أمي ؟

فقال : نعم •

فقال الرجل : انى معها في البيت •

فقال : استأذن عليها •

فقال : انى خادمها ؟

فقال رسول الله : استأذن عليها أتحب أن تراها عريانة ؟

قال : لا •

قال : فاستأذن عليها •

— وأخرج الامام أحمد والبيهقي في شعب الايمان عن أبي أمامة رضى الله عنه أن فتى شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ائذن لى بالزنا فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا : مه • فقال : ادن ، فدنا منه قريبا ، قال : اجلس فجلس قال صلى الله عليه وسلم : أتجبه لأمك ؟ قال : لا والله جعلنى الله فداك • فقال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم قال صلى الله عليه وسلم : أفـتـجـبه لابنتك قال : لا والله يا رسول الله جعلنى الله فداك قال : ولا الناس يحبونه لبناتهم قال صلى الله عليه وسلم : أفـتـجـبه لأختك • قال : لا والله جعلنى الله فداك قال : ولا الناس يحبونه لأخواتهم قال صلى الله عليه وسلم : أفـتـجـبه لعمتك قال : لا والله جعلنى الله فداك قال : ولا الناس يحبونه لعماتهم قال صلى الله عليه وسلم : أفـتـجـبه لخالتك قال : لا والله جعلنى الله فداك فقال : ولا الناس يحبونه لخالاتهم : قال : فوضع يده صلى الله عليه وسلم عليه ثم قال : اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحصن فرجه قال : فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت الى شيء •

— ومن نقاشه مع وفد نصارى نجران كما ترويه كتب السيرة في أمر عيسى هذا المقطع :

قالوا : من أبوه ؟ (أى عيسى يريدون أن يقيموا الحجة بهذا السؤال على أنه ابن الله • تعالى الله عن ذلك) •

وقد رد القرآن عليهم بقوله : « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » (آل عمران : ٥٩) •

ورد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يلي :
قال : ألسـتـم تعلمون أن الله حى لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟
قالوا : بلى •

قال : ألسـتـم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء ، يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟
قالوا : بلى •

قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟

قالوا : لا •

قال : ألسـتـم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ؟

نالوا : بلى •

قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً الا ما علم ؟

قالوا : لا

قال : أستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف يشاء ؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟

قالوا : بلى •

قال : أستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعت كما تضع المرأة ولدها ثم غذى كما يغذى الصبى • ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟

قالوا : بلى •

قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟

— ويوم الحديبية وقد حميت قريش للحرب وهو لا يريد أن يريده قال كلمة أحاطت بجوانب الموضوع الذى يجعل قريشا لا تريد الا ما أراد قال :

يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو دخلوا بينى وبين سائر العرب فان هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا وان أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تتفرد هذه السالفة •
يعنى الموت •

هذه نماذج على مناقشاته التى يقيم بها الحجة على الآخرين بالبساطة المقنعة والفصاحة الآسرة •

وسترى نماذج على حدة ذكائه الهائل فى تصريف الأمور وتدبيرها فى الفصل الثانى من هذا الباب •

أما هنا فتريد أن نتمم ببيان فصاحته التى لا مثيل لها وهى السمة المرافقة التى لا بد منها فى إقامة الحجة ونضرب على ذلك أمثلة من خطبه وكتبه وكلمه الذى كان كله بليغاً •

فى حجة الوداع خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس خطبة طويلة وكان الذى يبلغها عنه ربيعة بن أمية وهذا جزء منها ترى فيه نماذج الكلم الذى فعل فعله فى القلوب بما لم يفعله كلام آخر :

قال رسول الله لربيعة : قل يا أيها الناس ان الرسول يقول : هل تدرون أى شهر هذا ؟ فقال ربيعة • فصاح الناس : الشهر الحرام • فقال رسول الله قل لهم : ان الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا •

ثم قال : قل يا أيها الناس ان الرسول يقول : هل تدرون أى بلد هذا ؟ فيقول ربيعة فيصيح الناس : البلد الحرام • فيقول عليه السلام : قل لهم ان الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة بلدكم هذا •

ثم يأمره : يا أيها الناس ان رسول الله يقول : هل تدرون أى يوم هذا ؟ فيقول لهم فيصيحون : يوم الحج الأكبر • فيقول : قل لهم : ان الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا •



ومن كلمة له عليه السلام : أمرنى ربى بتسع : خشية الله فى السر والعلانية وكلمة العدل فى الغضب والرضا ، والقصد فى الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعنى وأعطى من حرمنى ، وأعفو عن ظلمنى ، وأن يكون صمتى فكرا ، ونطقى ذكرا ، ونظرى عبرة ، وأمر بالمعروف •



ومن وصاياه :

« يا غلام : احفظ الله يحفظك • احفظ الله تجده تجاهك — أو قال أمانك — تعرف على الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة • اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله تعالى فان العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله تعالى لك لم يقدرُوا على ذلك • ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله تعالى عليك لم يقدرُوا على ذلك • جفت الأقلام وطويت الصحف فان استطعت أن تعمل لله تعالى بالرضا فى اليقين فافعل فان لم تستطع فان فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا ولن يغلبه عسر يسرين » •



ومن خطبة طويلة له عليه السلام حفظ منها أبو سعيد الخدرى ما يلى :

« ان الدنيا خضرة حلوة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » •

« ألا لا يمنعن رجلا هية الناس أن يقول بحق اذا علمه » •

« ألا انه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ولا غدره أعظم من غدره امام عامة يركز لوائه عند استه » •

« ألا ان بنى آدم خلقوا على طبقات شتى ، فمنهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت مؤمنا ، ومنهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت كافرا ، ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت مؤمنا ، ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت كافرا ، ألا وان منهم البطيء الغضب سريع الفى ، والنسريع الغضب سريع الفى ، والبطيء الغضب بطيء الفى ، فتلك بتلك • ألا وان منهم بطيء الفى سريع الغضب ، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفى ، وشهرهم سريع الغضب بطيء الفى ، ألا وان منهم حسن القضاء حسن الطلب ، ومنهم سىء القضاء حسن الطلب ، ومنهم حسن الطلب حسن القضاء ، فتلك بتلك • ألا وان منهم السىء القضاء سىء الطلب ، ألا وخيرهم الحسن القضاء الحسن الطلب ، وشهرهم سىء القضاء سىء الطلب ، ألا وان الغضب جمره فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم الى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ؟ فمن أحس بشىء من ذلك فليصق بالأرض » •



— عن معاذ بن جبل رضى الله عنه :

قال : « كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير • فقلت : يا رسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار • فقال : لقد سألت عن عظيم ، وانه ليسير عنى من يسره الله عليه • تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت • ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ قلت : بلى يا رسول الله • قال : الصوم جنة • والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل من جوف الليل سعار الصالحين • ثم تلا : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » • الى قوله : « جزاء بما كانوا يعطون » (السجدة : ١٦ ، ١٧) • ثم قال : ألا أخبرك

برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يا رسول الله • قال :
رأس الأمر الاسلام • وعموده الصلاة وذروة سنامه : الجهاد • ثم قال :
ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا رسول الله • قال : كف عليك
هذا ، وأشار الى لسانه • قلت : يا رسول الله • • وانا لمؤاخذون بما
نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على
وجوههم — أو قال على مناخرهم — الا حصائد ألسنتهم •

— وعن أبي ذر رضى الله عنه قال :

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة يحبهم الله ، وثلاثة
يبغضهم الله : فأما الثلاثة الذين يحبهم : فرجل أتى قوما فسألهم بالله
ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم فمنعوه ، فتخلف رجل بأعقابهم فأعطاه
سرا لا يعلم بعطيته الا الله والذي أعطاه ، وقوم ساروا ليلتهم حتى
إذا كان النوم أحب اليهم مما يعدل به فنزلوا • فقام رجل يتملقنى ويتلو
آياتى ، ورجل كان في سرية فلقى العدو فانهرموا فأقبل بصدرة حتى
يقتل أو يفتح له ، وأما الثلاثة الذى يبغضهم الله : فالشيخ الزانى ،
والفقير المختال ، والغنى الظلوم » •

— وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : يقول الله عز وجل يوم القيامة : يا ابن آدم : مرضت فلم
تعدننى ، فيقول : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت
أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ،
يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى • قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب
العالمين ؟ قال : ان عبدى فلانا استطعمك فلم تطعمه ، أما علمت لو أنك
أطعمته لوجدت ذلك عندى • يا ابن آدم : استسقيتك فلم تسقنى •
قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : ان عبدى فلانا
استسقاك فلم تسقه ؟ أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى » •

والسر في فصاحته صلى الله عليه وسلم أنه يقول الكلمة القصيرة
فتبلغ كل مبلغ وتحيط كل احاطة ، وتصل الى أدق القضايا ، ويتفاوت
الناس في الأخذ منها على مقدار ما أوتوا من حكمة وعلم وذكاء وفهم •
وقد عبر هو عليه السلام عن سر فصاحته فقال : أوتيت جوامع الكلم •
وانظر عارته هذه • ترى معناها أنه ليعبر عن المعانى العظيمة الكثيرة
الكبيرة بكلمة مختصرة سهلة ، ولكنها لا تكاد تدرك معانيها لما أحاطت
(٨ - الرسول)

به ، وهذه قضية يعرفها كل من أطلع على أحاديثه عليه السلام ، التي بلغت عشرات الآلاف ، والمحفوظة في كتب الحديث المعتمدة المنقحة الصحيحة . وخذ أى حديث من أحاديثه وأى كلمة من كلامه تجد هذا واضحا بالشكل الذى لا يلحق به انسان الا في نواذر الحالات ، ولكن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كله من هذا النوع ومن ثم كان أفصح العرب على الاطلاق .

وقد ضرب العقاد أمثلة على هذا الذى قلناه وحللها فأتى بالجيد . نجترىء منه بمثال يقول : « ومن أمثلته (أى الكلام الجامع للمعانى الكبار في الكلمات القصار عند رسول الله) علم السياسة الذى اجتمع كله في قوله : « كما تكونوا يول عليكم » . فأى قاعدة من القواعد الأصيلة في سياسة الأمم لا تنطوى بين هذه الكلمات ؟

ينطوى فيها أن الأمم مسئولة عن حكوماتها لا يعفيها من تبعة ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل ، أو عذر بالاكراه ، لأن الجهل جهلها الذى تعاقب عليه ، والاكراه ضعفها الذى تلقى جزاءه .

وينطوى فيها أن العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التى تعلنها الحكومة . فلا سبيل الى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين ، ولا سبيل الى حرية أمة تجهل الحرية ، ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال .

وينطوى فيها أن الولاية تبع تابع ، وليست بأصل أصيل ، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأخرى ألا يغير الوالى قوما حتى يتغيروا هم قبل ذلك .

وينطوى فيها أن الأمة مصدر السلطات. على حد التعبير الحديث .

وينطوى فيها أن الأمة تستحق الحكم الذى تصبر عليه ، ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال وذلك هو الابلاغ الذى ينفذ في وجهاته كل نفاذ .

ويختتم العقاد كلامه في هذا الموضوع بقوله :

« وأمثال هذه الأحاديث في أصول السياسة والأخلاق والاجتماع مما لا يتناوله الاحصاء ، في هذا المقام . كان محمد فصيح اللغة ، فصيح اللسان ، فصيح الأداء ، وكان بليغا بليغا على أساء ، ما تكون

بلاغة الكرامة والكفاية وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين بل قدوة المرسلين» •

وحسبك هذه الشهادة من العقاد شيخ أدباء العرب في القرن العشرين •

وبهذا نرجو أن تكون قد اتضحت لك صفة الفطانة التي لا مثيل لها عند رسول الله في بيان الحق ، وإقامة الحجة فيه ، ونصاعة البيان في عرضه ، وكمال الأداء في إيصاله وستتضح لك هذه الصفة أكثر في الفصل الثاني ، حيث الكلام عن السياسى الأول ، والمحارب الأول ، والمعلم الأول عليه السلام ، ولعل الفصل الثانى سيكون أكثر مشيراً الى عظمة عقله وفطانته عليه السلام فلنقتصر هنا على ما قدمناه •

وبهذا نختم الفصل الأول من هذا الباب وقد رأيت فيه كيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم له من الصفات الأساسية للرسول كمالها وتمامها وأن ذلك دليل على أنه رسول الله حقاً ، خلقه الله على أكمل الأحوال ، وأرفع المقامات ووفقه لأعظم الأعمال ، مما ينوء بحمله كل أئرجال مجتمعين • فسار في طريق لم تضطرب بدايته فيه ، ولم تتحول مسيرته عنه • حتى وصل الى نهاياته على استقامة • من أول الشوط اليها ، كل خطوة بعد التي تليها ، بناء يتكامل يوماً فيوماً حتى تم ، لا نقص فيه ولا عوج ، ولا ينقض منه شيء أبداً ، وما كان ذلك ليكون كله لولا أن الله المحيط علماً بكل شيء وراء رسوله في كل شيء • يسدده ويرعا ويسيره حتى كان ما كان •

الفصل الثاني

القدوة العلى

فى الفصل الأول رأينا أن لرسول الله من الصفات الأساسية للرسول الحظ الأعلى . وسنرى فى هذا الفصل أن جوانب شخصية الرسول عليه السلام متعددة تعددا يجعله منفردا عن الرسل بميزات ، ان شاركوه فى بعضها فلم يشاركوه فى الكل . فشخصية الرسول تمثلت بها كل جوانب الحياة وما كل رسول كان له مثل هذا . فالرسول عليه السلام كان أبا وما كل رسول كان أبا ، وكان زوجا وما كل رسول تزوج ، وكان رئيس دولة ومؤسسها وما كل رسول أقام دولة . وكان القائد الأعلى لجيش الاسلام والمحارب الفذ وما كل رسول حارب . وبعث للانسانية عامة فشرع لها بأمر الله ما يلزمها فى كل جوانب حياتها العقيدية والعبادية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية ، ولم يبعث رسول قط الى الانسانية عامة غيره وكان المستشار والقاضى والمربى والمعلم والمهذب والعايد والزاهد والصابر والرحيم . الى آخر صفاته عليه السلام التى استوعبت كل جوانب الحياة ، فكان بذلك بين الرسل الرسول المفرد العظم الممتاز « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » (البقرة : ٢٥٣) وانما كان ذلك لأن الله جلت حكمته جعل الاسلام المنزل على محمد نظاما شاملا لجوانب حياة البشر كلها ، وجعل حياة رسوله نموذجا لدينه كله فى كل جوانبه ، حتى تقوم الحجة على الناس مرتين ، مرة بالبيان النظرى ومرة بالبيان العملى ، وشئ آخر هو أن البشر فيهم الأب والابن والزوج . وفيهم السياسى والاقتصادى ورجل الشورى ، وفيهم المحارب والمسالمة ، وفيهم المبتلى والمعاق وفيهم الراعى والرعية وفيهم العامل والتاجر ، فالحياة البشرية متعددة الجوانب ، وكل انسان فيها يعيش حياة كاملة تختلف فى بعض جوانبها أو تتفق مع الآخرين ، وقد فرض الله على البشر على اختلاف مستوياتهم وتعدد مواقف حياتهم ، أن يكون الرسول لهم القدوة فى كل شئ ، فما لم تكن شخصية الرسول متعددة الجوانب والمواقف هذا التعدد ، لا يكون قدوة لكل البشر فى كل شئ .

وقد يعجب انسان أن تكون حياة رسول الله من الخصب بحيث تستوعب كل جوانب حياة البشر • فتكون قدوة لهم في هذا كله ، ولكنه انواع الذى تشهد له كل الدراسات النظرية والعلمية :

فمثلا من الناحية النظرية ادرس مواقف الصبر عنده فانك تجدها قد استوعبت كل موقف يحتاج الناس به الى الصبر • لقد أقام الله رسوله مقام المخرج من وطنه ، ومقام من مات له ولد وأولاد ، وأولاد أولاد ، ومن ماتت له زوجة وعم وأبناء عم • بعضهم قتل • ومقام من فشل في المعركة ومن أودى واستهزى به ومقام من شمت فيه • ومن اتهم بعرض أحب الخلق اليه ومقام من مرض وجرح • ومقام من جاع وعطش وخاف وغير ذلك من المقامات التى يعتبرها الناس مصائب بحيث لا تصيب الانسان مصيبة الا ويرى رسول الله قد أصيب بمثلها • وكان له موقف مثالى منها ، فيقف مثله ان كان مؤمنا • ومن الناحية العملية ، فان تاريخ الأمة الاسلامية ما خلا في عصر من عصوره ، من ملايين من أفراد هذه الأمة ، مختلفى المدارك ، مختلفى المستويات • مختلفى الاختصاصات ، مختلفى المشارب • منهم الغنى ، والفقير والقائد ، والرئيس والعالم والعابد وغيرهم وغيرهم ، كل منهم متمسك بخبل الاقتداء برسول الله في الصغيرة والكبيرة • حتى انك لتجد النماذج المتباينة من هؤلاء وكل منهم يقيم الدليل على أن سلوكه هو سلوك رسول الله فيما يسير عليه ، وكل ذلك فى الواقع ناتج عن الخصب فى حياة الرسول التى استوعبت أحوال البشر جميعا •

والرسول عليه السلام فى كل موقف من هذه المواقف ، وفى كل حال من الأحوال ، وفى كل جانب من الجوانب ، كان المثل الأعلى للبشر والقدوة العليا والوحيدة لهم • اذ اليه يرجع الكمال فى كل شئ ، ومنه يعرف الكمال فى كل شئ ، وهذا هو الجانب الذى سنعرض له فى هذا الفصل ليتضح لنا أنه لا كمال لأى انسان مهما كان فى أى حالة • الا باتباعه والاقتداء به والتأسى فيه ، وان الله لم يعط من الكمال لانسان ما أعطاه محمدا ، ولم يجتمع فى انسان من الكمالات ما اجتمع فى شخصه العظيم ، وذلك آية الله على أن هذا الانسان رسوله اذ ما كان هذا ليجتمع لانسان منبت عن الله وكمالاته ، واحاطة علمه وتوفيقه ، وطبعا نحن لا نستطيع وخاصة فى مثل هذا الفصل القصير المخصص لهذا البحث • أن نحيط بجوانب شخصية الرسول عليه السلام مع الإشارة

أثنى الكمال عنده في كل • فذلك شيء يستفد جهد الباحثين الكثير ولا يحاط به • وانما سنكتب هنا أربع فقرات فقط وباختصار • حول أربعة جوانب من حياته عليه السلام نرى فيها ما قدمناه واضحا وهو مقصود هذا الفصل •

هذه الفقرات هي :

- **الفقرة الأولى : الأخلاق الأولى**
- **الفقرة الثانية : رجل الأسرة الأول أبا وزوجا**
- **الفقرة الثالثة : المعلم والمربي الأول**
- **الفقرة الرابعة : رجل الدولة الأول سياسيا وعسكريا**

واخترنا هذه الجوانب لأن المعروف عند الناس • أن كمال الانسان في جانب من هذه الجوانب يكون على حساب تفريطه في بقية الجوانب ، وكلامنا في غير المقتدين بالرسول من أتباعهم ، فاجتماع الكمال لرسول الله في هذه الجوانب كلها دليل على صحة ما قلناه ولنبدأ باستعراض الفقرة الأولى •

* * *

١ - الأخلاق الأولى

«وانك لعلى خلق عظيم» (١)

ان أبرز سمة في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم المتعددة الجوانب أخلاقياته التي لا مثيل لها فلو أنك جمعت كل خلق عظيم في العالم • وكل تصرف أخلاقي سليم تصرفه في يوم من الأيام انسان • فان ما تجده في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم يربو على هذا كله مجتمعا • مع انعدام التصرفات غير الأخلاقية في حياته عليه السلام ، مما لا تستطيع معه أن تجد في حياته كلها تصرفا يمكن أن ترى أعظم منه في باب الأخلاق عند غيره صلى الله عليه وسلم • وكان أصحابه صلى الله عليه وسلم يعرفون منه هذا ، ويتصرفون على أساسه معه ، فكثيرا ما كانوا يوقفون ناسا مواقف من الأنبياء السابقون فيها سنفا فكان

يفعل ما فعلوا • ويعرف الصحابة ماذا سيفعل ، اذ أنهم يعرفون عنه أنه لا يرضى أن يكون أحد أرقى منه تصرفاً أو مسلماً •

في الطريق الى فتح مكة لقي الرسول صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أمية وهما ابن عمه وابن عمته وكانا من أشد الناس ايذاء له بمكة • فأعرض عنهما فأشار على ابن أبي طالب على ابن عمه بما يلي قال له : ائته من قبل وجهه وقل له ما قال اخوة يوسف : « **تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين** » (يوسف : ٩١) فانه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه جواباً ففعل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لسكم ، وهو أرحم الراحمين** » (يوسف : ٩٢) •

فانظر ذلك الذي لا يرضى أن يسبقه أحد في موقف من مواقف مكارم الأخلاق • ان أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم هي ميزة شخصيته الكبرى ، حتى انه ليحدد مهمة رسالته بقوله : « **انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » والواقع أنك لا تستطيع أن تأخذ صورة كاملة عن أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم • الا اذا فهمت القرآن والسنة ، وكل ما له علاقة بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم • اذ أخلاقه كما وصفته سيدتنا عائشة رضي الله عنها هي القرآن : « **كان خلقه القرآن** » •

وقد رأيت بشكل عملي في بحث الأمانة من الفصل الأول كيف أن كل آية من القرآن كان صلى الله عليه وسلم المظهر العملي لها اذ استعرضنا هناك عدداً من الآيات والأمثلة التطبيقية على ذلك فيه •

الا أننا نريد بهذا البحث أن نأتيك ببعض أمهات الأخلاق ومظهرها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشكل الذي لا يرقى اليه أحد سابقاً أو لاحقاً •

ونختار من هذه الأخلاق أخلاق الصبر والرحمة والحلم والكرم والتواضع • فهذه من أمهات الأخلاق التي تحمد اذا كانت في محلها ، وسنرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع كل شيء في محله فاذا كان العفو غير محمود فلا عفو • واذا كانت الرحمة غير محمودة فلا رحمة • وهكذا ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم هو الميران الذي توزن بتصرفاته أخلاق البشر ويتحدد بهذه التصرفات حدود كل خلق فلا يطنى خلق على خلق •

أولا — نماذج من صبره :

١ — مر معك في مبحث التبليغ صور من صبره صلى الله عليه وسلم على الاضطهاد والتعذيب ، والايذاء والتجويع والسخرية والردود القبيحة عليه والاهانات المتوالية ، وكل هذا تحمله بصبر • فاذا ما علمنا أن هذه الفترة استغرقت ثلاثة عشر عاما ، أدركنا مقدار الصبر الذي تمتع به رسول الله صلى الله عليه وسلم • وليس هذا فحسب بل كل ما أصيب به هو أصيب به أتباعه والأذى الذي لحق به لحق بأقاربه وهو الشريف ، وكل هذا يجرح نفس الانسان ويحطم أعصابه ، ومع ذلك فما أبه صلى الله عليه وسلم لهذا كله ، بل تحمله وتحمل معه الاتهامات الباطلة بالجنون والكذب والسحر •• و ••

والذي جرب هذه القضايا كلها يحتم كم تحتاج الى طاقة من الصبر لا تتفد • فاذا ما علمنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحمل هذا كله ، وهو يقف من الناس موقف الهجوم وموقف الدعوة الى ما عنده • نعلم أن المسألة هنا أكبر من الصبر ذاته •

٢ — فاذا ما انتقلنا الى موطن آخر يمتحن فيه الصبر وهو موطن القتال ، رأينا كذلك عجبا • ولعل أبرز مواقفه الصابرة في الحرب والتي تتحطم فيها أقوى الأعصاب موقوفاه يوم أحد ويوم الخندق ، يوم الهزيمة الذي بقى فيه ثابتا ، ويوم الحصار الذي أخذ بالأنفاس وبقي فيه كله أمل ، وهاك وصفا مختصرا لموقفه الصابر في اليومين :

— روى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش •

« واستطاع المشركون أن يخلصوا قريبا من النبي فرماه أحدهم بحجر كسر أنفه ورباعيته وشجه في وجهه فأثقله وتفجر منه الدم وشاع أن محمدا قتل فتفرق المسلمون ودخل بعضهم المدينة وانطلقت طائفة فوق الجبل واختلطت على الصحابة أحوالهم فما يدرون ما يفعلون •

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينثل السهام من كنانته ويعطيها سعد بن أبي وقاص ويقول ارم فداك أبى وأمى وكان أبو طلحة الأنصاري راميا ماهرا في إصابة الهدف قاتل دون رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان اذا رمى رفع رسول الله شخصه ينظر أين يقع سهمه • في هذا اليوم الشديد اذ فر المسلمون ولم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الا هذا العدد القليل ، ومع ذلك بقى صابرا يدير المعركة

أتى طرفاها ثلاثة آلاف مقابل أفراد • ولم يهزم ولكنه أصر مع من معه على الاستبسال • حتى رأى المشركون أن خسارتهم أكبر من ربحهم فتركوهم •

فأى صبر هذا الصبر ؟

ولا ننسى أن نذكر أن الشائعة بقتل محمد صلى الله عليه وسلم كانت قد راجت والرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ، منع من عرفه من تكذيبها • حتى يثبط قريشا عن المضي في المعركة • فاذن هو صبر في أخرج المواقف لا يخرج صاحبه عن كامل التدبير •

— ويوم الخندق وقد حوصرت المدينة هذا الحصار الطويل الصعب الذى لم يعرف المسلمون فيه نوما ولا راحة ، والأحزاب تمطرهم بوابل من الهجمات على الأمكنة الضعيفة وتحركات المسلمين من مكان الى مكان خشية المباغته وقد طالت الفترة وتعب المسلمون ، وكانوا كما وصفهم الله : **« اذ جاعوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاجت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا • هناك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا »** (الأحزاب : ١٠ ، ١١) في هذا الوضع المخيف يأتى الخبر الصاعق أن قريظة نقضت عهدها وقررت القتال وأصبح المسلمون جميعا معرضين لقتل الأنفس وسبى الذرية فأى صبر يحتاجه القائد في تلك اللحظات في ذلك الموقف الذى يحطم الأعصاب •

لقد تقنع رسول الله صلى الله عليه وسلم بثوبه واضطجع ومكث طويلا حتى اذا هضم المسلمون خطورة موقفهم قام بيت الأمل ويشد العزائم ويرفع المعنويات وهو يقول :

« أبشروا بفتح الله ونصره » ان خطورة الموقف الشديد لم تؤثر ذرة على أعصاب القائد العظيم بل هو الصبر الذى يربو على الصبر •
٣ — فاذا ما انتقلنا الى موطن آخر من المواطن التى يمتحن فيها الصبر ، وهو موطن موت الأولاد والأقارب والأصحاب وقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم • القلب الرحيم ، ومع ذلك فانه الصبر الذى يفيض العبرة بلا شكوى ولا ضجر ، وهذه أمثلة من مواقفه في هذه المواطن :
أخرج ابن سعد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

« رأيت ابراهيم وهو يكيده بنفسه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فدمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله :

تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول الا ما يرضى ربنا والله يا ابراهيم انا بك لمحزونون » •

وأخرج ابن سعد أيضا عن مكحول قال :

« دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معتمد على عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه وابراهيم يجود بنفسه فلما مات دمت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عبد الرحمن : أى رسول الله هذا الذى تنهى الناس عنه متى يراك المسلمون تبكى يبكون قال : فلما سرىته عنه عبرته قال : انما هذا رحم وان من لا يرحم لا يرحم انما ننهى الناس عن النياحة وأن يندب الرجل بما ليس فيه •

ثم قال : لولا أنه وعد جامع وسبيل مثاء وأن آخرنا لاحق بأولنا لوجدنا عليه وجدا غير هذا وانا عليه لمحزونون • تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وفضل رضاعه فى الجنة » •

وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال :

« لما قتل حمزة يوم أحد أقبلت صفية تطلبه لا تدري ما صنع فلقيت عليا والزبير فقال علي للزبير : اذكر لأمك وقال الزبير لعلى : لا .. اذكر أنت لعمتك قالت : ما فعل حمزة ؟ فأرياهما أنهما لا يدريان فجاءت النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

انى أخاف على عقلها فوضع يده على صدرها ودعا فاسترجعت وبكت ثم جاء فقام عليه وقد مثل به فقال : لولا جزع النساء لتركته حتى يحصل من حواصل الطير ويطون السباع .. ثم أمر بالقتلى فجعل يصلى عليهم فيضع تسعة وحمزة فيكبر عليهم سبع تكبيرات ثم يرفعون ويترك حمزة ، ثم يؤتوا بتسعة فيكبر عليهم سبع تكبيرات ثم يرفعون ويترك حمزة ، ثم يؤتوا بتسعة فيكبر عليهم سبع تكبيرات ... حتى فرغ منهم » •

وأخرج الطيالسى وأحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه وأبو عوانة وابن حبان عن أسامة بن يزيد رضى الله عنه • قال :

« كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فأرسلت اليه احدى بناته تدعوه وتخبره أن ضبيا لها فى الموت • فقال للرسول : ارجع اليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شىء عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب فعاد الرسول فقال : انها قد أقسمت لتأتينها فقام النبى صلى الله عليه

وسلم وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد ابن ثابت ورجال وانطلقت معهم فرفع الى رسول الله الصبي ونفسه تتعقع كأنها في شن ففاضت عيناه فقال له سعد : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وانما يرحم الله من عباده الرحماء » .

٤ — فإذا ما انتقلنا الى موطن آخر من المواطن التي يمتحن بها الصبر وهو الصبر على المرض والجوع والفقر • نجد دائما القمة التي لا يرقى اليها الراقون •

أخرج أحمد والطبراني وهذه رواية الطبراني :
« أن فاطمة ناولت النبي صلى الله عليه وسلم كسرة من خبز الشعير فقال : ما هذه ؟ قالت : قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة فقال لها : هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام » •
وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن بحير قال :

« أصاب النبي صلى الله عليه وسلم جوع يوما فعمد الى حجر فوضعه على بطنه ثم قال : ألا رب نفس طاعة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم » •

وأخرج مسلم والترمذي عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال :
« ألستم في طعام وشراب ما شئتم ؟ لقد رأيت نبيكم صلى الله عليه وسلم وما يجد من الدقل ما يملأ بطنه (الدقل : أردأ التمر) » •
وفي رواية لمسلم عن النعمان رضى الله عنه قال : « ذكر عمر رضى الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا — فقال : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم يلتوى ما يجد من الدقل ما يملأ بطنه » •

وأخرج أبو نعيم في الحلية والخطيب وابن عساكر ، وابن النجار عن أبي هريرة رضى الله عنه قال :

« دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلى جالسا فقلت : يا رسول الله أراك تصلى جالسا فما أصابك ؟

قال : الجوع يا أبا هريرة • فبكيت • فقال : لا تبك يا أبا هريرة ، فان شدة الحساب يوم القيامة لا تصيب الجائع اذا احتسب في دار الدنيا » •

وأخرج الطبراني وابن حبان في صحيحه عن ابن عباس رضى الله

عنهما قال : خرج أبو بكر رضى الله عنه بالهاجرة الى المسجد ، فسمع عمر رضى الله عنه فقال : يا أبا بكر ما أخرجك هذه الساعة ؟

قال : ما أخرجنى الا ما أجد من حاق الجوع (أى شدة الجوع)
قال : وأنا — والله — ما أخرجنى غيره • فبينما هما كذلك اذ خرج عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما أخرجكما هذه الساعة ؟ قالا : والله ما أخرجنا الا ما نجد فى بطوننا من حاق الجوع قال : وأنا — والذي نفسى بيده — ما أخرجنى غيره • فقوموا فانطلقوا » •

وأخرج ابن ماجه وابن أبى الدنيا عن أبى سعيد رضى الله عنه أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو موعوك^(١) عليه قطيفة فوضع يده فوق القطيفة فقال : ما أشد حماك يا رسول الله • قال : أنا كذلك يشدد علينا البلاء ويضاعف لنا الأجر • ثم قال : يا رسول الله من أشد الناس بلاء ؟

قال : الأنبياء • قال : ثم من ؟

قال : العلماء • قال : ثم من ؟

قال : الصالحون •

وأخرج البيهقى عن أبى عبيدة بن حذيفة رضى الله عنه عن عمته فاطمة رضى الله عنها قالت :

أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نساء نعوذه وقد حم فأمر بسقاء فعلق على شجرة ثم اضطجع تحته فجعل يقطر على فواقه من شدة ما يجد من الحمى فقلت : يا رسول الله ، لو دعوت الله أن يكشف عنك ، فقال : ان أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم •

وأنت ترى من هذه الأمثلة أنه ما من موطن من مواطن امتحان الصبر الا وقد امتحن فيه صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم • وفى كل مرة نجد عنده الصبر الذى لا يخالطه هلع ، انها أخلاق النبوة فى أعلى كمالات البشر •

(١) موعوك : محموم •

ثانياً — نماذج من رحمته :

١ — والناس الذين يخوضون المعارك ويسوسون البشر • تقسو قلوبهم وتجف دموعهم ، ونادرا ما تجد الموعظ في ذلك متصفا بصفة الرحمة ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن اقتدى به ليسوا من هذا الطراز ، فمهما شئت عندهم من شجاعة وقوة وشدة وصبر وجدت ، ولكنها صفات لا تطفى على خلق الرحمة أبداً ، بل كما أن هذه الصفات في كمالها فكذلك خلق الرحمة عنده صلى الله عليه وسلم في كماله ، وقد رأيت في فقرة سابقة كيف تفيض عينه صلى الله عليه وسلم في كثير من المواقف رحمة وشفقة ، وهو الصابر الذي ما عرف أكثر صبرا منه ، والمقاتل الذي ما عرف أكثر حنكة منه ، يفيض قلبه بالرحمة فيبكي وتدمع عيناه ، وقد يسمع صوت بكائه ، إنها نفس تجيش جيشانا ببحار الرحمة •

٢ — وهناك مواطن يفقد فيها الرحماء رحمتهم ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تفارقه رحمته ، يؤذى ويضرب ويضطهد فيقول : « اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون » ويوم فتح مكة وقد فعلت به ما فعلت ، كان موقفه غير المتوقع كما قص عمر قال : لما كان يوم الفتح ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة أرسل الى صفوان بن أمية وإلى أبي سفيان بن حرب وإلى الحارث بن هشام قال عمر : فقلت :

لقد أمكن الله منهم لأعرفنهم بما صنعوا حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثلى ومثلكم كما قال يوسف لاختوته : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » (يوسف : ٩٢) • قال عمر : فافتضحت حياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم كراهية أن يكون بدر منى وقد قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال • ان المواطن التي تغيب عادة فيها عواطف الرحمة بعواطف الانتقام أو الانتصار تبقى صفة الرحمة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في محلها لا تطفى على غيرها ولا يطفى غيرها عليها •

— وكانت رحمته تسع الناس جميعا ويحس بها المستضعفون قبل الأقوياء ، يقول عبد الله بن عمرو : دخل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد فجلس الى الفقراء وبشرهم بالجنة وبدا على وجوههم البشر فحزنت لأنتى لم أكن منهم •

وجاء في صحيح البخاري : « أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر

ذات يوم رجلا أسود فقال ما فعل ذلك الانسان ؟ قالوا مات يا رسول الله ، قال : أفلا آذنتموني ؟ فقالوا : انه كذا وكذا قصته فحرقوا من شأنه ، قال دلوني على قبره فأتى قبره فصلى عليه » •

وقال معاوية بن سويد : كنا بنى مقرر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لنا خادم الا واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اعتقوها فقبل ليس لهم خادم غيرها فقال : فليستخدموها فاذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها •

وأخرج الشيخان عن أنس رضى الله عنه أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : « انى لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز فى صلاتى مما أعلم من وجد أمه من بكائه » •

وبلغت رحمته الحيوان فكان أرحم الخلق به •

قال عبد الرحمن بن عبد الله : كنا مع رسول الله فى سفر فرأينا حمرة (طائر مثل العصفور) معها فرخان لها فأخذناهما فجاءت الحمرة تعرش (ترفرف) فلما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « من فجع هذه بولدها ؟ .. ردوا ولدها اليها » •

ونهى أن يتخذ الحيوان هدفا يرمى بالنبال يتعلم فيه الرمى ، وأمر من يريد الذبح أن يحد شفرته ويريح ذبيحته وألا يذبح الحيوان بمرأى من الحيوان ، ان رحمته بلغت كل شىء •

— ولكنها الرحمة التى لا تتجاوز حدها :

لما أسر أبا عزة الشاعر أول مرة استعطفه حتى أطلق سراحه على شرط ألا يقف بعد اليوم ضده ، وتدور الأيام ويدخل أبو عزة المعركة ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأسره مرة ثانية ويستعطفه مرة ثانية ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ويأمر بقتله • وهذا الذى سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الحالة هو الذى أخذ به القانون الدولى فى القرن العشرين حيث نص على أن الأسير الذى يطلق سراحه بشرط عدم الدخول فى المعركة ضد أسريه مرة ثانية اذا أسرى بعدها يقتل •

انها الرحمة التى تفيض حتى تعم الخلق ، ولكنها لا تتجاوز محلها فتطغى على صفات الكمال الأخرى •

انها الرحمة التى تفيض حتى تكاد تقتل صاحبها أسى لما يرى من انصراف الخلق عن طريق الجنة الى طريق النار • حتى يعاتب الله عز وجل

صاحبها : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » (الكهف : ٦) • انها رحمة النبوة وانها صفاتها •

* * *

ثالثا — نماذج من حلمه :

١ — وله صلى الله عليه وآله وسلم من الحلم — كما له من كل خلق — كماله • يغضب للحق اذا انتهكت حرماته واذا غضب فلا يقوم لغضبه شيء حتى يهدم الباطل وينتهي ، وفيما عدا ذلك فهو أحلم الناس عن جاهل لا يعرف أدب الخطاب أو مسمى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه يمكن اصلاحه ، أو منافق يتظاهر بغير ما يبطن وتجد حلمه دائما عجيبا • يفوق الحد الذي يتصوره الانسان خاصة وأن حلمه مع القدرة على البطش والقتل والارهاب •

اذ لا يشك أحد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أمر بقتل انسان لتبادر المئات الى تنفيذ أمره • بل ان بعضهم لا يحتاجون الى الأمر بقدر ما يحتاجون الى الاذن • فلو أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لطارت رؤوس عن كواهل أصحابها قبل أن ينهوا كلامهم ، ولكن الرسول الحليم صلى الله عليه وسلم كان يتحمل ويحلم حتى انك لتراه بالحلم مجسما •

في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال :

بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما اذ أتاه ذو الخويصرة — رجل من بنى تميم — فقال : يا رسول الله •• اعدل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويلك من يعدل ان لم يعدل ؟ ! لقد خبت وخسرت ! اذا لم يعدل فمن يعدل ؟ فقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله اتذن لى فيه فأضرب عنقه • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعه ••

ويوم حنين اذ قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قسم قال رجل : — كما يروى البخارى — والله ان هذه لقسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله فقلت (أى عبد الله) : والله لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته فأخبرته فقال : من يعدل اذا لم يعدل الله ورسوله ، رحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر •

وروى أحمد عن عائشة قالت :

« ما ضرب رسول الله بيده خادما له غط ولا امرأة ولا ضرب بيده

شبهًا إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا خير بين شيئين قط إلا كان أحبهما
إليه أيسرهما حتى يكون اثما فإذا كان اثما كان أبعد الناس من الاثم •
ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه حتى تنتهك حرمات الله فيكون هو
ينقم لله •

وأخرج الشيخان عن أنس بن مالك أن امرأة يهودية أتت رسول
الله بشاة مسمومة فأكل منها فجاء بها إلى رسول الله فسألها عن ذلك
قالت : أردت لأقتلك ، فقال : ما كان الله ليسطك على — أو نال على
ذلك — قالوا : ألا تقتلها ؟ قال : لا ••

وأخرج ابن جرير عن أنس رضي الله عنه قال : دخل رسول الله
صلى الله عليه وسلم يوما المسجد وعليه برد نجراني غليظ الصنعة فأتاه
أعرابي من خلفه فأخذ بجانب رداءه حتى أثرت الصنعة في صفحة عنق
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد أعطنا من مال الله الذي
عندك فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبسم فقال : مروا له •

وأخرج عن أبي هريرة قال : كنا نقعد مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم بالغدوات في المسجد فإذا قام إلى بيته لم نزل قياما حتى يدخل
بيته فقام يوما فلما بلغ وسط المجلس أدركه أعرابي فقال :

يا محمد •• احملني على بعيرين فانك لا تحملني من مالك ولا من
مال أبيك وجذب بردائه حين أدركه فاحمرت رقبتة فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : لا •• وأستغفر الله لا أحملك حتى تقيدني — قالها
ثلاث مرات — ثم دعا رجلا فقال له : احمله على بعيرين • على بعير
شعير وعلى بعير تمر • ورواه أحمد •

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال :

كانت امرأة ترافث الرجال (أي تكلمهم كلاما بذيئا) وكانت بذيئة
فمرت بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو يأكل ثريدا على طربال فقالت :
انظروا إليه يجلس كما يجلس العبد ويأكل كما يأكل العبد •

فقال النبي : وأي عبد أعبد مني ؟

قالت : ويأكل ولا يطعمني •

قال : فكلني •

قالت : ناولني ، سدك ، فتناولها •

فقالت : أطعمنى مما فى فيك ، فأعطاها فأكلت فغلبها الحياء فلم ترافث أحدا حتى ماتت •

وأخرج أبو نعيم عن عائشة قالت :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فصنعت له طعاما وصنعت له حفصة طعاما فسبقتنى حفصة فقلت للجارية : انطلقى فاكفى قصعتها فأهوت أن تضعها بين يدى النبى فكفأتها فانكفأت القصعة فانتشر الطعام فجمعها النبى وما فيها من الطعام على الأرض فأكلوا • ثم بعثت بقصعتى فدفعها النبى الى حفصة فقال : خذوا ظرفا مكان ظرفكم واكلوا ما فيها فما رأيته فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم • وحلمه صلى الله عليه وسلم أوسع من أن يحاط بجوانبه ، ولولا هذا الحلم ما استطاع أن يسوس شعبا كالعرب يأنف أن يطيع أو ينصاع أو يجرح ، وصدق الله العظيم : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمتم فتوكل على الله » (آل عمران : ١٥٩) •

* * *

رابعا — نماذج من كرمه :

ان الكرم فى الاسلام طريق من طرق الجنة ، وإن البخل طريق النار • ولذلك فقد كان كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجارى • ولا يبارى • ، ان الله قد جعل خمس الغنائم اليه وكانت حصته عليه السلام من هذا الخمس : الخمس • وقد غنم المسلمون غنائم كثيرة ولو أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجمع مالا لكان أكثر الخلق مالا • ان خمس غنائم حنين كان ثمانية آلاف من الغنم وأربعة آلاف وثمان مائة من الجمال وثمانية آلاف أوقية من الفضة وألف ومئتان من النسبى • هذا الخمس الذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرباه منه خمسه فكم نتصور غنى الرسول صلى الله عليه وسلم لو أراد أن يجمع مالا من غزواته كلها من خير الغنية وقريظة وبنى النضير •

فاذا ما علمنا مقدار حق رسول الله صلى الله عليه وسلم المعطى له من هذه الأموال فقط مثل هذا وإذا عرفنا أنه كان بالامكان استثماره وتنميته ثم علمنا بعد ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ودرعه مرهونة عند يهودى وأنه أمر أن يوزع ميراثه ان كان على المسلمين ، وأنه ليس لأقاربه من ميراثه شئ وأنه ما كان يلبس الا الخشن ولا ينام (٩ - الرسول)

الا على القليل ، وأنه يجوع الأيام وأنه كان يخشى اذا بقى في بيته مال فلم يوزعه على الناس ، وكل ذلك قد مر منه أمثلة معك • أدركت أى كرم كان عنده صلى الله عليه وسلم وأى نفس طاهرة هذه النفس وأدركت أنها النبوة • وأن غير النبوة لا تجود بهذا الجود وترضى مع القدرة بهذه الحياة ، الا اذا كانت نفسا متأسية برسول الله صلى الله عليه وسلم • وقد شهد على ذلك أقوى الناس شركا وعنادا وبغضا له صلى الله عليه وسلم فأسلموا نتيجة ذلك ولعل في ما ذكرناه غنية عن ضرب الأمثلة ولكن بالمزيد خيرا •

— أخرج الشيخان عن ابن عباس قال :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقى جبريل عليه السلام • وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن قال : فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة » •

وأخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال : لا •

وأخرج الطبرانى عن الربيع بنت معوذ بن عفراء رضى الله عنها قالت : بعثنى معوذ بن عفراء بصاع من رطب عليه آخر من قثاء زغب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحب القثاء وكانت حلية قد قدمت من البحرين فملا يده منها فأعطانيها • وفي رواية : فأعطاني ملء كفى حليا أو ذهباً • ورواه أحمد بن حنبل وزاد : فقال : تحلى بهذا •

وأخرج الطبرانى في الأوسط عن أم سنبلة رضى الله عنها : أنها أتت النبى صلى الله عليه وسلم^(١) فأبى أزواجه أن يقبلنها ، فقلن : انا لا نأخذ فامرهن النبى صلى الله عليه وسلم فأخذنها ثم أقطعها واديا •

وأخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال : « جاءت امرأة الى رسول الله ببردة فقالت : يا رسول الله جئتك أكسوك هذه فأخذها رسول الله وكان محتاجا اليها فلبسها فرآها عليه رجل من أصحابه ، فقال : يا رسول الله ما أحسن هذه أكسنيها ، فقال : نعم • فلما قام رسول الله لأمه أصحابه وقالوا : ما أحسنت حين رأيت رسول الله أخذها محتاجا اليها ثم سألتها اياها وقد عرفت أنه لا يسئل شيئا فيمنعه • قال : والله ما

(١) لعل المقصود أنها أتته بهدية •

حملنى على ذلك الا رجوت بركتها حتى لبسها رسول الله لعلى أكفن فيها » •

وأخرج أحمد عن أنس أن رسول الله لم يسئل شيئاً على الاسلام الا أعطاه قال : فأتاه رجل فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة قال : فرجع الى قومه فقال : « يا قوم أسلموا فان محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفلقة » •

وزاد في رواية : فان كان الرجل ليحجى الى رسول الله ما يريد الا الدنيا فما يمسي حتى يكون دينه أحب اليه وأعز عليه من الدنيا وما فيها • وأخرج ابن عساكر في قصة اسلام صفوان بن أمية عن عبد الله ابن الزبير ما يلى :

« وخرج رسول الله قبل هوازن وخرج معه صفوان وهو كافر وأرسل اليه يستعيره سلاحه فأعار سلاحه مائة درع بأداتها • فقال صفوان : طوعا أو كرها •

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عارية رادة ، فأعاره • فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحملها الى حنين فشهد حنينا والطائف ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الجعرانة فبينما رسول الله يسير في الغنائم ينظر اليها — ومعه صفوان بن أمية — فجعل صفوان بن أمية ينظر الى شعب ملاء نعماء وشاء ورعاء فأدام النظر اليه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرمقه فقال : أبا وهب يعجبك هذا الشعب ؟

قال : نعم •

قال : هو لك وما فيه •

قال صفوان عند ذلك : ما طلبت نفس أحد بمثل هذا الا نفس نبي ، أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وأسلم مكانه » •

هذه نماذج من الكرم تضيع بجانبها كل قصص الكرم المعروفة المشهورة عند الناس • كرم يجعل صاحبه يعيش حياة الجهد والمشقة والفاقة ، حياة لا يطيقها أحد غيره هو وعياله ، مع هذا الملك العريض الواسع ، والسلطان الكبير والواردات الكثيرة ، وزيادة على ذلك أنه لو أراد من أموال المسلمين شيئاً لخاصة نفسه لكان المسلمون في ذلك كراما • وله الحق في ذلك أليس هو مدبر شؤونهم ومعلمهم ، ولكن هذا

كله لم يحدث ، انه كرم في النفس يمنع صاحبه عن التطلع الى اموال الآخرين ، وكرم في النفس لا يقوم معه من ملك صاحبه شيء . • انها أخلاق النبوة العربية الهاشمية المصطفاة سليمة ابراهيم عليه السلام .

* * *

خامسا — نماذج من تواضعه وتياسره :

ننقل هنا ما كتبه صاحب كتاب بطل الأبطال تحت هذا العنوان مكتفين به في هذا الفصل مع حذف بعض جمل المقال يقول :

صفة بينة لبطل الأبطال صلى الله عليه وسلم كانت ولا تزال على مر الأجيال بادية واضحة في طبعه الكريم تلك هي : التياسر والتواضع فبهما كان محمد صورة صادقة لكرامة الانسان يؤتاها من صميم نفسه ولا يصطنعها مما يحيط به من مظاهر خادعة متكلفة ، كان محمد التياسر نفسه يتمثل في الرجل الكامل : وينبعث من أعماق قلبه ، فيبدد ما يتجمع حوله من زخرف السيادة والملك وما يتبعهما من الرياء والزينة ، وما يخدع به الناس من قول أو فعل ، كان محمد قريبا سهلا هينا يلقي أبعد الناس وأقربهم وأصحابه وأعداءه وأهل بيته ووفود الملوك بلا تصنع ولا تكلف ، بل بالحق سافرا فكانت أعماله تصدر طبيعية منها يدل على خلقه كما تدل انصورة على صاحبها واسمعوا الى عدي بن حاتم يقول وقد كان يظن أنه سيلقى ملكا في المدينة : دخلت على محمد وهو في المسجد فسلمت عليه فقال : من الرجل ؟

فقلت : عدي بن حاتم .

فقام وانطلق بي الى بيته فوالله انه لعامد بي اليه اذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف طويلا تكلمه في حاجتها قال فقلت : والله ما هذا بملك . قال : ثم مضى بي رسول الله حتى اذا دخل بي الى بيته تناول وسادة من آدم محشوة ليفا ففذفها الى فقال : اجلس على هذه قال قلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : بل أنت ، فجلست عليها وجلس رسول الله على الأرض . قال : قلت في نفسي : والله ما هذا بأمر ملك . • هذه طبيعة محمد لا طلاء عليها يأتيه عدي وقد وقع بعض أهله قبل ذلك أسرى لجيوشه يأتيه مغلوبا فيجلسه على وسادة ويجلس هو على الأرض .

ثم انظروا اليه وقد مات ابنه ابراهيم ، فكسفت الشمس فقال

الناس : كسفت الشمس لموت ابراهيم • فيقوم في المسجد قائلاً : « ان
انشمس والقمر من آيات الله لا تتكسفان لموت أحد ولا حياته » •
هذه هي النفس البريئة التي تعشق الحق للحق ، وتتعالى في تواضع
عن استغلال وهم من الأوهام •

* * *

انظروا كذلك اليه كيف يستأذن على أحد أصحابه وكيف ينصرف ؟

يقول قيس بن سعد :

زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزلنا فقال : السلام عليكم
ورحمة الله ، فرد أبي ردا خفيا فقلت لأبي : ألا تأذن لرسول الله ؟ فقال :
زده حتى يكثر علينا من السلام ، فقال صلى الله عليه وسلم : السلام عليكم
ورحمة الله ، ثم رجع فاتبعه سعد فقال : يا رسول الله •• انى كنت أسمع
تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام فانصرف معه النبي ،
وأمر له سعد بغسل فاغتسل ثم ناوله ملحفة مصبوغة بزعفران فاشتمل
بها ثم رفع يديه وهو يقول : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد •
فلما أراد الانصراف قرب له سعد حمارا فقال سعد : يا قيس
اصحب رسول الله فصحبته فقال : اركب معى فأبيت فقال : اما أن تركب
واما أن تنصرف •

هذه زيارة سيد العرب والعجم لأحد أنصاره من كبار المدينة تمر في
غير حفل ولا ظهور • يذهب اليه ماشيا ، ويعود على حمار يريد أن يردف
عليه رفيقه • تلك السجية الظاهرة لم تحل دون أن يكون أمر محمد
مطاعا وطاعته قرينة • فان يحسب الناس أن مظاهر الرياسة والسلطان
لازمة لحسن الولاء واستدامة الطاعة ، فلقد كان ولاء سعد والأنصار
لمحمد المتواضع مضرب الأمثال في تاريخ الدعوة الاسلامية (بل في
كل تاريخ) ولم تكن دعوته قيسا الى الركوب معه على الحمار أمرا
غريبا ، بل كانت هذه عادته يردف على حماره وبغلته وناقته ويعاقب مع
رفاقه (المعاقبة أن يركب واحد مرة ويركب الثانى أخرى) قال ابن عباس :
ان النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة استقبله أغيلمة بنى عبد المطلب
فحمل واحدا بين يديه وآخر خلفه • وقال معاذ : كنت رادف رسول
الله على حمار يقال له : عفير ، وجاء اليه رجل وهو يمشى فقال : اركب
وتأخر على حماره فقال محمد : أنت أحق بصدر دابتك منى الا أن

تجعله لى ، فقال الرجل : فانى جعلته لك • ويقول جابر : كان رسول الله يتخلف فى السير ، فيزجى الضعيف (أى يسوقه ليلحق الرفاق) ويردف ، ويدعولهم •

كان مرة فى سفر مع صحبه ، فأرادوا أن يهيئوا لهم طعاما فقسم العمل بينهم ، فقام يجمع الحطب فأرادوا أن يكفوه ذلك فأبى ، لأن الله يبغض الرجل يتعالى على رفاقه • ولما وقف عليه أعرابى يرتجف خشية ، ذكره أنه ابن امرأة من قریش كانت تأكل القديد • وخرج على جماعة من أصحابه يتوكأ على عصا ، فقاموا له فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا ••

وكان محمد يكره الاطراء والألقاب ، انطلق اليه وفد بنى عامر ، فلما كانوا عنده قالوا : أنت سيدنا ، فقال : السيد الله ، فقالوا : وأفضلنا فضلا ، وأعظمنا طولا ، فقال : قولوا قولكم ، ولا يستجريكم الشيطان • كان فى تياسره جم التواضع ، وافر الأدب يبدأ الناس بالسلام ، وينصرف كله الى محدثه صغيرا كان أو كبيرا أو يكون آخر من يسحب يده اذا صافح • واذا تصدق وضع الصدقة فى يد المسكين ، واذا أقبل جلس حيث ينتهى المجلس بأصحابه • لم يكن يأنف من عمل يعمله لقضاء حاجته أو حاجة صاحب أو جار ، فكان يذهب الى السوق ويحمل بضاعته ويقول : أنا أولى بحملها •• ولم يستكبر عن عمل الأجير والفاعل سواء أكان فى بناء مسجد المدينة أو فى الخندق وهو أمير الجيش يدفع الأحزاب •

وكان محمد كذلك متواضعا فى ملبسه وسكنه • يلبس كعامة من حوله ويسكن ، وقد واثته الدولة والسلطان فى صف من حجرات واطئة مبنية باللبن ، بين كل حجرة وأخرى حائط من جريد النخل ملبس بالطين ومغطى بجلد أو كساء أسود من الشعر • وكان يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويقبل عذر المعتذر ، وكان يرقع ثوبه ويخفف نعله بيده ، ويخدم نفسه ويعقل بعيره ، ويأكل مع الخادم ويقضى حاجة الضعيف والبائس •

كل هذا التواضع والتياسر الصادق من نفسه الطاهرة ، والذي هو صورة صادقة له ، لم ينقص من هيئته ولا محبته ، وقد قيل فى وصفه : من رآه بداهة هابه ومن عاشره أحبه • فكانت علاقة أصحابه والناس به علاقة أدب جم وحب ووقار كامل ، لم يتكبر ولكنه لم يرض

سوء الأدب ، وكثيرا ما بين لأصحابه كيف يتصرفون في حضرته وفي خطابه .

يقول « ولیم مویر » في وصف تواضعه وتياسره : « كانت السهولة صورة من حياته كلها ، وكان الذوق والأدب من أظهر صفاته في معاملته لأقل تابعيه ، فالتواضع والشفقة والصبر والایثار والجود صفات ملازمة لشخصه وجالبة لمحبة جميع من حوله فلم يعرف عنه أنه رفض دعوة أقل الناس شأنا ، ولا هدية مهما صغرت وما كان يتعالى ويبرز في مجلسه ، ولا شعر أحد عنده أنه لا يختصه باقباله وان كان حقيرا ، وكان اذا نقى من يفرح بنجاح أصابه أمسك يده وشاركه سروره . وكان مع المصاب والحزين شريكا شديد العطف حسن المواساة وكان في أوقات العسر يقتسم قوته مع الناس ، وهو دائم الاشتغال والتفكير في راحة من حوله وهناعتهم » .

ولسنا في تاريخ محمد بحاجة الى أحد ، فان مما اختص به من بين رسل العالم وأبطاله وضوح حياته وجلاءها من جميع نواحيها . وانما سقنا عبارة « مویر » هنا لشعورنا أنها صادرة عن اعجاب صادق ولو أننا درسنا سيرة محمد الدراسة اللائقة بها ، لكان اليوم حيا بين أصحابه ، ولوجدنا الصورة التي طبعها على الوجوه بعمله وقوله لا تزال واضحة وضوح نفسه العظيمة ، المتحلية بأخلاق لا يغطيها الطلاء ولا يحجبها رياء ولا ترى الا على حالة واحدة في الليل والنهار وفي السر والعلانية وفي الشدة والرخاء وفي الضعف والقوة ، في السوق وهو في شبابه وفي الشيخوخة وعلى عرش النبوة والملك .

وكان محمد بأخلاقه شخصية من اليسر والتواضع لا تبديل ولا تغيير فيها ، هي النفس التي اتصلت بالسماء وعاشت على الأرض دانية الى الناس محببة اليهم في كل أطوار حياته . كان بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى الذي نحن اليوم أحوج ما نكون اليه في نطاق الاخوة الاسلامية ، لا يرفع من شأن أحدهم غنى أو جاه أو حسب أو نسب وانما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى والناس من آدم وآدم من قراب » .

وأخيرا وبعد أن ضربنا لك أمثلة على خمس من أمهات أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وضح بما لا يقبل الشك أن العالم لم يعرف ارتفاعا في الأخلاق في كلياتها وجزئياتها وأبعادها . بشمولها كله كما

عرفه في رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما شهد بذلك القرآن العظيم .
 وأن منتهى آمال الأخلاقيين أن يقلدوه بخلق واحد من أخلاقه وهم
 لا يرتقون بهذا الخلق إلا إلى بعض ما هو عنده صلى الله عليه وسلم . وإن
 الناس جميعا بكل ما أوتوا من أخلاق لو جمعت أخلاقهم الحميدة فانهم
 لا يبلغون أن يحيطوا إلا بالأقل مما كان (عليه السلام) . هذا مع أن
 الناس لا تخلص أخلاقيتهم مما يعابون عليه بحق . أما رسول الله صلى
 الله عليه وسلم فكان الأخلاق كلها محضا . ليس فيها ما يخالط مما يلام
 عليه الإنسان ، إلا إذا كان اللائم أعمى البصيرة ، يرى الخير شرا والشر
 خيرا ، أو حاسدا أو متكبرا أعماه الحسد والكيد عن رؤية الحقيقة التي
 لا تغيب عن أحد . وإن أحدا عرف الرسول صلى الله عليه وسلم في زمانه
 من عدو أو صديق إلا وأسلم في ضميره أن الخلق المحمدي لا يرقى
 إليه مطعن ، وقد مر معك كثير من شهادة الأعداء وهم أعداء بذلك .
 وقديما قال أحد آباء زوجاته المشركين وقد بلغت خطبته لبنته : « هو
 الفحل لا يجدع أنفه » . وقال عكرمة بن أبي جهل بعد حربه الطويل
 لرسول الله هو أبوه في لحظة إسلامه :

« أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبد الله ورسوله
 وأنت أبر الناس وأصدق الناس وأوفى الناس ، قال عكرمة : أقول ذلك
 وإنى لمطأطئ رأسي استحياء منه » .

* * *

وبعد فالى الفقرة الثانية :

٢ — رجل الأسرة الأول : أبا وزوجا

١ — التعريف بأزواجه عليه السلام :

قال ابن هشام : وكن تسعا : عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت
 عمر بن الخطاب ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، وأم سلمة
 بنت أبي أمية بن المغيرة ، وسودة بنت زمعة بن قيس ، وزينب بنت
 جحش بن رئاب ، وميمونة بنت الحارث بن حزن ، وجويرية بنت الحارث
 ابن أبي ضرار ، وصفية بنت حيى بن أخطب فيما حدثنى غير واحد
 من أهل العلم .

وكان جميع من تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة .
 خديجة بنت خويلد وهى أول من تزوج . زوجها أياها أبوها خويلد
 ابن أسد ويقال أخوها عمرو بن خويلد وأصدقها رسول الله صلى الله

عليه وسلم عشرين بكرة فولدت لرسول الله ولده كلهم الا ابراهيم وكانت قبله عند أبي هالة بن مالك أحد بنى أسيد بن عمرو بن تميم حليف بنى عبد الدار فولدت له هند بن أبي هالة وزينب بنت أبي هالة وكانت قبل أبي هالة عند عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم فولدت له عبد الله وجارية • وتزوج رسول الله عائشة بنت أبي بكر الصديق بمكة وهي بنت سبع سنين وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين أو عشر ولم يتزوج رسول الله بكرا غيرها • وزوجه اياها أبوها أبو بكر وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم • وتزوج رسول الله سودة بنت زمعة • • وزوجه اياها سليط بن عمرو ويقال : أبو حاطب بن عمرو • • وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند السكران بن عمرو • وتزوج رسول الله زينب بنت جحش بن رثاب الأسدية وزوجه اياها أخوها أبو أحمد بن جحش وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند زيد بن حارثة مولى رسول الله ففيها أنزل الله تبارك وتعالى : **« فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها »** (الأحزاب : ٣٧) وتزوج رسول الله أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية واسمها هند وزوجه اياها سلمة بن أبي سلمة ابنها وأصدقها رسول الله فراشا حشوه ليف وقدحا وصفحة ومجشة (أى رحي) وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد واسمه عبد الله فولدت له سلمة وعمر وزينب ورقية •

وتزوج رسول الله حفصة بنت عمر بن الخطاب وزوجه اياها أبوها عمر ابن الخطاب وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند خنيس ابن حذافة السهمي •

وتزوج رسول الله أم حبيبة واسمها رمة بنت أبي سفيان بن حرب وزوجه اياها خالد بن سعيد بن العاص وهما بأرض الحبشة وأصدقها أنجاشى عن رسول الله أربع مائة دينار وهو الذى كان خطبها على رسول الله وكانت قبله عند عبيدة الله بن جحش الأسدي •

وتزوج رسول الله جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية كانت فى سبايا بنى المصطلق من خزاعة فوقعت فى السهم لثابت بن قيس ابن الشماس الأنصاري فكتبها على نفسها فأنت رسول الله تستعينه فى كتابتها فقال : هل لك فى خير من ذلك • قالت : وما هو ؟ قال : أفضى عنك كتابتك وأتزوجك فقالت : نعم ، فتزوجها • •

وتزوج رسول الله صفية بنت حيى بن أخطب سبأها من خير

فاصطفاها لنفسه وأولم رسول الله وليمة ما فيها شحم ولا لحم كان سويقاً وتم ا وكانت قبله عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق .

وتزوج رسول الله ميمونة بنت الحارث بن حزن زوجه اياها العباس بن عبد المطلب وأصدقها العباس عن رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند أبي رهم بن عبد العزى ويقال : انها التي وهبت نفسها للنبي وذلك أن خطبة النبي انتهت اليها وهي على بعيرها فقالت : البعير وما عليه لله ولرسوله فأنزل الله تبارك وتعالى : « وأمرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي ان أراد النبي أن يستنكحها » (الأحزاب : ٥٠) .

وتزوج رسول الله زينب بنت خزيمة بنت الحارث وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها اياهم ورقتها عليهم زوجه اياها قبيصة بن عمرو الهلالي وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند عبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وكانت قبل عبيدة عند جهم ابن عمرو بن الحارث وهو ابن عمها .

فهؤلاء اللاتي بنى بهن رسول الله احدى عشرة فمات قبله منهن اثنتان خديجة بنت خويلد وزينب بنت خزيمة وتوفى عن تسع قد ذكرناهن في أول هذا الحديث .

واثنتان لم يدخل بهما أسماء بنت النعمان الكندية تزوجها فوجد بها بياضاً فمتعها وردّها الى أهلها وعمرة بنت يزيد الكلابية وكانت حديثة عهد بالكفر فلما قدمت على رسول الله استعازت من رسول الله فقال رسول الله : منيع عائذ الله ، فردّها الى أهلها ويقال : ان التي استعازت من رسول الله كندية بنت عم لأسماء بنت النعمان ويقال : ان رسول الله دعاها فقالت : انا قوم نؤتى ولا نأتى فردّها رسول الله الى أهلها .

القرشيات من أزواج النبي ست : خديجة وعائشة وحفصة وأم حبيبة وأم سلمة وسودة بنت زمعة

والعربيات غيرهن ست : زينب بنت جحش بن أسد بن خزيمة وميمونة بنت الحارث بن هلال بن عامر بن صعصعة بن قيس بن عيلان وزينب بنت خزيمة بن هلال بن عامر بن صعصعة وجويرية بنت الحارث ابن أبي ضرار الخزاعية ، ثم المصطلقية وأسماء بنت النعمان الكندية وعمرة بنت يزيد الكلابية

ومن غير العربيات : صفية بنت حيى بن أخطب من بنى النضير

ويقول الكافرون : ان هذا يخدش نبوة محمد صلى الله عليه وسلم
أن يكون له كل هذا العدد من الزوجات •

ونقول : ان الذين يقولون هذا الكلام أحد ثلاثة : اما انسان له دين
غير الاسلام والذي له دين : اما أن يكون دينه يقول بتعدد الزوجات
أولا •

أو انسان لا يؤمن بدين •

أما الانسان الذى لا يؤمن بدين فهذا عمليا يستعمل آلاف النساء
استعمال الزوجات ، ولا يرى فى ذلك بأسا ولا يتحرج أن يضاجع أى
امراة ولو كانت أخته ، ولو كانت زوجة صاحبه ، وما أكثر ما سمعنا
بأمثال هذا من هؤلاء • فلا محل لكلام هؤلاء ولا يناقشون أصلا ، لأنه
ليس لديهم مقاييس يمكن أن تكون معقولة يناقشهم الانسان عليها •
وأما الذين لهم دين يقول بالتعدد المطلق فهؤلاء كذلك لا نقاش معهم
اذا ما أبيح لهم كيف يحرهونه على غيرهم •

وأما الذين لهم دين يقول بعدم جواز التعدد كالتصارى الحاليين
فاننا نقول لهم : اما أن عدم التعدد هو شريعة الله فهذا غير صحيح بدليل
تاريخ الكنيسة عندكم وأما أن زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا
العدد من النساء يتنافى مع جلال النبوة • فان الكتب التى بين أيديكم
وتؤمنون بها وهى كتب العهد القديم ، تذكر أن من الأنبياء الذين تؤمنون
بنبوتهم من تزوج بنساء أكثر بكثير من نساء سيدنا محمد عليه السلام •
وقد ذكرنا أمثلة من هذا فى مبحث الشهادات فلماذا تتناقضون ؟

غير محمد صلى الله عليه وسلم من الأنبياء اذا تزوج أكثر منه فذلك
لا يتنافى مع جلال النبوة أما هو فلا ؟

ان هذا عمنى عن الحقيقة وتجاهل لها ، فان فرط الرجولة ليس عيبا
فى الرجل بل كمال فيه اذا بقيت ضمن الاطار الذى حدده الله •

ان الأنبياء منفذون لأوامر الله لا يخرجون عنها ، فاذا ما صحت
نبوة نبي وتصرف ضمن أوامر الله فلا حرج عليه وقد أشار القرآن
الى هذا المعنى فى قصة زواج النبی صلى الله عليه وسلم من زينب بنت
جحش : « ما كان على النبی من حرج شيئا فرض الله له ، سنة الله فى
الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدرا مقدورا » (الأحزاب : ٣٨) •

ان ظاهرة الرسالة ظاهرة نادرة في التاريخ البشرى وظهورها بمحمد صلى الله عليه وسلم هو الظهور الأخير لذلك فقد خص الله رسوله صلى الله عليه وسلم ببعض الأحكام وكل ما خص به صلى الله عليه وسلم كان فيه نوع من التكليف أكبر ، ونوع من العبء أكبر ، وحتى هذه القضية قضية تعدد زوجاته ، كان غرمها أكبر من غنمها ، وعبؤها أكبر من سهولتها ، لما يترتب على ذلك من القيام بحقوق هذا العدد الكثير . وسياستهن وتدير أمورهن من جهد ، مع كثرة أعباء السيد الرسول صلى الله عليه وسلم الأخرى من جهاد وتعليم وتدريب ، و . . .

و لو تأمل الانسان في هذا الموضوع بعمق لوجد أنه دليل على النبوة والرسالة مستقل وذلك لما فيه من الحكم الكثيرة والمصالح المتعددة :

فلقد أحل الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتزوج ما شاء بقوله :

« يا أيها النبي انا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي ان أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين » (الأحزاب : ٥٠) .

ثم أخيرا أنزل :

« لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك » (الأحزاب : ٥٢) .

اذن بعد أن تزوج ما تزوج منع من الزواج فلم يتزوج بعد وجعل الله زوجاته أمهات المؤمنين فلا يجوز لأحد أن يتزوج منهن بعده صلى الله عليه وسلم فما الحكمة في ذلك كله ؟

١ — أن الرسول صلى الله عليه وسلم تزوج الكبيرة والصغيرة والوسط ، والمرأة في كل طور من أطوارها لها مشاكلها . وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم العملية وأجوبته الدائمة بما يتفق مع كل طور ، ونقل هذا كله الى الأمة الاسلامية مما تقتضيه مهمة الرسالة التي جعلها الله عز وجل مبينة لكل شيء مما يلزم الانسان .

٢ — ان المرأة في الاسلام مكلفة كالرجل ، ولها وضعها الخاص الذي تختلف فيه عن الرجل . ووجود هذا العدد من النساء يساعد على

نقل كل ما له علاقة في المرأة الى الأمة الاسلامية • بحيث يكون أمهات المؤمنين أسوة للنساء في العالم على اختلاف أحوالهن ومشاربهن •

٣ — زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من هؤلاء النسوة الطاهرات وفيهن القرشية وغير القرشية وفيهن ذات الأصل اليهودي ، وفيهن من كان أبواها مهاجرين ، وفيهن من كان أبواها كافرين وقت زواجه منها ، ومنهن الصغيرة جدا ، ومنهن الكبيرة جدا حتى لا يرى المسلم حرجا في الزواج من أى امرأة أحلها الله له ما دامت متوفرة فيها شروط الحل • وحتى لا يرى المسلم حرجا في التعدد وهو كما سنرى في بعض الأحوال ضرورة لأبد منها •

٤ — والرسول صلى الله عليه وسلم الذى افترض الله على المسلمين محبته ، قد استل بهذا الزواج سخائم قلوب ما كانت لتزول لولا هذه الصلات من القرابة •

٥ — ان صلة الوصل في الغالب فيما له علاقة بالنساء كانت زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثرة زوجاته يجعل دائرة اتصال المسلمات به صلى الله عليه وسلم أكثر ، وايصال الأحكام الى النساء متيسرا ، وكل واحدة منهن يألّفها بعض النساء بجامع القرابة أو السن ، ولولا ذلك ما استطاعت امرأة واحدة أن تستوعب كل شئون النساء ولولا ذلك ما رأينا آلاف الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طرق زوجاته يتحدثن فيها عن آلاف الأمور كانت تبقى غامضة أو غير معروفة •

٦ — والاسلام قد أتى بمفاهيم جديدة ومثل كاملة مما له علاقة في المرأة وكان لأبد أن تهضم هذه المثل الجديدة مجموعة كبيرة من النساء لضمان استبقائها واستمرارها وتأكيدا وهي قلب لمفاهيم سائدة ، وأوضاع فاسدة ، فكان هذا العدد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم يحقق هذه الحكمة •

٧ — ثم كان هذا الزواج حلا لأبد منه في بعض الحالات •

فأم سلمة المخزومية بنت سيد مخزوم المهاجرة الى الحبشة والى المدينة والتي استشهد زوجها ، وليس لها أحد وهي بنت زاد الراكب أبى أمية المخزومي وقد خطبها أبو بكر وعمر فرفضت • فهل تبقى وحدها أرملة وهي التي تحملت من أجل الاسلام ما تحملت ، انه ليس هناك

حل أبر وأكرم من ضم رسول الله صلى الله عليه وسلم لها الى نسائه وقد رضيت •

ورملة بنت أبي سفيان زعيم قريش بل العرب كلها ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي أسلمت وهجرت أباهما وقومها وهاجرت الى الحبشة مع زوجها ثم تنصر زوجها وارتد ومات كافرا ، هذه تترك لمن ؟ أليست مكافأتها في مكانتها أن تكون زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكم سيكون لهذا أثره في نفس العدو الأكبر أبيها •

وزينب بنت جحش التي زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم من متبناه زيد ولم تستقم حياتهما وأراد الله أن يهدم قاعدة التبني عند العرب التي لا تقوم على أسس معقول فهدمها بشكل جذري يوم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوج زينب مطلقة متبناه زيد • وجويرية بنت الحارث بنت سيد قومها ، وقومها من أعز بيوت العرب عرضا ، وقد أسر رجال قومها ، وسبى نساؤهم ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الناس : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفرجوا وأعتقوا كل من له علاقة بها •

وصفة بنت حبي كان أبوها ملك اليهود تقريبا وزوجها كذلك من ساداتهم وقد هلك أبوها وأخوها وزوجها وكان من سنته صلى الله عليه وسلم الرحمة بعزيز قوم ذل فضمها الى نسائه رحمة بها ، واستل ما بفؤادها من حقد كان يمكن أن يعذبها مدى الحياة ، وبزواجه بعائشة وحفصة وثق الصلة أكثر بينه وبين أعظم رجلين بعده من أمته وهكذا •

٨ — وفتح بهذا الزواج صلى الله عليه وسلم لزعماء أمته أفقا جديدا لا ينبغي أن يغيب عنهم أثناء العمل المتواصل • وهو تقوية الصلات مع الآخرين بواسطة الزواج • وتوهين حقد المغلوبين بهذه الوساطة ، وقد رأينا المسلمين استفادوا من هذا الجانب استفادة كبيرة •

٩ — ثم هو بهذا الزواج وبسلوكه العملي العادل يبين الطريق الصحيح للسلوك الذي ينبغي أن يسلكه من تعددت زوجاته ، بحيث لا تختل قيم الحياة ، ولا تشعر المرأة بعذاب الظلم ، ويعرف النساء على حقوقهن وحدود هذه الحقوق •

وبظهور هذه الحكم وواقعيتها التي ذكرناها والحكم التي لم نذكرها نرى أن هذا الزواج أدل على النبوة •

وسنرى هذا أوضح عندما نحرس سيرته معهن صلى الله عليه وسلم •

٤

رأينا أن كل امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في زواجها مصلحة وحكمة وخلق عظيم وإنسانية عالية ، تلمح بها تصرفات انبوة ومثاليته وأخلاقيته ، وسنرى في هذه الفقرة ونحن نستعرض الخطوط العريضة لسيرته معهن صلى الله عليه وسلم . أن كل خط من هذه الخطوط دليل على النبوة وأرقى أمثلة الأسوة .

١ — أول هذه الخطوط العدل في السكن والنفقة والكسوة والمبيت والزيارات والوقت . كان بينهم الجميلة جدا والكبيرة والشابة والعادية الجمال ، وما كان يصرفه شيء من الميزات عن العدل ، لكل واحدة منهن ليلة ، وإذا زار احداهن زار بعد ذلك جميعهن وحتى وهو في مرضه الأخير وهو أحوج الى الاستقرار في بيت واحد لم يرض أن يستقر في بيت عائشة الا بعد أن أذن له الجميع بذلك . ومع هذه الحققة في العدل كان يستغفر الله من عدم عدله في المحبة . إذ لا سلطان له على قلبه فيها ، بل السلطان لله فكان يقول :

« اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك » .

وكان إذا أراد السفر أقرع بين نسائه فأياها خرج سهمها خرج بها رسول الله معه . قالت أم سلمة : « لما تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام عندي ثلاثا وقال : انه ليس بك هوان على أهلك . ان شئت سبعت لك وان سبعت لك سبعت لنسائي » .

وعن أنس ، من السنة اذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها

ثم قسم وإذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثا ثم قسم .

٢ — وثاني هذه الخطوط : التكافؤ في الإنسانية . فمن سنن الاسلام أن المرأة كالرجل في الإنسانية الا أن زوجها رئيسها « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » (البقرة : ٢٢٨) وهذا شيء غير مألوف لا عند العرب ولا في زمان نزول الاسلام ولكنه دين الله .

ومن أمثلة هذا التكافؤ في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم العملية ، أنه كان ينزل على مشورة بعض نسائه وأنه كان يسمح لهن بمناقشته ، وإذا تزوج امرأة فبرضاها .

يوم الحديبية أمر المسلمين بأن يحلقوا وينحروا بعد الصلح ليتحللوا . فبقوا واجمين فدخل على زوجته أم سلمة وهو متأثر فسأله ، فأخبرها فقالت : يا رسول الله أتجس ذلك ؟

أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم حتى تتحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك ،
فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك ، فلما رأى المسلمون ما صنع
النبي صلى الله عليه وسلم زاح عنهم الذهول فقاموا عجلين ينحرون
هديهم ويحلق بعضهم بعضا حتى كاد بعضهم يقتل الآخر •

وقال عمر : فتغضبت يوما على امرأتى فإذا هى تراجعنى فأنكرت أن
تراجعنى فقالت : ما تنكر أن أراجعك فوالله أن أزواج النبی صلى الله
عليه وسلم ليراجعنه وتهجره أحداهن اليوم الى الليل قال : فانطلقت
فدخلت على حفصة فقلت : أتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
قالت : نعم • قلت : وتهجره أحداكن اليوم الى الليل ؟ قالت : نعم •
قلت : « قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر » •

وقال أنس في الحديث عن صفية : « فكان صلى الله عليه وسلم
يحوى لها وراءها بعباءة ثم يجلس عند بغيره فيضع ركبته فتضع صفية
رأسها على رجليها على ركبته حتى تركب » •

فاذا ما عرفت أنه في عصر الفروسية في أوروبا الذى يعتبر العصر
الذهبي للمرأة ما كانت تجرؤ امرأه على أن تقدم مشورة لزوجها • أدركت
أن تصرف محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس وليد بيئته ولا
زمانه وإنما هو تصرف الأنبياء •

ينقل العقاد هذه الحادثة ويعلق عليها من كتاب لغربى يتحدث عن
المرأة في عصر الفروسية قال :

« يروى (أى صاحب الكتاب) فيها أن الملكة « بلانشفلور » ذهبت
الى قرينها الملك « بيبين » تسأله معونة أهل اللورين ، فأسغى اليها
الملك ثم استشاط غضبا ولطمها على أنفها بجمع يده • فسقطت منه أربع
قطرات من الدم وصاحت تقول : « شكرا لك • ان أرضاك هذا فأعطني
من يدك لكمة أخرى حين تشاء » •

ولم تكن هذه حادثة مفردة ، لأن الكلمات على هذا النحو كثيرا ما
تتكرر كأنها صيغة محفوظة ، وكأنما كانت اللكمة بقبضة اليد جزءا كل
أمرأة جسرت في عهد الفروسية على أن تواجه زوجها بمشورة •
ولكن المظهر الأعظم من مظاهر هذا التكافؤ • أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم ما كان يستنكف داخل بيته أن يقوم بحاجته ، وأن يخدم
نفسه ، بل انه كان يقوم أحيانا بحاجة أهله ، وكان يقول :

« خدمتك زوجتك صدقة » ، واذن فقيام المرأة بشأن البيت ليس

عاراً يترفع عنه الرجل ، بل هو كمال يتناول اليه الرجل ولا يأنف ، وكيف يأنف المسلم وقد فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣ — والمرأة تحب من زوجها أن يكون جميلاً متجبلاً ، وأن يقضى حقها للجنسى ، وأن يكون لطيفاً معها مؤنساً لها ، وهذا كله خط آخر من خطوط معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم لأزواجه .

فقد كان أجمل الناس وكان مع هذا الجمال أنيقاً ، لا يطيق ما يتنافى مع هذه الأناقة مع بساطة المظهر وكان يقول : « اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا فان بنى اسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم » . ويقول : « فاذا جامع أحدكم أهله فليصدقها ثم اذا قضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها فلا يعجلها حتى تقضى حاجتها » وكان يفعل هذا كله وأكثر منه فقد ورد في وصفه اذا خلا مع أهله :

« كان ألين الناس ضحاكاً بساماً » .

« كان أفكه الناس مع نسائه » .

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشر » قيل لأنس : وكان يطيقه ؟ قال : كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين في الجماع » .
وكان من آداب الاسلام أنه اذا كان للرجل زوجة أن يعفها . أى أن يجامعها حتى لا تشعر بحاجة الى الرجال .

وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مقياس الأخلاق معاملة الرجل لزوجته اذ أنها الضعيفة تحت يده ، الدائمة العشرة له ، فكان من كلامه : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » وما ضرب امرأة قط وكان يؤنب من يضرب :

« أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد ؟ يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره » .

٤ — والخط العريض للرابع في معاملته لزوجاته حسن سياستهن وتأديبهن :

كن يغرن وكان يتحمل هذه الغيرة الا أن تخرج عن الخط السوى فيؤدب :

تقول عائشة رضى الله عنها : ما رأيت صانعة طعام مثل صفية صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما وهو فى بيتى ، فأخذنى أفكل — أى قشعريرة — فارتعدت من شدة الغيرة فكسرت الاناء ثم ندمت فقلت : يا رسول الله ما كفارة ما صنعت ؟ قال : اناء مثل اناء وطعام مثل طعام • وكان يدارى قلوبهن حتى تصفو • تقول صفية : وما كان أبغض الى من رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل أبى وزوجى فما زال يعتذر الى وقال : يا صفية •• ان أباك ألب على العرب وفعل وفعل حتى ذهب ذلك من نفسى •

وكن يأخذن حریتهن فى الكلام فيسمع ويرد ويؤدب •

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحفظ لخديجة ذكراها بشكل منقطع النظير فهو آية الوفاء فى دنيا المروءة وكان من وفائه لها أنه يير كل امرأة كانت لها صلة بخديجة وأنه كان يذكرها بكل خير حتى أن عائشة لم تغر من امرأة كما غارت من خديجة وهى متوفاة قالت له مرة : خديجة •• خديجة •• لكنما ليس فى الأرض امرأة الا خديجة • فتركها فترة ثم عاد وأما أم رومان عندها فقالت له أما : يا رسول الله هالك ولعائشة ؟ انها حديثة السن وأنت أحق من يتجاوز عنها • فلم يدعها حتى أخذ بشدقها معاتباً وهو يقول لها :

ألسـت القائلة : كأنما ليس على وجه الأرض امرأة الا خديجة ؟
وقالت له مرة : ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدلك الله خيرا منها فأسكتها قائلاً :

« والله ما أبدلنى الله خيرا منها • آمنت بى حين كذبنى الناس ، وواستنى بمالها حين حرمنى الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها » •

وقالت : دخل على يوه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : أين كنت منذ النوم ؟ قال : يا حميراء كنت عند أم سلمة • قلت : ما تشبع من أم سلمة ؟ فتبسم ثم قلت : يا رسول الله ألا تخبرنى عنك لو أنك نزلت بعدوتين احداهما لم ترع والأخرى قد رعيت أيهما كنت ترعى ؟ قال : انتى لم ترع قلت : فأنا ليس كأحد من نسائك ، كل امرأة من نسائك كانت عند رجل غيرى ، فتبسم عليه السلام •
وكن يمزحن فيشاركن سرورهن •

أخرج أبو يعلى عن عائشة رضى الله عنها قالت : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بحريرة قد طبختها له فقلت لسودة رضى الله عنها والنبي صلى الله عليه وسلم بينى وبينها : كلى فأبت فقلت : لتأكلين أو لأطخن وجهك فأبت فوضعت يدي في الحريرة فطليت وجهها فضحك النبي صلى الله عليه وسلم فوضع بيده لها وقال لها : ألتخى وجهها فضحك النبي صلى الله عليه وسلم لها .

وفي رواية : فخفض لها ركبته لتستقيد منى فتناولت من الصفحة شيئاً فمسحت به وجهى ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك .
 هـ — والخط العريض الخامس أنه صلى الله عليه وآله وسلم رفعهن إلى أخلاق النبوة ولم يستطعن أن يحدثن به عن طريقه ، وأعظم حادث يصور لنا هذا الوضع هو حادث تخييرهن أذ طلبن أن يوسع عليهن في المعيشة والنفقة ، وكانت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الاعراض عن الدنيا وطلب الآخرة ، فكانت النتيجة أن خيرهن بين البقاء عنده ، والرضا على هذه الحياة الهادفة إلى اليوم الآخر . أو للطلاق ، وأمرهن بيدهن ، وهذا غاية العدل وغاية الحزم .

وهذه هي القصة كما يرويها بعض الصحابة :

أخرج أحمد عن جابر رضى الله عنه قال :

— أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس ببابه جلوس والنبي صلى الله عليه وسلم جالس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لأبى بكر وعمر فدخلوا والنبي صلى الله عليه وسلم جالس وحوله نسائه وهو صلى الله عليه وسلم ساكت فقال عمر : لأكلمن النبي لعله يضحك ، فقال عمر : يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد — امرأة عمر — سألتنى النفقة أنفا فوجأت عنقها فضحك النبي حتى بدت نواجذه وقال : هن جولى يسألننى النفقة ، فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقولان :

تسألان النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ، قنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن : والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، قال وأنزل الله عز وجل الخيار فبدأ بعائشة فقيل : « انى أذكر لك أمرا ما أحب أن تعجلنى فيه حتى تستأمرى أبويك » قالت :

وما هو ؟ قال : فتلا عليها : « يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن واسرحكن سراحا جميلا • وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » (الاحزاب : ٢٨ ، ٢٩) •

قالت : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت فقال صلى الله عليه وسلم : ان الله تعالى لم يبعثني معنفا ولكن بعثني معلما ميسرا لا تسألني امرأة منهن عما اخترت الا أخبرتها •

وروى أحمد من حديث طويل عن ابن عباس عن عمر قال : فقلت : الله أكبر لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوما تغلب انتساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساءؤهم فطفقن نساءؤنا يتعلمن من نسائهم فتغضبت على امرأتى يوما فاذا هي تراجعنى فأنكرت أن تراجعنى فقالت :

ما تنكر أن أراجعك فوالله ان أزواج رسول الله ليراجعنه وتهجرنه أحداهن اليوم الى الليل • فقلت : قد خاب من فعل ذلك منهن وخسر ، أفتأمن أحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ، فاذا هي قد هلكت • فتبسم رسول الله فقلت : يا رسول الله فدخلت على حفصة فقلت : لا يغرك ان كانت جارتك هي أوسم وأحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك فتبسم أخرى فقلت : أستأنس يا رسول الله ؟ قال : نعم •

فجلست فرفعت رأسى فى البيت فوالله ما رأيت فيه شيئا يرد البصر الا أهبة (جلودا) ثلاثة فقلت : ادع يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله فاستوى جالسا ثم قال : أفى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا •

فقلت : استغفر لى يا رسول الله • وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل •

وفى كل ما نقلناه لك من هذه الخطوط تجد الزوج المثالى والقدوة العليا فى كل أمر • ولا يفوتنا قبل الانتهاء من هذه الفقرة أن نذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم الذى كان عنده هذا العدد من النساء ، والذى

كان يقوم بواجبه تجاههن ، والذي كان يعطينهن من ذاته ما رأينا •
هو الذي كان يقوم بالأعباء الضخمة التي لم يتحمل مثلها رجل غيره •
من عبادة الى سياسة الى قتال الى تدبير أمر ، ومن عادة الناس أن
يشغلهم شيء من هذا عن أهلهم ، ولكنه الكمال عند رسول الله صلى الله
عليه وسلم حيث تقوم الواجبات كلها ومع الواجبات غيرها ولا يؤثر
انقيام باحداها على غيره وذلك من دلائل النبوة والرسالة •

وأخيرا :

يقول العقاد : قال لنا بعض المستشرقين ان تسع زوجات لدليل
على فرط الميول الجنسية •

قلنا : انك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج
قط ، فلا ينبغي أن تصف محمدا بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين
تسع نساء •

ونحن قبل كل شيء لا نرى ضيرا على الرجل العظيم أن يحب
المرأة ، ويشعر بمتعتها : هذا سواء الفطرة لا عيب فيه ، وما من فطرة
هي أعمق في طبائع الأحياء عامة من فطرة الجنسين ، والتقاء الذكر
والأنثى ، فهي الغريزة التي تلهم الحي في كل طبقة من طبقات الحياة
ما لا تلهمه غريزة أخرى •

أرأيت الى السمك وهو يعبر الماء الملح في موسم المعلوم فيطوى
ألوا من الفراسخ ليصل الى فرجة نهر عذب يجدد فيها نسله ثم يعود
أدراجه ؟ أرأيت الى العصفور وهو يبنى عشه ويعود من هجرته الى
وطنه ؟ أرأيت الى الزهر وهو يتفتح ليغري الطير والنحل بنقل لقاحه ؟
أرأيت الى سنة الحياة في كل طبقة من طبقات الأحياء ؟ ما هي
سنتها ان لم تكن هي سنة الألفة بين الجنسين ؟ وأين يكون سواء الفطرة
ان لم يكن على هذا السواء ؟

فحب المرأة لا معابة فيه •

هذا هو سواء الفطرة لا مرأ •

وانما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه وحتى
يشغل المرء عن غرضه ، وحتى يكلفه شططا في طلبه • فهو عند ذلك
مسوخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور في جميع الطبائع •
فمن الذي يعلم ما صنع النبي في حياته ، ثم يقع في روعه أن المرأة
تسغلت عن عمل كبير أو عن عمل صغير ؟

من من بناء التاريخ قد بنى في حياته وبعد مماته تاريخا أعظم من
تاريخ الدعوة المحمدية ، والدول الإسلامية ؟ ومن ذا الذى يقول ان هذا
عمل رجل مشغول ؟
عم شغلته المرأة ؟

ومن ذا تفرغ لعظيم من المسعى فبلغ فيه شأو محمد في مسعاه ؟
فان كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها ويعطى
المرأة حقها فالعظمة رجحان وليست بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم
كمال وليس بعيب • ورسالة محمد اذن هي الرسالة التى يتلقاها أناس
خلقوا للحياة ، ولم يخلقوا نابذين لها ولا منبوذين منها ، فليست شريعة
هؤلاء بالشريعة المطلوبة ، فيما يخاطب به عامة الناس في عامة العصور •
وأعجب شئ أن يقال عن النبى أنه استسلم للذات الحس وقد أوشك
أن يطلق نساءه أو يخيرهن في الطلاق لأنهن طلبن اليه المزيد من النفقة
وهو لا يستطيعها •

* * *

نساء محمد يشكين قلة النفقة والزينة ، ولو شاء لأغدق عليهن
النعمة وأغرقهن في الحرير والذهب وأطايب الملذات •
أهذا فعل رجل يستسلم للذات حسه ؟ أما كان عليه يسيرا أن يفرض
لنفسه ولأهله من الأنفال والغنائم ما يرضيهم ولا يغضب المسلمين ، وهم
موقنون أن ارادة الرسول من ارادة الله ؟

وماذا كلفه الاحتفاظ بالنساء حتى يقال انه كان يفرط في ميله الى
اننساء ؟ هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سنته أو يخالف ما يحمد من
سيرته أو يترخص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكرونه عليه ؟ لم يكلفه شيئا
من ذلك ، ولم يشغله عن جليل أعماله وصغيرها ، ولم نر هنا رجلا تغلبه
لذات الحس كما يزعم المشهرون • بل رأينا رجلا يغلب تلك الملذات في
طعامه ومعيشته وفي ميله الى نساءه • فيحفظها بما يملك منها ولا يأذن
لها أن تسومه ضريبة مفروضة عليه ، ولو كانت هذه الضريبة بسطة في
العيش قد ينالها أصغر المسلمين ، ولاشك في قدرة النبى عليها لو أراد •

* * *

وهكذا نبحت عن الرجل الذى توهمه المشهرون من مؤرخى أوروبا
فلا نرى الا صورة من أعجب الصور التى تقع في وهم واهم •

نرى رجلا كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك ويقنع مع هذا
بمعيشة الفقراء ثم يقال انه رجل غلبته لذات حسه .
ونرى رجلا تألبت عليه نساؤه لأنه لا يعطينهن الزينة التي يتحلين
بها لعينيه ثم يقال انه رجل غلبته لذات حسه .
ونرى رجلا أثر معيشة الكفاف والقناعة على ارضاء نسائه بالتوسعة
انتهى كانت في وسعه ثم يقال انه رجل غلبته لذات حسه .
ذلك كلام لو شاء المشهرون أن يرسلوه كلاما مضحكا مستغربا
لأفلحوا فيما قالوه .. أقبح فلاح .
ويزيد في غرابته أن الرجل الذي توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولا
قبل زواجه ولا بعد زواجه فتخبط فيه الظنون ذلك الخبط الذريع .
فمحمد كان معروف الشباب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر ما يعرف
فتى من قريش وأهل مكة .

كان معروفا من صباه الى كهولته . فلم يعرف أنه استسلم للذات
الحس في ريعان صباه . ولم يسمع عنه أنه لها كما كان يلهو الفتيان حين
كانت الجاهلية تبيح ما لا يباح .. بل عرف بالطهر والأمانة واشتهر
بالجد والرحانة .. وقام بالدعوة بعدها فلم يقل أحد من شأنئه والناعمين
عليه والمنقبين وراءه عن أهون الهنات : تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى
الذى كان من شأنه مع النساء كيت وكيت يدعوكم اليوم الى الطهارة
والعفة ونبذ الشهوات .. كلا لم يقل أحد هذا قط من شأنئه وهم
عبد لا يحصى ولو كان لقوله موضع لجري على لسان ألف قائل .



الا أن المشهرين المتقولين نسوا كل حقيقة من حقائق هذه الحياة
الزوجية التي سجلت لنا بأدق تفصيلاتها ، ولم يذكروا الا شيئا واحدا
حرفوه عن معناه ودلالته ، ليفتروا على النبي ما طاب لهم أن يفتروه
وذاك أنه جمع في وقت واحد بين تسع زوجات .
نسوا أنه اتسم بالطهر والعفة في شبابه فلم يستبح قط لنفسه ما
كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق
في غير مشقة عندهم ولا معابة .
نسوا أنه بقى الى نحو الخامسة والعشرين لم يتعسف في طلب

الزواج الحلال وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حبيب منظور اليه بين الأسرو وبين الفتيات •

ونسوا أنه لما تزوج في تلك السن كان زواجه بسيدة في نحو الأربعين اكتفى بها الى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين • ونسوا أنه اختار أحسابا في حاجة الى التألف أو الرعاية ولم يختار حمالا مطلوبا للمتاع •

ونسوا أن الرجل الذي وصفوه بما وصفوا من تغليب لذات الحس لم يكن يشبع في بعض أيامه من خبز الشعير ولم يجاوز حياة القناعة قط لأرضاء نسائه •• ولو شاء لما كلفه أرضاؤهن غير القليل بالقياس الى ما في يديه •

نسوا كل هذا وهو ثابت في التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتي جمع بينهن عليه السلام فلماذا نسوه ؟

نسوه لأنهم أرادوا أن يعيروه وأن يتقولوا وأن ينحرفوا عن الحقيقة وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الاغضاء عنها ، لو أنهم أرادوها وتعمدوا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها •



٥

وبعد فهل رأيت زوجا مثل محمد صلى الله عليه وسلم بين الأزواج : انك لن ترى ، وكذلك لن ترى مثله أبا بين الآباء :

أخرج مسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال : كان ابراهيم (أى ابنه الصغير) مسترضعا له في عوالي المدينة فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وانه (أى البيت) ليدخن وكان ظئره قينا فيأخذه فيقبله ثم يرجع •

وأخرج أبو يعلى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : رأيت الحسن والحسين (رضى الله عنهما) على عاتقى النبى صلى الله عليه وسلم فقلت نعم الفرس تحتكما • فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ونعم الفارسان هما •

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنه قال : خرج النبى صلى الله عليه وسلم حامل الحسن (رضى الله عنه) على عاتقه فقال له

رجل : يا غلام نعم المركب ركبت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم
ونعم الراكب هو .

وأخرج الطبراني عن البراء بن عازب قال : كان رسول الله صلى
الله عليه وسلم يصلي فجاء الحسن والحسين أو أحدهما فركب على
ظهره فكان إذا رفع رأسه قال بيده فأمسكه أو أمسكهما قال : نعم المطية
مطيتكما .

وأخرج الطبراني عن جابر قال : دخلت على النبي صلى الله عليه
وسلم وهو يمشي على أربعة وعلى ظهره الحسن والحسين (رضى الله
عنهما) وهو يقول :

« نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما » .

وأخرج الطبراني عن جابر رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم فدعينا الى طعام فاذا بالحسين (رضى الله عنه)
يلعب في الطريق مع صبيان فأسرع النبي صلى الله عليه وسلم أمام
النقوم ثم بسط يده فجعل حسين يفر ههنا وههنا فيضاحكه رسول الله
صلى الله عليه وسلم حتى أخذه فجعل احدى يديه في ذقنه والأخرى
بين رأسه وأذنيه ثم اعتنقه وقبله ثم قال : حسين منى وأنا منه أحب
الله من أحبه . الحسن والحسين سبطان من الأسباط .

أرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في جلاله العظيم كيف يعطى
الأولاد حقهم وليس أولاده فقط بل كل الأولاد .

أخرج أحمد عن عبد الله بن الحارث رضى الله عنه قال : كان رسول
الله صلى الله عليه وسلم يصف عبد الله وعبيد الله وكثير بن العباس رضى
الله عنهم ثم يقول : من سبق فله كذا وكذا قال : فيستبقون اليه فيقعون
على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزم .

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنه قال : كان
النبي صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته وأنه
جاء من سفر فسبق بي اليه فحملني بين يديه ثم جىء بأحد ابني فاطمة
الحسن — أو الحسين — رضى الله عنهما فأردفه خلفه فدخلنا المدينة
ثلاثة على دابة .

وأخرج ابن عساكر أيضا عن عبد الله بن جعفر قال : مر بي رسول
الله صلى الله عليه وسلم وأنا ألعب مع الصبيان فحملني أنا وغلام من
العباس رضى الله عنه على الدابة فكنا ثلاثة .

وأخرج ابن عساكر أيضا عنه قال : « لو رأيته وقثما وعبيد الله ابني عباس رضى الله عنه ونحن صبيان نلعب اذ مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على دابة فقال : ارفعوا هذا الى فجعلنى أمامه وقال : ارفعوا هذا الى فجعله وراءه وكان عبيد الله أحب الى عباس من قثم فما استحميا من عمه أن حمل قثما وتركه قال : ثم مسح على رأسى ثلاثا كلما مسح قال : اللهم اخلف جعفرا فى ولده » •

ولا تحسب أن هذا الاكرام للصبيان فقط بل للبنات والصبيان :
أخرج البخارى عن أبى قتادة قال : خرج علينا النبى صلى الله عليه وسلم وأمامه بنت أبى العاص رضى الله عنها (أى بنت بنته) على عاتقه فصلى فاذا ركع وضع واذا رفع رفعها •

وأخرج الطبرانى عن السائب بن يزيد رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قبل حسنا رضى الله عنه فقال له الأقرع بن حابس : لقد ولد لى عشر ما قبلت واحدا منهم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا يرحم الله من لا يرحم الناس •

وأخرج أبو يعلى عن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيجىء الحسن والحسين فيركب ظهره فيطيل السجود فيقال : يا نبى الله أطلت السجود فيقول : « ارتحلنى ابنى فكرهت أن أعجله » •



والشعب الذى كان يؤد البنات ويرى أن موت البنات من المكرمات ، ولا يرى أحدهم البنت شيئا ، ويستقبل ولادتها هذا الاستقبال السيئ الذى وصفه القرآن : « واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم • يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » (النحل : ٥٨ ، ٥٩) •

هذا الشعب هو الذى كان منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يعامل بناته بما يليق • فهل تراها بعدما تقرؤها أخلاقا وليدة بيئتها ، أو أنها النبوة والتربية الالهية لصاحبها ، وحاشا أن تكون الا الثانية •
أخرج البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ما رأيت أحدا من الناس أشبه بالنبى صلى الله عليه وسلم كلاما ولا حديثا ولا جلسة من فاطمة رضى الله عنها قالت : وكان النبى صلى الله عليه وسلم اذا

« رآها قد أقبلت رحب بها ثم قام اليها فقبلها ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها في مكانه وكانت اذا أتاها النبي صلى الله عليه وسلم رحبت به ثم قامت اليه فقبلته • وانها دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي قبض فيه فرحب بها وقبلها وأسر اليها فبكت ثم أسر اليها فضحكت ، ولما سألتها عائشة عما أسر لها رفضت أن تجيبها حتى اذا قبض صلى الله عليه وسلم قالت فاطمة : « أسر الى فقال : انى ميت فبكيت ثم أسر الى فقال : انك أول أهلى بى لحوقا فسررت بذلك وأعجبنى » • وماتت فاطمة بعد ستة أشهر من رسول الله صلى الله عليه وسلم • وأخرج الترمذى عن جميع بن عمير التيمى قال : « دخلت مع عمتى على عائشة رضى الله عنها فسئلت أى نساء كان أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : فاطمة • فقيل من الرجال ؟ قالت : زوجها ان كان ما علمت صواما قواما » •

وعن المسور بن مخرمة رضى الله عنه قال : « خطب على بنت أبى جهل وعنده فاطمة فسمعت بذلك فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك وهذا على ناكح ابنة أبى جهل فقام النبي صلى الله عليه وسلم فشهد وقال : « أما بعد • • فانى أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثنى وصدقنى وان فاطمة بضعة منى يربىنى ما يربىها والله لا تجتمع بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وبنت عدو الله أبدا » قال : فترك على الخطبة » •

وفى رواية أخرى قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : « ان بنى هاشم بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن الا أن يريد ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم فانما هى بضعة منى يربىنى ما يربىها ويؤذنى ما آذاها » أخرجه الخمسة الا النسائى •

أرأيت برا أبلغ بالبنات من هذا البر وما ذكرناه نموذج والا فأى بنت من بناته الأربع كانت تلاقى من العطف والبر ما تلاقىه فاطمة رضى الله عنها انها كمال الأبوة فى أكمل نبى •



ولكن الشئ الأدل فى هذا الفصل على أخلاق النبوة مع هذه المحبة أنه ما كان ليرضى لبنته أن تعيش الا كما يعيش أكثر الناس فقرا •

ذلك طابع الحياة التي يريد لها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه ولأهله ، حتى لا تشغلهم الدنيا عن الآخرة ، وحتى تتمحص أنفسهم لله واليوم الآخر وتأمل هذه الأمثلة وتذكر أن أحب الخلق إليه بشهادة عائشة هي فاطمة :

أخرج البيهقي في الدلائل عن علي قال :

« خطبت فاطمة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت مولاة لى : هل علمت أن فاطمة قد خطبت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : لا . قالت : قد خطبت فما يمنعك أن تأتي رسول الله فيزوجك فقلت : وعندي شيء أتزوج به ؟ فقالت : انك ان جئت رسول الله زوجك قال : فوالله ما زالت ترجيني حتى دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أن قعدت بين يديه أفحمت فوالله ما استطعت أن أتكلم جلالة وهيبه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما جاء بك ؟ ألك حاجة ؟ فسكت فقال : لعلك جئت تخطب فاطمة .

فقلت : نعم .

فقال : وهل عندك من شيء تستحلها به .

فقلت : لا والله يا رسول الله .

فقال : ما فعلت درع سلحتكها ؟ فوالذي نفس على بيده انها لحطمية ما قيمتها أربعة دراهم ، فقلت : عندي فقال : قد زوجتكها فابعث اليها بها فاستحلها بها فان كانت لصادق فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وأخرج النسائي عن ثوبان :

« .. فانتزعت فاطمة سلسلة في عنقها من ذهب فقالت : هذه أهداها لى أبو حسن فدخل صلى الله عليه وسلم والسلسلة في يدها فقال : يا فاطمة .. أيسرك أن يقول الناس : ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في يدها سلسلة من نار ثم خرج فلم يقعد فأرسلت فاطمة بالسلسلة فباعتها واشترت بثمنها عبدا فأعتقه فحدث رسول الله بذلك فقال : انحمد لله الذي أنجى فاطمة من النار » .

وأخرج البخاري ومسلم : « قال علي لابن أعبد : ألا أحدثك عنى وعن فاطمة ؟ قلت : بلى قال : انها جرت بالرحى حتى أثرت في يدها واستنقت بالقربة حتى أثرت في نحرها وكنت البيت حتى أغبرت

ثيابها (وأوتقمت القدر حتى دكنت ثيابها) فأتى النبي صلى الله عليه وسلم خدماً فقلت : لو أتيت أباك فسألتك خادماً فأنته فوجدت عنده حداً فرجعت فأتاها من الغد فقال : ما كان حاجتك ؟ وسكتت فقلت : أنا أحدثك يا رسول الله جرت بالبرحي حتى أثرت في يدها وحملت بالقربة حتى أثرت في نحرها فلما أن جاء الخدم أمرتها أن تأتيك فتستخدمك خادماً يقيها حر ما هي فيه فقال : اتقى الله يا فاطمة وأدى فريضة ربك واعمل عمل أهلك وإذا أخذت مضجعك فسبحي ثلاثاً وثلاثين واحمدي ثلاثاً وثلاثين وكبري أربعاً وثلاثين فتلك مائة فهي خير لك من خادم فقالت : رضيت عن الله وعن رسوله .. ولم يخدمها » .

ان كمال محمد صلى الله عليه وسلم كزوج وكماله كأب : كماله في عدله وفي رحمته وفي لطفه وفي أنسه ، وفي رعايته وفي حسن سياسته وفي استقامته ، وفي حمل أزواجه وأولاده على طريقه . كل هذا شاهد صدق ودليل حق على أنه المثل الأعلى للإنسان في كل جانب من جوانب حياته ، وأنه القدوة العليا لكل إنسان في أي جزء من أجزاء تصرفاته .

والى الفقرة الثالثة :

٣ - المعلم والمربي الأول

لقد حدد رسول الله صلى الله عليه وسلم مهمته الأساسية بقوله : « انما بعثت معلماً » والقرآن الكريم ذكر هذه المهمة الأساسية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بصراحة فقال : « هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » (الجمعة : ٢) فقد أحصت هذه الآية من مهمات الرسول : التعليم والتربية . تعليم الكتاب والحكمة وتربية الأنفس عليهما ، وكان الجانب الأعظم من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستغرقاً بهذا الجانب اذ أنه هو الجانب الذى ينبع عنه كل خير ولا يستقيم أى جانب من جوانب الحياة سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو عسكرياً أو أخلاقياً الا به ، ولا يؤتى الإنسان ولا تؤتى أمة ولا تؤتى الإنسانية الا من التفريط فى العلم الصحيح والانحراف عنه . اما الى الجهل أو الى ما يضر علمه ولا ينفع .

قالامة يلا علم يوضح لها جوانب سلوكها ، وبلا تربية يعرف كل فرد من أفرادها واجبه • تصبح أمة فوضوية تصرفاتها غير متوقعة وغير منضبطة • ولكل فرد من أفرادها سلوك يخالف سلوك الآخر وعادات وتصورات تختلف فلا تكاد أمة تفلح بهذا ولا فرد •

والظاهرة التي نجدها في تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم أن انسيد الرسول بدأ تشكيل أمة جديدة لها كل مقوماتها الفكرية والسلوكية والأخلاقية والتشريعية والدستورية واللسانية • بحيث ينبت الفرد فيها عن صلته بأي عالم غير عالم هذه الأمة ، من حيث العقيدة والسلوك فصهر أفراد هذه الأمة انصهارا تاما • ثم أطلق هذه الأمة في اتجاه وحيد حدد فيه لكل فرد مهمته ، ورباه على أدائها ، وحدد للجميع المهمة الكبرى ، ورسم لهم الطريق ، موضحا لهم كل شيء في كل جانب ، وقادهم في هذا الطريق فترة ثم تركهم ماضيا الى ربه ، فانطلقوا بعده لا يغيروا ولا بدلوا فكان ما كان ولا زال • مما نشاهده من آثار المسلم العظيم الذي كلما تعثر أخفت بيده تعاليم محمد وتربيته فأنقذته وقذفت به الى الأمام •

٢

وبعد فانتنا نقول : ان كمال المربي يظهر :

١ — بمقدار ما يستطيع أن ينقل نفس الانسان وعقله من حالة دنيا الى حالة أعلى وكلما رقى بالانسان أكثر كلما دل ذلك على كماله أكثر •

٢ — في سعة دائرة البشر الذين استطاع أن ينقلهم الى كمالهم الانساني ، فكلما كانت الدائرة أوسع كلما كان أدل على الكمال •

٣ — ثم في صلاحية هذه التعاليم والتربية ، وحاجة الناس جميعا لها ، واستمرار ابقاء هذه التعاليم آثارها على مدى العصور • بحيث لا يستغنى البشر عنها ، وبشهادة العدو والصدیق والمؤمن والكافر ما بلغ أحد في تاريخ البشرية ما بلغه محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الجوانب كلها حتى قال موير : « لم يكن الاصلاح أعسر ولا أبعد منا لا منه وقت ظهور محمد ولا نعلم نجاحا واصلاحا تم كالذي تركه عند وفاته » • وقالت دائرة المعارف البريطانية : « لقد صادف محمد النجاح الذي لم ينل مثله نبي ولا مصلح ديني في زمن من الأزمنة » ويقول بوزورث اسمث : « ان محمدا بلا نزاع أعظم المصلحين على الاطلاق » •

ويقول هيل :

« ان جميع الدعوات الدينية قد تركت أثرا في تاريخ البشر ، وكل رجال الدعوة والأنبياء قد أثروا تأثيرا عميقا في حضارة عصرهم وأقوامهم ولكننا لا نعرف في تاريخ البشر أن ديننا انتشر بهذه السرعة ، وغير العالم بأثره المباشر ، كما فعل الاسلام ولا نعرف في التاريخ دعوة كان صاحبها سيدا مالكا لزمانه ولقومه كما كان محمد . لقد أخرج أمة الى الوجود ومكن لعبادة الله في الأرض وفتحها لرسالة الطهر والفضيلة ، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية بين المؤمنين ، وأصل النظام والتناسق والطاعة والعزة في أقوام لا تعرف غير الفوضى » .

هذه شهادة الدارسين ممن لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد أعماهم حقد صليبي موروث فشهدوا ولم يؤمنوا . وما أغنانا عن شهادتهم وشهادة الواقع أمامنا على كل جانب من هذه الجوانب المذكورة آنفا . . . وهلك آثار تربيته :

أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم الذين شرفوا برؤيته والايمان به وعشرات الألوف . من هذه الألوف من رافقه كل فترة البعثة ، ومنهم من رآه مرة فسمع منه حديثا . وإذا أنت أجريت مقارنة بين حياة هؤلاء قبل تلمذتهم على محمد صلى الله عليه وسلم وبين حياتهم بعده ، بين واقعهم قبل ذلك وبين واقعهم بعده ، بين أعمالهم وتصرفاتهم قبل وبين أعمالهم وتصرفاتهم بعد . بين أهدافهم الأولى وأهدافهم الثانية . بين تصوراتهم عن الله والكون والانسان أولا وبين تصوراتهم ثانيا : انك تخرج نتيجة المقارنة وأنت ترى النقلة البعيدة الكبيرة الواسعة التي نقل اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم هؤلاء من طور الى طور ، من حضيض الى سمو لا يدانيه سمو آخر .

خذ مثلا شخصية عمر بن الخطاب في الجاهلية تجده رجلا قبلي الفكر والطبيعة والعاطفة والتصور ، محدود الادراك ، همه في الحياة : انسكر واللهو والبطالة مع أصدقائه . ولولا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعاش عمر ومات عمر وما أحس به أحد ولكنه ما أن يشرب كأس الاسلام من يد رسول الله حتى يصبح عمر المشرع العبقري الفذ ، ورجل الدولة العظيم الكبير ، ورمز العدل الذي لا يكون الا معه مع الحزم والرحمة ، سعة الأفق وصدق الادراك وحسن الفراسة . .

عمر الذي أصبح ملء الدنيا سمعها وبصرها • ما كان ليكون شيئاً
نولا أنه تربى في حجر رسول الله فأخذ منه العلم والحكمة والتربية •

عبد الله بن مسعود راعى الأبل المحتقر المهان في قریش ، الذي
ما كان ليعرفه إلا سيده ومن يستخدمه ، هذا الرجل النحيل القصير
الحمش الساقين • ماذا يصبح بعد أن ربه يد النبوة ، يصبح الرجل الذي
يعتبر مؤسس أكبر مدرسة في الفقه الاسلامي والتي ينتسب اليها
أبو حنيفة النعمان ، يصبح الرجل الذي يقول فيه عمر لأهل الكوفة : لقد
آثرتكم بعبد الله على نفسي •

انك عندما تدرس شخصية الانسان قبل اتصالها برسول الله وبعد
اتصالها تجد أن كل شيء فيها قد تغير وتجد كل طاقاتها وملكاتهما قد انطلقت
في الطريق الصحيح ، الطاقات الجسمية • والطاقات العقلية • والطاقات
النفسية • والطاقات الروحية • والطاقات الوجدانية ، والمعنوية
والأخلاقية • هذه الطاقات كلها انطلقت في اطارها الصحيح وطريقها
المستقيم • بحيث لا يستطيع انسان أن يقول ان طاقة ما معطلة عند
أصحابه أو انها تعمل عملا غير صالح •

طاقة العمل : « ان الله يحب العبد المحترف » •

طاقة المشاركة في العمل العام :

« اذا تبايعتم بالعينة ورضيتم بالزرع وتبعتم أذناب البقر وتركتم
جهادكم سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى تعودوا الى دينكم » •

الطاقة الجنسية : «تزوجوا الولود الودود» •

الطاقة الجسمية : « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن

الضعيف ... » •

ملكة حسن الهندام : « فأصلحوا رجالكم وأحسنوا لباسكم حتى
تكونوا كأنكم شامة في أعين الناس فان الله لا يحب الفحش ولا التفحش »

طاقة الفكر والعلم : « طلب العلم فريضة » « تفكر ساعة خير من

عبادة ... » •

انك لا تجد طاقة من طاقات الانسان الا وقد أطلقها رسول الله صلى
الله عليه وسلم في طريقها الصحيح ، فأصبحت ترى من أصعابه العجب ،

في تكامل شخصياتهم عباداً زهاداً شجعاناً محاربين عادلين رحماء
اداريين سياسيين حكماء مربين • كل واحد منهم أمة ، وما أسهل عليه
أن يقود أمة ، ولا أدل على ذلك أنه ندر واحد منهم لم يصبح أميراً
بعد ذلك ولم يفشل واحد منهم في ما ولى من قيادات •

وإذا أردت أن ترى مقدار ما رفع رسول الله النفس البشرية فاقراً
هذه الأمثلة البسيطة ذات الدلالة الكبيرة :

أخرج النسائي عن عائشة رضى الله عنها أن فتاة قالت — يعنى
للنبي صلى الله عليه وسلم — : « ان أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع
بى خسيسته وأنا كارهة فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم الى أبيها
فجاء فجعل الأمر اليها فقالت : يا رسول الله انى قد أجزت ما صنع أبى
ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء » •

أرأيت كيف ارتفعت نفسية المرأة حتى أصبحت تعرف حقها ، وتريد
أن تعرف الأخريات عليه • وأصبحت تستطيع أن تشكو اذا هضم حقها ،
وتجد من يسمع لها ويعطيها اياه • متى كان ذلك لولا تربية الرسول
صلى الله عليه وسلم لهذه الأمة ؟

وأخرج الخمسة الا مسلمان قصة الحب العجيبة تلك التى كانت بين
العبد معيث والأمة بريرة التى أصبحت بعد ذلك حرة وانقسم ما بينهما
من نكاح وكانت لا تحبه وكان مولعاً بها يقول ابن عباس :

« ان زوج بريرة كان عبداً يقال له « معيث » كأنى أنظر اليه خلفها
يطوف ودموعه تسيل على لحيته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
للعباس : ألا تعجب من حب معيث بريرة ومن بغض بريرة معيثاً ؟ فقال
لها رسول الله : لو راجعتيه ؟ فقالت : يا رسول الله تأمرنى ؟ قال : لا
انما أشفع قالت : لا حاجة لى فيه » •

أهناك أبلغ في القربية من هذا الذى وصلت اليه هذه الأمة حتى
نساؤها الاماء • أن أصبح كل فرد فيها يعرف حقه وواجبه ويجادل فيه
ويقف عنده •

أخرج الرويانى وابن جرير وابن عساكر عن عوف بن مالك الأشجعى
رضى الله عنه قال :

كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة
فقال : ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فرددها ثلاث مرات •
فقدمنا فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا يا رسول الله ••
قد بايعناك فعلى أى شىء نبايعك ؟

فقال : على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، والصلوات
الخمسة ، وأسر كلمة خفية أن لا تسألوا الناس شيئاً • قال : فلقد رأيت
بعض أولئك النفر يسقط سوطه فما يقول لأحد يناوله إياه •

وأخرج الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم من يبايع ؟ فقال ثوبان رضى الله عنه
مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : بايعنا رسول الله ! قال : على
أن لا تسأل أحداً شيئاً •

فقال ثوبان : فما له يا رسول الله ؟

قال : الجنة •

فبايعه ثوبان •

قال أبو أمامة : فلقد رأيته بمكة فى أجمع ما يكون من الناس يسقط
سوطه وهو راكب فربما وقع على عاتق رجل فيأخذه الرجل فيناولله فما
يأخذه حتى يكون هو ينزل فيأخذه •

وأخرج عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال : أعطى النبى صلى
الله عليه وسلم حكيم بن حزام رضى الله عنه يوم حنين عطاء فاستقله فزاده
فقال : يا رسول الله •• أى عطيتك خير ؟ قال : الأولى • فقال النبى
صلى الله عليه وسلم : يا حكيم بن حزام •• ان هذا المال خضرة
حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس وحسن أكلة بورك له فيه ، ومن أخذه
باستشراف نفس وسوء أكلة لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا
يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، قال : ومنك يا رسول الله ؟
قال : ومنى ! قال : فوالذى بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً أبدا •
قال : فلم يقبل ديوانا ولا عطاء حتى مات •

قال : وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : اللهم انى أشهدك
على حكيم بن حزام أنى أدعوه لحقه من هذا المال وهى يابى ، فقال :
انى والله ما أرزأك ولا غيرك شيئاً • كذا فى الكنز ج ٣ ص ٣٢٢ •

أرأيت هذه النقلة العظيمة من حالة الى حالة أخرى : عزة نفس لا مثيل لها وماذا في طياتها من أبلغ ما تصل اليه التربية الاستقلالية التي لا يكون معها معنى من معانى الاتكال على الغير •

* * *

أخرج مالك عن عطاء بن يسار قال : أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم نائر الرأس واللحية فأشار اليه صلى الله عليه وسلم كأنه يأمره بإصلاح شعره ففعل ثم رجع • فقال صلى الله عليه وسلم : « أليس هذا خيرا من أن يأتى أحدكم نائر الرأس كأنه شيطان » •

وأخرج مالك والنسائي عن أبي قتادة قال :

قلت : يا رسول الله •• ان لى جمعة أفأرجلها ؟

قال : نعم وأكرمها •

فكان أبو قتادة ربما دهنها في اليوم مرتين من أجل قوله صلى

الله عليه وسلم : نعم وأكرمها •

أرأيت هذه التربية التي لا تدع جانبا من الجوانب الا وتستوعبه دق

أو كبر مما له علاقة بظاهر الانسان وباطنه •

* * *

قال أبو داود :

« وغير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم العاصي وعزيز وعتلة

وشيطان والحكم وغراب وحياب وشهاب فسماء : هشاما وسمى حربا

سلما وسمى المضطجع المنبعث وأرضا تسمى عفرة سماها خضرة وشعب

الضلالة سماها شعب الهدى وبنى الزنية سماهم بنى الرشدة وسمى

بنى مغوية بنى رشد » •

أرأيت هذه اللفقات الجمالية التي يربى كل شيء في الأمة بها على

نسق منسجم مع الدعوة والرسالة وهذه التربية التي وصلت الى الأسماء

* * *

وروى الطبراني في الكبير عن بكير بن معروف عن علقمة ، عن رسول

الله صلى الله عليه وسلم قال : ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا

يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ؟

وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون

والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم

وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة •

ثم نزل فقال قوم :

من ترونه عنى بهؤلاء ؟ قال : الأشعريين هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب . فبلغ ذلك الأشعريين فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله .. ذكرت قوما بخير وذكرتنا بشر فما بالنا ؟

فقال : ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا ، فقالوا : يا رسول الله .. أنعظن غيرنا ؟ فأعاد قوله عليهم فأعادوا قولهم : أنعظن غيرنا ؟

فقال ذلك أيضا . فقالوا : أمهلنا سنة فأمهلهم سنة يفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » (المائدة : ٧٨ ، ٧٩) .

أرأيت أبلغ من هذه التربية التي تفترض على المتعلم أن يعلم وعلى الجاهل أن يتعلم حتى تترقى الأمة كلها ؟ وهل رأيت نصا قبل هذا انص في العالم يفرض التعليم ويجعله الزاميا اجباريا ؟ ولعلك ستدهش في الرسالة الثالثة عندما ستري مزيدا عن النظام التعليمي في الاسلام . عن كماله واستيعابه لكل حاجات الانسان الروحية والمادية .

* * *

وأخرج الشيخان عن أنس قال : بينا نحن في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : مه .. مه .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تترموه (أى لا تقطعوا عليه بوله) دعوه فتركوه حتى بال ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له : ان هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر انما هي لذكر الله تعالى والصلاة وقراءة القرآن وأمر رجلا من القوم فجاء بدلو من الماء فشنه عليه (أى صبه) .

ضربنا هذا المثال لنعرف مقدار الوعي الحضارى عند العرب ، اذ ما من انسان في العالم يبول في معبده ، ولكن العربى فعلها وكان موقف الرسول صلى الله عليه وسلم منها موقف الربى الذى مهمته أن يجبر

النقص الى الكمال ، وكان من آثار ذلك ما عبر عنه أحد قواد الفرس :
اذ رأى المسلمين يصلون صفا واحدا منتظما فقال :

أكل عمر كبدي اذ علم هؤلاء مكارم الأخلاق • وما كان عمر هو الذي
علمهم مع فضله ولكن الذي علمهم وعلم عمر هو رسول الله صلى الله
عليه وسلم • * * *

ولم تكن دائرة تربية الرسول صلى الله عليه وسلم محدودة بل
شملت كل الجزيرة العربية • بترتيب وسائل هذه التربية ، فكان لا يكتفى
من القبيلة باسلامها حتى يأتيه وفدها ، وكان يبقى الوفد عنده في المدينة
أياما تمتد كثيرا أحيانا • وخلال هذه الإقامة كان يصوغهم صياغة
جديدة • سواء بتوجيهاته أو بالاعتداء به • أو بأمر أصحابه أن يعلموهم •
حتى اذا ما أذن لهم بالرحيل أمر عليهم رجلا منهم وأمرهم أن يقوموا
بعملية التربية والتعليم نيابة عنه ، وكان زيادة على ذلك يرسل أصحابه
آحادا أو جماعات ممن فقهوا وربوا تربية عالية الى كل مكان ، ليقوموا
بدور المربي • فكان من آثار ذلك أنه خلال سنوات معدودة لا تتجاوز
عشرا • أصبحت الجزيرة العربية — وما أوسعها حتى لتكاد تكون
قارة — واحة لدين الله ، مرباة مهذبة الى حد كبير ، تغيرت مفاهيمها
الى أعلى ما يبلغ انسان من تصورات ، بعد أن كانت في أدنى درك
الانحطاط الفكرى حتى ليعبد أحدهم تمرات صباحا ويأكلهن مساء •

* * *

وكان القرآن حفظا وفهما وتطبيقا وسلوكا هو أداة هذه التربية
العظيمة • وسترى في بحث المعجزة القرآنية كيف أن هذا القرآن أحاط
بكل شيء • وفتح آفاق النفوس والعقول على كل مشهد • فلم يعد
به خافيا على أحد ما ينبغي أن يأخذ وأن يدع ، ولم يبق معه سؤال
بلا جواب ، ولم تبق حجة لمنحرف الا وقد دحضت فيه ، ولا شبهة على
الاسلام وأهله الا كشفت به ، ولا جانب من جوانب الحياة الا وقد
عرف الحق فيه منه •

والرسول صلى الله عليه وسلم كان همه أن يستوعب الناس هذا
القرآن حفظا وفهما وتطبيقا • اذ على قدر ما يستوعبه أفراد الأمة على
قدر ما ترتفع أنفسها ، ويسمو تفكيرها ، وتتفتح آفاق الحياة أمامها ،
ولذلك جعل مقياس الخيرية القرآن فقال : « خيركم من تعلم القرآن
وعلمه » •

وكان يختار للامرة أكثر الناس أخذا للقرآن حفظا وفهما وتطبيقا .
وربى أصحابه على ذلك ، فكانت سياسة الخلفاء الراشدين بعده منصبة
على أن يبلغ الناس بالقرآن غاية الجد فيه ، والحرص عليه ، حتى قال
عمر لجيش من جيوشه وقد أرسله : انكم تأتون أهل قرية لهم دوى
بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم جودوا القرآن
وأقلوا الرواية عن رسول الله . . امضوا وأنا شريككم .

ولم تمض فترة الا وأصبح القرآن على كل لسان ، وأصبح كثير
من الناس وقد حفظوه كله ، فارتقت بذلك مدارك المسلمين كلها ارتقاء
لا مثيل له سواء في ذلك جوانب العقيدة أو العبادة أو السياسة أو الإدارة
أو الأخلاق أو التشريع أو الحرب أو السلم أو العلم أو العمل . فترة
بسيطة من الزمان واذا بالأمة الأمية لا يغلبها غالب فكرا أو حربا أو
حضارة وكل ذلك أثر من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يمكن
أن ينسب لسواه ، وحدث بذلك مرة واحدة في تاريخ البشر أن الانسانية
رأت أمة : الحق عندها يحكم القوة ، والزهد عندها ترافقه الشجاعة ،
والعبادة عندها ترافقها الحكمة ، أمة ما رأت مثلها الدنيا لذلك فانها
ما كادت تتعرف عليها حتى دخلت في دينها .

أو ليس عجيبا أن البلاد التي فتحها هؤلاء الذين رباهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم قد دخل أهلها في الاسلام طوعا لا كرها وأخلصوا
للدين الجديد حتى فدوه بالأرواح والأموال والأولاد مع أن الاسلام
أعطاهم حرية البقاء على دينهم الأول كل ذلك انما كان كآثر من الاعجاب
برجال لهم دين ليس مثله بين الأديان ولا يوجد مثلهم بين الرجال .



وسنروى الآن حادثات ثلاثا يعرف بها مقدار النضج الفكري الذي
وصل اليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث جابهوا به كل
الثقافات الأخرى غالبين ، وهو جانب من جوانب التربية المحمدية لهذه
الأمة : أول هذه الحوادث مقطع من مناقشة حاطب بن أبى بلتعة —
رسول رسول الله الى المقوقس — مع المقوقس ، وثانيها خطاب العلاء
الحضرمي للمنذر بن ساوى أمير البحرين التي كانت تشمل في الماضي
الكويت الحالية وقطر والبحرين والأحساء بأسمائها الجديدة ، وثالثها
مناقشة المغيرة بن شعبه لكسرى ورستم . وهذه هي مرتبة :

١ — قال المقوقس لحاطب : « ما منعه ان كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟ قال حاطب : ما منع عيسى وقد أخذه قومه ليقتلوه أن يدعو الله عليهم فيهلكهم ؟ فقال المقوقس : أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم » .

٢ — وقال العلاء الحضرمي لأمير البحرين :

« يا منذر انك عظيم العقل في الدنيا فلا تصغر عن الآخرة . ان هذه المجوسية شر دين ليس فيها تكرم العرب ولا علم أهل الكتاب ينكحون ما يستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما يتنزه عن أكله ، ويعبدون في الدنيا نارا تأكلهم يوم القيامة . . . ولست ببعيد عقل ولا رأى فانظر : هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا ألا تصدقه ، ولمن لا يخون ألا تأمنه ، ولمن لا يخلف ألا تثق به ، هذا هو النبي الأمي الذي لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمر به نهى عنه ، أو ما نهى عنه أمر به ، أو ليت زاده في عفوه أو نقص من عقابه . اذ كل ذلك منه على أمنية أهل العقل ، وفكر أهل النظر » .

وقد أسلم المنذر .

٣ — ولما أرسل سعد بن أبي وقاص الى كسرى وفدا يدعونه الى الاسلام كان من قصتهم :

أنهم استأذنوا على كسرى فأذن لهم وخرج أهل البلد ينظرون الى أشكالهم وأرديتهم على عواتقهم ، وسياطهم بأيديهم ، والنعال في أرجلهم وخيولهم الضعيفة وخطبها الأرض بأرجلها ، وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب ، كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم مع كثرة عددها وعددها (١) ، ولما استأذنوا على الملك بزددجرد أذن لهم وأجلسهم بين يديه ، وكان متكبرا قليل الأدب — ثم جعل يسألهم عن ملابسهم هذه ما اسمها عن الأردية والنعال والسياط .

ثم كلما قالوا له شيئا من ذلك تفاعل فرد الله فأله على رأسه . ثم قال لهم : ما الذي أقدمكم هذه البلاد ؟ أظننتم أنا لما تشاغلنا بأنفسنا اجترأتم علينا ؟ فقال له النعمان بن مقرن رضي الله عنه :

ان الله رحمتنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة .

(١) عددها وعددها : الاولى بفتح العين والثانية بضمها .

فلم يدع الى ذلك قبيلة ألا صاروا فرقتين فرقة تقاربه وفرقة تباعده ، ولا يدخل معه في دينه الا الخواص ، فمكث ذلك ما شاء الله أن يمكث • ثم أمر أن ينهد الى من خالفه من العرب ويبدأ بهم ففعل فدخلوا معه جميعا على وجهين مكره عليه فاغتبط ، وطائع اياه فازداد ، فعرفنا جميعا فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق ، وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم الى الانصاف فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين الاسلام • حسن الحسن وقبح القبيح كله • فان أبيتم فأمر من انشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء فان أبيتم فالمناجزة (المقاتلة) وان أجبتكم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم • وان أتيتمونا بالجزى قبلنا ومنعناكم والا قاتلناكم •

قال : فتكلم يزدجرد فقال :

انى لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم • قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي ليكفوناكم لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم ، فان كان عددكم كثر فلا يغرنكم منا ، وان كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا الى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم فأسكت القوم •
فقام المغيرة بن شعبة رضى الله عنه فقال :

أيها الملك ، ان هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وانما يكرم الأشراف الأشراف ، ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ، وليس كل ما أرسلوا له جمعه لك ، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه ، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم الا ذلك • فجأوبنى ، :أكون أنا الذى أبلغك ويشهدون على ذلك ، انك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالما ، فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالا منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع • كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ونرى ذلك طعامنا ، وأما المنازل فانما هى ظهر الأرض ، ولا نلبس الا ما غزلنا من أوبار الابل وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ، وأن ييغى بعضنا على بعض ، وان كان أحدا ليدفن ابنته وهى حية كراهية أن تأكل من طعامه ، وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك • فبعث الله رجلا معروفا نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير أرضنا ، وحسبه خير أحسابنا ، وبيته خير بيوتنا ، وقبيلته خير

قبائلنا ، وهو نفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلنا ، فدعانا الى امر فلم يجبه احد ، أول ترب كان له الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا فلم يقل شيئا الا كان فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله .

فقال لنا : ان ربكم يقول : أنا الله وحدي لا شريك لي كنت اذا لم يكن شيء ، وكل شيء هالك الا وجهي ، وأنا خلقت كل شيء والى يصير كل شيء ، وان رحمتي أدرکتکم ، فبعثت اليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي أنجيكم بها — بعد الموت — من عذابي ، ولأحكم داري دار السلام . فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق . وقال : من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه .

فأنا الحكم بينكم ، فمن قتل منكم أدخلته جنتي ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناواه ، فاختر ان شئت الجزية وأنت صاغر ، وان شئت فالسيف أو تسلم فتتجو بنفسك . فقال يزدجرد : أتستقبلني بمثل هذا ؟ فقال : ما استقبلت الا من كلمني . ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به .



عرضنا هنا جانبا من جوانب تربية الرسول صلى الله عليه وسلم لهذه الأمة ، وسيمر معك جانب آخر في باب الثمرات ، وسيأتيك في البحث الثالث (عن الاسلام) الجوانب التفصيلية لمنهاج التربية والتعليم الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم للانسانية ، وسترى أنه ما ترك شاردة ولا واردة مما يحتاجه البشر في أمر دين أو دنيا الا وقد أحاط به ذلك المنهاج العظيم ، الذي جعل الأمة الاسلامية عندما كانت واعية له أرفع أمة في ميزان الحضارة ، ورفعت به أمم الغرب فكان من آثاره ما هم عليه الآن ، وتخلت عنه الأمة الاسلامية فوصلت الى ما هي عليه الآن .

وتنظن أننا بما ذكرنا حتى الآن كفاية للاقتناع بأن العالم ما شهد ولن يشهد مرييا كمحمد صلى الله عليه وسلم . فعل ما فعل بإمكانياته المحدودة ماديا ، وبشعب أمة عمليا ، وخذ التاريخ كله وسله هل استطاع مرب أو زعيم أن ينقل أمة بهذه الفترة المحدودة ، والامكانيات غير المتوفرة من

الناحية النفسية والأخلاقية والفكرية والحضارية والعسكرية والسياسية «
الى معشار معشار ما نقل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته
في سنوات معدودات ؟ اللهم لا •



ونريدُ أخيرا أن نقرر حقيقة هي : لئن شارك غير محمد صلى الله
عليه وسلم محمدا صلى الله عليه وسلم في بعض جوانب ربي عليها
رسول الله صلى الله عليه وسلم البشر • فان رسول الله صلى الله عليه
وسلم وحده هو الذى وضع النفس البشرية على الطريق الصحيح ، أما
غيره فلئن أصلح جانبا فعلى حساب جوانب ويبقى ما أصلحه من النفس
انبشيرة ذرة من جبل • أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصلح
النفس البشرية كلها حتى أعماق أعماقها وبهذا نقول :

انه في الأصل لا يوجد رب غير محمد صلى الله عليه وسلم •
فقولنا انه المربي الأول وقدوة المربين لا يعنى أننا أعطينا لغير من سلك
طريقه صفة التربية حاشا ، وانما هو لتقريب الأمور كي تتضح الحقائق
وهذا بيان ما قلناه :

ان النفس البشرية كثيرة التعقيد كثيرة الشهوات فهي تحب المال
والتملك وتود الحصول عليه من أقرب الطرق ، وتحب المتعة من تمتعها
بالجمال الى الخمر الى ما يلذ • وقد تصل الأمور ببعض الناس أنهم
يتمتعون بمرأى الدماء • وما يتمتع هذه النفس تود الوصول اليه مهما
كان نوعه ، وبأى طريق ، والنفس تحب السيطرة وتحب التحكم بالآخرين ،
والترأس عليهم والارتفاع عن غيرها ، وليس عند النفس مانع من
استغلال الآخرين وبخسهم حقهم •

والنفس لا تألف النظام بل الفوضى ، والانفلات من كل تكليف ومن
كل قيد •

والنفس حريصة على الحياة ، وتكره الموت حتى ولو كان الموت
شيئا ضروريا ، ككونه لحرب عادلة ، والنفس بشكل عام تود أن يؤدي
لها حقها وتود أن تتهرب من واجبها •

وهذا الذى أجملناه بعض ما في النفس :

وأن تعطى أنفس البشر كلها شهواتها فذلك مستحيل • اذ كل
إنسان يحب الرئاسة • فهل يمكن أن يكون الناس كلهم رؤساء ؟ وأجمل

امرأة في العالم يطمناها زوجة كل انسان فهل يمكن أن تكون زوجة لكل البشر؟

لذلك فالبشر كلهم مجتمعون على أنه لا بد من وضع حدود وقيود للنفس البشرية • تتمثل هذه الحدود والقيود بالآداب والأخلاق والعادات والقوانين ، وتربية الناس على ذلك •

والذي نراه أن بعض المربين ينجحون في جانب ، ويفشلون في جوانب ، فنجد زعيما نجح في تربية قومه على التضحية ، ونجد آخر نجح في تربية قومه على النظام ، ونجد آخر نجح في تربية قومه على أداء الواجب ، ونجد آخر نجح في تربية قومه على العمل ، ولكنك في المقابل تجد أنه نسي بقية جوانب النفس البشرية ، فلم يفعل لها شيئا • هذه ناحية ، وناحية أخرى فان هؤلاء نجحوا في هذا الجزء ، ولكن قد يكون هذا الشيء الذي نجحوا فيه غير موضوع في محله ، فالذي نجح في تعويد شعبه على الطاعة قد تكون طاعته فيما لا ينبغي ، والذي نجح في حمل قومه على التضحية قد يجعلهم يضحون فيما لا يستحق التضحية ، ولكن الظاهرة التي نراها في تربية رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ربي كل جوانب النفس البشرية وهذبها وجعلها على الصراط الصحيح • فما ترى جانبا مضيئا ، وما ترى تهديبا في غير محله ، ولا ترى بعد ذلك للنفس المسلمة تصرفا كان ينبغي ألا يكون •

رباها على التضحية في محلها ، وعلى الفداء في محله ، وعلى النظام حيث يحسن النظام ، وعلى الطاعة حيث تجمل الطاعة ، وعلى تحقيق المتعة حيث تكرم المتعة ، وعلى التملك حيث يعدل التملك ، وعلى العبادة لله ، وحسن المعاملة للناس ، كل ذلك وأمثاله وأمثاله دون أن يطغى جانب على جانب ، أو ينسى جانب على حساب جانب ، أو تستعمل النفس فيما يقبح أن تكون فيه ، أو تنتقد عليه • وفي المبحث الثالث « الاسلام » بيان هذا بما لا لبس فيه •

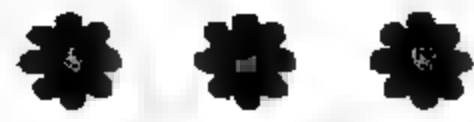
فمحمد وحده صلى الله عليه وسلم هو مربى النفس البشرية ، وغيره لا يجوز أن يعطى هذه الصفة الا بالقدر الذي يتأسى فيه برسول الله صلى الله عليه وسلم •

والى الفقرة الرابعة :

٤ — رجل الدولة الأول (سياسيا وعسكريا)

دمجنا العمل السياسى والعمل العسكرى فى هذه الفقرة على اعتبار أن العمل العسكرى أثر عن العمل السياسى ومرتببط به ارتباطا كاملا لا ينفصل عنه ، وقد يكون ذروته فى بعض الحالات التى تكون فيها الحرب لابد منها ، ثم ان الامكانيات السياسية فى ادارة الحروب لا تتفصل عن الامكانيات العسكرية فى الادارة السياسية ، والرسول عليه السلام ، كان قائد المسلمين سياسيا وعسكريا ، وهو الذى سار بهم من نصر الى نصر • حتى جعل مفاتيح العالم فى أيديهم مرات عديدة ولا زال باستطاعة المسلمين أن يسترجعوها اذا تتلمذوا مرة أخرى تلمذة كاملة على يديه •• عليه السلام •

على أنه وان ارتبط العمل السياسى بالعمل العسكرى • فان لكل مجال كلام ينفرد فيه • لذلك فاننا سنقسم الكلام فى هذه الفقرة الى قسمين : الأول فى الكلام عن الرسول عليه السلام سياسيا • والثانى عسكريا ، انرى كيف أن الرسول عليه السلام فى كل كان فى القمة التى لا يرقى اليها أحد ، وهو الأسمى الذى لا يعرف قراءة ولا كتابة ، مما يدل على أن المسألة هنا ربانية المبدأ والطريق والنهاية •



القسم الأول: الرسول عليه السلام القيادة السياسية العليا

ان نجاح القيادة السياسية يتوقف على ما يلي :

- ١ - على استيعاب هذه القيادة لدعوتها ، وثقتها بها وبأحقيتها ، وثقتها بانتصارها • وعدم تناقض سلوك هذه القيادة مع ما تدعو اليه ، بحيث تكون مواقفها كلها منسجمة مع هذه الدعوة ، وبحيث تكون هذه المواقف كلها لصالح الدعوة ، حتى لا يكون بيد أعداء الدعوة سلاحا فعلا من هذه المواقف ضد الدعوة نفسها •
 - ٢ - وعلى قدرة القيادة على الاستمرار بالدعوة تبليغا واقناعا •
 - ٣ - وعلى قدرة القيادة في استيعاب المستجيبين للدعوة تربية وتنظيما وتسييرا •
 - ٤ - وعلى وجود الثقة الكاملة بين القيادة وأتباعها •
 - ٥ - وعلى قدرة القيادة أن تعرف امكانية الأتباع ، وأن تستطيع الاستفادة من كل امكانياتهم العقلية والجسمية أثناء الحركة • بحيث يأخذ كل منهم محله الصحيح •
 - ٦ - وعلى قدرة القيادة أن تحل المشاكل الطارئة بأقل قدر ممكن من الجهد •
 - ٧ - وعلى أن تكون هذه القيادة بعيدة النظر مستوعبة لكل الواقع • فتضرب ضرباتها السياسية بشكل محكم •
 - ٨ - وعلى قدرة هذه القيادة أن تصل الى النصر والاستفادة منه ، وتطبيق مبادئ دعوتها تطبيقا صحيحا •
 - ٩ - وعلى قدرة هذه القيادة أن تحكم أمر بناء دولتها احكاما يجعلها قادرة على الصمود والنمو على المدى البعيد •
- وما عرف التاريخ انسانا كمل في هذه الجوانب كلها الى أعلى درجات الكمال غير محمد صلى الله عليه وسلم • مع ملاحظة أن كمالاته هنا جانب من جوانب كمالاته المتعددة التي لا يحيط بها غير خالقها ، وان كمالاته ونجاحه واستقامه خطواته وانتصاراته وتوفيق الله اياه كل ذلك دليل أنه رسول الله الذي رباه ، فأحسن تربيته وأحاطه برعايته • ولنبدأ الآن باستعراض هذه الجوانب التسع في سيرة رسول الله العملية لنرى

برهان كل وكماله فيه مع ملاحظة أن خطتنا في هذه الأبحاث الاختصار
والإشارة لا التفصيل :

١ — استيعابه عليه السلام لدعوته نظريا وعمليا

وثقته بها وبانتصارها

إذا كان هناك انسان استوعب جوانب دعوته كل الاستيعاب ، ووثق
بها وبمصيرها كل الثقة ، وعرف مضمونها كل المعرفة وعرف بداياتها
ونهاياتها وأولها وآخرها ومقدماتها ونتائجها ، ولم يتزحزح عن جزء
منها • بل الخطوة الثانية تأتي مكملة للخطوة الأولى ، وممهدة للخطوة
التالية ، فذلك هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فالرسول عليه
السلام كان واضحا تماما لديه أن منطلق دعوته هو أن الحاكم الحقيقي
للبشر لا يجوز أن يكون غير الله • وأن خضوع البشر لغير سلطان الله
وحاكميته شرك ، وأن التغير الأساسى الذى ينبغى أن يتم فى العالم
هو نقل البشر من خضوع بعضهم لحاكمية بعض ، الى خضوع الكل
لله الواحد الأحد ، وأن الأمة التى تحمل هذه القضية بكل متطلباتها ،
هى التى سيكون بيدها مفاتيح الحياة البشرية ، ولها قياداتها ومن هذه
البداية ، وانسجاما معها ، يقوم كل شئ فى حياة البشرية ثانيا ، وحياة
الأمة التى تحمله أولا ولننظر وضوح هذه الجوانب عنده صلى الله
عليه وسلم فى بداية الأمر ونهايته :

روى ابن اسحاق عن ابن عباس قال : « لما مشوا الى أبى طالب
وكلموه — وهم أشراف قومه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل
ابن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب فى رجال من أشrafهم —
فقالوا : يا أبا طالب انك منا حيث قد علمت • وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا
عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ لنا منه وخذ
له منا ليكف عنا ولنكف عنه وليدعنا وديننا ولندعه ودينه • فبعث اليه
أبو طالب فجاءه فقال : يا ابن أخى هؤلاء أشraf قومك قد اجتمعوا
اليك ليعطوك وليأخذوا منك قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم • فقال
أبو جهل : نعم وأبيك وعشر كلمات ، قال : تقولون لا اله الا الله وتخلعون
ما تعبدون من دونه • فصفقوا بأيديهم » •

وروى ابن اسحاق عن الزهري في قصة عرض الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته على بنى عامر بن صعصعة ما يلي : ثم قال له (أى بحيرة بن فراس) : رأيت ان نحن تابعنك على أمرك ثم أظهرك الله على من يخالفك أكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال (أى رسول الله) : الأمر لله يضعه حيث يشاء ، فقال له : أفنهدف نحورنا للعرب دونك فاذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا . لا حاجة لنا بأمرك . فأبوا عليه .

قال عدي بن حاتم :

« بينما أنا عند رسول الله إذ أتاه رجل فشكا اليه الفاقة . . ثم أتاه آخر فشكا اليه قطع السبيل فقال : يا عدي هل رأيت الحيرة ؟ قلت : نعم أرها . وقد أنبتت عنها ، فقال : ان طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا الا الله . . ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : كسرى ابن هرمز ، قال عدي : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف الا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز . . » .

وقد طالب المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة أن يطرد المستضعفين من المسلمين حتى يجلسوا اليه وفي كل مرة كان يقتزل قرآن ويكون موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم الرفض ومن هذه ما أخرجه أبو نعيم عن ابن مسعود قال : مر الملاء (أى السادة) من قريش على رسول الله وعنده صهيب وبلال وخباب وعمار رضى الله عنهم ونحوهم وناس من ضعفاء المسلمين فقالوا (أى الملاء مخاطبين رسول الله) : أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أفنحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم ؟ اطردهم عنك فلعلك ان طردتهم اتبعناك قال : فأنزل الله عز وجل :

« وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لطهم يتقون . ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين » (الأنعام : ٥١ ، ٥٢) . .

وأخرجه أحمد والطبرانى .



من هذه الأمثلة ترى بشكل واضح استيعاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لدعوته وثقته بها وابتصارها ، وانسجام مواقفه معها ،

ووصوح طريقه أمامه ، ومعرفته بنهايات ما يريد منها • فلم تضطرب
بدنيات مواقفه أبدا مع نهاياتها ، بل كل خطوة تأتي تكون مكملة لما
قبلها ، وكل تشريع جديد يأتي متما لما قبله ، حتى كملت شريعة الله ،
وتم دينه وهذا كله ما كان ليتم لولا أن محمدا رسول الله •
وهذا أول ما يلزم العمل السياسى العام • تجده كأكمل ما يكون عند
رسول الله صلى الله عليه وسلم •

ويكفيك لتعرف معنى هذا الذى قدمناه • أن تعلم أن الناس يعتبرون
العمل السياسى الاسلامى عملا مثاليا لا يستطيعه أى انسان ، فاذا ما
عرفنا بعد ذلك أن الرسول عليه السلام استطاع أن يقود الناس بهذا
الاسلام • فلا نجد موقفا من مواقفه تتناقض مع نصوص ومبادئ
دعوته ، وعلمت أنه ما من زعيم سياسى ، الا ويضطر للتناقض ، اما
لاحقا مع سابق ، أو دعوى مع عمل ، أو داخليا مع خارجى ، أدركت مدى
الكمال فى القيادة المحمدية ، وخاصة اذا عرفت أنه لم يستطع أن يرتفع
من حكام الأمة الاسلامية الى القيادة بالاسلام الكامل بحق الا أفراد
منهم الخلفاء الراشدون الأربعة والثالث تير عليه وقتل ظلما • والرابع
خرج عليه وانتصر بعد ذلك خصمه السياسى • أما رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقد ساس الناس بالاسلام ولم ينزل بالاسلام الى مستوى
الناس بل رفع الناس الى مستواه • على وتيرة واحدة ، ونسق واحد ،
فى الفكر والعمل ، من بداية الدعوة حتى انتقاله صلى الله عليه وسلم
الى العالم الآخر •



٢ — استطاعته عليه السلام الاستمرار بدعوته تبليغا واقتناعا

ان هناك شيئين أساسيين فى العادة ، يجب أن يتفطن لهما قادة
الحركات السياسية الفكرية الجديدة :

(أ) الحرص على استمرار عملية التبليغ والاقتناع •

(ب) البصر الحكيم فى الموقف الذى يتخذ من الخصم •

ان أى دعوة من الدعوات اذا لم تستطع تأمين عملية استمرار
التبليغ والاقتناع تجهد ، ثم تنحصر ثم تموت ، وأى دعوة من الدعوات
لا تتخذ الموقف المناسب من الخصم ، تضرب ضربة ساحقة ثم تزول ،
ولنضرب على هذا مثلا :

ان الهنود عندما أرادوا تحرير بلادهم من الانجليز ، اختاروا
لنفسهم طريق اللاعنف في العمل • ومعناه عندهم أن لا يجابه الانسان
القوة الظالة بالعنف بل يتحمل ظلمها بصبر حتى تتغير هي عواطفها ،
وترتدع عن غيها ، وفائدة هذا الطريق أنه يكسب صاحبه عطف الناس
وعطف الرأي العام خاصة عندما يكون على حق ، وقد نجح الهنود أخيرا
في تحرير بلادهم ولم يكلفهم هذا الطريق ضحايا كثيرة • ولو أنهم
سلكوا غير هذا الطريق لما استطاعوا وقتذاك أن يصمدوا أمام قوة
بريطانيا فيكونون قد خسروا كثيرا وفشلوا أخيرا •

وأنت عندما تدرس هذين الجانبين في العمل عند رسول الله صلى
الله عليه وسلم تجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نجح فيهما
نجاحا منقطع النظير ، فرغم تألب الجزيرة العربية كلها عليه كما رأينا في
الباب السابق ، ورغم العداء العنيف الذي ووجه به ، ورغم كل شيء
فان عملية التبليغ لم تنقطع لحظة من اللحظات ، ولعل أهم نقطة تلمحها
بعد التوحيد أثناء عرض الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته على القبائل ،
هو الحاحه على قضية حماية الدعوة ، واستمرارها وتأديتها ، ولقد
تجاوز الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاما من المجابهة للمشركين ،
دون انقطاع عن العمل ، مما يدل على مقدار نجاحه في هذا الموضوع •
وأما بالنسبة للأمر الثاني فأنت تلاحظ حكمة مواقفه تجاه العدو
فهو في مكة : يصبر ويأمر أتباعه بالصبر ، ولو فعل غير هذا لخسر
أتباعه قتلا • ولشغل بذلك في قضايا الثأر • ولما أمكنه أن يتابع عملية
التبليغ ، وكسب بهذه الخطة كثيرا من القلوب •

فاذا ما انتقل الى المدينة رأيت تجدد مواقفه على حسب الظروف
الجديدة من معاهدة ، الى سلام ، الى حرب ، الى ضربة هنا ووثبة
هناك ، ولكن هذا كله لم يؤثر بتاتا على عملية تبليغ الحق واقتناع الناس
بها ، على كل مستوى وبكل وسيلة ملائمة •

واذا أردت أن تقدر مقدار النجاح المحرز في هذا الطريق فانظر
هذه المقارنة :

ان الحركة الشيوعية رغم وسائل القرن التاسع عشر في الدعاية
وتفرغ أتباعها فانها لم تستطع أن تحقق نصرا وتعدم الا بعد سبعين
عاما من أول بيان أصدره زعيمها •

ولكن الذي حدث بالنسبة للدعوة الاسلامية أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم عممها خلال ثلاث وعشرين عاما التعميم الذي يرافقه
الاقناع • ولهذا فاننا نقول مطمئنين : انه لم توجد حركة سياسية تقوم
على اساس عقيدى نجحت كما نجحت دعوة رسول الله صلى الله عليه
وسلم وبفترة قصيرة وهذا كله يدلنا على أن الأمر أكبر من أن يكون
بدون توفيق الهى لهذا الرسول الأعظم الفذ على مدى التاريخ بين
الرجال •



٣ - قدرته عليه السلام على استيعاب أتباعه

تربية وتنظيما وتسييرا ورعاية

ان الدعوة العقيدية السياسية تصاب من قبل أتباعها بسبب قيادتها
من نواح ثلاث :

١ - ألا تقدر هذه الدعوة على أن تربي أتباعها تربية نموذجية ،
بحيث يعطى أتباعها صورة حسنة عنها ، مما يؤدي الى نفور الناس منها
كأثر عن نفورهم من أصحابها • فيكون بذلك التابع حجة على الدعوة بدلا
من أن يكون حجة لها ، وهذا يؤلب الرأي العام ضدها تأليا خطيرا
ويعطى الرأي العام حجة تلو حجة عليها • وعلى العكس من ذلك اذا
ما ربي أفرادها تربية نموذجية حية فان الناس يؤمنون بهم قبل ايمانهم
بدعوتهم ، ويحبونهم قبل أن يعرفوا ما يدينون به ، وكم رجال ضربوا
دعوتهم بسلوكهم مع أنهم يحملون دعوة عظيمة •

٢ - أن يدخل الدعوة ناس ولا تستطيع هذه الدعوة أن تسخر
طاقاتهم في سبيلها • فأمثال هؤلاء يكونون في وضع مشلول ، فلا هم
ضد الدعوة ولا هم يقدمون شيئا لها ، وفي هذه الحالة تكون قيادة الدعوة
وحدها متحملة كل مسؤولياتها ، والدعوة اذا كانت على امتداد دائم
فان هذه القيادة ستصبح في وضع لا يسمح لها أن تقوم بكل واجباتها ،
وتكون المسألة هكذا • داعية واحد ، ومدعوون كثيرون ، أما في الحالة
الأخرى فانك تجد العكس ، عندما تستطيع قيادة الدعوة أن تسخر
طاقات الأتباع لصالح الدعوة ، فان المسؤولية يتحملها مجموع الأفراد ،
فيكون كل فرد داعية نائبا مناب القائد ، وكل فرد يؤدي دوره • وفي
النهاية فمهما توسعت دائرة الدعوة تبقى القيادة على قوة في تحملها •

٣ — وعندما لا يحس الأتباع بالرعاية الدائمة ، والملاحظة القامة ، وعندما لا يوضعون فيما يحسن وضعهم به ، أو عندما يحسون بأنهم منسيون ، أو عندما لا يعرف الانسان محله ومهمته المكلف بها كل هذا يؤثر على نفسية الأتباع بالدعوة ويولد عندهم فتورا عنها .
هذه النواحي الثلاث لا بد من تلافيها لأي دعوة تقوم على أساس مبدأ معين وعدم تلافيها يعطل سير الدعوة ويقتلها .

وأنت عندما ترى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيادته لأتباعه في هذه الجوانب تجد تجنبه لهذه الجوانب ، ووجود عكسها بشكل لا مثيل له . بحيث لا تستغرب بعد كيف انتصرت هذه الدعوة ، وهذه الجماعة ، وكيف توسعت على مر الأيام .

ففي الجانب الأول رأيت البحث السابق عن تربية الرسول صلى الله عليه وسلم وكيف أن الأمة الاسلامية كلها قد وسعت تربية . وكيف ارتفع الأفراد من طور الى طور بحيث أصبحوا نماذج يقتدى بها . وفي الجانب الثاني ترى الحركية الدائمة التي كان يجعل أصحابه دائما يعيشونها . فاذا أسلم رجل رباه التربية الاسلامية ثم كلفه أن يقوم بأعباء الدعوة في جهة من جهاتها ، أو يقوم بجزء من أعبائها ، وفي الجانب الثالث ترى دقة الرسول في الرعاية والعناية والسهر على شئون الأتباع بشكل عجيب ، ولعل هذا الجانب هو الأحق بالتمثيل هنا لأن الجانبين الآخرين ممثل لهما في غير هذا المقام !!

أخرج ابن اسحاق عن أم سلمة أنها قالت : لما ضاقت مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله وفتتوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله في منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل اليه شيء مما يكره ، ومما ينال أصحابه . فقال لهم رسول الله : « ان بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببيلاده ، حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه » وقد وجههم مرتين الى الحبشة . مرة في السنة الخامسة ، ومرة في السنة السابعة ، حيث كان المسلمون مقدمين على أعظم مراحل الاضطهاد . مرحلة المقاطعة الشاملة .

وعندما قرر الرسول الهجرة الى المدينة ، وجه أتباعه كلهم قبله ، وبقي في مكة حتى اذا لم يبق الا من له عذر خرج مهاجرا ، وأخرج أحمد عن شداد بن عبد الله قال : قال أبو أمامة : يا عمرو بن عبسة

بأى شىء تدعى أنك ربع الاسلام ؟ قال : انى كنت فى الجاهلية أرى الناس على ضلالة ولا أرى الأوثان شيئاً ثم سمعت عن رجل يخبر أخبار مكة ويحدث أحاديث • فركبت راحلتى حتى قدمت مكة ، فاذا أنا برسول الله مستخف واذا قومه عليه جراء فتلطفت له فدخلت عليه فقلت : ما أنت ؟

قال : أنا نبي الله ؟ فقلت : وما نبي الله ؟

قال : رسول الله • قال قلت : الله أرسلك ؟ قال : نعم • قلت : بأى شىء أرسلك ؟ قال : بأن يوحد الله ولا يشرك به شىء وكسر الأوثان وصلة الرحم • فقلت : من معك على هذا ؟ قال : حر وعبد (أو عبد وحر) واذا معه أبو بكر بن أبى قحافة وبلال مولى أبى بكر • قلت : انى متبعك ، قال . انك لا تستطيع ذلك يومك هذا ، ولكن ارجع الى أهلك • فاذا سمعت بى قد ظهرت فالحق بى • قال : فرجعت الى أهلى وقد أسلمت • فخرج رسول الله مهاجرا الى المدينة فجعلت أتخبر الأخبار حتى جاء ركب من يثرب • فقلت : ما هذا المكي الذى أتاكم ؟ قالوا : أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك • وحيل بينهم وبينه ، وتركنا الناس سراعا • قال عمرو بن عبسة : فركبت راحلتى حتى قدمت عليه المدينة فدخلت عليه فقلت : يا رسول الله أتعرفنى ؟ قال : نعم ، ألسنت أنت الذى أتيتنى بمكة ؟ قال : قلت : بلى ••

هذه أمثلة ثلاثة تدلك على مبلغ دقة الرسول فى توجيه أصحابه بالشكل الذى يحمون فيه ويأمنون ، وكيف أنه لا ينسى أحدا منهم ، بن يستوعبهم جميعا برعايته ، وكيف يعدهم للحظة المناسبة ، وكيف يسير كل واحد منهم بحكمة تناسب وضعه ، ولا نتقل بك من هذا البحث حتى نضرب لك أمثلة ثلاثة أخرى على سهره على حاجات أتباعه الشخصية وتأمينها لهم :

— أخرج أحمد عن مجاهد أن أبا هريرة كان يقول : والله ان كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع وان كنت لأشد الحجر على بطنى من الجوع ولقد قعدت يوما على طريقهم الذى يخرجون منه • فمر أبو بكر فسأله عن آية من كتاب الله ما سأله الا ليستتبعنى فلم يفعل ، فمر عمر فسأله عن آية من كتاب الله ما سأله الا ليستتبعنى فلم يفعل ، فمر أبو القاسم فعرف ما فى وجهى وما فى نفسى فقال : أبا هريرة •• قالت له : لبيك يا رسول الله • فقال : الحق • واستأذنت

فأذن لى فوجدت لبنا فى قدح قال : من أين لكم هذا اللبن ؟ فقالوا : أهدها لنا فلان — أو آل فلان — قال : أبا هر . . قلت : لبيك يا رسول الله . قال : انطلق الى أهل الصفة فادعهم لى . قال : وأهل الصفة أضياف الإسلام لم يأووا الى أهل ولا مال اذا جاءت رسول الله هدية أصاب منها وبعث اليهم منها واذا جاءت الصدقة أرسل بها اليهم ولم يصب منها قال : وأحزنتنى ذلك وكنت أرجو أن أصيب من اللبن شربة أتقوى به بقية يومى وليلتى وقلت : أنا الرسول فاذا جاء القوم كنت أنا الذى أعطيهم وقلت ما يبقى لى من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد فانطلقت فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم فأخذوا مجالسهم من البيت ثم قال : أبا هر . . خذ فأعطهم . فأخذت القدح فجعلت أعطيهم فيأخذ الرجل القدح فيشرب حتى يروى ثم يرد القدح حتى أتيت على آخرهم ودفعت الى رسول الله فأخذ القدح فوضعه فى يده وبقي فيه فضلة ثم رفع رأسه ونظر الى وتبسم وقال : أبا هر . . قلت : لبيك رسول الله . قال : بقيت أنا وأنت . . فقلت : صدقت يا رسول الله ، قال : فاقعد فاشرب ، قال : فقعدت فشربت ثم قال لى : اشرب فشربت فما زال يقول لى اشرب فاشرب حتى قلت : لا . . والذى بعثك بالحق ما أجسد له فى مسلكا قال : ناولنى القدح ، فرددت اليه القدح فشرب من الفضلة . وأخرجه البخارى كذلك .

— وأخرج أحمد عن ربيعة الأسلمى قال :

كنت أخدم النبى فقال لى : يا ربيعة . . ألا تزوج ؟ قلت : لا والله يا رسول الله ما أريد أن أتزوج وما عندى ما يقيم المرأة وما أحب أن يشغلنى عنك شيء ، فأعرض عنى ، ثم قال لى الثانية : يا ربيعة . . ألا تزوج ؟ فقلت : ما أريد أن أتزوج ما عندى ما يقيم المرأة وما أحب أن يشغلنى عنك شيء ، فأعرض عنى ، ثم رجعت الى نفسى فقلت : والله لرسول الله أعلم منى بما يصلحنى فى الدنيا والآخرة والله لئن قال لى : ألا تزوج ؟ لأقولن : نعم يا رسول الله مرنى بما شئت . فقال لى : يا ربيعة . . ألا تزوج ؟ قلت : بلى . . مرنى بما شئت .

قال : انطلق الى آل فلان — حى من الأتصار كان فيهم تراخ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — فقل لهم : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلنى اليكم يأمركم أن تزوجونى فلانة — لامرأة

عنهم — فذهبت اليهم فقلت لهم : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلنى اليكم يأمركم أن تزوجونى ، فقالوا : مرحبا برسول الله وبرسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لا يرجع رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بحاجته .

فزوجونى وأطفونى وما سألونى البينة . فرجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حزينا . فقلت : يا رسول الله .. أتيت قوما كراما فزوجونى وأطفونى وما سألونى البينة وليست عندى صداق .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بريدة الأسلمى .. اجمعوا له وزن نواة من ذهب .. قال : فجمعوا لى وزن نواة من ذهب فأخذت ما جمعوا لى فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم قال : اذهب بهذا اليهم فقل لهم : هذا صداقها . فأتيتهم فقلت : هذا صداقها ، فقبلوه ورضوه وقالوا : كثير طيب ، قال : ثم رجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حزينا فقال : يا ربعة .. مالك حزين ؟ فقلت : يا رسول الله ما رأيت قوما أكرم منهم رضوا بما آتيتهم وأحسنوا وقالوا : كثير طيب وليس عندى ما أولم . فقال : يا بريدة .. اجمعوا له شاة . قال : فجمعوا لى كبشا عظيما سميئا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب الى عائشة — رضى الله عنها — فقل لها : فلتبعث بالمكثل الذى فيه الطعام . قال : فأتيتها فقلت لها ما أمرنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : هذا المكثل فيه سبع أصع شعير ، لا والله لا والله ان أصبح لنا طعام غيره .. خذه . قال : فأخذته فأتيت به النبى صلى الله عليه وسلم وأخبرته بما قالت عائشة ، قال : اذهب بهذا اليهم فقل لهم : ليصبح هذا عندكم خبزا وهذا طبيخا ، فقالوا : أما الخبز فسنكفيكموه وأما الكبش فاكفونا أنتم ، فأخذنا الكبش أنا وأنايس من أسلم فذبحناه وسلخناه وطبخناه فأصبح عندنا خبز ولحم فأولت ودعوت النبى صلى الله عليه وسلم .

— وأخرج أحمد عن أبى برزة الأسلمى رضى الله عنه أن جلييبيا كان امرأ يدخل على النساء يمر بهن ويلعبهن فقلت لامرأتى :

لا تدخلن عليكم جلييبيا ، ان دخل عليكم لأفعلن ولأفعلن .

قال : وكانت الأنصار اذا كان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يعلم هل للنبى صلى الله عليه وسلم فيها حاجة أم لا . فقال النبى صلى الله عليه وسلم لرجل من الأنصار : زوجنى ابنتك . قال : نعم وكرامة

يا رسول الله ونعمة عين • قال : انى لست أريدها لنفسى ، قال : فلمن يا رسول الله ؟ قال : لجلييب • قال : أشاور أمها ، فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب ابنتك ، قالت : نعم ونعمة عين ، قال : انه ليس يخطبها لنفسه انما يخطبها لجلييب ، قالت : لجلييب • • انيه لجلييب انيه ، لا لعمر الله لا نزوجہ • فلما أن أراد ليقوم ليأتى النبي صلى الله عليه وسلم ليخبره بما قالت أمها قالت الجارية : من خطبنى اليكم ؟ فأخبرتها أمها • فقالت : أتردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ؟! ادفعونى اليه فانه لن يضيعنى ! فانطلق أبوها انى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : شأنك بها ، فزوجها جلييبيا ، قال : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة له ، قال : فلما أفاء الله عز وجل عليه قال : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : لا • قال : لكنى أفقد جلييبيا ، قال : فاطلبوه • فوجدوه الى جنب سبعة قتلهم ثم قتلوه فقالوا : يا رسول الله • • ها هو ذا الى جنب سبعة قتلهم ثم قتلوه ، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قتل سبعة ثم قتلوه ؟ هذا منى وأنا منه — مرتين أو ثلاثا • ثم وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على ساعديه وحفر له ، ماله سرير الا ساعد النبي صلى الله عليه وسلم ثم وضعه في قبره ، لم يذكر أنه غسله ، قال ثابت : فما كان في الأنصار أيم أنفق منها • • ولعل في هذه الأمثلة كفاية على ابراز مقدار رعايته لأتباعه واستيعابهم في كل الجوانب •



٤ — الثقة التي كان يتمتع بها عليه السلام عند أتباعه

للثقة بين الناس وقائدهم أهمية عظيمة جدا عند أصحاب الفكر السياسى لذلك ترى في أنظمة الحكم الديموقراطية ، أن الحكومة تبقى حاكمة ما دامت متمتعة بثقة شعبها التي تعرفها ببعض الوسائل ، وقديما قال كونفوشيوس حكيم الصين : ان الحكومة ينبغي أن توفر لشعبها الثقة بها والحماية له ، بواسطة القوة والطعام والشراب وما يلزم • قالوا فان لم تستطع أن تؤمن هذه الأشياء الثلاثة قال تتخلى عن تأمين الطعام والشراب ، قالوا فان لم تستطع تأمين الاثنين الأخيرتين قال : تتخلى عن تأمين القوة والحماية ولا تفرط في الثقة • •

وهذا شيء معقول اذ ما دام الناس واثقين بحكومتهم ومتعاونين معها ، فانهم يستطيعون بالتالى أن يسدوا النواقص ، أما اذا فقدت الثقة : تلاشى كل شيء ، وفقدت الأمة قوتها وحمايتها وهذا شيء مجرب تاريخيا • ان فقدان الثقة يشل العمل السياسى ويميت حركة الأمة ويضعف روحها المعنوية ، ويضرب اقتصادها وبالتالى يهوى بها •

لذلك كان من أهم عوامل نجاح القائد السياسى للأمة ثقة الأمة به ومحبتها له ، فان هذا اذا وجد يعوض كل النواقص وكل الفراغات ، فاذا ما وضح هذا بشكل عام نقول :

ان تاريخ العالم كله لا يعرف مثلا واحدا يشبه ما كانت عليه ثقة أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم به •

ان ثقة الناس بالقائد الرسول ، كانت ثقة متناهية ، يكفى لادراكها أن ترى بعضا من مواقف الصحابة فى أدق وأصعب وأحرج الأحوال : فى يوم العقبة حيث تم اللقاء بين الرسول صلى الله عليه وسلم والوفد الثانى للأنصار كان من أمرهم :

قال العباس بن عباد :

— يا معشر الخزرج •• هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟

قالوا : نعم •

قال : انكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس • فان كنتم ترون أنكم اذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه ؟ فمن الآن فهو والله ان فعلتم خزي الدنيا والآخرة وان كنتم ترون أنكم وافوه بما دعوتهم اليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذروه فهو والله خير الدنيا والآخرة • قالوا : فانا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف •

وقال أبو الهيثم بن التيهان : يا رسول الله •• وان بيننا وبين الناس حبالا — أى أحلافا وعهودا — فلعلنا نقطعها ثم ترجع الى قومك وقد قطعنا الحبال وحاربنا الناس • فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وقال : الدم الدم •• الهدم الهدم • وفى رواية : بل الدم الدم •• والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم •

ثم أقبل أبو الهيثم على قومه فقال : يا قوم •• هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أشهد أنه لصادق وأنه اليوم فى حرم الله وأمنه

وبين ظهري قومه وعشيرته فاعلموا أنه ان تخرجوه رمتكم العرب
عن فوس واحدة فإن كانت طابت أنفسكم بالقتال في سبيل الله وذهب
الاموال والأولاد فادعوه الى أرضكم فانه رسول الله حقا وان خفتهم
خذلان فمن الآن • فقالوا عند ذلك : قبلنا عن الله وعن رسوله •
ما أعطينا وقد أعطينا من أنفسنا الذي سألتنا يا رسول الله فخل بيننا
يا أبا الهيثم وبين رسول الله فلنبايعه ، فقال أبو الهيثم : أنا أول
من بايع •

وأخرج أحمد من حديثبيعة العقبة :

فقلنا — أي الأنصار — يا رسول الله • • علام نبايعك ؟

قال : تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل والنفقة
في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن تقولوا
في الله لا تخافوا في الله لومة لائم وعلى أن تتصروني فتمنعوني اذا
قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ولكم الجنة •
فقمنا اليه وأخذ بيده أسعد بن زرارة رضى الله عنه وهو من أصغرهم
فقال : رويد يا أهل يثرب • • فانا لم نضرب اليه أكباد الابل الا ونحن
نعلم أنه رسول الله وأن اخراجه اليوم مناواة للعرب كافة وقتل
خياركم وتعضكم السيوف فاما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه
وأجركم على الله ، واما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه
فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله • •

قالوا : أمت عنا يا سعد فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبدا •

من هذه النصوص يشعر الانسان بمقدار الثقة التي كانت تملأ
قلوب هذا الرعيل الأول مع معرفتهم بما سيقرب على هذه البيعة من
آثار مخيفة •

ومن مواقف مقدمات معركة بدر :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاطبا أصحابه :

ما ترون في قتال القوم ؟

فقام المقداد بن عمرو فقال :

اذن لا نقول لك يا رسول الله كُما قال قوم موسى لموسى عليه

السلام : اذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون •

ثم تكلم آخرون ثم قال سعد بن عباد :
أيانا يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده
لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها
إلى يرك الغماد لفعلنا .

وقال سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله .
قال : أجل .

قال : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق
وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك فامض
يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت
بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى
بنا عدونا غدا إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك
ما تقر به عينك . . فسر على بركة الله .

هذه المواقف ، وكل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه
مواقف من هذا النوع تدلك على مقدار الثقة المتناهية التي كانت
لرسول الله في قلوب أصحابه .

والحقيقة أن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم كانت من
الأسر والقوة والنفاز ، بحيث لا يملك من يخالطها إلا أن يذوب فيها ،
إلا إذا كانت شخصيته معقدة ، ولعل في قصة مولاه زيد بن حارثة
ما يؤكد هذا المعنى . إذ يأتي أبو زيد وأعمامه ليشتروه ويرجعوا به
إلى أهله حرا ولكن زيدا يختار صحبة محمد مع العبودية والغربة .
على فراقه ، مع الحرية ولقاء الأهل ، وهذه ظاهرة عجيبة أن يصارح
زيد أهله بهذا . وهو ليس صغير السن بل كان وقتذاك ناضج الفكر ،
فكافأه محمد — كان ذلك قبل النبوة — أن حرره وتبناه .

ويكفي ما ذكرناه في هذا الفصل . فالسيرة وحياة الصحابة كلها
شواهد على أن الثقة التي تمتع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم
بين أتباعه لم يعرف العالم لها مثيلا .

• — استطاعة القائد الاستفادة من كل امكانيات الأتباع العقلية والجسمية أثناء الحركة ، مع المعرفة الدقيقة بإمكانية كل منهم ووضعه في محله

ان عبقرية القيادة لا تظهر بشيء ظهورها بمعرفة الرجال ، ووضع كل في محله • واستفاد عقول الأتباع بالشورى ، واستخلاص الرأي الصحيح ، وفي كل من هذين كان الرسول صلى الله عليه وسلم الأسوة العليا للبشر •

ان الشورى في فن السياسة عملية تستجمع فيها طاقات العقول كلها لاستخلاص الرأي الصالح ، ويتحمل فيها كل فرد مسئولية القرار النهائي ، ويقتنع فيها كل فرد بالنتيجة • فيندفع نحو المراد بقوة ، وترتفع بها ملكات الفرد وروح الجماعة • ويبقى الانسان فيها على صلة بمشاكل أمته وجماعته ، ولذلك جعل الله أمر المسلمين شورى بين المسلمين ، حتى يتحمل كل فرد من المسلمين المسئولية كاملة ولا يبقى مسلم مهملاً •

والظاهرة التي نراها في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كقائد • حبه للشورى ، وحرصه عليها ، ومحاولته توسيع دائرتها ، واستخلاصه الرأي الأخير في النهاية •

قبيل غزوة بدر استشار الناس فأشار المهاجرون ، فلم يكتف ، ثم استشار الناس فأشار الخزرج والأوس ثم اتخذ قراره الأخير في الحرب حتى يمحو أي تردد عن أي نفس •

ولما عسكر المسلمون يوم بدر في أدنى ماء جاء الحباب بن المنذر أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : رأيت هذا المنزل آمناً لا أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟

قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة •

قال : يا رسول الله •• فان هذا ليس بمنزل ، امض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتعسكر فيه ثم تغور ما وراءه من الآبار ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأي • ونفذ صلى الله عليه وسلم ما أشار به •

وقبيل يوم أحد استشار الناس وأخذ برأي الأكثرية •

ويوم الأحزاب أخذ برأى سلمان الفارسي ، ويوم الحديبية أشاءت عليه أم سلمة زوجته فأخذ برأيها •

انها القيادة التي لا تستكبر أن تنزل على رأى مسلم كائنا من كان ، ما دام الرأى سليما صحيحا ، والقيادة الصالحة هي التي تعمم الشورى حتى لا يبقى أحد عنده رأى الا قاله ، وخاصة فيما يكون فيه غرم ، بعد غزوة حنين جاءت هوازن مسلمة وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم سبيهم وثروتهم فقال لهم : ان معى من ترون ، وان أحب الحديث الى أصدقه ، فأبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم ؟

قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئا • فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد ••• فان اخوانكم هؤلاء قد جاءوا تائبين وانى قد رأيت أن أرد اليهم سبيهم فمن أحب أن يطيب ذلك فليفعل ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه اياه من أول مال يفيء الله علينا فليفعل •

فقال الناس : قد طيبنا ذلك يا رسول الله • فقال لهم : انا لا ندرى من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع الينا عرفاؤكم أمركم • فرجع الناس فكلهم عرفاؤهم ثم عادوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرونه أنهم قد طيبوا وأذنوا •

انها الشورى التي يأخذ فيها كل انسان حقه ولقد علم المسلمون من نبيهم هذا فأحسنوا القيام به حتى أن كان عمر بن الخطاب ليستشير المرأة فربما أبصر في قولها الشئ يستحسنه فيأخذ به •

* * *

وأما معرفة الرجال ووضع كل في محله المناسب له وتكليفه بالمهمة التي يصلح لها فكذلك لا يلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم أحد فيها •

ان أبا بكر وعمر كانا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقبهما الصحابة بالوزيرين له وكان يسمر معهما في قضايا المسلمين ولما مرض صلى الله عليه وسلم أمر أبا بكر أن يصلى بالناس وهذا الذى جعل المسلمين يختارونه بعد خليفة ثم كان عمر الخليفة الثانى والناس يعرفون ماذا فعل أبو بكر وعمر يوم حكما الناس فهل يشك

أحد أن تركيز الرسول صلى الله عليه وسلم على هاتين الشخصيتين كان في محله وأنهما من الكفاءة في المحل الأعلى وأن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهما في محله وهذان مثالان فقط والا فما اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا الا ورأيت الحكمة في هذا الاختيار . يقول عمرو بن العاص في قصة اسلامه وخالد بن الوليد :

فوالله ما عدل بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه في أمر حزه منذ أسلمنا . وما أحد الا ويعرف كفاءة هذين الرجلين من آثارهما بعد .

عندما أتى وفد بني تميم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا محمد . . جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا .

قال : لقد أذنت لخطيبكم فليقل فقام عطار بن حاجب فقال . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس الخزرجي أن يرد عليه فرد ثم قام شاعر بني تميم فقال . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت أن يرد ، فغلب خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبهم وشاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم شاعرهم . لكل مقام رجال . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر الخلق فراسة في اختيار الرجل المناسب للمقام المناسب . ولعل في قصة نعيم بن مسعود بالغ الدلالة على ما قلناه :

كان نعيم بن مسعود حسن الصلة بكل القبائل المعادية للمسلمين يوم الأحزاب سواء في ذلك يهود بني قريظة أو قومه أو قريش . . وفي أحلك اللحظات أيام الأحزاب أسلم نعيم وقد أصبح المسلمون بين بني قريظة في الداخل والمشركين بعد الخندق وإذا أتى المسلمون من قبل قريظة لم يعد يصلح خط دفاع المسلمين واضطروا للدخول في معركة مفتوحة ليست متكافئة ولذلك فان الرسول صلى الله عليه وسلم وقد أسلم نعيم يكلفه ألا يعلن اسلامه وأن يقوم بعملية تخلخل صف العدو .

يقول عليه السلام لنعيم :

انما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ان استطعت ، فان انحرب خدعة . ورجع نعيم وكان أمره ما سنقصه عليك مما شهد أن اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم كان موفقا غاية التوفيق . خرج نعيم حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديما في الجاهلية ،

فقال : يا بنى قريظة .. قد عرفتم ودى اياكم وخاصة ما بينى وبينكم .

قالوا : صدقت ، لست عندنا بمتهم .

فقال لهم : ان قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرّون على أن تحولوا منه الى غيره . وان قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم فان رأوا نهزة أصابوها ، وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به ان خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تتاجزوه . فقالوا له : لقد أشرت بالرأى .

ثم خرج حتى أتى قريشا ، فقال لأبى سفيان وعن معه : قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمدا وانه قد بلغنى أمر رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتبوا عنى .. فقالوا : نفعل .

قال : تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد . وقد أرسلوا اليه : انا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ؟ ثم نكون لك على من بقى منهم حتى نستأصلهم . فأرسل اليهم أن نعم . فان بعثت اليكم يهود يلتصون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحدا .

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان .. انكم أصلى وغشيرتى وأحب الناس الى . ولا أراكم تتهمونى . قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم .

قال : فاكتبوا عنى .

قالوا : نفعل .

ثم قال لهم مثل ما قال لقريش .

وحذرهم ما حذرهم ..

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان من صنع الله ورسوله أن أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان الى بنى قريظة عكرمة ابن أبى جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم : انا لسنا بدار

مقام فقد هلك الخف والحافر • فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ
مما بيننا وبينه • فأرسلوا اليهم أن اليوم يوم السبت ، وهو يوم
لا نعمل فيه شيئا ، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثا فأصابه ما لم
يخف عليكم • ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمدا معكم حتى تعطونا
رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ، حتى نناجز محمدا •
فانا نخشى ان ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تقشموا الى
بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا • ولا طاقة لنا بذلك منه •

فلما رجعت اليهم الرسل بما قالت بنو قريظة ، قالت قريش وغطفان :
والله ان الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا الى بنى قريظة :
انا والله لا ندفع اليكم رجلا واحدا من رجالنا ، فان كنتم تريدون
القتال فاخرجوا وقاتلوا • فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل اليهم
بهذا : ان الذي ذكر لكم نعيم لحق ما يريد القوم الا أن يقاتلوا •
فان رأوا فرصة انتهزوها وان كان غير ذلك انشمروا الى بلادهم •
وهكذا أفلح المسلمون في فصم عرى التحالف بين الأحزاب المجتمعمة
عليهم •



٦ — قدرته الكاملة عليه السلام على حل المشاكل الطارئة

ان الدعوات والتنظيمات السياسية التي تقوم على أساسها ، كثيرا
ما تضرب بسبب مشكلة طارئة لا تستطيع القيادة أن تحلها حلا موفقا ،
مما يؤدي الى انقسام أصحابها أو ضربها والقضاء عليها ، وكلما كانت
القيادة أقدر على حل المشاكل كلما كان ذلك أضمن لنجاح الدعوة •

وقد يحدث أن بعض القيادات تحل المشاكل حلا غير مشروع
فتستعمل القوة مع أتباعها ، فتبيد المعارضين أو تسجنهم أو •• كما
نرى كثيرا من هذا في عصرنا الحاضر • الا أن الظاهرة التي لا مثيل
لها في تاريخ القيادات العالمية أنك تجد قدرة لا مثيل لها على حل
المشاكل بكل بساطة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا مع سلوك
الطريق اللطيف مع الأتباع • والذي عرف العرب عن كذب أي قيادة
هذه قيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي استطاعت أن تشق
للطريق بأقل قدر ممكن من المتاعب •

انه لا توجد أمة في العالم أكثر مشكلات من الأمة العربية ، اذ العوامل النفسية التي تثير المشاكل كثيرة جدا ، فكلمة قد تثير حربا ، وجرح كرامة قد يؤدي الى ويلات ونظام للتأثرات ، وشعور بالولاء ، وعواطف متأججة ، وعصبية عارمة وجراحة نادرة وقسوة وصلابة وعدم انضباط .. وكل واحدة من هذه تحتاج الى قيادة تتمتع بكفاءة منقطعة النظير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم القائد الفذ الذي استطاع أن يدبر أمر هذا الشعب القوي المراس ويحل كل مشاكله بكل بساطة وهذه أمثلة على حلوله السريعة للمشاكل :

١ — حله لمشكلة وضع الحجر الأسود قبل النبوة حين هدمت قريش الكعبة وأعادت بناءها وهذه رواية ابن اسحاق للحادث :

قال ابن اسحاق :

ثم ان القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها حتى بلغ البناء موضع الركن ، فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه الى موضعه دون الأخرى حتى تجاوزوا وتحالفوا وأعدوا للقتال ، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة ، فسموا لعقة الدم . فمكثت قريش على ذلك ربع ليال أو خمسا ، ثم انهم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا وتتأصفوا . فزعم (اذ يروى أن المشير على قريش مهشم بن المغيرة ، ويكنى أبا حذيفة) بعض أهل الرواية :

أن أبا أمية بن المغيرة عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكان عامئذ أسن قريشا كلها ، قال : يا معشر قريش . اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ، ففعلوا .

فكان أول داخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا . هذا محمد . فلما انتهى اليهم وأخبروه الخبر ، قال صلى الله عليه وسلم : هلم الى ثوبا ، فأتى به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوا جميعا ، ففعلوا . حتى اذ بلعوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه .

٢ — نموذج من حلوله السريعة لمشاكل المنافقين :

في مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غزوة بنى المصطلق نزل المسلمون على ماء فحدثت حادثة أراد عبد الله بن أبي أن يستغلها ليهدم وحدة صف المسلمين وهو قديما رأس قومه فلنر ماهية الحادثة وكيف حلها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يقول ابن هشام : فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك الماء وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار يقال له : جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه وبنان ابن وبر الجهنى على الماء فاقتتلا ، فصرخ الجهنى : يا معشر الأنصار ، وصرخ جهجاه ، يا معشر المهاجرين • فغضب عبد الله بن أبي بن سلول — وعنده رهط من قومه — فيهم زيد بن أرقم غلام حدث — فقال : أو فعلوها ، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا • • والله ما عدنا وجلابيب قريش الا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فطتم بأنفسكم ، أحللتهم بلادكم وقاسمتهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير داركم •

(جلابيب قريش : لقب كان المشركون يلقبون به من أسلم من المهاجرين) •

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه ، فأخبره الخبر. وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : مر به عباد بن بشر فليقتله •

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فكيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ، لا ولكن أذن بالرحيل • وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها : فارتحل الناس •

وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه ، فحلف بالله : ما قلت ولا تكلمت به ، وكان في قومه شريفا عظيما •

فقال من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار من

أصحابه : يا رسول الله .. عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل . حديبا على ابن أبي بن سلول ودفعاه عنه .
فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار ، لقيه أسيد ابن حضير ، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال :
يا نبي الله .. والله لقد رحمت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال : وأى صاحب يا رسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبي ابن سلول . قال : وما قال ؟ قال : زعم أنه ان رجع الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ قال : فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها ان شئت . هو والله الذليل وأنت العزيز ؟ ثم قال : يا رسول الله .. أرفق به ، فوالله لقد جاعنا الله بك وان قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه فانه يرى أنك استلبته ملكا .

ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى مسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذنتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما ، وانما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس ، من حديث عبد الله بن أبي .

ثم راح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فوق النقيع يقال له بقعاء ..

ونزلت السورة التي ذكر فيها المنافقين في ابن أبي ومن كان على مثل أمره ، فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد ابن أرقم ثم قال : هذا الذي أوفى الله بأذنه . وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي الذي كان من أمر أبيه فقال : يا رسول الله .. انه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فان كنت لابد فاعلا فمرني به فأنا أحمل اليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني ، واني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر الى قاتل عبد الله بن أبي يمشى في الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بك نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا .

وجعل بعد ذلك اذا أحدث الحديث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخفونه ويعنفونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمر

ابن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله
لو قتلته يوم قلت لى لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته •
قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم
بركة من أمرى •

* * *

٣ — حله لمشاكل الهجرة :

ولما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى المدينة
كانت هناك مشاكل تحتاج الى حل سريع :

(أ) قضية انسجام الناس بعضهم مع بعض وهم من قبائل
شتى •

(ب) ايجاد صيغة ملائمة يتعايش فيها الناس في المدينة وليسوا
كلهم مسلمين فمنهم اليهود ومنهم المنافقون ومنهم المسلمون •

(ج) حل المشكلة الاقتصادية اذ المهاجرون تركوا أولادهم
ومساكنهم ، ومشكلة المهاجرين دائما مشكلة صعبة حتى بالنسبة للدول
الحديثة ، ثم كان اليهود هم المسيطرين على السوق التجارية • اذ السوق
الوحيدة فيها لهم ولنرى كيف حلت هذه المشاكل كلها بسهولة •

وقد حلت المشكلة الأولى والثالثة مع بعضهما على الشكل التالى :

ما كادت الأمور تستقر بالمدينة حتى أنشأ الرسول صلى الله عليه
وسلم للمسلمين سوقا ليستغنوا عن سوق اليهود ، وشرع بأمر الله
سنة الاخاء فكل مهاجرى جعل له أخا أنصاريا ، وجعل هذه الأخوة أعمق
من أخوة النسب فكانوا يتوارثون بها وحض الناس على الكرم والسخاء
والايثار ، وصادف ذلك نفوسا ما عرف التاريخ أشرف منها ، ولا أرقى
بعد الرسل ، فكان من آثار ذلك الشئ العجيب •

روى البيهقى عن عبد الرحمن بن عوف قال :

كانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة
أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

أما بعد •• أيها الناس فقدموا لأنفسكم • تعلمن والله ليصعقن
أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه — ليس له
ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه — ألم يأتك رسولى فبلغك وأتيتك

مالا وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فينظر يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم ينظر قدماه فلا يرى غير جهنم ، من استطاع أن يقى نفسه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فان بها تجزى الحسنة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف .. والسلام عليكم وعلى رسول الله .

وروى البخارى أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فقال سعد لعبد الرحمن : انى أكثر الأنصار مالا فأقسم مالى نصفين ولى امرأتان فانظر أعجبهما اليك فسمها لى أطلقها فاذا انقضت عدتها فتزوجها . قال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك .. أين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع فما انقلب الا ومعه فضل من أقط وسمن .

ومن خبر الأنصار يوم هاجر اليهم الناس أنهم كانوا يختصمون على المهاجر كلهم يريد أن يضمه الى نفسه حتى انه لم ينزل مهاجري على أنصارى الا بقرعة .

بهذه الروح التى بثها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أتباعه حلت مشكلة من أكبر المشاكل استعصاء على الحل .

أما المشكلة الثانية وهى ايجاد صيغة ملائمة يتعايش فيها الناس اذ المجتمع المدنى كان مؤلفا من الأوس والخزرج وبينهما عدااء قديم ، واليهود وكانوا منقسمين على بعضهم ، بعضهم مع الأوس وبعضهم مع الخزرج ، وهم حريصون على أن يبقى النزاع بين الأوس والخزرج . ثم أتى المهاجرون وهم كذلك من عشائر كثيرة فكان من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كتب أول وثيقة سياسية فى الاسلام بين هذه الأطراف كلها تمثل الدستور الذى يتعايش به هؤلاء جميعا وقد رضوا جميعا به .

قال ابن اسحاق : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبى — صلى الله عليه وسلم — بين المؤمنين المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . انهم

أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون (الربعة : الحال التي جاء الاسلام وهم عليها) بينهم : وهم يقدون عانيهم (العاني : الأسير) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى (المعقل : الديات ، الواحدة : معقلة) كل طائفة منهم تقدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تقدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تقدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تقدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تقدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تقدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وأن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل ، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (عزيمة) ظلم ، أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وأن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم ، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا ، وأن المؤمنين بين بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وأنه لا يجبر مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وأنه من اعتبط (أى قتله بلا جناية منه توجب القتل) مؤمنا قتلا عن بينة ، فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول . وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم الا قيام عليه ، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر محدثا ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف

ولا عدل ، وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فان مرده الى الله عز وجل ، والى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، اليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليتهم وأنفسهم ، الا من ظلم وأثم فانه لا يوقع الا نفسه (أى يهلك نفسه) وأهل بيته .

وان ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف ، الا من ظلم وأثم فانه لا يوقع الا نفسه وأهل بيته ، وان جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وان لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وان البر دون الاثم ، وان موالى ثعلبة كأنفسهم .

وان بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج أحد الا باذن محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته ، الا من ظلم وأن الله على أبر هذا ، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الاثم ، وأنه لم بأثم امرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة الا باذن أهلها ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل والى محمد صلى الله عليه وسلم ، وان الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا تجار قریش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ، واذا دعوا الى صلح يصلحونه ويلبسونه ، فانهم يصلحونه ويلبسونه ، وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فان لهم على المؤمنين ، الا من حارب فى الدين ، على كل اناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم ، وأن يهود الأوس ، مواليتهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة .

قال ابن اسحاق : وان البر دون الاثم ، لا يكسب كاسب الا على نفسه ، وان الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا يحول

هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وأنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن
بالمدينة ، الا من ظلم أو آثم ، وان الله جار لمن أبر وائقى ، ومحمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

٤ — حله لمشكلة دفاع الأوس عن قريظة يوم قريظة :

أثناء غزوة الأحزاب أعلن بنو قريظة نقضهم للعهد مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم وقرروا الحرب وكان قصة ذلك كما يلي :

كان من جملة الرجال الذين ألبوا العرب حتى تجمعوا لحرب رسول
الله صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة حيي بن أخطب اليهودي فلما
اجتمعت العرب عامة وحاصرت المدينة أتى حيي بن أخطب كعب بن أسد
سيد قريظة ليقتنعه بانتهاء عهده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
والمشاركة في الحرب ضده وكان كعب حتى تلك اللحظة مغلقا أبوابه
وحصونه وملتزما الوفاء بعهده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما طرق حيي بن أخطب باب كعب قال له كعب رافضا أن يفتح
له الباب : إنك امرؤ مشؤوم ، واني قد عاهدت محمدا فلست بناقض
ما بيني وبينه ولم أر منه الا وفاءا وصدقا . وبعد أخذ ورد سمح
له كعب بالدخول فقال حيي :

ويحك يا كعب .. جئت بعز الدهر وبحر طام .
قال : وما ذاك ؟

قال : جئت بك بقريش على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم بمجتمع
الأسياال من رومة ، وبغطفان على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم الى جنب
أحد وقد عاهدوني وعاهدوني على ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا
ومن معه .

قال كعب : جئتنى والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماءه يرعد
ويبرق وليس فيه شيء . دعنى وما أنا عليه فانى لم أر من محمد
الا وفاء وصدقا .

ولكنه لم يزل به وبينى قريظة حتى أقنعهم بنقض العهد فأحضرت
قريظة الصحيفة التى كتب بها الميثاق فمزقتها وبعث النبی من يستكشف

له الأمر كسعد بن معاذ حليف بنى قريظة في الجاهلية فقالوا له :
من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد وسبوا سعدا فقالوا له وهو
سيد الأوس بكل وقاحة : أكلت أير أبيك ..

وكانت خيانة داخلية في أخرج المواقف ، وغدرا لو أعطى ثمراته
الخبیثة لاستوصل الاسلام والمسلمون ، اذ به لا تعود للخندق فائدة ،
ويتحطم خط دفاع المسلمين ، وتكون الكارثة ، انها خيانة جزاؤها
بشكل طبيعي الاعدام .

وانتهت غزوة الأحزاب بانسحاب المشركين ثم أمر رسول الله صلى
الله عليه وسلم المسلمين للتوجه الى بنى قريظة لمعاقتهم وحاصرهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه وكانوا يعرفون
أن الحكم فيهم سيكون القتل والصحابة كلهم يعرفون أن جزاءهم سيكون
كذلك . وهذا هو الحكم الحق والعدل والذي نصت عليه تورا
اليهود نفسها .

وقبل أن يصدر الرسول صلى الله عليه وسلم حكمه تواثبت الأوس
وطلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم العفو كما عفا عن بنى النضير ،
اذ بنو قريظة كانوا حلفاء الأوس في الجاهلية ، وبنو النضير كانوا
حلفاء الخزرج ، والأوس والخزرج كانتا تتنافسان في كل شيء ، واذن
فرسول الله صلى الله عليه وسلم أمام معارضة من قسم كبير من أصحابه
في قضية حساسة هي قضية تنفيذ عقوبة يستحقها مجرمون فكان من
أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ما هذه قصته كما يرويها
ابن هشام حيث حكم سيد الأوس فيهم ، وسيد الأوس هو الذي
عانى ما عانى من بنى قريظة يوم غدروا ، وسيد الأوس ما كان يحكم
الا بما استحق هؤلاء فرضيت الأوس بتحكيم سيدها وحكم بالعدل
في أمرهم وهو القتل جزاء خيانتهم ورضيت الأوس :

يقول ابن هشام :

فلما أصبحوا — أى بنى قريظة — نزلوا على حكم رسول الله
صلى الله عليه وسلم فتواثبت الأوس فقالوا : يا رسول الله .. انهم
يوالينا دون الخزرج ، وقد فعلت في موالى اخواننا بالأمس ما قد
علمت — وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بنى قريظة قد
حاصر بنى قينقاع ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه .

فسأله أياهم عبد الله بن أبي بن سلول فوهبهم له — فلما كلمته الأوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم ؟ قالوا : بلى • قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فذاك الى سعد بن معاذ •

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم ، يقال لها رفيدة في مسجده ، كانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين • وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق : اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب • فلما حكمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بنى قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من آدم ، وكان رجلا جسيما جميلا ثم أقبلوا معه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون : يا أبا عمرو •• أحسن في مواليك ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم انما ولاك ذلك لتحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : لقد أتى — آن — لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم • فرجع بعض من كان معه من قومه الى دار بنى عبد الأشهل فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل اليهم سعد ، عن كلمته التي سمع منه •

ذاذا انتهى سعد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوموا الى سيدكم • فأما المهاجرون من قريش فيقولون : انما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الانتصار •

وأما الأنصار فيقولون : قد عم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاموا اليه فقالوا : يا أبا عمرو •• ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم • فقال سعد بن معاذ : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، أن الحكم فيهم لما حكمت ؟ قالوا : نعم — قال : وعلى من هاهنا ؟ — في الناحية التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اجلالا له — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم • قال سعد : فاني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذراري والنساء •

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : « لقد حكمت فيهم
بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » •
ثم نفذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم •

* * *

٥ — حله لمشكلة هزيمة أحد :

يوم أحد خسر المسلمون المعركة بسبب عدم تنفيذ مخطط الرسول
صلى الله عليه وسلم للمعركة كاملاً وهذا الفشل سيكون من آثاره ما يلي :

- ١ — ضعف الروح المعنوية عند المسلمين •
- ٢ — طمع القبائل العربية كلها بالمسلمين •
- ٣ — سقوط هبة المسلمين العسكرية •
- ٤ — توجه قلوب الناس كلها للقضاء على المسلمين •
- ٥ — تنفس المنافقين واليهود وتربصهم الشر بالمسلمين •
- ٦ — وهناك احتمال بعد أحد أن يفكر المشركون وقد انتصروا
ورجعوا أن يعودوا لاستئصال المسلمين من جديد وقد سنحت لهم
انفرصة •

فكيف فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لقتل هذه النتائج
كلها :

انه ما كاد يصل الى المدينة حتى أمر المسلمين الذين دخلوا المعركة
أن يستعدوا مباشرة للحرب رغم اعيائهم ثم خرج بهم تابعا آثار
المشركين ولم يكذب المشركون يسمعون بأنباء هذا الهجوم والطرده وراءهم
الا وأعلنوا الرحيل الذي يشبه الهرب مع أنهم كانوا يفكرون أثناءها
بالرجوع الى المدينة لاستئصال المسلمين فيها ولم تقع يومها حرب ولكن
هذه العملية الجريئة غسلت آثار أحد كلها وبشكل سريع • اذ كانت
معركة أحد يوم السبت وكان خروج الجيش هذا يوم الأحد وبقي
معسكرا في حمراء الأسد طيلة ثلاث ليال ونزل القرآن بعد ذلك فربى
المسلمين ووعظهم وغسل كل الآثار النفسية للهزيمة •

* * *

هذه أمثلة خمسة ضربناها لنرى كيف كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم يحل المشاكل بسرعة عجيبة فلا يبقى لها أى أثر ، هذه

الامكانية العجيبة في حل المشاكل • جعلت رجلا كبرنارد شو الأديب الانجليزي المشهور يقول : ما أحوج العالم الى رجل كمحمد يحل مشاكله وهو يشرب فنجانا من القهوة (أى ببساطة) • وهذه الأمثلة التي ضربناها ، نماذج • والا فمن قرأ كتب الحديث ككتاب البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وموطأ مالك ومسنند أحمد وكتب حياة الصحابة وكتب السيرة ، رأى كثرة المشاكل اليومية الفردية والجماعية التي كانت تعترض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسوس شعبا من أعصى شعوب العالم انقيادا وطاعة وسياسة ، ومع هذا فما عرف أن مشكلة مرت عليه الا وحلها بسهولة كاملة واستقامة مع دنهج الحق الذي يدعو اليه ، والذي يمثل أرقى صور الواقعية والمثالية بآن واحد ، وما كان ذلك ليكون لولا توفيق الله ورعايته •



٦ — بعد نظره عليه السلام وضرباته السياسية الموفقة :

ن الدارس لتصرفات رسول الله يجد أنه لا يوجد تصرف من تصرفاته عليه السلام ، الا وفيه غاية الحكمة ، وبعد النظر ، فمثلا يرسل كسرى الى عامله على اليمن « باذان » أن يهيج رسول الله ، وأن يقبض على رسول الله ليرسله الى كسرى فيرسل « باذان » رجلين ليقبضا على رسول الله ويأتيا به الى كسرى ويأمر « باذان » أحد الرجلين أن يدرس أحوال رسول الله فلما وصل الرجلان أبقاهم الرسول عنده خمسة عشر يوما دون رد عليهم وقتل كسرى في اليوم الخامس عشر فأنبأهم عليه السلام بقتل كسرى يوم مقتله وأهدى أحد الرجلين منطقة فيها ذهب وفضة وأرسل الى « باذان » رسالة مضمونها انه ان أسلم أعطاه ما تحت يده وكان من آثار هذا كله أن خلع « باذان » ولاءه لكسرى وأسلم معلنا ولاءه لمحمد صلى الله عليه وسلم •

ويوم أراد المنافقون أن يستغلوا شعائر الاسلام ، ليوجدوا عملا منسقا فيما بينهم ضد الاسلام ، بأن بينوا مسجدا يكون مركزا لتآمرهم ودسهم وتجمعاتهم المشبوهة • أمهلهم عليه السلام حتى عاد من غزوة تبوك ، ثم حرق المسجد وهدمه وفضح الله أمرهم ، والأمثلة من هذا النوع كثيرة كلها تدل على حنكته عليه السلام وحكمته وبعد نظره

السياسي ، وان كان العمل السياسي عنده عليه السلام غير منفصل عن غيره ، فنجدده يخاطب كل قوم بأسلوب ينسجم مع نفسياتهم ، ويعامل كل انسان بطريقة ترضى هذا الانسان بالحق وهكذا ، انظر اني خطابه الى وفد بني الحارث بن كعب تجده يختلف عن أى خطاب آخر خاطب به وفدا من الوفود لأن هذه القبيلة لها وضع خاص .

قال ابن هشام :

فأقبل خالد الى رسول الله وأقبل معه وفد بني الحارث بن كعب منهم قيس بن الحصين ذى العصاة ويزيد بن عبد المدان ويزيد بن المحجل وعبد الله بن قراد الزيادي وشداد بن عبد الله القناني وعمر بن عبد الله الضبابي فلما قدموا على رسول الله فرآهم قال : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ قيل : يا رسول الله .. هؤلاء رجال بني الحارث ابن كعب ، فلما وقفوا على رسول الله سلموا عليه وقالوا : نشهد أنك رسول الله وأنه لا اله الا الله . قال رسول الله : وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأنى رسول الله ، ثم قال رسول الله : أنتم الذين اذا زجروا استقدموا . فسكتوا فلم يراجعهم منهم أحد ثم أعادها الثانية فلم يراجعهم منهم أحد ثم أعادها الثالثة فلم يراجعهم منهم أحد ثم أعادها الرابعة فقال يزيد بن عبد المدان : نعم يا رسول الله ، نحن الذين اذا زجروا استقدموا . قالها أربع مرار ، فقال رسول الله : لو أن خالدا لم يكتب الى أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم . قال يزيد بن عبد المدان : أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدا . قال : فمن حمدتم ؟ قالوا : حمدنا الله عز وجل الذى هدانا بك يا رسول الله . قال : صدقتم ، ثم قال رسول الله : بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ قالوا : لم نكن نغلب أحدا . قال : بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم . قالوا : كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله انا كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدا أحدا بظلم .

ولما كانت خطتنا فى هذا البحث الاختصار فسنكتفى بتحليل موقف من أبرز مواقف السياسية عليه السلام ، نتضح به حنكته وحكمته بشكل كامل . هذا الموقف هو الموقف الذى تمخض عنه صلح الحديبية ، وما لهذا الصلح من آثار رائعة وهذه هى القصة كما يرويها ابن هشام نذكرها ثم نعقب عليها :

قال ابن هشام :

واستتفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش الذي صنعوا ، أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأبطأ عليه كثير من الأعراب ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ، ليأمن الناس من حربه ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال : يا رسول الله .. هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ويح قريش .. لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة (في صفحة العنق) .

ثم قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ وإن رجلاً من بني أسلم قال : أنا يا رسول الله . فسلك بهم ضريقاً وعراً أجراً — كثير الحجارة — بين شعاب ، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس : قولوا : نستغفر الله ونتوب إليه . فقالوا ذلك . فقال : والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض في طريق تخرجهم على ثنية المرار ، مهبط الحديبية من أسفل مكة .

فسلك الجيش ذلك الطريق . فلما رأت خيل قريش قفرة الجيش — غبار الجيش — قد خالفوا عن طريقهم ، رجعوا راكضين إلى قريش . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا سلك في ثنية المرار بركت ناقته . فقالت الناس : خلّت الناقة — بركت ولم

قتنهض — قال : ما خلأت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس
الفيل عن مكة ، لا تدعوني قريش اليوم الى خطة يسألونني فيها
صلة الرحم الا أعطيتهم اياها ، ثم قال للناس : انزلوا • قيل له :
يا رسول الله •• ما بالوادي ماء تنزل عليه • فأخرج سهما من كتانته
فأعطاه رجلا من أصحابه فنزل به في قليب من تلك القلب — القليب :
بئر — فغرز به في جوفه فجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن •

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه بديل بن ورقاء
انخزاعي في رجال من خزاعة فكلموه وسألوه : ما الذي جاء به ؟
فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربا وانما جاء زائرا للبيت ، ومعظما لحرمة ،
ثم قال لهم نحوا مما قال لبشر بن سفيان ، فرجعوا الى قريش فقالوا :
يا معشر قريش •• انكم تعجلون على محمد ، ان محمدا لم يأت لقتال
وانما جاء زائرا هذا البيت ، فاتهموهم وجبهوهم وقالوا : وان كان
جاء ولا يريد قتالا ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ، ولا تحدث
بذلك عنا العرب •

وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مسلمها
ومشركها ، لا يخفون عنه شيئا كان بمكة •

ثم بعثوا اليه مكرز بن حفص بن الأخيف ، فلما رآه رسول الله
صلى الله عليه وسلم مقبلا قال : هذا رجل غادر ، فلما انتهى الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه قال له رسول الله صلى الله
عليه وسلم نحوا مما قال لبديل وأصحابه ، فرجع الى قريش فأخبرهم
بما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بعثوا اليه الحليس
ابن علقمة — أو ابن زيان — وكان يومئذ سيد الأحابيش فلما رآه
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان هذا من قوم يتألهون فابعثوا
الهدى في وجهه حتى يراه ، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض
الوادي في قلائده وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، رجع
الى قريش ولم يصل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم اعظاما
لما رأى •

فقال لهم ذلك • فقالوا له : اجلس فانما أنت اعرابي لا علم لك •
فغضب عند ذلك وقال : يا معشر قريش •• والله ما على هذا حالناكم ،
ولا على هذا عاقدناكم ، أيسد عن بيت الله من جاء معظما له ، والذي
نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن

بالأحابيش نفرة رجل واحد • فقالوا له : مه •• كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به •

ثم بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم عروة بن مسعود الثقفي ، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس بين يديه ثم قال :

يا محمد •• أجمعت أوشاب الناس — الأوشاب : الأخلاط — ثم جئت بهم الى بيضتك — القبيلة والعشيرة — لتقضيها بهم • انها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل • قد لبسوا جلود النمرور ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا • وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا ، وأبو بكر الصديق خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد ، فقال : امصص بظر اللات ، أنحن ننكشف عنه ؟ قال : من هذا يا محمد ؟

قال : هذا ابن أبي قحافة •

قال : أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها ، ولكن هذه بها • ثم جعل يتناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يكلمه • والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديد • فجعل يقرع يده اذا تناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول :

اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل اليك •
فيقول عروة : ويحك ما أفظك وأغلظك •

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة • قال : أي غدر ، وهل غسلت سوائتك الا بالأمس • فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو مما كلم به أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا •

فقام من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأى ما يصنع به أصحابه ، لا يتوضأ الا ابتدروا وضوءه ، ولا يبصق بصاقا الا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شيء الا أخذوه • فرجع الى قريش فقال : يا معشر قريش •• اني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، واني والله ما رأيت ملكا في قوم قط

مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا ..
فروا رأيكم .

وان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا خراش بن أمية الخزاعي ،
فبعثه الى قريش بمكة وحمله على بعير له يقال له « الثعلب » لينلغ
أشرافهم عنه ما جاء له ، فعقروا به جمل رسول الله صلى الله عليه
وسلم وأرادوا قتله ، فمنعته الأحابيش ، فخلوا سبيله حتى أتى
رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم دعا عمر بن الخطاب لبيعته الى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش
ما جاء له فقال : يا رسول الله .. انى أخاف قريشا على نفسى وليس
بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعى وقد عرفت قريش عداوتى
اياها وغلظتى عليها ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى عثمان بن عفان .
فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان فبعثه الى أبى سفيان
وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائرا
لهذا البيت ومعظما لحرمة . فخرج عثمان الى مكة فلقه أبان بن سعيد
ابن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره
حتى بلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق عثمان حتى
أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ما أرسله به
فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم
اليهم : ان شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال : ما كنت لأفعل حتى
يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبسته قريش عندها
فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن عثمان بن عفان
قد قتل . قال ابن اسحاق : فحدثنى عبد الله بن أبى بكر : أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال حين بلغه أن عثمان قد قتل : لا نبرح
حتى نتاجز القوم . فدعا رسول الله الناس الى البيعة ، فكانت بيعة
الرضوان تحت الشجرة فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم على الموت . وكان جابر بن عبد الله يقول : ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبايعنا على الموت ولكن بايعنا على
ألا نفر فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ولم يتخلف عنه
أحد من المسلمين حضرها الا الجد بن قيس أخو بنى سلمة فكان جابر
ابن عبد الله يقول : والله لكأنى أنظر اليه لاصقا بابط ناقتة قد ضبا

عليها يستتبر بها من أناس ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن
الذي ذكر من أمر عثمان بن عفان باطل •

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له : أتت محمدا فصالحه ولا يكن في
صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها
علينا عنوة أبدا • فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله صلى الله
عليه وسلم مقبلا قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل •
فلما انتهى سهيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلم فأطال
الكلام وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح •

فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى
أبا بكر فقال : يا أبا بكر •• أليس برسول الله ؟ قال : بلى • قال :
أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى • قال : أليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى •
قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر •• الزم
غرضه ، فاني أشهد أنه رسول الله ، قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول
الله • ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله •
أنت برسول الله ؟

قال : بلى •

قال : أولسنا بالمسلمين ؟

قال : بلى •

قال : أوليسوا مشركين ؟

قال : بلى •

قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟

قال : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني •

فكان عمر يقول : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي
صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيرا •
ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب رضوان
الله عليه فقال : اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل :
لا أعرف هذا ، ولكن اكتب « باسمك اللهم » فكتبها ثم قال : اكتب :
« هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » فقال سهيل :
لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب : اسمك واسم أبيك ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب :

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو : اصطلاحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم . ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يرد عليه . وإن بيننا عية مكفوفة وأنه لا اسلال ولا اغلال . وأنه من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه » .

فتواثبت خراعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم ، وإنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمتم بها ثلاثا معك سلاح الراكب ، السيوف في القرب ، لا تدخلها بغيرها .

فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد ، قد انفلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع ، وما تحمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفسه ، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون .

فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ، ثم قال : يا محمد .. لقد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : صدقت . فجعل ينثره بتلابيبه ويجره ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين .. أأرد إلى المشركين يفتتونى في دينى ؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا جندل .. اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولئن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، أنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله ، وأنا لا نغدر بهم .

فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشى إلى جنبه ويقول : اصبر يا أبا جندل ، فانهم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، ويدنى عمر قائم السيف منه ، يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، ففضن الرجل بأبيه ،

ونفذت القضية فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد ابن أبي وقاص ، ومحمود بن مسلمة ، ومكرز بن حفص - وهو يومئذ مشرك - وعلى بن أبي طالب ، وكان هو كاتب الصحيفة « ا.هـ » .

هذه قصة الحديبية فلنر آثارها وقيمة هذا العمل من الناحية السياسية الحركية :

يقول الزهري : فما فتح في الاسلام فتح قبله كان أعظم منه انما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضا والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالاسلام يعقل شيئا الا دخل فيه . ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الاسلام قبل ذلك .

قال ابن هشام :

والدليل على قول الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج الى الحديبية في ألف وأربع مائة في قول جابر بن عبد الله ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف ، وحسبك أن تعلم أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة زعماء قريش أسلموا في هذه المرحلة .

ومن آثار هذه العملية :

أن تهدمت حجة قريش الأساسية في جمعها العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ أن قريشا أخذت زعامتها من كونها مجاورة للكعبة بيت الله ولهذا الجوار ولتعظيمها لهذا البيت كانت العرب تعظمهم وتدين لهم فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم معلنا عمرته وتعظيمه للبيت الحرام تهدم أمام الرأي العام كثير من الحجب .

ومن آثار هذه العملية أن فرغ الرسول صلى الله عليه وسلم من العرب الذين يسرون في فلك قريش لغيرهم ، وأن تفرغ لليهود فأنهاهم من جزيرة العرب سياسيا وعسكريا واقتصاديا ، ومن آثار هذه العملية أن اقتتعت كثير من القبائل العربية بتعنت قريش حتى أن الأحابيش كادوا يدخلون المعركة بجانب محمد صلى الله عليه وسلم يومها وهم حلفاء قريش المشركة .

ومن آثار هذه العملية أن أعطيت القبائل العربية حرية التحالف

مع محمد صلى الله عليه وسلم وهذا شيء ما كان ليكون من قبل ، فدخل من شاء من هذه القبائل في حلف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن آثار هذه العملية وكثرة اقبال الناس على الاسلام بعدها ، أن انقطع أمل الناس من غير المسلمين بنصر أو عزة أو غلبة أو منعة إلا بالاسلام ، فضلا عن انقطاع أملهم بانتهاء الاسلام والمسلمين .

ومن آثار هذه العملية أن تفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح آفاق أمته على العالم . وتفهمهم مهمتهم العالمية ، بإرسال رسوله وكتبه إلى الدول الكبرى يومذاك : كسرى وهرقل والمقوقس والنجاشي .

ومن آثار هذه العملية أن خمدت فتن المنافقين الذين كانوا يشدون أزرهم ، وتتقوى ظهورهم بقريش ، وتبعثرت القبائل العربية الوثنية ، وهمدت حدة قریش وعصبيتها ، واسترخت وأخذت تقوى تجارتها ، وركنت إلى السلام ، ولما كانت الهدنة مديدة المدة لم تفكر في البحث عن أحلاف لها بينما كان المسلمون يتوسعون يوميا .

ومن آثار هذه العملية فتح مكة . إذ عندما نقضت قریش عهدها واعتدت على حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى خزاعة وعمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة فاتحا . لولا صلح الحديبية وما أحاط به لرأيت عرب الجزيرة العربية كلهم وقد ورمت أنوفهم وأقبلوا للدفاع عن مكة وكعبتها وأصنامها وقریشها ، ولكن صلح الحديبية والآثار التي ترتبت عليه لم يبق بقية من الحمية لا عند قریش ولا عند غيرها لها ، فكان أن فتحت مكة صلحا بل لقد فتحت مكة من يوم دخلها المسلمون في العام التالي للصلح بأعدادهم الضخمة وروحهم العالية المرتفعة . وتظاهرتهم التي أرهبت من رآها .

لقد كانت ضربة سياسية لا يستطيعها غير محمد صلى الله عليه وسلم . إذ ضربها وأصحابه غير راضين ، وأعداؤه لا يعرفون كيف يتصرفون . وانك عندما تعلم أن عمر وكبار الصحابة كانوا كارهين لما حدث ، وترى بعد ذلك هذه الآثار ، تدرك أن الأفق الذي ينظر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم أفق فريد في تاريخ الزعامات كلها .

ولا يفوتنا قبل الانتهاء من هذا البحث أن نتعرض لمصير أقسى الشروط التي فرضتها قریش في المعاهدة والذي أثار المسلمين ، وهو أن قریشا لا ترد من جاءها من المسلمين مرتدا وأن المسلمين يردون

من جاءهم من مكة مسلما بدون اذن ، لقد كانت نهاية هذا الشرط أن طلبت قريش نفسها الغاء هذا الشرط من المعاهدة وقصة ذلك ما يلي : لما فر أبو بصير عبيد بن أسيد وهاجر الى المدينة بعد صلح الحديبية أرسلت قريش وراءه رجلين وقالوا :

العهد الذى جعلت لنا ، فدفعه الى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله انى لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا ، فاستله الآخر فقال : أجل والله لقد جربت به ثم جربت • فقال أبو بصير : أرنى أنظر اليه فأمكنه منه فضربه به حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال صلى الله عليه وسلم حين رآه :

لقد رأى هذا ذعرا • فلما انتهى الى النبى قال : قتل والله صاحبى وانى لمقتول • فجاء أبو بصير فقال : يا نبى الله • • قد وفى الله ذمتك قد رددتني اليهم ثم أنجاني الله منهم فقال صلى الله عليه وسلم : ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد • فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده اليهم فخرج حتى أتى سيف البحر • قال : وتقلت منهم أبو جندل ابن سهيل فلحق بأبى بصير فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم الا لحق بأبى بصير حتى اجتمعت عنده عصابة فوالله ما يسمعون بغير لقريش خرجت الى الشام الا تعرضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش الى النبى صلى الله عليه وسلم تتأشده الله تعالى والرحم لما أرسل اليهم فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل اليهم •

وهكذا ألغت قريش بنفسها أشد البنود قسوة كما ظنها المسلمون • اذا عرفت آثار الحديبية وعرفت أن صاحبة كلهم كانوا غضابا لهذا الصلح • حتى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أمرهم بعد كتابة الصلح أن يقوموا فينحروا هديهم ويحلقوا متحليين من احرامهم لم يقيم منهم رجل واحد ، مما داخلهم من الغم مع تكرار رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر ثلاثا • ولم يفعلوا الا بعد أن حلق عليه السلام ونحر هديه ، هنالك أفاقوا ونفذوا ما أمرهم به ، اذا عرفت هذا تدرك الأفق العالى الذى كان ينظر منه عليه السلام ، وتدرك أن قيادته جزء من صلته بالله المحيط علما بكل شىء فكان مسددا راشدا مهديا •

٨،٧ — الوصول الى النصر

وتطبيق ما كان العمل من أجله بعد النصر

واحكام البناء بحيث يكون قادرا على الصمود في المستقبل ووضع أسس النمو الدائب المتطور بحيث تحتفظ الدعوة بإمكانية السير عبر الصعور :

لقد مضى على بدء الاسلام أربعة عشر قرنا ولا زال الاسلام بانتشار ولا زال يتوسع ، ورغم كل ما تبذله الدعايات الكافرة من أعدائه . سواء أكانوا أصحاب دين أو غير أصحاب دين ، بطرق منظمة وغير منظمة ، فلا زال الاسلام هو الاسلام ولا زال قادرا على أكثر من الحركة ، ورغم الملايسات التاريخية التي أوقعت العالم الاسلامى فى قبضة أعدائه ، ورغم سيطرة هؤلاء الأعداء . فالاسلام باق ، ورغم أن الكافرين استطاعوا أن يهيؤا لأعداء الاسلام وسائل الانتصار داخل العالم الاسلامى ، فالاسلام شامخ يتحدى ويقهر .
وخلال هذا التاريخ الطويل . دخل الاسلام فى صراع مع ثقافات فغلبها ، ومع أديان فغلبها ، ومع قوى عظيمة فصرها .
وخلال هذا التاريخ الطويل سقطت دول تحكم باسم الاسلام ، وقامت دول تحمل الاسلام واستوعب الاسلام الجميع .
وفى كل مرة كان الاسلام محمولا حق الحمل ، كان أصحابه هم الغالبين وحضارته أرقى الحضارات وما أتى المسلمون الا من تقصيرهم وتفريطهم وجهلهم بالاسلام .

القرون الوسطى عند الأوروبيين قمة التأخر ، والقرون الوسطى عندنا قمة التقدم ، وكانوا يومها متمسكين بدينهم وكنا لا زلنا متمسكين بديننا ومن هنا مفرق الطريق ، حيث كان الاسلام حمل أتباعه على التقدم . وسنرى هذا واضحا فى المبحث الثالث ، وحيث كان غير الاسلام ديننا كان تأخر .

والاسلام الآن يصارع على كل مستوى شرقا وغربا فكرا وسلوكا وهو فى كل حال أبدا غالب وان اضطهد المسلمون فذلك لقوة فكرهم لاشيء آخر .

وما أحد يجهل أن روح الجهاد فى قلب المسلمين هى التى حررت العالم الاسلامى من قبضة مستعمرية فى عصرنا هذا ، وان كان جهاد

المسلمين ضرب بيد ناس منهم وليسوا منهم ، فأبدلوا بعد التحرير المسلمين بالاسلام مذاهب أخرى • هذا الاسلام الذى كان هكذا عبر العصور يحمله جيل الى جيل وهو الآن يستعد ليكون له المستقبل كله •
هذا الاسلام استطاع أن يفعل هذا لأن الأساس الذى بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم له خلال ثلاث وعشرين عاما ، كان من القوة بحيث يحمل كل العصور ، ويسع كل العصور •

ونحن اليوم نرى دعوات فكرية وسياسية كثيرة ، لا تحمل في جوهرها امكانية تطبيقها ، أو لا تستطيع قياداتها أن تحققها في عالم الواقع مع أن بيدها كل السلطات وبيدها كل الوسائل • ولكنها تقف عاجزة عن تحقيق الفكرة ، وأحيانا تتراجع من نصف الطريق ، ولكن الظاهرة التى نراها فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خلال عشر سنوات فقط كان كل جزء من أجزاء دعوته قائما يمشى على الأرض ، على أكمل ما يكون التطبيق ، وكل جزء من أجزاء دعوته قابلا للتطبيق ، خلال كل عصر وما مر عصر الا ورأيت الاسلام مطبقا بشكل من الأشكال ، فاذا ما علمت بأن دعوة سياسية فكرية تحتاج الى عشرات السنين حتى تنتشر وتنتصر وقد تطبق وقد لا تطبق ، أدركت أن العملية هنا ليست عملية عادية وانما هى شئ خارق للعادة تحس وراءه يد الله • وتحس بالتالى أن الدين دين الله • وأن محمدا عبده ورسوله •

وقد آثرنا هنا الاختصار لأن المسألة الثالثة « الاسلام » كلها برهان عملى على أن شريعة الاسلام وأحكامه تعلو فى كل عصر وعلى كل فكر •

وننتقل هنا نقلة أخرى لاستعراض جوانب الشخصية القيادية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمور الحرب كما وعدنا فى أول هذا البحث •

القسم الثاني : الرسول عليه السّلام الشخصية القيادية العسكرية الثالثة

قبل الكلام عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم العسكرية ،
نحب أن نذكر بعضاً من مواقفه العسكرية كتماذج تكون بمثابة مقدمة
للحديث في هذا الموضوع :

(أ) قال ابن هشام يروى قصة فتح حصون خيبر عن أنس
ابن مالك :

« واستقبلنا عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم
فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيش قالوا : محمد
والخميس .. فأدبروا هراباً فقال رسول الله : الله أكبر خربت خيبر ..
انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين •
قال ابن اسحاق :

وكان رسول الله حين خرج من المدينة الى خيبر سلك على عصر
— جبل بين المدينة ووادي الفرع — فبنى له فيها مسجداً ثم على الصهباء
— موضع بينه وبين خيبر روضة — ثم أقبل رسول الله بجيشه حتى نزل
بواد يقال له الرجيع • فنزل بينهم وبين غطفان ، ليحول بينهم وبين
أن يمدوا أهل خيبر ، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ، فبلغني أن
غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله من خيبر جمعوا له ثم خرجوا
ليظاهروا يهود عليه • حتى اذا ساروا منقلة سمعوا خلفهم في أموالهم
وأهليهم حسا • ظنوا أن القوم قد خالفوا اليهم فرجعوا على أعقابهم
فأقاموا في أهاليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله وبين خيبر ..
يفتحها حصناً حصناً •

تأمل : عنصرى المفاجأة والمداومة ، حيث لم يستطع يهود حصون
خيبر ، أن يجمعوا قوتهم ، وتأمل حيلة رسول الله صلى الله عليه
وسلم بينهم وبين المدد ، وتأمل الاحتياطات المتخذة لابقاء غطفان في
مواقعها •

* * *

(ب) بعد فتح مكة سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبائل
هوازن وثقيف ونصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال قد
جمعوا جموعهم لحربه ، فبعث اليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي

وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم فانطلق ابن حدرد فدخل فيهم فأقام فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه ، ثم أقبل حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر .

يقول ابن هشام :

فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم السير الى هوازن ليلقاهم ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعا له وسلاحا فأرسل اليه وهو يومئذ مشرك فقال : يا أبا أمية .. أعرنا سلاحك هذا نلحق فيه عدونا غدا ، فقال صفوان : أغصبا يا محمد ؟ قال : بل عارية ومضمونة حتى نؤديها لك ، قال : ليس بهذا بأس . فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح » .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيش عدته اثنا عشر ألفا منهم ألفان من أهل مكة .

وجعل أمير مقدمته خالد بن الوليد . وطبعا المفروض أن تكون مهمته استطلاعية .

يقول جابر بن عبد الله فيما يرويه عنه ابن هشام :

« لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في وادي من أودية تهامة أجوف خطوط انما تتحدر فيه انحدارا وفي عماية الصبح — أي ظلامه قبل أن يتبين — وكان القوم قد سبقونا الى الوادي فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا » .

وهنا تجد كيف أن خالدا رجل الحرب العظيم ، قد فشل في مهمته الاستطلاعية الضاربة ، إذ أصبح في الكمين هو ومقدمته . وكانت صدمة فرت منها المقدمة وثبت خالد ، إلا أن الجيش لما رأى المقدمة فارة دون معرفة السبب ، والجيش فيه من أهل مكة الكثير وهم بعد ليسوا في حالة نفسية جيدة . ففروا وأخذ الناس هول المفاجأة وبدقائق معدودات فر الجيش كله ، ولم يبق حول رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد .

أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذراريهم ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف والطلقاء فادبروا عنه حتى بقى وحده .

فنادى يومئذ ندائين لم يخلط بينهما التقت عن يمينه فقال : يا معشر الأنصار .. قالوا : لبيك يا رسول الله ، أبشر نحن معك ، ثم التقت عن يساره فقال : يا معشر الأنصار .. فقالوا : لبيك يا رسول الله ، أبشر نحن معك . وهو على بغلة بيضاء فنزل فقال : أنا عبد الله ورسوله .

وروى ابن هشام عن العباس بن عبد المطلب قال :

انى أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذاً بحكمة بغلته — أى لجامها — البيضاء قد شجرتها بها وكنت امرأة جسيما شديد الصوت ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى ما رأى من الناس : أين أيها الناس ؟ فلم أر الناس يلوون على شيء فقال : يا عباس .. اصرخ : يا معشر الأنصار .. يا معشر أصحاب السمرة ، فقال : فأجابوه : لبيك لبيك .. فيذهب الرجل ليثنى بغيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بغيره ويخلى سبيله فيؤم الصوت حتى ينتهى الى رسول الله حتى اذا اجتمع اليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا وكانت الدعوى أول ما كانت : يا للأنصار ثم خلصت أخيرا يا للخزرج ، وكانوا صبرا عند الحرب .

* * *

عن جابر بن عبد الله قال : بينا ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جملة يصنع ما يصنع ، اذ هوى له على بن أبى طالب ورجل من الأنصار يريدانه فيأتيه على بن أبى طالب من خلفه فضرب عرقوبى الجمل فوقع على عجزه ووثب الأنصارى على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه فانجف عن رحله واجتلد الناس فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تأمل هذه المقتطفات من غزوة حنين : ارساله العيون للاستطلاع . اختياره خالدا . استعارته الأبراع والسلاح . تلافيه الهزيمة . ادارته المعركة بنفسه . معرفته برجاله الذين يعتمد عليهم في ساعة المحنة .

وقبل الانتقال عن هذا المقام ، نحب أن نذكر هنا موقفا يجمع بين أعلى ما فى العبقرية العسكرية والسياسية :

بعد الانتهاء من معركة حنين قرر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفتح الطائف ، فذهب اليها وحاصرها ، وكان أهلها عندهم خبرة في فن الدفاع العسكرى ، والبلدة محصنة وخيراتها كثيرة ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن الحصار سيطول فاستشار نوفل بن معاوية فقال :

يا نوفل .. ما ترى في المقام عليهم ؟ فقال : يا رسول الله .. ثعلب في جحر ان أقمت عليه أخذته ، وان تركته لم يضرك . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب أن يؤذن في الناس بالرحيل .

والآن تصور منطقة الطائف وحولها قبائل متوترة منذ قريب لا زالت مستقلة فهي لا شك اذا تفرغت لنفسها ولم تشغل قد تسبب مشكلة خطيرة في قلب الدولة الاسلامية . اذ تكون مجمعا لكل متور حاقدا .

فانظر كيف هيا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يشغلها ويضايقها حتى أسلمت :

كان قائد القبائل المحاربة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين مالك بن عوف . وقد فر بعد المعركة ولجأ الى ثقيف فلما جاء وفد هوازن يفاوض الرسول صلى الله عليه وسلم سألهم عن مالك ابن عوف ما فعل ؟ فقالوا : هو بالطائف مع ثقيف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبروا مالكا أنه ان أتاني مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الابل . فأتى مالك بذلك فخرج من الطائف . وقد كان مالك خاف ثقيفا على نفسه أن يعلموا أن رسول الله قال ما قال فيحبسوه فأمر براحلته فهيئت له ، وأمر بفرس له فأتى به الى الطائف فخرج ليلا فجلس على فرسه فركض حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس ، فركبها فلحق برسول الله فأدركه بالجعرانة أو بمكة فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الابل وأسلم فحسن اسلامه .. فاستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على من أسلم من قومه وتلك القبائل : ثمالة وسلمة وفهم فكان يقاتل بهم ثقيفا لا يخرج لهم سرح الا أغار عليه حتى ضيق عليهم فقال أبو محجن الثقفي : هابت الأعداء جانبنا ثم تغزونا بنو سلمة . وأتانا مالك بهم ناقضا للمهد والحرمة . وأتونا في منازلنا ولقد كنا أولى نقمة .

فانظر كيف استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشغل
ثقيفا ويضايقها فيقضى على الأخطار والمشاكل المتوقعة بهذه البساطة
الكبيرة .



لعلك بهذين المثالين من مواقفه العسكرية عليه السلام أخذت
صورة على أن محمداً صلى الله عليه وسلم في القيادة العسكرية ،
فهو في كل شيء ، يمثل دائماً القمة التي لا يرقى إليها آخرون ، وقد
حلا لعباس محمود العقاد أن يعقد مقارنة بين محمد صلى الله عليه وسلم
والقائد العسكري الفرنسي النابغة في فن الحرب نابليون بونابرت ،
فأرانا في هذه المقارنة أنه ما من قضية مهمة في أمر الحرب فطن لها
نابليون وطبقها الا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سبقا لها .
هذا مع أن نابليون كان متفردا مختصا بفن الحرب . ثم انه صادف
في حياته العسكرية من الفشل ما لم يحدث قط لرسول الله صلى الله
عليه وسلم عسكريا ، ولا لمن رباهم ودخلوا المعارك الكبرى بعده ،
هذا مع ملاحظة الامكانيات المحدودة لرسول الله صلى الله عليه وسلم
والامكانيات الكثيرة الموجودة بيد غيره من أمثال نابليون ، وقد
استطرد العقاد استطرادات مفيدة في هذا الموضوع نحب أن ننقلها
— مع شيء من الحذف لبعض الجمل — لفائدتها ولكن قبل ذلك نحب أن
نقرر هذه الحقيقة وهي :

أن الرسول صلى الله عليه وسلم بدأ حياة دولته العسكرية بجيش
مقداره ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا . محاط بقبائل الجزيرة العربية
كلها . مشركها ويهودها ونصاراها وكلها معادية له ، وفي الجزيرة
العربية وعلى أطرافها سلطان لفارس والروم ، وقد استهدفهم رسول
الله صلى الله عليه وسلم بحربه وبهذه القوة الصغيرة وبدعوته الكبيرة
شق رسول الله صلى الله عليه وسلم طريقه دعوة وسياسة وحربا .
فأخضع الجزيرة العربية كلها ، ولم يتوقف الا وقد هيا المسلمين لحرب
الفرس والروم بآن واحد . فأتى خلفاؤه ما بدأه عسكريا . فسقطت
الدولة الفارسية وتقلصت الدولة الرومانية عن آسيا وأفريقيا تقريبا .
كل ذلك بحوالي ثلاث وعشرين عاما وما حدث بعده من فتوحات لا يمكن
أن ينسب الا اليه فانه من آثار تربيته وتأسيسه وتخطيطه .

وهذا شيء يتحدى التاريخ سابقا ولاحقا أن يكون قد حدث مثله ولو مرة في تاريخ العالم . فنحن اذا ما نقلنا هذه المقارنة لا نعنى التساوى . حاشا ، وانما نريد أن نبرهن على أن كل عظمة يرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاختصاصيين المتفرغين لها ، وهو في كماله بها كماله في كل شيء غيرها ، يرجع الناس كلهم بكمالاتهم كلها .



يقول « العقاد » : ونفخار أبرع القادة المحدثين وهو نابليون بونابرت على أسلوب حرب الحركة الذي كان هو الأسلوب الغالب في العصور الماضية ، والذي ظهر في الحرب العالمية الحاضرة أنه لا يزال الخطوة الأخيرة في جميع الحروب ، على الرغم من الحصون والسدود . لأن اختيار نابليون بونابرت يبين لنا السبق في خطط النبي العسكرية ، بالمضاهاة بينها وبين خطط هذا القائد العظيم .

١ — « فنابليون » كان يوجه همه الأول الى القضاء على قوة العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع فلم يكن يعنيه ضرب المدن ولا اقتحام المواقع . . وانما كان عنايته الكبرى منصرفة الى مبادرة الجيش الذي يعتمد عليه العدو بهجمه سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان وهو على يقين أن الفوز في هذه الهجمة يغنيه عن المحاولات التي يلجأ اليها جلة القواد .

وعنده أنه يستفيد بخطته تلك ثلاثة أمور :

أن يختار الموقع الملائم له ،

وأن يختار الفرصة ،

وأن يعاجل العدو قبل تمام استعداداته .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم سابقا الى تلك الخطط في جميع تفصيلاتها . . فكان كما قدمنا لا يبدأ أحدا بالعدوان ، ولكنه اذا علم جعزم الأعداء على قتاله لم يمهلم حتى يهاجموه جهد ما تواتيه الأحوال ، بل ربما وصل اليه الخبر كما حدث في غزوة تبوك والناس مجذبون والقيظ ملتهب والشدة بالغة . . فلا يثنيه ذلك عن الخطة التي تعودها ، ولا يكف عن التأهب السريع وعن حض المسلمين على

جمع الأموال وجمع الرجال ولا يبالى ما أرجف به المنافقون الذين توقعوا الهزيمة للجيش المسمى ، فلم يحدث ما توقعوه .

وكان عليه السلام يعتمد الى القوة العسكرية حيث أصابها ، فيقضى على عزائم أعدائه بالقضاء عليها . . ولا يضيع الوقت في انتظار ما يختاره أولئك الأعداء واضعاف أنصاره بتركه زمام الحركة في أيدي المهاجمين ، الا أن يكون الهجوم وبالا على المتقدمين عليه ، كما حدث في غزوة الخندق .

٢ — وكان نابليون يقول : ان نسبة القوة المعنوية الى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة الى واحد .

والنبي عليه السلام كان عظيم الاعتماد على هذه المعنوية التي هي في الحقيقة قوة الايمان . وربما بلغت نسبة هذه القوة الى الكثرة العددية كنسبة خمسة الى واحد في بعض المعارك مع رجحان الفئة الكثيرة في السلاح والركاب الى جانب رجحانهم في عدد الجنود

ومعجزة الايمان هنا أعظم جدا من أكبر مزية بلغها نابليون بفضل ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة ، فالنبي عليه السلام كان يحارب عربا بعرب ، وقرشيين بقرشيين ، وقبائل من السلالة العربية بقبائل من صميم تلك السلالة . فلا يقال هنا ان الفضل لقوم على قوم في المزايا الجسدية أو المزايا النفسية كما يمكن أن يقال هذا في جيوش نابليون . وكل فضل هنا فهو فضل العقيدة والايمان .

٣ — وقد كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يغفل القضاء على القوة المالية أو التجارية التي يتناولها اقتداره ، فكان يحارب الانجليز بمنع تجارتهم وسفنهم أن تصل الى القارة الأوروبية وتحويل المعاملات عن طريق انجلترا الى طريق فرنسا .

وهكذا كان النبي عليه السلام يحارب قريشا في تجارتها ، ويبعث السرايا في اثر القوافل كلما سمع بقافلة منها .

وأنكر بعض المتعصبين من كتاب أوروبا هذه السرايا وسموها : « قطعا للطريق » وهي سنة المصادرة بعينها التي أقرها « القانون الدولي » وعمل بها قادة الجيوش في جميع العصور ، ورأينا تطبيقها في الحرب الحاضرة والحرب الماضية ، رشيدا تارة وغاليا في الحق والشطط تارة أخرى .

٤ — وقد أسلفنا أن نابليون كان يوجه همه الى الجيش ، ولا يقتحم المدن أو يشغل باله بمحاصرتها لغير ضرورة عاجلة .

ونرجع الى غزوات النبي عليه السلام . فلا نرى أنه حاصر محلة ، الا أن يكون الحصار هو الوسيلة الوحيدة العاجلة لمبادرة القوة التي عسى أن تخرج منها قبل استعدادها ، أو قبل نجاحها في الغدر والوقيعة ، كما حدث في حصار بنى قريظة وبنى قينقاع ، فكان الحصار هنا كمبادرة الجيش بالهجوم في الميدان المختار بغير كبير اختلاف .

٥ — وكان نابليون معتدا برأيه في الفنون العسكرية ، ولا سيما الخطط الحربية ، ولكنه مع هذا الاعتداد الشديد لا يستغنى عن مشاورة صحبه في مجلس الحرب الأعلى قبل ابتداء الزحف أو قبل العزم على القتال .

ومحمد عليه السلام كان على رجاحة رأيه يستشير صحبه في خطط القتال وحيل الدفاع ويقبل مشورتهم أحسن قبول ، ومن ذلك ما صنعه ببدر ، — وألما الى أنفا — حين أشار عليه الحباب بن المنذر بالانتقال الى مكان غير الذي نزلوا فيه أول الأمر ، ثم بتغويز الآبار وبناء جوض للشرب لا يصل اليه الأعداء . وقيل في روايات كثيرة انه عمل بمشورة سلمان الفارسي في حفر الخندق عند المنفذ الذي خيف أن يهجم منه المشركون على المدينة . فحفر الخندق وعمل النبي بيديه في حفره .

وقبول النبي مشورة سلمان عمل من أعمال القيادة الرشيدة وسنة من سنن القواد الكبار ، غير أننا نعتقد أنه عليه السلام كان خليقا أن يشير بحفر الخندق لو لم يكن سلمان الفارسي بين أهل المدينة في أبان الهجمة عليها ، لأنه عليه السلام كان شديد الالتفات الى سد الثغور وحماية انظهور في جميع وقعاته . وفي وقعة أحد جعل الجبل الى ظهره وأقام على الشعب الذي يخشى منه النفاذ والالتفاف خمسين راميا مشددا عليهم في التزام موقفهم قائلا لهم :

احموا ظهورنا فانا نخاف أن يجيئوا من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا منه . . وان رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وان رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا ، وانما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فان الخيل لا تقدم على النبل ، والذي يفعل هذا في شعب جبل لا يفوته أن يفعل مثله في ثغرة مدينة ، ولكن المشاورة

هنا هي المقصودة بالمضاهاة بين ما سبق اليه النبي وما تبع فيه نابليون ،
فهذه خصلة معهودة في كبار القواد لا تقدر فيما عرفوا به من قدرة على
وضع الخطط وابتكار الأساليب .

٦ — ولم يعرف عن قائد حديث أنه كان يعنى بالاستطلاع
والاستدلال غاية نابليون .

وكانت فراسة النبي في ذلك مضرب الأمثال ، فلما رأى أصحابه
يضربون العبدین المستقيين من ماء بدر لأتھما يذكران قريشا ولا يذكران
أبا سفيان ، علم بفطنته الصادقة أنهما يقولان الحق ولا يقصدان
المراء . وسأل عن عدد القوم فلما لم يعرفا العدد سأل عن عدد الجزور
التي ينحرونها كل يوم فعرف قوة الجيش بمعرفة مقدار الطعام الذي
يحتاج اليه . وكان صلوات الله عليه انما يعول في استطلاع أخبار كل
مكان على أهله وأقرب الناس الى العلم بفجاجة ودروبه ويعقد ما يسمى
اليوم بمجلس الحرب قبل أن يبدأ بالقتال فيسمع من كل فيما هو خبير
به من فنون أو دلائل استطلاع .

٧ — واشتهر عن نابليون أنه كان شديد الحذر من الألسنة والأقلام
وكان يقول : انه يخشى من أربعة أقلام ، ما ليس يخشاه من عشرة آلاف
حسام .

والنبي عليه السلام كان أعرف الناس بفعل الدعوة في كسب
المعارك وتغليب المقاصد ، فكان يبلغه عن بعض أفراد أنهم يخفرون
الذمة التي عاهدوا عليها ويشهرون به وبالإسلام ، أو يثيرون العشائر
لقتاله ويقذعون في هجوه وهجو دينه ، فينفذ اليهم من يحاربهم في
حصونهم أو يتكفل له بالخلاص منهم .

وعاب هذا بعض المغرضين من الكتاب الأوروبيين وشبهوه بما
عيب على نابليون من اختطاف الدوق دانجان وما قيل عن محاولته
أن يختطف الشاعر الانجليزي كولردج الذي كان يخوض في ذمه
ويستهوي الأسماع بسحر حديثه .

ألا أن الفارق عظيم بين الحالتين ، لأن حروب الإسلام انما هي
حروب دعوة أو حروب عقيدة ، وانما هي في مصدرها وغايتها كفاح
بين التوحيد والشرك أو بين الالهية والوثنية . وليس وقوف الجيش
أمام الجيش الا سبيلا من سبل الصراع في هذا الميدان . فليس في
حالة سلم مع النبي اذن من يحاربه في صميم الدعوة الدينية ويقصده

بالطعن في لباب رسالته الاسلامية . وان لم ينفر الناس لقتاله ولم يحرضهم على النكث بعهدده وانما هو مقاتل في الميدان الأصيل ينتظر من أعدائه ما ينتظر المقاتل من المقاتلين ، ولا سيما اذا كانت الحرب قائمة دائمة لا تنقطع فترة الا ريثما تعود .

أما نابليون فالحرب بينه وبين أعدائه حرب جيوش وسلاح ، فلا يجوز له أن يقتل أحدا لا يحمل السلاح في وجهه أو لا يدينه القانون بما يستوجب ازهاق حياته . وما نهض نابليون لنشر دين أو تفنيد دين ، ولو كان للرسول الاسلامي من غرض لجاز له أن يقبل المسالة ممن يحاربونه في دينه وان لم يشهروا السيف في وجهه . فان الضرب بالسيف لأهون من المقتل الذي يضربون فيه .

تلك مقابلة مجملة بين الخطط والعادات التي سبق اليها محمد وجرى عليها نابليون بعد مئات السنين ، ومن الواجب أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكرة أو الخطة قبل أن نحكم عليها بضخامة الجيوش وأنواع السلاح ، ولم يتخذ محمد الحرب صناعة .. فاذا كان مع هذا يتقن منها ما يتولاه مدفوعا اليه فله فضل السبق على جبار الحروب الحديثة الذي تعلمها وعاش لها ولم ينقطع عنها منذ ترعرع الى أن سكن في منفاه ، ولم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغ القائد الأمل بين رمال الصحراء .

ولقد كانت خبرة النبي ببعوث الاستطلاع كخبرته ببعوث القتال فكانت طريقته في اختيار القائد وتزويده بالوصايا والأتباع مثلا يحتذى في جميع العصور ، ولا سيما العصر الحديث الذي كثرت فيه ذرائع التخبيئة والمراوغة وذرائع الكشف والدعوة فكثرت فيه — من ثم — حاجة المقاتلين الى استقصاء أحوال العدو .

ففي الحروب الحديثة يتردد ذكر الأوامر المختومة التي تصدر الى قواد السرايا والسفن ليفتحوها عند مدينة معلومة أو بعد مسيرة ساعات أو في عرض البحر على درجة معينة من درجات الطول والعرض . الى أمثال ذلك من العلامات التي تعين بها الجهات .

ويتفق في أمثال هذه البعث أن يكون القائد وحده مطلعا على سر البعث ورجاله جميعا يجهلونه ولا يعرفون أهم خارجون في غزوة أم في مناورة استطلاع ، الى ما قبل الحركة المقصودة بساعات معدودات وهناك تصدر الأوامر التي لا بد من صدورهما للتهيؤ والتنفيذ ولا خوف (١٥ - الرسول)

من كشفها في تلك الساعات لصعوبة الاستعداد الذي يقابلها به العدو اذا انكشفت له قبل تنفيذها بفترة وجيزة • ولا سيما اذا كانت الحركة من حركات البحار •

هذه الأوامر المختومة ليست بحديثه • وقد عرفت في المسأورات النبوية على أتم أصولها التي تلاحظ في أمثالها ، ومن ذلك أنه عليه السلام بعث عبد الله بن جحش ومعه كتاب أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، وفحواه أن « سر حتى تأتي بطن نخلة على اسم الله وبركاته ، لا تكرهن أحدا من أصحابك على المسير معك وامض فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها غير قريش وتعلم لنا من أخبارهم » •

وهذا نموذج من الأوامر المختومة جامع لكل ما يلاحظ فيها حديثا وقديما وعند بداءة الدعوات على التخصيص •

فأولها كتمان الخبر عن يحيطون بالنبي عليه السلام ، فلا يبعد أن يكون منهم من هو مدخول النية عينا عليه وعلى أصحابه من قبل قريش ، ولا يبعد أن يكون منهم من يبوح بالخبر ولا يريد به السوء أو يدرك ما في البوح به من الخطر المحذور ، ولا يبعد أن يكون منهم النضعاء والمخالفون ، وان الاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان لسنة حكيمة من سنن النبي عليه السلام في جميع المطالب وهي في حروب الدعوات على التخصيص أقمن باتباع ، ولهذا كان اذا أراد غزوة وري غيرها على النحو الذي يتبعه قادة الحروب الى الآن •

ومما لوحظ في كتاب النبي لعبد الله بن جحش كتمان الخبر عن أصحابه ثم وصاته ألا يكره أحدا منهم على المسير معه بعد معرفته بوجهته ، وهذا هو أهم الملاحظات في هذا المقام •

فقد يحارب الرجل وهو مكره مهدد بالموت الذي يتقيه اذ يفر من القتال ، ولكنه لا يستطلع وهو مكره ثم يفيد استطلاعه من أرسلوه ، بل لعله ينقلب الى النقيض فيحرف الأخبار عمدا أو يتلقاها على غير اكتراث ، أو يطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم غافلون عنه •

ولهذا تعاني الدول أكبر العناء في مراقبة الجواسيس بالجواسيس وفي امتحان كل خبر بالمراجعة بعد المراجعة والمناقضة بعد المناقضة حتى تطمئن الى صحته قبل الاعتماد عليه •

وفي الحروب الحاضرة تجربة جديدة لهذا النوع من المستطلعين أو الرواد المتقدمين فقد عرف أن هتلر يعتمد على أفراد من جنده

يهبطون من الطائرات وراء الصفوف ، فيتسللون الى مراكز المواصلات ويعبثون بين القرى المعزولة ، فيشيعون فيها الرعب والحيرة ويوهمون من يراهم أن الجيش المغير كله على مقربة منهم فلا جدوى لهم من الاستغاثة أو المقاومة ويحمل معظم هؤلاء الرواد المتقدمين أجهزة للمخاطبة يستعينون بها على الاتصال برؤسائهم من بعيد .

قليل في الاعجاب بهذه الخطة الهتلرية كثير ، وقيل في انتقادها والتنبية الى خطرها كثير .

فمن دواعي الاعجاب بها أنها أفادت في قطع المواصلات واشاعة الذعر وتضليل المدافعين وانها شيء جديد في شكله وان لم يكن جديدا في غايته ومرماه .

ومن أسباب انتقادها أن كل فائدة فيها تتوقف على العقيدة وحسن التنية . فهي تستلزم أن يكون الرائد غيورا على عمله متحمسا لانجازه رقيقا على نفسه وهو بمعزل عن رقبائه فليس أيسر له اذا هو انفرد وأعوزته الرغبة في انجاز عمله من أن يستأسر في أول مكان يصل اليه من بلاد الأعداء طلبا للسلامة . ولا عقاب عليه الى نهاية القتال . ثم يتعلل بما شاء من الماذير ان وجد بعد ذلك من يحاسبه ويعاقبه . وهيئات أن تستجمع الأدلة عليه في أمثال هذه الفوضى بين معسكرين أو عدة معسكرات .

فالخطة الهتلرية فاشلة لا محالة ان لم ينفذها يريدون متعصبون غير مكرهين ولا متشككين فيما هو موكول اليهم ، وهي لهذا أخرى أن تحسب من وحى اخوان الطريق والهام العقائد لا من النظام الذي يدرب عليه كل جيش ويصلح لجميع الجنود ، فلولا أن النازيين قضوا قبل الحرب الحاضرة زهاء عشر سنين ينفخون في نفوس الناشئة جذوة البغضاء ، ويلهبونهم بحماسة العقيدة ويخلقون فيهم اللاد الذي يغنى عن الرقابة ساعة التنفيذ ، لحبطت الخطة كل الحبوط وانقلبت على النازيين شر انقلاب .

وها هنا تتجلى حكمة النبي عليه السلام في اشتراط لرغبة والطوعية واجتناب القسر والاكراه . فهذه « أولا » بعثة منفردة لا سبيل الى الاكراه الفعال بين رجالها اذا أريد .

وهي « ثانيا » بعثة استطلاع لا يغنى فيها عمل الكاره المقسور ،

واللزم ما يلزم العامل فيها ايمانه وصدق نيته وحسن مودته لمن أرسلوه ، فان أعوزته هذه الصفة فقد أعوزه كل شيء .

أما غرض البعثة كلها وهو الاستطلاع ، فقد كان عليه السلام عليهما بمزاياه . معنيا به غاية العناية ، يحسب العدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون ، في جمى من الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية في الوقت الضروري ، ويحول من ثم دون الانتصار عليه .

ونحن نكتب هذه الفصول والحرب الروسية تذكرنا كيف أصيب نابليون في هذا الميدان حيث أصيب في وسائل الاستطلاع ، ثم تذكرنا كيف تكررت هذه الغلطة بعينها على نوع من المشابهة بين غزوة نابليون في روسيا أمس وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم .

فمن أسباب هزيمة نابليون اهماله النصائح التي سمعها في مجلس الحرب من بعض الثقات قبل التوغل في الحرب الروسية ، لاعتقاده خطأ أن القيصر سيطلب صلحه بعد أسابيع .

ومن أسباب تلك الهزيمة أن الروس كانوا يتراجعون أمامه تحت جنح الظلام ، ويخلون المدن والطرق حتى لا يرى فيها ديارا يسأله عن مكان الجيش المتراجع . أو يلتقط من خلال أجوبته ما يعينه على الاستطلاع الذي كان شديد التعويل عليه .

أما « هتلر » فقد أتى من قبل هذين النقصين كما أتى من قبله من هو أعظم منه وأولى بالتحرز والأناة .

فقد اشتهر أنه كان في مجلس الحرب على خلاف مع قواده الثقات الذين علموا من شأن الروس ما ليس له به علم . واشتهر أنه أخطأ في استطلاع القوم إذ خيل إليه أن الشعب الروسى يتحفز للثورة ويتربقب الاغارة عليه لنصرته كائنا من كان ولو جاءت الغارة من عنصر معاد للعنصر السلافى وهو عنصر الجرمان .

ومحمد عليه السلام لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون ، ولكنه لم يخطئ قط مثل هذا الخطأ في جميع غزواته وكشوفه ، ولعلنا نفهم — كلما درسنا زمانه الحافل بالعبر والأمثلة الباقية — أن دراسته ضرب من دراسة العصر الحديث والقادة المحدثين .

عندما تتعقد المقارنة بين المارك القديمة والمارك العصرية • ينبغي أن ننظر الى فكرة القائد قبل أن ننظر الى ظواهر المارك أو أشكالها أو أحجامها ، لأننا اذا نظرنا الى الظواهر فلا معنى اذن للمقارنة على الاطلاق ، اذ من المقطوع به أن عشرة ملايين يجتمعون في ميدان واحد أضخم من عشرة آلاف ، وأن حربا تدار بالمدافع والتليفون أعجب من حرب تدار بالفم والاشارة ، وأن نقل الجنود بالطائرات والدبابات أبرع من نقلهم على ظهور الخيل والابل ، وأن المدفع أمضى من السيف والرماح أمضى من السهم ، فلا معنى اذن لمقارنة بالظواهر تنتهى الى نتيجة واحدة وهى استنزاف الحرب الحديثة والنظر الى القيادة العابرة كأنها شئ صغير الى جانب القيادة التى توجه هذه المضامة •

لكننا اذا نظرنا الى فكرة القائد ، أمكننا أن نعرف كيف أن توجيه ألف رجل قد تدل على براعة فى القيادة لا نراها فى توجيه مليون بينهم الراجل والراكب ، ومنهم من يركبون كل ما يركب من مخلوقات حية وآلات مخترعة •

وهذه الفكرة هى التى ترينا محمدا عليه السلام قائدا حربيا بين أهل زمانه بغير نظير فى رأيه وفى الانتفاع بمشورة صحبه ، وتبرز لنا قدرته النادرة بين قادة العصور المختلفة فى توجيه كل ما يتوجه على يدى قائد من قوى الراى والسلاح والكلام • وهذه القدرة هى شهادة كبرى للرسول تأتى من طريق الشهادة للقائد الخبير بفنون القتال •



ويزيد هذه الشهادة عظما ، أن الرجل الذى يجتنب القتال فى غير ضرورة رجل شجاع غير هباب ، شجاع وليس كبعض الهداة المصلحين الذين تجور فيهم فضيلة الطيبة على فضيلة الشجاعة ، فيحجمون عن القتال لأنهم ليسوا بأهل قتال •



فمحمّد كان فى طليعة رجاله حين تحتدم نار الحرب ويهاب شواظها من لا يهاب ، وكان على فارس الفرسان يقول : « كنا اذا حمى البأس

اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب منه الى
العدو » .

ولولا ثباته في وقعة حنين ، وقد ولت جمهرة الجيش وأوشك
أن ينفرد وحده في وجه الرماة والطاعنين ، لحقت الهزيمة على المسلمين .
وخروجه والليل لما يسفر عن صبحه ليطوف بالمدينة مستطلعا ، وقد
هددها الأعداء بالغارة والحصار أمر لو لم تدعه اليه الشجاعة الكريمة
لم يدعه اليه شيء . لأن المدينة كانت يومئذ حافلة بمن يؤدون عنه
مهمة الاستطلاع وهو قرير في داره ، ولكنه أراد أن يرى بنفسه فلم
يثنه خوف ولم يعهد بهذا الواجب الى غيره .

ومشاركته في الوقعات الأخرى هي مشاركة القائد الذي لا يعفى
نفسه وقد أعفته القيادة من مشاركة الجند عامة فيما يستهدفون له ،
فهي شجاعة لا تؤثر أن تتواري حيث يتاح لها أن تتواري وعندها
العذر المقبول بل العذر المحمود .

واذا كان القائد خبيرا بالحرب قديرا عليها غير هباب لمخاوفها ،
ثم اكتفى منها بالضرورة الذي لا محيص عنه ، فذلك هو الرسول
تأتيه الشهادة بالرسالة من طريق القيادة العسكرية وتأتي جميع صفاته
الحسنى تبعا لصفات الرسول » اهـ .



نقلنا كلام العقاد الآنف لما فيه من فوائد ، الا أننا لا نعتقد
أنه أحاط بمزايا رسول الله صلى الله عليه وسلم العسكرية . ولا نعتقد
أنه أراد ذلك ، وانما لمس بعض هذه المزايا لمسا خفيفا ، ولا نعتقد
كذلك أننا نستطيع استجلاء هذه المزايا كلها لقصورنا أولا وللإيجاز
الذي نقصده ثانيا في هذه الكتابات ، غير أن هناك ميزة تربو على كل
ما ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم من ميزات في قضية الحرب
لم يتعرض لها حتى الآن هي تأمينه صلى الله عليه وسلم لجيشه
ولدولته دائما (الهيبة العسكرية) التي تجعل الآخرين دائما في حالة
رعب وقد عبر هو نفسه صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الحقيقة
بقوله : « ونصرت بالرعب مسيرة شهر » وان من جملة عوامل النصر
المهمة دائما في حرب المسلمين هذه الفاحية التي وطد أركانها رسول

الله صلى الله عليه وسلم في حياته ، وحافظ عليها أصحابه بعده ،
وهي التي كانت تفعل في قلوب أعدائه المقاتلين الأفاعيل • ولو درسنا
حياة الرسول صلى الله عليه وسلم العسكرية لرأينا أن هدفا كبيرا
دائما من أهداف عملياته العسكرية كان إبقاء هذه الهبة وزيادتها
وتأكيدا وتوسيع دائرتها حتى وصل المسلمون الى حالة في النهاية
كان الناس كلهم يهابونهم ولا يهابون أحدا • لا دولة كبرى ولا صغرى
ولا قبيلة ولا جيشا ولا سلاحا ولا عددا ولا عدة فترى الجيش
الصغير (٣٠٠٠) يهجم على الجيش الكبير (٢٠٠٠٠٠) يوم مؤتة
ولا يبالي بالنتائج ، واليك عرضا موجزا لأعمال الرسول صلى الله
عليه وسلم العسكرية خلال سنة من أول سنة المدينة لتعرف كيف أوجد
هذه الهبة العسكرية وأمنها •

ما كاد يستقر بالمدينة حتى يرسل في رمضان من السنة الأولى
للهجرة حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين من المسلمين فيلتقى بأبي جهل
يقود قافلة لقريش ومعه ثلاث مائة راكب فيحجز بين الفريقين مجدى
ابن عمرو الجهنى فلا يقع قتال •

وفي شوال من نفس السنة يرسل عبدة بن الحارث في ستين
راكبا الى وادى رابغ فيلتقى بأبى سفيان ومعه مائة مشرك فيترامى
الفريقان بالنبل ولا يقع قتال •

وفي ذى القعدة يرسل سعد بن أبى وقاص في نحو عشرين رجلا
يعترض عيرا لقريش ولكنها تفوته ، وفي صفر يخرج الرسول صلى
الله عليه وسلم بنفسه بعد أن يستخلف سعد بن عباد على المدينة
فيسير حتى يبلغ ودان يريد قريشا وبنى ضمرة فلم يلق قريشا وعقد
حلفا مع بنى ضمرة •

وفي ربيع الأول خرج الرسول صلى الله عليه وسلم على رأس
مائتين من المهاجرين والأنصار الى بواط معترضا عيرا لقريش يقودها
أمية بن خلف ومعه مائة من المشركين ففاته •

وفي جمادى خرج الى العشيرة من بطن ينبع وأقام بها شهرا
صالح فيه بنى مدلج •

ثم أغار كرز بن جابر الفهري على المدينة واستاق سرحها فخرج
النبي صلى الله عليه وسلم في طلبه حتى بلغ وادى سفوان قريبا من
بدر فهرب كرز ولم يدركه رسول الله صلى الله عليه وسلم •

وعند مقفله من هذه الغزوة أرسل عبد الله بن جحش بسرية فيها ثمانية من المهاجرين •

وفي رمضان كانت موقعة بدر الكبرى التي كانت أول صدام عنيف مسلح بين المسلمين وغيرهم سقط فيه قتلى أعتى المشركين ، فانظر من رمضان الى رمضان كم سرية وكم غزوة حركها رسول الله ؟ ومن حكم هذه السرايا :

١ — أنها تدريب عملي واعداد نفسى للمسلمين يجعلهم دائما في حالة تعبئة عامة وحذر دائم واستعداد يقظ وحركة قتالية سريعة •

٢ — اشعار الأعداء بالقوة التي تهاجم ولا تنتظر حتى تهاجم والقاء الرعب في قلوب من يفكر بغدر وشر •

٣ — الاشعار بالانتقال من مرحلة الصبر الى مرحلة الرد بالمثل على الظلم وايقاف المشركين عند حدهم •

وكانت معركة بدر الضربة الساحقة التي حققت هذه الأغراض جميعا ، وكان ما قبلها مقدمة لها ، وخلال عشر سنوات قضاهما الرسول في المدينة ، تجد أن أعماله العسكرية من غزوات الى سرايا بلغت عشرات وكلها كانت محكمة وسريعة وناجحة ، من غزوة ضد قريش الى عملية ضد اليهود ، الى تحرك نحو القبائل العربية على الحدود الرومانية والفارسية • الى مناوشة مع الدولة الرومانية ، ولم يقبض عليه السلام حتى فتح للمسلمين طريق العمل العسكرى الذى انطلقوا منه على العالم • فلم يوقفهم شيء الا ضعف جذوة الاسلام في أنفسهم لأمد •

والأهم من الناحية العسكرية مما قدمناه هو أن الرسول صلى الله عليه وسلم بلغ بأتباعه من الانضباط العسكرى مبلغا ما بلغه قائد عسكرى آخر ، ونحن نعلم أن الانضباط العسكرى هو كل شيء في المعركة ولا يمكن أن تظهر عبقرية قائد عسكرى الا اذا كان الانضباط موجودا ولذلك فان ثمانين بالمئة من عبقرية القيادة العسكرية تظهر في انضباط جندها معها في اللحظة الحاسمة ، فاذا بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا قمته وفي أمة العرب الشعب المارد المتمرد الذى لا يعرف انضباطا ولا طاعة فتلك معجزة المعجزات •

وكمثال على مدى الروح الانضباطية التي تمتع بها المسلمون في آخر حياته عليه السلام ما حدث يوم غزوة تبوك • اذ تخلف بعض الأتباع عن الذهاب معه صلى الله عليه وسلم فأمر رسول الله صلى الله

عليه وسلم الناس بمقاطعتهم — وهم ثلاثة — فلم يكلمهم أحد حتى تاب الله عليهم واستمر معك القصة في مبحث الثمرات .

ان عبقرية هذه القيادة لا مثيل لها في كل تصرف من تصرفاتها انصغيرة والكبيرة ، التي نجدها حيث يبقى أبا سفيان يوم فتح مكة على الطريق تمر به كتائب المسلمين كلها ، حتى ينقطع آخر أمل له في المقاومة وحتى يتلاشى آخر تردد عنده في الاستسلام ، والتي نجدها حيث يغزو الروم يوم تبوك ويعقد المعاهدات مع أطراف دولتهم ، ممهدا بذلك هذه الأطراف لاستقبال الجيوش الاسلامية في المستقبل .

واذا كانت نتائج العمل العسكري ميزانا توزن به قيمة هذا العمل العسكري ، فإنه لا يوجد في ميزان العالم أجمع أثقل من العمل العسكري الذي قام به رسول الله اذ ما من معركة حدثت للأمة الاسلامية بعد الا وكانت قبسا من شمس رسول الله ، وما من ظفر حققه المسلمون الا ووراءه الروح التي بثها رسول الله في موات القلوب ، ولئن مرت ظروف انتصرت بها الأمة الاسلامية في عصرنا . فاستغل انتصارها أعداؤها ، فان تعاليم رسول الله ستجعل هذه الأمة في وضع آخر مرة أخرى باذن الله .



وبعد .. ان الرسالة الثالثة من هذا الكتاب وهي التي تشكل البحث الثالث فيه ستوضح تعاليم رسول الله بشكل مفصل . وهذا الذي جعلنا نقصر هذا البحث فقط على صفات الرسول دون ذكر التعاليم التي تتبع عنها هذه التصرفات ، وبصرف النظر عن الحدود التي حددها رسول الله لكل شيء في الحياة البشرية لتسهيل البحث ، وانما أردنا ابراز الكمال الذي يتمتع به رسول الله في كل شيء في هذا الفصل . بحيث استجمع أعلى قمم السلوك البشري في كل شيء فكان الانسان الوحيد الذي يصح أن يكون قدوة البشر العليا في كل شيء . وبعد أن تقرأ الرسالة الثالثة ستري بوضوح أن البشرية لن يستقيم أمرها الا بأخذها بتعاليم محمد والاقتداء به ، وأن الحدود التي حددها رسول الله في حياته السلوكية والعملية في كل الجوانب هي أرفع وأعدل ما ترتقى اليه آمال البشر مع الواقعية التي لا تخرج هذه التعاليم إلى مثل معطلة ، وان أي انحراف عن التأسى برسول الله ، اتساع

تعاليمه انما هو في الواقع ارتكاس وانتكاس مهما حاول أهل الباطل أن يفيضوا عليه من الألقاب والنعوت والتسميات • فالرسول عليه السلام قد أعطى البشر بوحى من الله الصيغة الوحيدة للحق فمهما ابتغت البشرية الهدى في غير هذه الصيغة فانها الى ضلال تسير ، لقد رأيت في هذا الباب :

أن رسول الله صادق وذلك هذا على أنه رسول الله •
وأن رسول الله أمين في تنفيذ ما دعا اليه وذلك هذا على أنه رسول الله •

وأن رسول الله قد بلغ دعوة الله حقا وذلك هذا على أنه رسول الله •
وأن رسول الله أعقل البشر وأعظمهم فطانة فذلك هذا على أنه رسول الله حقا •

وأن رسول الله أعظم الناس في باب التربية والتعليم وذلك هذا على أنه رسول الله حقا •

وأن رسول الله أكمل الخلق أبا وزوجا وأخلاقا وقيادة وكل ذلك ذلك على أنه رسول الله حقا •

ورسول تدلك صفاته على رسالته الى أين تفارقه متبعا أصنام الهوى وأباطيل الهوس ومجانين الضلال ، ان هؤلاء لا يسيرون بك الا الى الهاوية •

ولكن رسول الله لا يدلك عليه فقط صفاته بل قامت الأدلة على رسالته حتى لم يزغ عن الرؤية الا أعمى •

فالى الباب الثانى لقرى الدليل الكامل الآخر على أن محمدا رسول الله •



دراسات منهجية هادفة
حول الأصول الثلاثة
الله، الرسول، الإسلام

الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الجزء الثاني

« ستري في هذا البحث ، بالدليل والبرهان أن محمدا
رسول الله حقا ، وأن محمدا أعظم الناس في كل شيء ،
وأن الذين يتخذون غيره قدوة حمقى وناقصون » ..

بقلم

سعيد هوى

يطلب من : مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية - عابدين

تليفون ٩٣٧٤٧٠



والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الثاني

المعجزات

سنكتب في هذا الباب فقرتين وتعقيبا :

الفقرة الأولى :

حول المعجزة القرآنية نتحدث بها عن خمسة جوانب من جوانب المعجزة القرآنية كل منها يشهد أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون الا من عند الله .

الفقرة الثانية :

معجزات أخرى لرسول الله غير القرآن نتحدث عن تسعة أنواع منها كل واحدة منها تشهد أن محمدا رسول الله .

التعقيب :

ونتحدث به عن الفارق بين المعجزة وغيرها من الأمور التي يراها الناس خارقة للعادة ، ونرجو ألا ينتهي هذا الباب الا وقد انشرح القلب ببرد اليقين أن محمدا رسول الله وأنه ليس أمام الانسان الا طريق محمد وحده . يصح للانسان أن يسلكه « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر » (النحل : ٩) .

فالى الفقرة الأولى من هذا الباب :

الفترة الأولى المعجزة القرآنية

يقول عليه الصلاة والسلام : « ما من نبي الا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحى الى فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » . ان النبيين عليهم الصلاة والسلام كانت معجزاتهم شاهدة على صدق الوحي الذي أنزل اليهم وبلغوه . أما الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فمعجزته كانت في نفس الوحي . فالوحي نفسه فيه دليل على أنه من عند الله عز وجل اذ هو ذاته المعجزة ، ولذلك عندما كان المشركون يطلبون آية كانوا بلفتون الى أن الآية بين أيديهم :

« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » (العنكبوت : ٥٠ ، ٥١) .
واذا كان القرآن باقيا بحفظ الله « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (الحجر : ٩) .

فالمعجزة اذن باقية محسوسة يستطيع كل انسان ان صدق أن يعرفها ويتيقنها بعلم يقين .

« بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا الا الظالمون » (العنكبوت : ٤٩) .

وهذا القرآن من أين أخذته ذلك على ذاته ، على شرط أن تأخذه بعلم ، وتطلب الحق فيه بصدق ، فالعالم بأى علم له علاقة بالقرآن يستطيع أن يرى في القرآن الحق الذي يعلو أن يكون مصدره بشرا .

« ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد » (سبأ : ٦) .

فالعالم باللغة ، الدارك لأسرارها ، البصير فيها ، يرى أن لغة القرآن ليست بيان بشر . والعالم بأساليب التعبير ومجال البيان ولفقات البلاغة ، يرى أن ما في القرآن من أسلوب وبيان وبلاغة جل عن طوق بشر .

والعالم المحيط بالتاريخ المتثبت بما كان ، سواء قبل نزول القرآن أو بعده ، يرى أن ما فيه من خير ليس مصدره البشر .
والعالم بالكون قوانين وواقعا يرى أن القرآن ليس من عند بشر إذا ما فيه من علم لم يكن ساعة نزوله معروفا ، شيء ضخم فيه دليله .
والعالم بالنفس غرائزها وما يصلحها ويفسدها ، وما يرتفع بها ويهبط ، يستطيع ادراك ربانية القرآن .
والعالم بالتشريع الاجتماعى والجنايى والاقتصادى ، وكل الجوانب الأخرى ، يمكنه معرفة ذلك ، والعالم بالأخلاق والتربية والسلوك ، يستطيع أن يرى الله فى قرآنه .
والعالم بالأمم حضاراتها وعمرانها ، والعوامل التى تبينها وتهدمها يستطيع أن يرى القرآن فى مصدره الربانى .
والعالم بالكتب السماوية كالتوراة والانجيل والزبور ، يدرك أن كتابا يحكم فى أدق قضايا الخلاف بين أتباع هذه الديانات ، ليس مصدره محمدا الذى لم يسمع كتابا ولم يقرأ .
ان العالم يرى ، وطالب الحق يرى ، أما المتكبر ، أما الحاسد ، أما طالب الدنيا ، أما الظالم ، أما أعمى القلب المظلم البصيرة ، أما هؤلاء فلن يروا ، لأنهم ليسوا أهلا للرؤية .

« ساءرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق »

(الأعراف : ١٤٦)

« واذا قرأت القرآن جعنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا • وجعنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا »
(الاسراء : ٤٥ ، ٤٦)

« وما يجحد بآياتنا الا الظالمون » (العنكبوت : ٤٩) •

ان مثل هذا النوع من البشر الذى يجحد ، وقلبه مستيقن بمنعه من الاقرار الكبر والبطر ، ليس لك الى مناقشته سبيل ، اذ الحجة وعدمها معه سواء •

« وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » (النمل : ١٤) •

اذ ليس سبب انكاره عدم الحجة ، بل السبب فى ذاته هو ، وأن الذين عانى منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل رسول ، هم من هذه الطبقة العاتية ، وليسوا من أولئك الذين يبحثون عن الحق حتى اذا وجدوه عرفوه وقبلوه واعتقوه •

« فانهم لا يكتوبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »
(الأنعام : ٢٣)

واليك هذه القصة :

جاء الوليد بن المغيرة الى الأخنس بن شريق فقال : ما تقول فيما سمعت من محمد ؟ فقال الأخنس : ماذا أقول ؟ قال بنو عبد المطلب : فينا الحجابة ، قلنا : نعم • قالوا : فينا السدانة ، قلنا : نعم ، قالوا : فينا السقاية ، قلنا : نعم ، يقولون : فينا نبي ينزل عليه الوحي والله لا آمنت فيه أبدا •

هذا هو نمط الناس الذين لم يؤمنوا بالقرآن ، ليس لهم عذر ولا مستمسك وأنى يكون لهم عذر وتحدى المعجزة يقرع آذانهم وهم صامتون •

« أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات »
(هود : ١٣)

اكذبوا وهاتوا مثل سورة •• ولكنهم لم يفعلوا وحتى الذى ادعى النبوة والوحي كمسيلمة ، لم يتكلم ليعارض القرآن بل كان يعترف أن القرآن وحى سماوى ، ولكنه تكلم ليقال : وها أنا يوحى الى ولكنه لم يتحد بوحيه •

« وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين • فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار » (البقرة : ٢٣ ، ٢٤) •

لقد تحداهم أن يفعلوا وقال لهم : لن تفعلوا ، ولم يفعلوا أليس فى ذلك عجب ؟

عجب لأن من عاداتهم المساجلة والمعارضة • فلم يساجلوا هنا ولم يعارضوا •

وعجب لأنهم أمة البيان وبهتوا أمام البيان •

وعجب لأنهم فعلوا كل شئ من أجل القضاء على الدعوة الجديدة وسكتوا عن أبسط الأشياء وهو الكلام •

وعجب أن وراث الكلام من شعرائهم وأئمة البيان عندهم ، أصبحوا مسلمين كحسان والخنساء وبجير وكعب والخطيئة وليبد • وهم الأعلام باللغة والأبصر فيها ولبعضهم لسان أشد من السيف ، ومع ذلك كان موقفهم السكوت ثم التسليم •

أليس عجباً أن تجد الخنساء الشاعرة وهي التي قالت لحصلن
ابن ثابت في سوق عكاظ حين أنشدتها :

لنا الجففات الغر يلمعن في الضحى وأسيفنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خلا وأكرم بنا ابنما

ضعفت افتخارك وأبرزته في ثمانية مواضع ، قال : وكيف ؟ قالت :
قلت : لنا الجففات والجففات ما دون العشر • ولو قلت : الجفان
لكان أكثر • وقلت : الغر • والغرة البيضاء في الجبهة ، ولو قلت :
البيض لكان أكثر اتساعا • وقلت : يلمعن ، واللمع شيء يأتي بعد
الشيء ، ولو قلت يشرقن لكان أكثر لأن الاشرار أدوم من اللمعان ،
وقلت : بالضحى • ولو قلت : بالعشية لكان أبلغ في المديح لأن الضيف
في الليل أكثر طروقا ، وقلت : أسيفنا • والأسيف دون العشر •
ولو قلت : سيوفنا كان أكثر • وقلت : يقطرن فدللت على قلة القتل •
ولو قلت : يجرين لكان أكثر لانصباب الدم • وقلت : دما • والدماء
أكثر من الدم ، وفخرت بمن ولدت • ولم تفتخر بمن ولدوك •

هذه نفسها النقاداة الشاعرة التي ملأت الدنيا نحيبا على أخيها
صخر تفقد أولادها الأربعة في الاسلام بمعركة واحدة فلم تذرف دمعة
بل تحمد الله ، لقد آمنت بالقرآن وغير القرآن أعماقها •

لقد شعر العرب الأقحاح يوم ذاك أن هذا القرآن الذي يسمعون
لم يخرج من بشر ، كانوا يحسون هذا في أعماقهم سواء في ذلك
مؤمنهم وكافرهم •

وانظر هذين النصين عن مؤمن وكافر :

(أ) روى أن أبا بكر رضى الله عنه وكان أنسب العرب وأعلمهم
بلغاتها وأشعارها وأمثالها ، سأل أقواما قدموا عليه من بنى حنيفة ،
عن كلام مسيلمة ، وما كان يدعيه قرآنا فحكوا له فقال أبو بكر :
سبحان الله • • ويحكم ان هذا الكلام لم يخرج عن ال — أى عن
ربوبية — فأين كان يذهب بكم ؟ فانظر مفهوم كلامه وشعوره •
ان القرآن خارج من الله وليس من بشر •

(ب) وروى أن الوليد بن المغيرة المخزومي جاء الى النبي صلى
الله عليه وسلم ، فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل
فأتاه فقال : يا عم • ان قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه
(١٦ - الرسول)

لئلا تأتي محمدا لتعرض لما قاله • فقال الوليد : قد علمت بقريش
أنى من أكثرها مالا •

قال أبو جهل : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له •
قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ،
ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول
شيئا من هذا : ووالله ان لقوله حلاوة وان عليه لطلاوة ، وانه لمثمر
أعلاه مغدق أسفله ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه وانه ليحطم ما تحته •

قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه •
قال : فدعنى أفكر •• فلما فكر قال : « هذا سحر يؤثر » يأثره
عن غيره •

ولما جتمعت قريش عند حضور الموسم قال لهم الوليد : ان
وفود العرب ترد فأجمعوا فيه — يعنى النبى صلى الله عليه وسلم —
رأيا لا يكذب بعضكم بعضا • فقالوا : نقول كاهن •
قال : والله ما هو بكاهن ولا هو بزمزمته ولا سجعه •

قالوا : مجنون •
قال : ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته •
قالوا : فنقول شاعر •
قال : ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه
ومبسوطه ومقبوضه •
قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده •
قالوا : فما نقول ؟

قال : ما أنتم بقائلين من هذا شيئا الا وأنا أعرف أنه لا يصدق ،
وان أقرب القول أنه ساحر وأنه سحر يفرق بين المرء وابنه والمرء
وأخيه والمرء وزوجته والمرء وعشيرته فتفرقوا وجلسوا على السبيل
يحذرون الناس •

ان هذا الاحساس بربانية المصدر ، والتحدى من المصدر نفسه ،
وظهور العجز قديما وأبدا ما ترك لكافر عذرا ولا حجة •
والناس اما صافي الفطرة يستجيب لأول بارقة نور ، فيشتعل نور
فطرته ، واما انسان أصاب فطرته تعقيد وتوهم ، سواء بسبب الوراثة
أو الفكر الخاطيء مثل هذا انما نطالبه بالعلم قبل الحكم ، وبالبحث

بعد العلم ، وسيرى الآية واضحة والمعجزة قائمة من أى أبواب العلم أتأها .

(أ) فهو لو درس حياة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل النبوة وبعد النبوة قبل القرآن وبعد القرآن يجد جوابا قاطعا ، أنه الوحي والنبوة وليس غيرهما ، رجل أمى جاوز الأربعين لم يعرف عنه خلالها أنه تكلم بشيء له علاقة بدين ، ولا درس ولا كتب فلم يتلق علما ولم يقرأ كتابا دينيا أو غير ديني . ثم البيئة بيئة أمية ولكنها ذكية لا تعلم عن النبوءات والرسالات شيئا ، فليست هناك مقدمة تشير الى نتيجة ومع ذلك واذا بقرآن يتلى ، ودين يقوم ، ومفاهيم تغير بسر هذا القرآن الذى يتحدى فيسكت المتحدون ، وهذا ما أشار القرآن اليه كدليل على النبوة لا يبقى معه ريب .

« وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، انن لارتاب المبطلون » (العنكبوت : ٤٨) .

« ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » (النحل : ١٠٣) .

« وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون » (الأنعام : ١٠٥)

ان دارس القرآن العظيم لا يمكن أن يتصور أن ما فيه صادر عن جهل ، بل يرى أنه لابد صادر عن علم محيط ، وهناك سر المعجزة . ولذلك قال الكافرون : تعلم محمد ودرس . واذا ثبت التاريخ أن محمدا لم يدرس ولم يتعلم ، والقرآن كله حكمة وعلم فليس هناك مصدر الا الوحي ولا بد هنا من التأكيد على ناحيتين :

الأولى : أن الكافرين مؤمنون بأن هذا القرآن لا يمكن أن يكون على هذه الحالة الا اذا كان محمد قد تعلم أعظم ما يكون العلم ، وتصورهم حدوث تعلمه هو الذى يجعلهم يستبعدون معنى الوحي . فاذا ما ثبت أنه لم يتعلم ولم يتلق علما من أحد فليس أمامهم الا نسبة هذا الكتاب الى الوحي ، وكونه لم يتلق علما من أحد ، شيء مشهور ، فان مكة لم يكن بها أهل كتاب الا ورقة بن نوفل وحداد ، والحداد أعجمي . كم يمكن أن تكون ثقافته العامة والدينية في زمن ما كانت الكتب الدينية فيه الا عند رؤساء الديانات ولم تكن مترجمة ، ثم جلوس الرسول عنده للأخذ منه شيء مبتوت من عدم وجوده . وكذلك

ورقة وليس هناك أى نص تاريخى يشير الى غير هذا بل كل النصوص على أن المعلم الوحيد للرسول صلى الله عليه وسلم هو الوحي .

الثانية : أن النبوة قائمة على الصدق والذين اتبعوا النبي اتبعوه . لأنه صادق . ولو رأوا — وهم الذين يخالطونه ليل نهار — ذرة شبهة لأنكروا وبينوا ، وهم من هم ، فاذا ما ذكر القرآن كماورد في الآيات أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتلق علما من أحد وكان الذين حول الرسول صلى الله عليه وسلم وهم أعرف الناس به صبيا وشابا وكهلا يعرفونه غير هذا لرأوا في ذلك مدخلا يشكون فيه بالصدق ، ولو كان القرآن من عند محمد وكان قد تعلم عن غيره من الناس ، لما نفى مثل هذا النفي الذى يمكن افتضاحه بسهولة لو كان .

فاذا ما تأكدت الناحية الأولى والثانية . شهادة التاريخ ، وشهادة واقع الحال . وانتفى إمكانية التعلم البشرى ، لم يبق الا الوحي . مصدرا لأعظم أثر في تاريخ البشرية .

(ب) وكذلك لو درس الانسان ظاهرة الوحي نفسها بامعان وتبصرة وأحاط بها احاطة ما وحكم العلم والعقل . لوجد أن المسألة وحى وليست غير ذلك ، وأنها النبوة ليس الا . ادرس مثلا هذه الآثار التى هي بعض مما حدث الصحابة عن هذه الظاهرة .

عن عمر رضى الله تعالى عنه قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه كدوى النحل فأنزل عليه يوما فمكث ساعة ثم سرى عنه فقرا : « **قد أفلح المؤمنون** » (المؤمنون : ١) الى عشر آيات منها من أولها وقال : من أقام هذه العشر آيات دخل الجنة ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال : « **اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا ، اللهم وأرضنا وارض عنا** » رواه الترمذى .

وفي مسلم عن أبى هريرة قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحي لم يستطع أحد منا يرفع طرفه اليه ، حتى ينقضى الوحي . وفي لفظ : كان اذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة . وفي رواية : كرب لذلك ، وتريد وجهه ، وغمض عينيه ، وربما غط كغطيط البكر .

وعن زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه قال :
كان اذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم السورة الشديدة
أخذه من الكرب والشدة على قدر شدة السورة ، واذا نزل عليه السورة
اللينية أصابه من ذلك على قدر لينها •

وفي رواية البخارى عن عائشة رضى الله تعالى عنها :
فيفصم عنه وان جبينه ليتصبب من العرق في اليوم الشديد
البرد • ان هذه الحالة التي ترافق ظهور النص القرآنى ليست حالة
عادية كما أنها ليست حالة مرضية •
فالحالة المرضية لا يرافقها تصبب عرق ، ولا يرافقها ظهور نص
كالنص القرآنى وقد يكون سورة طويلة ، كسورة الأنعام ، أو يكون
نصا تشريعيا من أدق النصوص التشريعية في تاريخ العالم كنصوص
المواريث •

ان هذه الظاهرة تدل على أن مصدر القرآن خارجى عن ذات محمد
صلى الله عليه وسلم : « ان هو الا وحى يوحى » (النجم : ٤) •
(ج) وكذلك لو درس الانسان النص القرآنى بامعان فانه سيصل
الى نتيجة واحدة ، هى أن هذا النص لا يمكن أن يكون من عند بشر ،
بل لابد أن يكون من عند الله والنص القرآنى بين أيدينا • فتعال
نستعرض بعض خصائصه وبعض من معانيه فأننا سنجد أدل على
ذاته ، وأكثر اقناعا للراغب في الحق الطالب له ، ونؤثر أن نسلك
في هذا الاستعراض الطريق التالى :

ان الأعلم بالقرآن هو صاحب القرآن ، وهو أولى من يتحدث عن
خصائصه وأولى من يصف مناحى دلالاته واعجازه ، ونحن نجد أثناء
دراستنا لهذا القرآن ، آيات كثيرة تحدثت عن صفات هذا القرآن
وخصائصه • فلو أننا تتبعنا هذه الآيات وفهمناها نكون قد أدركنا
خصائص القرآن بشكل أجود ، وأكثر احاطة ، وأقرب الى السهولة ،
مع ملاحظة أننا سنذكر ان شاء الله مع كل خاصية دليلها والبرهان
عليها ليطمئن قلب الشاك ، ويرتاح قلب المؤمن بالعلم الذى لا يدحض
« وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له
قلوبهم ، وان الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم » (الحج : ٥٤) •

يتصور بعض الناس الذين يقرأون القرآن من أهله ومن غير أهله ، أن السورة القرآنية لا تشكل وحدة متناسقة مترابطة ، وأنه لا صلة بين الآيات وان كانت هناك صلة بين بعض آيات السورة ، فان السورة ككل فاقدة هذا التماسك ، وكما يتصورون هذا التصور في السورة الواحدة يتصورونه بشكل أكبر بالنسبة للقرآن كله ، ولسوره كلها فلا رابطة بين السورة والسورة ولا رابطة بين سور القرآن عامة . وهذا التصور أقل ما يقال فيه : انه تصور فاسد يقوم على جهل كبير ، وعلى بساطة في الفكر وضحالة في النظر . فما كان القرآن ليكون كذلك ، وقد رتب الله آياته في السورة الواحدة ورتب الله سوره على الشكل الذي نراه . فان السيد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤمن بأن يضع الآية في مكانها من السورة ، والسورة في مكانها من القرآن ، فترتيب الآيات في السورة الواحدة بوحى ، وترتيب السور في القرآن بوحى ، والله عز وجل حكيم على ، وقد وصف كتابه بأنه على وحكيم : « وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » (الزخرف : ٤)

فلا يكون كلام غير الله أكثر ترتيباً ، وأكثر انسجاماً من كتاب الله . وسنذكر هنا نموذجين من الأمثلة . نموذجاً نتبين فيه ترابط السورة القرآنية وتناسقها ، ونموذجاً نتبين فيه الصلات بين سور القرآن عامة .

* * *

(١)

المثال الأول من النموذج الأول

سورة (ق)

افتح المصحف الآن على سورة (ق) وتأمل :
تبدأ السورة هكذا :

« ق ، والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب . أإذا متنا وكنا تراباً ، ذلك رجع بعيد . قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ، وعندنا كتاب حفيظ » (١ - ٤) .

تبدأ السورة بمقدمة هي الآية الأولى ثم يأتي حرب « بل » ثم حديث عن الكافرين وتعجبهم من بعثة منذر ينذرهم بالبعث بعد الموت • واستبعادهم لهذه المسألة ، ثم يأتي الرد عليهم أنه وإن أصبحوا ترابا فإن الله يعلم ما أخذته الأرض منهم ، وإذا كان علم الله كذلك فلا استبعاد لخلقهم مرة ثانية • إذن بايجاز مقتنع ذكر هذا المقطع من السورة اشكالا للكافرين ورد عليه فانتهى بذلك المقطع من السورة ليبدأ مقطع جديد والملاحظ في المقطع الجديد أنه كذلك مبدوء بكلمة « بل » كما بدأ المقطع الأول بكلمة « بل » وفيه حديث عن تصورات الكافرين ورد عليهم كالمقطع الأول يقول :

« بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريب » (٥) •

هذا موقف الكافرين من الوحي الذي أنذرهم به الرسول ، فيما له علاقة باليوم الآخر ويأتي الرد : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج • والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج • تبصرة ونكري لكل عبد منيب • ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد • والنخل باسقات لها طلع نضيد • رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج » (٦ — ١١) •

هذا الجزء الأول من الرد ، وفيه لفتهم القرآن الى الكون ليتعرفوا فيه على الله وقدرته ، حتى أوصلهم الى رؤية احياء البلد الميت بالمطر ، والنبات يكون ميتا ينزل عليه المطر فيحيا و ... « كذلك الخروج » بهاتين الكلمتين اللتين تأتيان بعد لفت النظر هذا يأتي الرد المفحم لهؤلاء الذين استبعدوا بعث الانسان وكذبوا رسول الله • ولا زلنا حتى الآن في المقطع الثاني •

« كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود • وعاد وفرعون وإخوان لوط • وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، كل كذب الرسل فحق وعيد • أفعينا بالخلق الأول » (١٢ — ١٥) •

رأينا في بداية هذا المقطع : « بل كذبوا بالحق لما جاءهم » ورأينا الرد الأول ، وتنتمى للرد يذكر القرآن مشيرا : كما كذب هؤلاء فقد كذب غيرهم • • وبعد أن يعرض علينا هوية المكذبين • يجعلنا

نتعجب ونستكر تكذيبهم ويقيم الحجة عليهم بكلمة : « أفصينا بالخلق الأول » اذا كان الله خالق الانسان أول مرة ولم يعجزه ولم يتعبه أفيعجز أن يخلقكم مرة ثانية ؟ وبذلك ينتهى المقطع الثانى ليبدأ المقطع الثالث ويلاحظ كذلك أنه مبدوء بكلمة « بل » كما بدأ المقطع الأول والثانى وفيه حديث عن نفس المضمون يقول :

« بل هم فى لبس من خلق جديد » (١٥) الكافرون شاكون فى خلقهم مرة ثانية ويأتى الرد على مرحلتين كل مرحلة مبدوءة بكلمة « ولقد » كما كان الجواب فى المقطع الأول مبدوءا بكلمة « قد » عند قوله : « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم » .

يقول :

« ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد . اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد . وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد . ونفخ فى الصور ، ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد . وقال قرينه هذا ما لدى عتيد . ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله الها آخر فالقياء فى العذاب الشديد . قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد . قال لا تختصموا لى وقد قدمت اليكم بالوعيد . ما يبدل القول لى وما أنا بظلام للعبيد . يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد . وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ، ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ، ولدينا مزيد . وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا فى البلاد هل من محيى . ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » (١٦ — ٣٧)

وبهذا تنتهى المرحلة الأولى من الرد على شكهم ، وهى مرحلة تذكر مخلق الانسان ، وعلم الله بكل ما يجول بخاطره ، ورقابة الملائكة على الانسان ، وتذكير الانسان بالموت ، وبالمصير الفظيع الذى أعده

للكافر . وبالمصير المشرق المعد للمؤمن التقى ، وان هذا وعد من الله للمؤمن ، وتختتم هذه المرحلة بالاعلان أن الانسان ذا القلب وأن الانسان الذى يصغى بتدبر : يكفيه هذا البيان ليتذكر ، وتبدأ المرحلة الثانية من الرد وتستمر حتى نهاية السورة .

« ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما حسنا من لغوب . فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود . واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق ، ذلك يوم الخروج . انا نحن نحى ونميت والينا المصير . يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ، ذلك حشر علينا يسير . نحن أعلم بما يقولون ، وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » (٣٨ — ٤٥) .

يذكر هذا القسم بأن الله خالق السموات والأرض وما فيهما في مدة قصيرة بلا تعب وفي هذا الكلام رد مقنع على الشك ، هذا الاله لا يعجز عن اعادة الانسان مرة ثانية .
وهل شك الانسان في محله ؟

ثم يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على أقوالهم — الآنفه الذكر — التى رأيناها في المقطع الأول « أعذا هتا وكنا ترابا ، فلك رجع بعييد » وفي المقطع الثانى : « بل كنباوا بالحق لما جاءهم » وفي المقطع الثالث : « بل هم فى لبس من خلق جديد » والعبادة لله ويؤكد له أن يوم القيامة آت وأنهم محشورون وأن الله يعلم أقوالهم وأن مهمته أن يذكرهم . فخاتمة السورة اذن تخاطب النبى وتعلمه كيف ينبغى أن يكون موقفه .

وكما ترى من استعراض هذه السورة ، فان التناسق والترتيب وانوحدة والتكامل كل هذه موجودة بشكل واضح فى السورة . فاذا ما أتى انسان مفرض أو معرض ، وقال : بأنه لا رابط بين الآيات فى السورة الواحدة ، فانه لا شك يدل على فساد ذوقه ، وعمى بصيرته وليس ذلك بضار القرآن شيئا .

المثال الثانى من النموذج الاول

سورة الواقعة

تبدأ السورة فى الحديث عن الساعة :

« اذا وقعت الواقعة • ليس لوقعتها كاذبة • خافضة رافعة • اذا رجت الأرض رجا • وبست الجبال بسا • فكانت هباء منبثا » (١ — ٦)
وبعد هذه المقدمة ننقل الى تصنيف الناس فى ذلك اليوم :
« وكنتم أزواجا ثلاثة • فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة •
وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة • والسابقون السابقون »
(٧ — ١٠) ثم تبين ما أعد لكل صنف من هذه الأصناف مبتدئة
بالسابقين لأنهم الأفضل :

« أولئك المقربون • فى جنات النعيم • ثلة من الأولين • وقليل من
الآخرين • على سرر موضونة • متكئين عليها متقابلين • يطوف عليهم
ولدان مخلصون • بأكواب وأباريق وكأس من معين • لا يصدعون
عنها ولا ينزفون • وفاكهة مما يتخيرون • ولحم طير مما يشتهون •
وحور عين • كأمثال اللؤلؤ المكنون • جزاء بما كانوا يعملون • لا يسمعون
فيها لغوا ولا تأثيما • الا قبيلا سلاما سلاما » (١١ — ٢٦)
ثم تبين ما أعد لأهل اليمين :

« وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين • فى سدر مخضود • وطلح
منضود • وظل ممدود • وماء مسكوب • وفاكهة كثيرة • لا مقطوعة
ولا ممنوعة • وفرش مرفوعة • انا أنشأناهن انشاء • فجعلناهن أباركا •
عربا أترابا • لأصحاب اليمين • ثلة من الأولين • وثلة من الآخرين »
(٢٧ — ٤٠)

ثم تبين ما أعد لأهل الشمال :

« وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال • فى سموم وحميم • وظل
من يحموم • لا بارد ولا كريم • انهم كانوا قبل ذلك حترفين • وكانوا
يصرون على الحنث العظيم • وكانوا يقولون أنذا متا وكنا ترابا وعظاما
أعنا لمبعوثون • أو آباؤنا الأولون • قل ان الأولين والآخرين • لمجموعون
الى ميقات يوم معلوم • ثم انكم أيها الضالون المخبون • لا تكون من
شجر من زقوم • فمالتون منها البطون • فشاربون عليه من الحميم •
فشاربون شرب الهيم • هذا نزلهم يوم الدين » (٤١ — ٥٦)

ويبقى بعد ذلك عندنا في السورة مقطعان كل منهما ينتهي بكلمة :
« فسبح باسم ربك العظيم » .

يبدأ المقطع الأول بهذه الآية : « نحن خلقناكم فلولا تصدقون »
(٥٧) الخطاب كما ترى من الله للانسان يذكره فيه بأنه خلقه ويطلبه
فيه أن يصدق ، وبديهي أنه يطلبه هنا بالتصديق في اليوم الآخر الذي
كان الحديث السابق كله عنه ، ثم يبدأ المقطع يناقش الانسان لاقناعه
بالتصديق ، ونجد أن المقطع مقسم الى أربعة أقسام كل قسم مبدوء
بكلمة « أفرايتم » وكل قسم يلفت الانسان للايمان بالله والتصديق
بأنه الخالق للوصول بعد ذلك الى الايمان باليوم الآخر .

الفقرة الأولى : « أفرايتم ما تمنون . أنتم تخلقونه أم نحن
الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل
أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا
تذكرون » (٥٨ — ٦٢) .

الفقرة الثانية : « أفرايتم ما تحرثون . أنتم تزرعونه أم نحن
الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلمتم تفكهن . انا لمفرمون . بل
نحن محرومون » (٦٣ — ٦٧) .

الفقرة الثالثة : « أفرايتم الماء الذي تشربون . أنتم أنزلتموه
من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون »
(٦٨ — ٧٠)

الفقرة الرابعة : « أفرايتم النار التي تورون . أنتم أنشأتم
شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين .
فسبح باسم ربك العظيم » (٧١ — ٧٤) .

ينتهي المقطع وقد أثبت أن الله هو الخالق العظيم ، وبإثبات هذه
الحقيقة لا يسع الانسان الا أن يصدق بما أخبره الله عنه بأنه كائن
يوم القيامة .

ويبدأ المقطع الأخير في السورة :

« فلا أقسم بمواقع النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم . انه
لقرآن كريم . في كتاب مكنون . لا يمسه الا المطهرون . تنزيل من
رب العالمين . أفبهذا الحديث أنتم مدهنون . وتجطون رزقكم أنكم
تكذبون » (٧٥ — ٨٢) فيقرر فيه أولا أنه لا مجال للتكذيب بشيء

أخبر به القرآن ، وانه لعقوب بالانسان أن يكذب • ثم يستمر المقطع مبينا أن الموت لا بد منه ، وأنكم عاجزون أيها البشر عن رده :

« فلولا اذا بلغت الحلقوم • وأنتم حينئذ تنظرون • ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون • فلولا ان كنتم غير مدينين • ترجعونها ان كنتم صادقين » (٨٣ — ٨٧) •

واذا تقرر هذا كله فان الذى أخبرتم عنه فى أول السورة حق كله :

« فأما ان كان من المقربين • فروح وريحان وجنة نعيم » (٨٨ ، ٨٩)

« وأما ان كان من أصحاب اليمين • فسلام لك من أصحاب اليمين » (٩٠ ، ٩١) •

« وأما ان كان من المكذبين الضالين • فنزل من حميم • وتصلية جحيم » (٩٢ — ٩٤) •

« ان هذا لهو حق اليقين • فصبح باسم ربك العظيم » (٩٥ ، ٩٦) • وبذلك تنتهى السورة ، مرتباً أولها بآخرها ، معروضة أدلة أولها وآخرها فى وسطها متناسقة تتناسق كل ما كان من عند الله ولكن العمى لا يبصرون •



المثال الثالث من النموذج الأول

سورة الانبياء

تتألف السورة من مقدمة هى آية واحدة ، وسبعة مقاطع المقطع الأول مبدوء بكلمة « ما » والمقاطع الست الأخرى مبدوءة بكلمة « وما » فكان حرف العطف الواو « ما » فى المقاطع الست عليها فى المقطع الأول • وسنرى باستعراضنا لمقاطع السورة ومقدمتها ، ارتباط المقاطع بعضها ببعض ، وانسجام الكل مع المقدمة ، لتظهر أخيراً الوحدة المتناسقة فى السورة كلها •

تبدأ السورة بهذه الآية : « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون » (١) فالآية تتحدث عن غفلة الناس واعراضهم مع قرب الحساب •

ثم يبدأ المقطع الأول :

« ما يأتيهم من فكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون •
لاهية قلوبهم ، وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم
أفتأتون السحر وأنتم تبصرون • قال ربى يعلم القول فى السماء
والأرض ، وهو السميع العليم • بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه
بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون • ما آمنت قلوبهم من قرية
أهلكناها ، أفهم يؤمنون » (٢ - ٦) •

يتحدث المقطع عن موقف الناس من الوحي ، وأنهم يستقبلونه
بغفلة • واعراض واتهام صاحبه بأنه بشر بلا ميزة ، وأنه ساحر وأن
الوحي محض تخيلات وأوهام ، وأنه مختلق وأن الرسول انسان
عاطفى غير ذى عقل علمى ، وأنهم يطلبون آية كدليل • وفى المقطع
تذكير بعلم الله ، وتذكير بأن ذلك طبيعة الانسان فى كل عصر •

ويأتى المقطع الثانى :

« وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم ، فاسألوا أهل الذكر
ان كنتم لا تعلمون • وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا
خالدين • ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين •
لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم ، أفلا تعقلون • وكم قصصنا من قرية
كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين • فلما أحسوا بأسنا اذا هم
منها يركضون • لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم
لعلكم تستلثون • قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين • فما زالت تلك دعواهم
حتى جعلناهم حصيدا خامدين » (٧ - ١٥) •

والمقطع كله رد على أقوالهم فى المقطع الأول وتوكيد للحقائق
الموجودة فيه فالمقطع يقول :

صحيح أن الرسول بشر ولكن ميزته عليكم أنه يوحى اليه •
يعرف هذا كل أمة بعث بها رسول ، وهؤلاء الرسل فيهم كل صفات
البشرية ، ولكنهم مؤيدون من الله • منصورون على من خالفهم ، وأن
هذا القرآن وحى ككل وحى سابق ، فينبغى أن يعقل المكلفون فيه
هذه الحقيقة ، وليعلموا أن قرى كثيرة لم تستجب لوحى الله فكان
قاعبتها الهلاك والدمار •

ولاحظ نهاية المقطعين :

نهاية المقطع الأول :

« ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ، أفهم يؤمنون » (٦) •

ونهاية المقطع الثانى :

« وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين »

اسى : « حتى جعلناهم حصيدا خامدين » (١٥) •

ويأتى المقطع الثالث :

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين • لو أردنا أن نتخذ
لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين • بل نقذف بالحق على الباطل
فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون • وله من فى السموات
والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون • يسبحون
الليل والنهار لا يفترون • أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون •
لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون •
لا يستل عما يفعل وهم يسئلون • أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا
برهانكم ، هذا نكر من معى ونكر من قبلى ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق
فهم معرضون » (١٦ — ٢٤) •

لقد بين المقطع الأول والثانى حالة الكافرين فى الاعراض عن
الوحى ، وفى الغفلة واللغو والموقف غير الجدى • ولما كان هذا كله
نابعا عن التصور الخاطىء لقضية خلق الكون وعن عدم معرفة الجلال
الالهى وحقوقه ، وعن الشرك والتصورات المضحكة التى لا تقوم على
دليل • فان هذا المقطع الذى مر معنا تحدث عن هذه المعانى كلها
ويلاحظ أن المقطع قد ختم بهذه الجملة : « بل أكثرهم لا يعلمون الحق
فهم معرضون » • وهى تبين ارتباط هذا المقطع بما قبله وبالمقدمة •

واذ يقرر المقطع الثالث هذه المعانى كلها مما له علاقة بجلال الله ،
وفساد الشرك وكونه لا دليل عليه ، ليصحح موقف الانسان فى الحياة ،
فان المقطع الرابع يأتى ليؤكد وحدانية الله ، وانها الدعوة التى حادها
كل رسول ، وأن أى دراسة للكون توصل الى هذه الحقيقة :
أن خالق هذا الكون واحد •

يقول المقطع الرابع :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا

فاعبدون • وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه ، بل عباد مكرمون •

لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون • ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين • أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون • وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون • وجعلنا السماء سقفا محفوظا ، وهم عن آياتنا معرضون • وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، كل في فلك يسبحون » (٢٥ — ٣٣) •

ويأتى بعد ذلك المقطع الخامس وهو أطول المقاطع في السورة • ويلاحظ منذ بدايته ، انسجامه مع السورة كلها في خطابه ومعانيه • فهو مثلا مبدوء بكلمة : « وما » ككل المقاطع ويخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك كمثلها لاحظ : بداية المقطع الثانى الذى بدأ الرد على الأفكار التى طرحها الكافرون •

« وما أرسلنا قبلك إلا رجالا » •

وبداية المقطع الرابع :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول • • » •

وبداية المقطع الخامس الذى فيه نظرنا الآن : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد » •

ولطول المقطع نسعرض جملة معانيه حسب تسلسل آياته ثم بعد ذلك نذكر ارتباط هذا المقطع بما قبله •

تذكر الآيات الأولى فيه أن محمدا صلى الله عليه وسلم ميت ككل بشر • وإذا مات هو فلن يخلد أعداؤه ، وما فى الحياة كله ابتلاء ، والمرجع الى الله ، فمن ينبغى أن يخشى من الموت : صلى الله عليه وسلم أم هم ؟ تقول الآيات :

« وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفئن مت فهم الخالدون • كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون » (٣٤ ، ٣٥)

ثم يتحدث المقطع عن موقف الكافرين اذا رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلامهم وايعاد الله لهم ، وسؤالهم متى تحقيق هذا الوعيد والجواب :

« واذا رءاك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا لهذا الذى ينكر
آلهكم وهم بنكر الرحمن هم كافرون • خلق الانسان من عجل ،
ساوريكم آياتى فلا تستعجلون • ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم
صادقين • لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن
ظهورهم ولا هم ينصرون • بل تاتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها
ولا هم ينظرون » (٣٦ — ٤٠) •

ثم يبين المقطع أنه اذا استهزى برسول الله صلى الله عليه وسلم
فان كل نبى سابق قد استهزى به :

« ولقد استهزى برسلى من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا
به يستهزون » (٤١) •

ثم يؤمر الرسول صلى الله عليه وسلم أمرين كل منهما مبدوء بكلمة
« قل » •

الأول : « قل من يكؤكم بالليل والنهار من الرحمن ، بل هم عن
نكر ربهم معرضون • أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ، لا يستطيعون نصر
أنفسهم ولا هم منا أصحابون • بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم
العمر ، أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ، أفهم الغالبون »
(٤٢ — ٤٤)

وواضح أن هذا رد على موقفهم ، وتبيان لهم أنهم لو عرفوا الله
حق المعرفة ما وقفوا هذا الموقف •

الثانى : « قل انما أنفركم بالوحى ، ولا يسمع الصم الدعاء اذا
ما ينفرون » (٤٥) •

وفى هذا كذلك رد عليهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم لا يقول
من عند نفسه فاذا لم يسمعوا فهم السبب • فاستهزأؤهم فى غير محله
بل هم الجديرون بالاستهزاء •

ثم يبين المقطع حالهم اذا عاقبهم الله فى الدنيا وماذا أمامهم فى
الآخرة :

« ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا انا كنا ظالمين •
ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان
مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين » (٤٦ ، ٤٧) •

ثم يبدأ المقطع يقص علينا من قصص الأنبياء بحيث نأخذ من كل
قصة نبى عبرة تتسجم مع موضوع السورة • وقبل أن نبدأ استعراض

هذه القصص واحدة فواحدة ، ونرى انسجام كل قصة مع السورة فاننا بشكل عام :

نلاحظ فيما مضى معنا من المقطع • أن الحديث منصب على نفس المعانى التى مرت فى المقاطع السابقة : موقف الكافرين من الوحي والرسول ، وعاقبة هذا الموقف ومناقشته • ونبدأ الآن فى استعراض القصص :

١ — « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء ونكرا للمتقين • الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون • وهذا ذكر مبارك أنزلناه ، أفأنتم له منكرون » (٤٨ — ٥٠) •

وبينة علاقة القصة بالسورة ، فالسورة من بدايتها تتحدث عن الذكر المنزل « ما يأتيهم من نكر من ربهم محدث » والقصة هنا تشير الى أن ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم قد أنزل مثله على موسى وهارون ، فلا مجال اذن لانكاره ، ويلاحظ أن القصة الأولى منسجمة تمام الانسجام مع معانى المقطع الأول فكأنها مثال عليه •

٢ — « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين • اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون • قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين • قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين • قالوا أجبئنا بالحق أم أنت من اللاعبين • قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين • وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين • فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون • قالوا من فعل هذا بالهتنا انه من الظالمين • قالوا سمعنا فتى يفكرهم يقال له ابراهيم • قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون • قالوا أنت فعلت هذا بالهتنا يا ابراهيم • قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون • فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون • ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون • قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم • أف لكم وما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون • قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين • قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم • وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين • ونجيناه ولوطا الى الأرض التى باركنا فيها للعالمين • ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين •

وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة
وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين» (٥١ — ٧٣) •

٣ — « ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت
تعمل الخبائث ، انهم كانوا قوم سوء فاسقين • وأدخلناه في رحمتنا ،
انه من الصالحين» (٧٤ ، ٧٥) •

٤ — « ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجينااه وأهله من
الكرب العظيم • ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا ، انهم كانوا
قوم سوء فأغرقناهم أجمعين» (٧٦ ، ٧٧) •

ويلاحظ أن القصص الثلاث هذه : قصة ابراهيم ولوط ونوح عليهم
السلام لها علاقة في المقطع الثاني ، اذ أنها تؤكد نفس معانيه
« وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم ، فاسألوا أهل الذكر ان كنتم
لا تعلمون • وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين •
ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين »
(الأنبياء : ٧ — ٩)

لاحظ كلمة « فأنجيناهم » هنا وورودها في القصص الثلاثة •

٥ — « وداوود وسليمان اذ يحكما في الحرث اذ نفشت فيه غنم
القوم وكنا لحكمهم شاهدين • ففهمناها سليمان ، وكلا آتيناه حكما وعلما ،
وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير ، وكنا فاعلين • وعلماه صنعة
لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون • ولسليمان الريح
عاصفة تجري بأمره الى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين •
ومن الشياطين من يفوضون له ويعملون عملا دون ذلك ، وكنا لهم
حافظين » (٧٨ — ٨٢) •

٦ — « وايوب اذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين •
فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من
هقدنا وذكرى للعابدين» (٨٣ ، ٨٤) •

٧ — « واسماعيل وادريس وذا الكفل ، كل من الصابرين •
وأدخلناهم في رحمتنا ، انهم من الصالحين» (٨٥ ، ٨٦) •

٨ — « وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه فنادى
في الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين • فاستجبنا
له ونجيناه من الغم ، وكذلك تنجي المؤمنين » (٨٧ ، ٨٨) •

٩ — « وزكريا إذ نادى ربه رب لا تفرنى فردا وأنت خير الوارثين • فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين » (٨٩ : ٩٠)

١٠ — « والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين • ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (٩١ ، ٩٢)

هذه عشر قصص وهى بمجموعها وهذه الآية الأخيرة التى أعقبتها تؤكد المقطع الرابع :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون » (الأنبياء : ٢٥) •

وكما ترى فان المقطع الخامس يؤكد بمجموعه المعانى الموجودة فى المقاطع السابقة ، ولعل خاتمة المقطع يتبين لك فيها هذا الارتباط . فقد تحدث عن اقتراب يوم القيامة وقد بدأت فيه السورة ، وعن مصير الكافرين والمؤمنين فى ذلك اليوم ، ووعد الله للمؤمنين بالنصر وتأهل نعمة آيات المقطع :

« وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون • فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وأنا له كاتبون • وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون • حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون • واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين • انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون • لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ، وكل فيها خالدون • لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون • ان الذين سبقتم لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون • لا يسمعون حسيبها ، وهم فى ما اشتتت أنفسهم خالدون • لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون • يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا ، أنا كنا فاعلين • ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون • ان فى هذا لبلاغا لقوم عابدين » (٩٣ — ١٠٦) •

وأخيرا يأتى المقطع السادس ليبين :

أن محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للبشر وأنه مأمور أن يدعو

الناس الى التوحيد والاسلام ، وأن عليه أن يبلغ ، وأن يوم القيامة آت ، وأن الله يعلم السر والجهر وتختتم السورة بدعاء للنبي صلى الله عليه وسلم .

واذا تأملت المقطع الأخير تجد ارتباطه الوثيق بكل مقاطع السورة ، وتذكر الآن معانى السورة ثم تدبر آخر مقطع :

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين • قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد ، فهل أنتم مسلمون • فان تولوا فقل آذنتكم على سواء ، وان أدري أقرب أم بعيد ما توعدون • انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون • وان أدري لعله فتنة لكم ومناجى الى حين • قال رب احكم بالحق ، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون » (١٠٧ — ١١٢) •

* * *

ولعل هذا المرور الخاطف على هذه السور الثلاث وضح لنا تقاسق السورة القرآنية ووحدتها وانسجامها وترابطها ، وهذا الذى رأيناه هنا نستطيع أن نراه فى كل سورة قرآنية من الفاتحة الى سورة الناس بما فى ذلك السور الكبيرة كالبقرة وآل عمران • • ونتيجة لهذا القول نقول : ان الترتيب فى كل سورة من سور القرآن كائن بشكل معجز فهو مع كماله فى بابه لا يستطيع أن يدركه الا انسان بلغ الذروة فى نضج التأمل • فهل يمكن أن يكون هذا وليد بيئة أمية ؟

* * *

(ب)

والآن ننتقل لاثبات الأمر الآخر :

أن القرآن كله مترابط فيما بينه ، يشكل وحدة منتظمة مترابطة • أول سورة من سور القرآن هى الفاتحة ويلاحظ أنها أوجزت معانى القرآن كله • فمعانى القرآن كله تدور حول العقائد ، والعبادات ، ومناهج الحياة ، والسور بدأت بالعقيدة : « بسم الله الرحمن الرحيم • الحمد لله رب العالمين • الرحمن الرحيم • مالك يوم الدين » وثنت بالعبادات : « اياك نعبد واياك نستعين » وثالث بمناهج الحياة : « اهدنا الصراط المستقيم • صراط الذين أنعمت عليهم » وبينت أخيرا

أن منهاج المسلمين متميز : « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » (١) ويلاحظ أن آخر مقطع فيها مبدوء بكلمة : « اهـدنا » ويأتى فى أول سورة البقرة « ألم • ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » (١ ، ٢) فالرابطـة اذن بين سورة الفاتحة والبقرة والقرآن كله واضحة •

ننتقل الآن الى سورة البقرة والسور التى تليها الى سورة يونس وهى المسماة بالسبع الطوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، لنرى هل هناك رابطـة بين هذه السور :

نظرة على سورة البقرة نلقـيها تريـنا :

١ — أن السورة مبدوءة بأحرف « ألم » ويأتى بعدها عشرون آية تتحدث عن أقسام الناس فى المصطلح القرآنى ، متقين ، وكافرين ، ومنافقين ، وتصف كلا من هؤلاء •

٢ — تأتى بعد ذلك خمس آيات مبدوءة بكلمة « يا أيها الناس » وفيها دعوة الى الناس جميعا أن يكونوا من الفئة الأولى « المتقين » وأن طريق التقوى هو عبادة الله ، وتصف الآيات مظاهر قدرة الله ، وكون القرآن لا شك فيه ، ومصير الذين لا يسلكون هذا السبيل ومصير الذين يسلكونه •

٣ — تأتى بعد ذلك ثلاث آيات تتحدث عن الله عز وجل والقرآن ، وموقف المهتدين منه ، وضلال الضالين به وصفاتهم « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض ، أولئك هم الخاسرون » (٢٧) ومناقشة من يكفر بالله عز وجل •

٤ — تأتى بعد ذلك آية مبدوءة بكلمة « هو » تتحدث عن الله أنه خلق كل شىء فى الأرض للبشر •

٥ — تأتى بعد ذلك عشر آيات تتحدث عن قصة آدم عليه السلام ، ونزوله الى الأرض ، وتختتم بالقاعدة التى تحاسب عليها البشرية « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون • والذين كفروا وكنبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون » (٣٨ — ٣٩) •

بعد ذلك يقص الله من قصص بنى اسرائيل وموقفهم من الهدى المنزل عليهم • ثم من قصة ابراهيم عليه السلام وعبوديته لله ودعوته ووصاياه ، ثم قواعد حول قبلة المسلم بعد قصة ابراهيم ، ثم أوامر لها علاقة بالعبادة والتقوى ثم فريضة الله على المسلمين في أمر القتال الآية (٢١٦) :

٦ — « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ثم تأتي آية مبدوءة بكلمة « يسألونك » الآية فيها استفتاء من الصحابة عن قضية لها علاقة بالقتال ثم تفصيلات في أمور كثيرة • حتى تختم السورة • ومن السهل جدا على دارس السورة أن يجد وحدتها ، وليس هذا ما نريده الآن بل نريد اثبات الصلة بين هذه السورة والصور الست التي تليها •

ولعلك تدهش اذا قلنا لك ان الصور الست الطوال التي تأتي بعدها انما تشرح وتفصل هذه المقاطع التي ذكرناها لك بشكل واضح لا يلتبس على المتأمل • وهي تشرح هذه المقاطع بالتسلسل الموجود في سورة البقرة وكأن هذه المقاطع تحتاج الى زيادة ايضاح فجاءت كل سورة تشرح كل واحدة منها مقطعا وهاك الدليل :

١ — سورة البقرة مبدوءة بأحرف « ألم » وسورة آل عمران مبدوءة بنفس الأحرف • سورة البقرة مبدوءة بآية « ذلك الكتاب لا ريب فيه » • سورة آل عمران مبدوءة بهاتين الآيتين « الله لا اله الا هو الحي القيوم • نزل عليك الكتاب بالحق » (٢ — ٣) •

العشرون آية الأولى في البقرة تتحدث عن المتقين والكافرين والمنافقين • سورة آل عمران كلها توضح ملامح هذه الفئات الثلاث ، والحدود التي ينبغي أن تقف عليها الجماعة المسلمة في علاقتها مع الفئتين الآخرين •

٢ — بعد العشرين آية من سورة البقرة تأتي الآية المبدوءة بـ « يا أيها الناس » والتي تبين للانسان طريق التقوى وأن التقوى هدف « اعبدا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » (٢١) • وتأتي سورة النساء بعد سورة آل عمران مبدوءة بآية :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة »

نفس النداء • نفس المعانى ، وكأنك عندما تدرس النساء انما تدرس التقوى طريقا وسلوكا •

٣ — وبعد هذه الآيات تأتى الآيات التى مرت معنا ، والتى نتحدث عن نقض العهد • وتأتى بعد سورة النساء سورة المائدة وهى مبدوءة بالأمر بالوفاء بالعقود « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وفى السورة أكثر من آية تذكر العهد •

« واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به اذ قلتم سمعنا وأطعنا » (المائدة : ٧) وكأن السورة تذكر المعانى الأساسية للعهد الأساسية التى من تمسك بها اهتدى بهدى القرآن والاضل •

٤ — وبعد آيات البقرة هذه تأتى الآية « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » (٢٩) وتأتى بعد سورة المائدة سورة الأنعام التى تتردد فيها كلمة « هو » « هو » « هو » مرات كثيرة • الآية الثانية « هو الذى خلقكم من طين » والآية (١٨) « وهو القاهر فوق عباده » والآية (٦٠) « وهو الذى يتوفاكم » و

وهكذا مرات ، وآخر آية فى السورة تكاد تكون معنى حرفيا لآية البقرة « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم » (الأنعام : ١٦٥) فكان سورة الأنعام كلها تفصيل لمجمل الآية فى البقرة •

٥ — وتأتى بعد ذلك فى البقرة قصة آدم ، وتنتهى بالقاعدة التى ذكرناها « فمن تبع هداى ٠٠ » وتأتى بعد سورة الأنعام سورة الأعراف والآية الثالثة فيها « اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم » والآية الأولى فيها تقول : « المص • كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين • اتبعوا ٠٠٠ » وتأتى بعد ذلك قصة آدم وقصص عن أمم وكيف كان موقفهم من الهدى المنزل عليهم فكان السورة كلها عرض عملى وتاريخى ومناقشة فى جو القاعدة التى انتهت بها قصة آدم فى سورة البقرة •

٦ — وكما أنه بعد آية القتال فى سورة البقرة تأتى كلمة : « يسألونك » وفيها استفتاء عما له علاقة فى القتال ، فان سورة الأنفال بعد الأعراف مبدوءة بكلمة « يسألونك » •

والسورة كلها والسورة التى بعدها وهى سورة « التوبة » تتحدثان

عن القتال وأدب الحرب ، ويلاحظ أن السورتين في القرآن مكتوبتان بلا فاصل « البسملة » فكأن السورتين شرح وتوضيح للفريضة التي ذكرها الله في سورة البقرة .

ونظن أن قد وضحت الرابطة التي تربط هذه السور فيما بينها .
ولكنك ستري أعجب ان شاء الله تعالى :

١ — سورة آل عمران شرحت العشرين آية كلها في البقرة
أما سورة يونس فتفصل الآية الأولى من سورة البقرة « الم . ذلك
الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » .

لاحظ الآن سورة يونس : تبدأ السورة بهذه الآية :

« الر ، تلك آيات الكتاب الحكيم » .

ثم تقول : « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر
الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون
ان هذا لساحر مبين » اذن تبدأ السورة بتحطيم الشبه الموجودة في
أذهان الناس حول القرآن ، ويستمر هذا المعنى حتى ينتهى عند الآية
(٣٧) بهذا الشكل :

« وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى
بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » ثم يأتى حرف
« أم » فكأنه استمرار للمقطع البدوء بحرف الاستفهام الهمزة
« أكان » ...

« أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم
من دون الله ان كنتم صادقين » (٣٨) .

اذن لا زالت السورة تدحض شبه المرتابين والمكذبين ، ويستمر
هذا المقطع حتى الآية (٥٧) البدوءة بـ « يا أيها الناس »
وكان السورة حتى هذه الآية تفصل الجزء الأول من الآية الأولى من
سورة البقر « الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه » وتأتى الآية (٥٧)
لتبدأ السورة في تفصيل الجزء الثانى من الآية « هدى للمتقين »
تقول آية يونس : « يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء
لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » .

وتختتم السورة بهذه الآية (١٠٤ — ١٠٩) :

« قل يا أيها الناس ان كنتم فى شك من دىنى فلا أعبد الذين
تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم ، وأمرت أن أكون

من المؤمنين • وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين •
ولا تدع من دون الله مالا ينفك ولا يضرك ، فان فطت فانك انن من
الظالمين • وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يردك بخير
فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم •
« قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فانما
يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل •
واتبع ما يوحى اليك وأصبر حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين »
وبهذا تنتهى السورة •

٢ — وسورة النساء شرحت التقوى فى الآية (٢١) من سورة
البقرة ، أما سورة هود فانها تفصل الأمر « اعبدوا » من نفس الآية •
واقرا الآن سورة هود تجد : « الر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت
من لدن حكيم خبير • ألا تعبدوا الا الله » ولعلك لاحظت كلمة
« ألا تعبدوا الا الله » ثم استمر فى التلاوة لتجد فى الآية الخامسة
والعشرين :

« ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نكير مبين • أن
لا تعبدوا الا الله » ثم استمر حتى الآية الخمسين تجد « والى عاد أخاهم
هودا ، قال يا قوم اعبدوا الله » ثم استمر حتى الآية (٦١) تجد :
« والى ثمود أخاهم صالحا ، قال يا قوم اعبدوا الله » ثم استمر حتى
الآية (٨٤) تجد « والى مدين أخاهم شعيبا ، قال يا قوم اعبدوا الله »
والى آخر آية فى السورة « والله غيب السموات والأرض واليه يرجع
الأمر كله فاعبدوه وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون »
ولعلك لاحظت فيها الأمر « فاعبدوه » •

٣ — وسورة يوسف تبين مقنعة للانسان أن هذا القرآن من عند
الله فهى تفصل — والله أعلم — الآية التى بعد ما مر فى البقرة
« وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله »
فان سورة يوسف تبدأ « الر ، تلك آيات الكتاب المبين • انا أنزلناه قرآنا
عربيا لعلمكم تعقلون • نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك
هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين » (١ — ٣) وتختتم السورة
« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ولكن
تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم
يؤمنون » (١١١) •

٤ — وبعد الآية (٢٥) في البقرة تأتي الآيتان .

« ان الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيطمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا ، وما يضل به الا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ، أولئك هم الخاسرون »
(٢٦ ، ٢٧)

وادرس الآن سورة الرعد لتجدها تفصيلا لهذه المعاني :
فما يلفت النظر في سورة الرعد ، أن الآية الثانية فيها
« الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ٠٠ » وأن الآية الثامنة
« الله يعلم ما تحمل كل أنثى » .

والآية (٢٦) « الله يبسط الرزق لمن يشاء » ٠٠

فكان كل مقطع في السورة مبدوء بكلمة « الله » فالمقاطع كلها
تفصل اذن آية البقرة الآنفه الذكر « ان الله لا يستحي » فاذن سورة
الرعد ، تعرفنا على الله أكثر ويلاحظ أنه في المقطع الثاني من سورة
الرعد ، ترد هذه الآيات في خاتمتها ، وهي كما ترى تأكيد لمعنى الآيتين
المذكورتين في البقرة :

« أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، انما
يتذكر أولوا الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق .
والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء
الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا
مما رزقناهم سرا وعلانية ويذرون بالحنة السيئة أولئك لهم عقبى
الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم ونرياتهم ،
والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم
عقبى الدار . والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر
الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار »
(الرعد : ١٩ — ٢٥)

ولا يشك الانسان وهو يقرأ آيتي البقرة (٢٧ و ٢٨) ويقرأ
سورة الرعد أن سورة الرعد تفصيل لتلك الآيتين .

ونستطيع الآن بعد أن استعرضنا مثالين يثبتان وجود الترابط
بين سور القرآن ككل أن نضع أسس نظرية في هذه القضية فنقول :

ان كل مجموعة سور من القرآن تشكل كلا متكاملا ، وهذه المجموعات كلها انما تفصل المعانى التى ذكرتها سورة البقرة على الترتيب مع تبيان وتوضيح وتفصيل ، وقد رأينا مثالين على ذلك ، ويلاحظ أن كل مجموعة من السور قد عرضت الأسس النظرية والعملية للإسلام ، بحيث أن من يقرأ أى مجموعة من هذه المجموعات ، يتذكر بكل الحقائق الأولية فى الإسلام . كما يلاحظ أن كل مجموعة من هذه المجاميع قد عرضت هذه الحقائق بلغة وطريقة عرض ونغمة جرس تختلف عن الأخرى ، مما ييهز الانسان ولا يستطيعه مخلوق : أن تعرض قضية واحدة على عشرات الأوجه وبطرق كثيرة من العرض . المعانى فى البقرة مرتبة ترتيبا معيناً كل مجموعة سور تشكل وحدة . تعرض المعانى القرآنية على ترتيب عرضها فى سورة البقرة ، هذه المجموعة تتدرج من الطول الى القصر ، كل وحدة تذكر الانسان بالمعانى الأساسية بطريقة عرض تختلف عما قبلها . ولو تأملت سورة العصر فما بعدها لرأيت نفس ترتيب العرض فى سورة البقرة مع فارق القصر ، فهل يمكن أن يكون هذا من عند بشر ؟!

ولعلنا استطعنا بفضل الله بعد ما تقدم توضيح هذه الآيات وتفهم معناها مما وصف الله به كتابه .

١ — « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »
(هود : ١)

٢ — « كتابا متشابها مثاني » (الزمر : ٢٣) .

٣ — « ان هو الا نكر وقرآن مبين » (يس : ٦٩) « وانه فى أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » (الزخرف : ٤) .

فبسبب مما رأيناه كان القرآن مفصلاً ، وكان متشابهاً ، وكان مثاني ، وكان مذكراً . لأن كل جزء منه يذكر بما ينبغى أن يتذكره الانسان . وبمثل هذا وبمثل ما يأتى بعد هذا الكتاب على غاية الحكمة ولا يعلوه كتاب أبدا عرفه البشر .

٢

ومن خصائص هذا القرآن التي تشير الى ربانية مصدره ، ما أشار اليه القرآن بقوله :

« قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض » (الفرقان : ٦)
« لكن الله يشهد بما أنزل اليك ، أنزله بعلمه » (النساء : ١٦٦)
« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »
(فصلت : ٥٣)

لقد أخبر الله في الآية الأخيرة أنه سيكشف للناس خفايا هذا الوجود ، ودقائق هذا الانسان وأن هذا الكشف فيه دليل صادق على أن القرآن حق ، اذ ما سيعرفه الانسان سيطابق ما في القرآن وهذا لا يكون الا اذا كان منزل القرآن هو الله العالم بأسرار السموات والأرض ولئن كانت الآية الأخيرة نبوءة كاملة في حد ذاتها ، تحققت بما كشف الانسان حتى الآن فان ما سنذكره من أمثلة سيكون برهانا كاملا على نسبة القرآن لله جل جلاله :

لقد تحدث القرآن بلغة واضحة عن كثير من القضايا الكونية ، مما لم يكن معروفا قطعا قبل أربعة عشر قرنا في أى مكان من العالم ، فضلا عن أن يكون معروفا في جزيرة العرب حيث الأمة الأمية ، التي كانت معارفها عن الكون محدودة وسطحية ، فكان حديث المحيط بسر كل شيء • وكلما تقادم الزمان أكثر كلما ظهرت دقة القرآن أكثر • فيصبح الانسان أمام الحقيقة التي لا شك فيها أن خالق الكون ومنزل القرآن واحد ، الله رب العالمين ، وهذه أمثلة وفي القرآن المزيد لاستزيد :

١ — قال الله تعالى :

« وان لكم في الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » (النحل : ٦٦) •

يقول العلم اليوم أن الحليب قبل أن يصبح في الثدي ، يمر على عمليتي تصفية • الأولى تصفيته من الفضلات وذلك بعد الهضم ونزول السائل الحليبي الى الأمعاء ، اذ تقوم الزغيبات المعوية بامتصاص المواد الغذائية طارحة اياها في الدم ومبقية الفضلات في الأمعاء حيث تطرح خارج الجسم • وأما المواد الممتصة التي طرحت في الدم فان

قسما منها يغذى جسم الكائن الحى وقسما آخر تصفيه الغدد اللبنية من الدم وترسله الى الضرع حلييا خالصا سائغا للشاربين •

اذن قال النعم هذا الحليب يصفى أولا من الفضلات ثم من الدم •

وقال القرآن : « من بين فرث^(١) ودم لبنا خالصا » ••

وهذه الحقيقة العلمية التى يذكرها القرآن هنا عن خروج اللبن من بين فرث ودم لم تكن معروفة لبشر وما كان بشر فى ذلك العهد ليتصورها فضلا عن أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة ، وما يملك انسان يحترم عقله أن يمارى فى هذا أو يجادل ، ووجود حقيقة واحدة من نوع هذه الحقيقة ، يكفى وحده لاثبات الوحي من الله بهذا القرآن •

٢ — قال الله تعالى :

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء » (الأنعام : ١٢٥) •
« منذ اكتشاف الطبقات العليا من الجو بفضل الطيران والبالونات ، استطعنا أن ندرك ظاهرة كونية تنتج عن نقص أوكسجين الهواء فى طبقات الجو العليا ، اذ يشعر الصاعد فى هذا العلو ببعض الصعوبة فى التنفس ويحس بالضيق ، والآية القرآنية صرحت بأن من يرتفع فى السماء يشعر بعوارض الضيق ، ولذلك يستعمل الطيارون الذين يصعدون الى الارتفاعات العالية أجهزة التنفس الصناعية حتى يتفادوا هذه الحالة ولقد لفتت هذه الظاهرة نظر هواة التسلق حتى قبل ارتياد الطبقات الجوية العليا • ويلاحظ أن الآية لم تعبر عن لفظ الصعود فى الجبال بل عبرت عن الصعود فى السماء • كما أن بلاد العرب ذات سطح منبسط وصحارى ممتدة وليس فيها جبال عالية بحيث يأخذ الساكن فيها فكرة عن تسلق الجبال وما يشعر المتسلق فيها من ضيق » •

٣ — قال تعالى :

« ومن كل شيء خلقنا زوجين » (الذاريات : ٤٩) •

وقال : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن

أنفسهم ومما لا يعلمون » (يس : ٣٦) •

القاعدة فى اللغة العربية أن « كل » اذا أضيفت الى معرفة عمت

(١) الفرث : هو الفضلات •

أجزاءها وإذا أضيفت الى نكرة عمت أفرادها وفي الآية الأولى أضيفت « كل » الى نكرة لذلك تعم جميع الأشياء •

يقول صاحب ظلال القرآن : « وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الأرض وربما في هذا الكون ، اذ أن التعبير لا يخص الأرض قاعدة الزوجية في الخلق وهي ظاهرة الأحياء ولكن كلمة شيء تشمل غير الأحياء أيضا ، والتعبير يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية ، وحين نتذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرنا وأن فكرة عموم الزوجية حتى في الأحياء لم تكن معروفة حينذاك فضلا على عموم الزوجية في كل شيء • حين نتذكر هذا نجدنا أمام أمر عجيب عظيم وهو يطلعنا على الحقائق الكونية في هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير •

كما أن هذا النص يجعلنا نرجح أن البحوث العلمية الحديثة سائرة في طريق الوصول وهي لا تكاد ••

ان بناء الكون كله يرجع الى الذرة وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء موجب وسالب •

٤ — قال تعالى : « يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم » (الحج : ٥) •

وقال : « ألم نخلقكم من ماء مهين • فجعلناه في قرار مكين • الى قدر معلوم • فقدرنا فنعم القادرون » (المرسلات : ٢٠ — ٢٣) •
وقال : « ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين • ثم جعلناه نطفة في قرار مكين • ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » (المؤمنون : ١٢ — ١٤) وقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق • خلق الانسان من علق » (العلق : ١ — ٢) •

يتم الاخصاب بين الحيوان المنوى للرجل وبويضة المرأة في أعلى القناة الواصلة بين المبيض والرحم ، فيبدأ الجنين خلية واحدة ولكن الانسان كله بكل عناصره وخصائصه يكون مختصرا في تلك الخلية الواحدة ، ثم تتحدر في اتجاه الرحم مستغرقة في رحلتها ما يقارب الأسبوع ، تكون خلاله قد تكاثرت حتى أصبحت كتلة من الخلايا

تلتصق هذه الكتلة بجدار الرحم فتتهشبه ربما بواسطة أنزيمات معينة حتى تعلق به كنقطة صغيرة تتغذى على دم الأم وليس أدق من كلمة العنقة في وصف شكل ونشاط الجنين في هذه المرحلة ثم تأخذ هذه العنقة في النمو ، وتأخذ خلاياها في التنوع ، ويكون شكلها مستديرا بغير انتظام ، وتبقى كذلك بضعة أسابيع يكون الدم فيها في (برك) صغيرة لا في سرايين محددة ، ان شكلها لا يختلف عن شكل قطعة من اللحم المضغوط وان كان طولها لا يتعدى بضعة مليمترات .

ثم ينشأ طراز من العظم أكثر شفافية وأقل صلابة وأشد رخاوة من العظم العادي هو الغضروف الذي تترسب حوله مادة العظم فيما بعد ، وتنشط الخلايا في كافة أجزاء المضغة مكونة الأنسجة والأجهزة التي تكسو العظام المتكونة لحما .

وهنا يقف الانسان مدهوشا أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة الا أخيرا بعد تقدم علم الأجنة التشريحي . وذلك أن خلايا العظام هي التي تتكون أولا في الجنين ، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم الا بعد ظهور خلايا العظم ، وتتمام الهيكل العظمي الغضروفي للجنين . وهي الحقيقة التي يسجلها النص القرآني : « فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما » فسبحان العظيم الخبير .

في كل المراحل السابقة لا توجد فروق بين جنين الانسان وجنين الحيوان ولكن ما ان يوشك الشهر الثاني للحمل على الانتهاء حتى تتضح الخصائص الانسانية لهذا الجنين فاذا به خلق آخر .

ان الجنين الانساني مزود بخصائص معينة هي التي تسلك به طريقه الانساني فيما بعد ، وهو ينشأ « خلقا آخر » في آخر أطواره الجنينية بينما يقف الجنين الحيواني عند التطور الحيواني لأنه غير مزود بتلك الخصائص . ومن ثم فانه لا يمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبة الحيوانية فيتطور الى مرتبة الانسان تطورا آليا كما تقول النظريات المادية ، فهما نوعان مختلفان اختلفا بتلك النفخة الالهية انتى بها صارت سلالة من الطين انسانا . واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفخة والتي ينشأ بها الجنين الانساني خلقا آخر . ان الانسان والحيوان يتشابهان في التكوين انحيواني ، ثم يبقى الحيوان حيوانا في مكانه لا يتعداه ، ويتحول

الانسان خلقا آخر قابلا لما هو مهياً له من الكمال بواسطة خصائص مميزة وهبها له الله عن تدبير مقصود لا عن طريق تطور آلى من نوع الحيوان الى نوع الانسان «فتبارك الله أحسن الخالقين» •

وان الناس ليقفون دهشين أمام ما يسمونه « معجزات العلم » (١) حين يصنع الانسان جهازا يتبع طريقا خاصا في تحريكه دون تدخل مباشر من الانسان • فأين هذا من سير الجنين في مراحل تلك وأطواره وتحولاته ، وبين كل مرحلة ومرحلة فوارق هائلة في طبيعتها وتحولات كاملة في ماهيتها ؟

غير أن البشر يمرون على هذه الخوارق مغمضى العيون مغلقى القلوب • لأن طول الألفة أنساهم أمرها الخارق العجيب ، وأن مجرد التفكير في أن الانسان هذا الكائن المعقد كله ملخص وكامن بجميع خصائصه وسماته وشيائه في تلك النقطة الصغيرة التى لا تراها العين المجردة ، وأن تلك الخصائص والسمات والشيئات كلها تنمو وتتفتح وتتحرك في مراحل التطور الجنينية حتى تبرز واضحة عندما ينشأ خلقا آخر • فاذا هى ناطقة بارزة في الطفل مرة أخرى • واذا كان الطفل يحمل وراثاته الخاصة فوق الوراثة البشرية العامة • هذه الوراثة وتلك التى كانت كامنة في تلك النقطة •

ان مجرد التفكير في هذه الحقيقة التى تتكرر كل لحظة لكاف وحده أن يفتح مغاليق القلوب على ذلك التدبير العجيب الغريب •

كل هذا يتم في القرار المكين الذى هو الرحم وان من يدرس تشريح الرحم وموضعه المكين الأمين في أسفل بطن المرأة ويرى ذلك الوعاء ذا الجدار العريض السميك ، ثم يرى هذه الأربطة العريضة ، والأربطة المستديرة ، وهذه الأجزاء من البريتون التى تشده الى المثانة والمستقيم ، وكلها تحفظ توازن الرحم وتشد أزره وتحميه من الميل أو السقوط • تطول معه اذا ارتفع عند تقدم الحمل ، وتقتصر الى طولها الطبيعى تدريجيا بعد الولادة • ان من يدرس كل ذلك ثم يعرف تكوين الحوض وعظامه يعرف جيدا صدق قوله تعالى :

« ثم جعلناه نطفة في قرار مكين » •

(١) لا يجوز اطلاق المعجزة الا على الأمر الخارق للعادة الذى يجرى على

يد الرسل بقدر الله •

هـ — « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » (الحجر : ٢٢) •

« ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » (النور : ٤٣)

ان العوامل المسببة للأمطار محورها الكهربائية الجوية وقد أشير إليها اشارات واضحة كما سنرى في هاتين الآيتين كما ضمت الآيتان معاني أخرى •

لقد كان الناس قبل يحملون وصف الرياح « باللواقح » على أنها لواقح للزرع والشجر وهذا منهم اغفال للنصف الثانى من الآية • إذ لو كان ما ذهبوا اليه هو المراد لترتب عليه ازكاء الزرع واخراج الثمر للناس يأكلونه لا انزال الماء من السماء يشربونه ، أما وقد رتب الله على ارسال الرياح لواقح انزال الماء من السماء يسقاه انناس فقد تحتم أن يكون « للاقح » معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع ويكون مع ذلك — من ناحية — شبيها بلاقح الأحياء من زروع وحيوان ، ومن ناحية أخرى يكون بينه وبين نزول الماء ما بين العلة والمعلول ، أو السبب والمسبب ، وما عليك الآن الا أن تتذكر بعض الحقائق العلمية حتى ترى سر الاعجاز فى الآية :

ان تكاثف السحاب مطرا أثر عن الكهربائية ، اذ من السحاب ما كهربائيته سالبة ، ومنه ما كهربائيته موجبة ، والرياح هى أداة اتحاد أنواع السحب حتى يتكون المطر • وهذا هو المراد كما هو ظاهر فى الآية من وصف الرياح بأنها لواقح •

فالملاحظة هنا بين قطيرات أو بين سحاب وسحاب والشبه تام بين التلقيح الكهربائى والتلقيح النباتى فكما تتحد الخليتان فى حالة التلقيح النباتى لتنشأ بعد ذلك خلية واحدة لها غير خواص الخليتين الأصليتين فكذلك فى حالة اتحاد سحاب وسحاب اذ ينشأ عنهما برق ورعد ومطر ، اذ ينزل المطر كأثر عنه التفريغ الكهربائى السحابى •

فآية الحجر تلك هى مظهر من مظاهر الاعجاز المتجدد للقرآن

لأن تلاقح انسحاب وأثره في نزول المطر أمر كان يجهله الانسان حتى كشف عنه العلم الحديث .

ثم زادت آية النور معنى الاعجاز « ثم يؤلف بينه » فان التأليف بين السحاب ما هو الا اشارة واضحة بل وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية حتى يتجاذب ويتعاباً في الجو تعبئة تتفق مع ما سيخلق عنها من برق وصواعق ومن مطر أو برد .

فاذا كان من السحاب المتجاذب بعضه فوق بعض نشأ السحاب الركام عظيم ، فاذا حدث التفريغ داخل السحاب بين بعض تلك الطبقات وبعض — كما هو الغالب — نزل المطر الناشئ عن ذلك التفريغ من خلال الطبقات الدنيا ، وتكبر قطراته أثناء نزولها بما تستلحقه من القطيرات وهو الودق ، فاذا بلغت الحالة الجوية الكهربائية في ذلك السحاب الركام من القوة والاضطراب ما يسمح بوقوع تلك الظاهرة الغريبة ظاهرة تردد بلورات الماء بين منطقتين ثلجية علوية ومطرية سفلية تكون البرد ونما حتى يصير أثقل من أن يظل في أسر تلك القوى فيسقط على الأرض والانسان لا يعرف كثيرا عن الظروف التي يتكون فيها البرد ولكنه يعرف أنها ظروف يسودها اضطراب جوى عظيم . هذا الاضطراب قد أشارت اليه الآية والى طبيعته اشارتين :

الأولى : حين شبهت السحاب الركام الذي يتكون البرد داخله بالجبال . ومشهد السحاب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها ، فاذا المشهد مشهد الجبال حقا بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها وانه لتعبير مصور للحقيقة التي لم يرها الناس الا بعدما ركبوا الطائرات .

والثانية : حين أشارت الى عظم القوى الكهربائية المشتركة في تكوينه بنصها على عظم برقه وشدته وبلوغه من الحرارة درجة الابيضاض أو ما فوق ذلك « يكاد سنا برقه يذهب بالابصار » .

٦ — « ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جطنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا »

(الفرقان : ٤٥ ، ٤٦)

نحن نعلم أن الجو هو تراكب طبقات متتابعة ، تقل فيما بينها كثافة الهواء ابتداء من الأرض ، وفي وسط كهذا يجب أن يكون مسلك الشعاع الضوئي منحنيا طبقا للقانون الثانى للعالمين « الهيثم —

ديكارت « وهو قانون الانكسار .. ان قانون « الهيثم — ديكارت » يقول بأن الشعاع الضوئى الذى ينتشر فى مجال ذى كثافة متغيرة باستمرار يخط فى مسيره خطا منحنيا ذا تجويف متجه نحو النقط الأكثر كثافة وفى هذا المجال يقبض الظل « قبضا يسيرا » بالنسبة لما قد يكون عليه فى الفراغ الذى لا يوجد فيه انكسار . ذلك توافق عظيم بين ما كشفه الانسان مما لم يكن معروفا زمن تنزل القرآن وبين القرآن .

٧. — « والسماء بنيناها بايد وانا لموسعون » (الذاريات : ٤٧) وهكذا يبدو الكون من خلال الآية — بسبب استعمال اسم الفاعل « موسع » الذى يفيد الاستمرار فى هذه الحالة — وكأنه فى حالة توسع مستمر وكأنه يزداد على الدوام ، هذه المسألة أصبحت الآن من مسلمات العلوم وهى التى هالت « آينشتين » عندما اكتشف عالم الطبيعة « هابل » أن الكواكب السديمية تبتعد عن « سديمنا » واستتبط عالم الرياضة البلجيكي « لومتر » من ذلك نظرية امتداد الكون ، أو ليس عجيبا مدهلا أن يضع الوحي دائما معالمة المضيئة أمام الفكر العلمى حتى كأنها تصف له الطريق ؟ وهل يستطيع أحد أن يقول بأن معالم كهذه قد انبثقت من عقل أمى ؟

٨. — « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ، صنع الله الذى أتقن كل شيء ، انه خبير بما تفعلون » (النمل : ٨٨) .
« يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا » (الأعراف : ٥٤) .

ان فى هاتين الآيتين اشارتين واضحتين الى موضوع دوران الأرض فالآية الأولى تلفت النظر الى أن الانسان لأول وهلة يرى الجبال ثابتة ، ولكنها فى واقع الأمر تسير تبعا لسير الكرة الأرضية ذاتها ويذهب بعض المفسرين الى أن الآية فى حديث الآخرة ولكن نهايتها : « صنع الله الذى أتقن كل شيء » تدل على أنها فى عالمنا هذا .

والآية الثانية تشير الى نفس المعنى وان كانت الإشارة أبعد وذلك : لنفرض أن الشمس والأرض ثابتتان اذن يكون قسم من الأرض نهارا دائما وآخر ليلا دائما ، فاذا ما فرضنا أن الشمس هى التى تدور حول الأرض فان فى هذه الحالة المنبع الضوئى هو المتحرك واذن فالنهار هو النهار والليل تابع .

وعلى عكس ذلك فى حالة دوران الأرض فالمنبع الضوئى ثابت

نسبياً^(١) — أى بالنسبة للأرض — وان كان هو فى حد ذاته متحركاً وفى حالة ثبات المنبع الضوئى يكون الليل هو السائر وحركة النهار تابعة وهذا الذى ذكرته الآية اذ قالت : « **يفشى الليل النهار يطلبه حثيثاً** » فالليل هو الذى يطلب النهار ولا يكون هذا الا اذا كانت الأرض هى التى تدور حول نفسها ، ولزيادة التوضيح نقول : اذ عمل الفعل — فى اللغة العربية — بمفعوليه فالأول منهما يكون فاعلاً فى المعنى والثانى مفعولاً ، ولا يصح تقديم ما هو مفعول فى المعنى على ما هو فاعل بالمعنى فى حالة وجود اللبس وآية : « **يفشى الليل النهار يطلبه حثيثاً** » عمل فعل بمفعولين كل منهما يصلح أن يكون فاعلاً ومفعولاً • فلا بد إذن أن الفاعل فى المعنى يكون هو المقدم فلما قال الله عز وجل : « **يفشى الليل النهار** » دل على أن الليل هو الفاعل فى النهار فى المعنى وهو الفاعل فى قوله عز وجل : « **يطلبه حثيثاً** » يقول ابن مالك :

الأصل سبق فاعل معنى كمن من ألبس من زاركم نسج اليمن ويلزم الأصل لموجب عرى وترك ذاك الأصل حتماً قد يرى

٩ — والآيات القرآنية فى هذه الناحية كثيرة لمن أراد أن يتبع وكلها تشير الى شىء واحد : ان هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عند بشر فانك اذ تجد فى كلمتين حقيقة علمية ما عرفها الناس الا فى زمن متأخر تصبح أمام شىء خارق جداً •

فعندما يقول : « **والجبال أوتادا** » (النبأ : ٧) تجد نفسك أمام أدق النظريات الجيولوجية التى تقول بأن للجبال جذورا وتدبة فى الأرض يعدل امتدادها ضعفى ارتفاع الجبل عن الأرض • وعندما يقول :

« **اذا زلزلت الأرض زلزالها • وأخرجت الأرض أثقالها** » (الزلزلة : ١ — ٢) تجد نفسك أمام أدق النظريات الجيولوجية التى تعب العلم حتى وصل اليها وهى أن الاضطراب سابق البركان وأن باطن الأرض أثقل من قشرتها وان كانت الآية لم تأت لبيان هذا ولكنها مع هذا لم تتناقض مع النظريات العلمية •

(١) يقول علماء الكون اليوم : ان للشمس ثلاث حركات • حركة عمودية باتجاه كوكب الجاثى مع الكواكب السيارة ، وحركة حول نفسها ، وحركة مع مجرتها •

وعندما يقول في قراءة صحيحة :

« وجعل فيها سرجا » (الفرقان : ٦١) عن السماء تجد نفسك أمام حقيقة علمية غير متوقعة فالسراج في اصطلاح القرآن الشمس وفي الماضى لم يكن تعرف الا شمس واحدة واذا بالعلم اليوم يقول هذه النجوم كلها شموس •
وعندما يقول :

« والشمس تجرى لمستقر لها » (يس : ٣٨) تجد نفسك أمام أدق الحقائق عن الشمس التى تبين أخيرا أنها تشارك مجرتها فى دورتها وتدور حول نفسها وهى مع هذا تسير فى اتجاه عمودى نحو كوكبة الجاثى ويتوقع العلم حدوث حالة ما لها فى يوم من الأيام •
وعندما يقول :

« يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » (الزمر : ٥) تجد نفسك أمام مسألة كروية الأرض اذ التكوير انما يكون للشئ الدائرى كما تجد نفس المعنى فى قوله : « والأرض بعد ذلك حاهها » (النازعات : ٣٠) فالأدحية والأدحوة : بيض النعام •
وعندما يقول :

« وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » (النحل : ١٥) تجد نفسك أمام الحقيقة العلمية التى تقول انه لو لا الجبال لكانت قشرة الأرض فى حالة تشقق دائم وبالتالى فى حالة ميدان واضطراب شديدين •
وعندما يقول :

« أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » (الأنبياء : ٣٠)

تجد نفسك أمام ما كشفه العلم بعد زمن فى كلا تفسيرى الآية سواء فسرنا « رتقا » بأنها كنتا شيئا واحدا وهذا ينسجم مع أدق النظريات العلمية خاصة السديمية أو فسرنا « رتقا » بأن الأرض كانت لا تتبت والسماء لا تمطر وهذا ينسجم مع النظريات التى تقول ان الأرض فى الأصل كانت كتلة نارية كالشمس فلم يكن وقتذاك شئ حى أو ماء ، وكلا التفسيرين أشار اليه ابن كثير •

وهذا وأمثاله كثير ولو أنصف العقل عرف أن هذا القرآن أنزله

خالق السموات والأرض العليم بهما « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف
الخبير » (الملك : ١٤) •

* * *

٣

ومن خصائص هذا القرآن التي تشير إلى ربانية مصدره ما أشار
إليه القرآن بقوله :

« وانه لكتاب عزيز • لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
تنزيل من حكيم حميد » (فصلت : ٤١ ، ٤٢) •

لقد تكلم القرآن عن الماضي وتكلم عن المستقبل وفي كلامه عن
الماضي أو المستقبل تنزيه عن الخطأ وجل عن الباطل ، وهو في
كلا الأمرين يقدم الدليل الكامل على أنه من عند الله •

وقد حاول ناس أن يطعنوا ببعض أخباره عن الماضي متصورين
أن بعد الزمان يجعل كلامهم مقبولا عند غير المؤمنين ، وهم يدعون
في ذلك : النقد العلمي ، والنزاهة التاريخية ، ولكن العلم أثبت بالكشوف
المحسوسة تخريفهم وصدق القرآن •

« فمن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر عادا وثمودا ، وأنكر
الكوارث التي أصابتهم بغير حجة ، الا أنه يحسب أن المنكر لا يطالب
بحجة ولا يعاب على النفي الجزاف • فما لبثوا طويلا حتى تبين لهم
أن عادا Oadita وثمرود Thamudida مذكورتان في تاريخ بطليموس
وأن اسم عاد مقرون باسم ارم في كتب اليونان فهم يكتبونها
« ادراميت » ويؤيدون تسمية القرآن لها بعاد ارم ذات العماد وعثر
المنقب « موزيل التشيكي » صاحب كتاب الحجاز الشمالي على آثار
هيكل عند مدين منقوش عليه كلام بالنبطية واليونانية وفيه اشارة الى
قبائل ثمود •

ومن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر أبرهة ، ونكبة جيشه ، واهتمامه
بتعطيل الكعبة ، وبنائه القليس في صنعاء لصرف العرب عن الكعبة
أنها ، ثم تنكشف النقوش عن اسمه على خرائب سد مأرب ملقبا
بالأمير الحبشي من قبل « ملك الحبشة وسبأ وريدان وحضرموت
واليمامة وعرب الوعر والسهل » •

ويروى الرحالة « بروس » الذي زار بلاد الحبشة في القرن الثامن عشر أن الأحباش يذكرون في تواريخهم أن أبرهة قصد الى مكة ثم ارتد عنها لما أصاب جيشه من المرض الذي يصفونه بصفة الجدري ، ولا يقل عن هذه الأسانيد جميعا سند التاريخ بعام الفيل قبل البعثة المحمدية بجيل واحد بل أقل من جيل » .

انه ما من شيء تحدث عنه القرآن في الماضي الا وكانت وقائع التاريخ القديم ونصوصه وحفرياتة تؤيده من أدق التفاصيل — حيث يحدثنا القرآن عن شك بعض النصارى أنفسهم في صلب المسيح ، فتكون فرقة كبيرة من فرقهم قديما لا تؤمن بصلب المسيح — الى أكبر الوقائع حيث يحدثنا القرآن عن الطوفان العظيم الذي تذكره مصادر التاريخ القديم كلها ، سواء المصادر المصرية ، أو اليونانية ، أو البابلية ، ويأتى التنقيب الحديث ليرى طميه ويحدد مكانه .

وعندما نعلم أن قسما من أخبار القرآن كان معروفا عند العرب ، وقسما كان مجهولا لا يعرف شيء عنه ، كقصّة الطوفان . اذ يقول القرآن عنها : **« تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا »** (هود : ٤٩) ولم يكن هناك مصدر آخر غير الوحي كما هو ثابت تاريخيا يأخذ عنه محمد صلى الله عليه وسلم . يتبين كنتيجة لهذا كيف أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون مصدره غير الله عز وجل .

« لا يأتيه الباطل من بين يديه » (فصلت : ٤٢) .

وأما حديثه عن المستقبل ، وتصديق المستقبل حديثه . فذلك أدل في بابه على أنه من عند الله . فما من كلمة قالها القرآن قديما نقضتها الوقائع على مر الأيام ، حتى هذا الزمان والى آخر الزمان . سواء في ذلك ما في القرآن من تشريع أو اخبار أو بيان ، ولتشريع القرآن محل آخر ندرسه فيه .

وقد رأينا مثلا في الخاصية السابقة على أن بيانه عن الكون كان موافقا — ولا يمكن ألا يكون — لكل ما اكتشفه الانسان من حقائق . ونريد هنا أن نتحدث عن شيء مما أخبر به عن المستقبل ووقع ، وقبل أن نبدأ بضرب الأمثلة نحب أن نذكر كيف أن في هذه الخاصية دليلا لا يدحض على أن القرآن من عند الله :

ان علم الانسان محدود بالزمان الحاضر والماضي ، أما المستقبل

فهو غيب مبستور مجهول ، والانسان يستطيع أن يوازن ويقايس ليصل
انى احتمال فى أمر هذا المستقبل ، قد يقع وقد لا يقع وهو أبدا
لا يستطيع أن يجزم ، فعندما يحدثنا كتاب عن بعض ما سيأتى حديثا
جازما ، ثم يقع هذا المخبر عنه تماما وقوعا مطابقا مرات دون أن يخرم
ذاك مرة ، اننا فى هذه الحالة لابد واجدون غير علم الانسان واحاطته ،
انه لابد أن يكون ذلك أثرا من علم محيط منكشف أمامه المستقبل كالحاضر
والماضى انه علم الله عز وجل •

وهذه أمثلة مما فى القرآن :

١ — « والله يعصمك من الناس » (المائدة : ٦٧) :

روى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
سهر ذات ليلة وهى الى جنبه قالت : فقلت : ما شأنك يا رسول الله ؟
قال : « ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة » قالت : فبينما
أنا على ذلك اذ سمعت صوت السلاح فقال : من هذا ؟ فقال : أنا سعد
ابن مالك ، فقال : ما جاء بك ؟ قال : جئت لأحرسك يا رسول الله •
قالت : فسمعت غطيظ رسول الله فى نومه •

روى الترمذى والحاكم عن عائشة وروى الطبرانى عن أبى سعيد
الخدري قال :

كان النبى صلى الله عليه وسلم يحرس بالليل فلما نزلت هذه الآية
ترك الحرس وقال : « يا أيها الناس •• انصرفوا فقد عصمنى الله » •
من هذين الأثرين يتبين لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
كان يحب أن يحرس وكان يحب أن يحتاط فى أمر حماية نفسه وقد
حرسه الصحابة حتى نزول هذه الآية التى تجزم أن الرسول صلى الله
عليه وسلم معصوم من الناس •

لن تستطيع يد قاتل أن تمتد اليه ، وهذا اخبار عن غيب اذ من
الذى يستطيع أن يجزم أنه لن يقتل قتلا مع توفر دواعى التعرض
لنقتل خاصة لرجل كمحمد صلى الله عليه وسلم عاداه الناس جميعا
وصار للعداء مظهر الدم فى أمة تأصل فيها معنى الثأر • ان مثل هذا
لا يجزم به انسان متماسك عقليا ، ان لم يكن مصدر ذلك العلم المحيط •

وتذكر لنا السيرة محاولات كثيرة أعداها اليهود لاغتياله ، ومحاولات
كثيرة أعداها المشركون كلها لم تبلغ شيئا فى الوقت الذى لم يكن أى
مانع بشرى يحول دون تنفيذ الجريمة الا غناية الله • وعدا عن محاولات

الاغتيال فقد كانت معارك الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة وكانت
خطرة وكان الرسول صلى الله عليه وسلم هو هدف العدو فيها ،
وما حدث أبدا أن ولي الرسول صلى الله عليه وسلم العدو ظهره وكان
أقرب أصحابه إلى العدو ساعة المعركة وكانوا يلوذون به إذا حمى
الوطيس كما يذكر ذلك صناديدهم ، ومع هذا وذاك فالآية تجزم أن
هذا الانسان معصوم لن يقتل وقد كان .

لقد انتقل الرسول عليه السلام الى الرفيق الأعلى بيد القدرة
الالهية لا بتسليط انسان — ونذكر هنا أثرين يوضحان حماية الله لرسوله
في أشد ساعات الخطر تحقيقا لوعده :

— روى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة وروى مسلم في
صحيحه عن جابر قال :

كنا اذا أتينا في سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى
الله عليه وسلم فلما كنا بذات الرقاع نزل نبي الله صلى الله عليه وسلم
تحت شجرة وعلق سيفه فيها فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف
فاختارطه وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : أتخافني ؟ قال : لا .
قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله يمنعني منك وضع السيف ، فوضعه .

— وروى الشيخان : في غزوة حنين انكشف المسلمون وولوا مدبرين
فطفق الرسول صلى الله عليه وسلم يركض جهة العدو راكبا بغلته
وعمه العباس آخذ بلجامها يكفها عن الاسراع ، فأقبل المشركون اليه
فلما غشوه لم يفر ولم ينكص بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه
وجعل يقول : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب . . . كأنما يتحداهم
ويدلهم على مكانه فوالله ما نالوا منه نبلا بل ، أيده الله بجنده وكف عنه
أيديهم بيده .

ان نبوءة تقول لانسان وهو معرض كل يوم لخطر القتل : لن تقتل .
لا يمكن أن يجزم بها رجل يحترم نفسه أن يكذبه الناس ما لم يكن
ذلك وحيا من الله الذي يعلم الغيب وبيده الموت والحياة .

٢ — « سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة
أدهى وأمر » (القمر : ٤٥ ، ٤٦) .

نزلت هذه الآية في مكة كما روى البخاري عن عائشة : نزل على
محمد بمكة واني لجارية ألعب : « بل الساعة موعدهم والساعة
أدهى وأمر » والمسلمون وقتذاك مستضعفون في مكة قليلون رمتهم

العرب عن قوس واحدة ولم تكن هناك أية فكرة قتال ، ولو كان قتال فلم يكن متوقعا في ميزان القوة أن يغلب المسلمون ، ومع ذلك تنزل هذه الآية النبئية فلا يفهم المسلمون المراد منها حتى عمر • روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال :

لما نزلت « سيهزم الجمع ويولون الدبر » قال عمر : أى جمع يهزم ؟ أى جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ • وقد وقعت الواقعة بعد فترة طويلة تميز بها معسكر الكافرين عن معسكر المؤمنين وأصبح للمسلمين دار ، وللمشركين دار ، واصطدم الجمعان ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم عارف يومها أنه اليوم الموعود • روى البخارى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال وهو في قبة له يوم بدر : أنشدك عهدك ووعدك اللهم ان شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض • فأخذ أبو بكر — رضى الله عنه — بيده وقال : حسبك يا رسول الله • ألححت على ربك • فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر • بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » وقد انتصر جمع الايمان ، وهزم جمع الكافرين وصدق القرآن العظيم ، وآمن المؤمنون أن هذا انما هو علم الله الذى لا يخطئ •

٣ — « غلبت الروم • فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون • فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون • بنصر الله ، ينصر من يشاء » (الروم : ٢ — ٥) •

— كان المشركون يجادلون المسلمين فى مكة قبل الهجرة ، يقولون لهم : ان الروم أهل كتاب وقد غلبتهم المجوس ، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذى أنزل عليكم ، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم فنزلت الآية ••

وانقد كان الاخبار بهذا النصر وبأنه كائن فى وقت معين اخبارا بأمرين كل منهما خارج عن متناول الظنون • ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حدا يكفى من دلائله أنها غزيت فى عقر دارها ، وهزمت فى بلادها ، فلم يكن أحد يظن أنها تقوم لها بعد ذلك — الى أمد طويل — قائمة فضلا عن أن يحدد الوقت الذى سيكون

لها فيه النصر ، ولذلك كذب به المشركون وتراهنوا على تكذيبه ، على ان القرآن لم يكتف بهذين الوعدين بل عززهما بثالث حيث يقول :
« **ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله** » .

إشارة الى أن اليوم الذي يكون فيه النصر هناك للروم على الفرس . سيقع فيه هاهنا نصر للمسلمين على المشركين ، وإذا كان كل واحد من النصرين في حد ذاته مستبعدا عند الناس أشد الاستبعاد ، فكيف انظر بوقوعهما مقترنين في يوم ؟

لذلك أكد القرآن أعظم التأكيد بقوله : « **وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » (الروم : ٦) ولقد صدق الله وعده فتمت للروم الغلبة على الفرس باجماع المؤرخين في أقل من تسع سنين ، وكان يوم نصرها هو اليوم الذي وقع فيه نصر للمسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى . كما رواه الترمذي عن أبي سعيد ورواه الطبري عن ابن عباس وغيره . فكانت نبوءة ثالثة في الآية تحققت .

٤ — « **ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال ان هذا الا سحر يؤثر . ان هذا الا قول البشر . ساءليه سقر** »
(المدثر : ٢١ — ٢٦)

« **تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامراته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد** »
(سورة المسد)

النص الأول :

في الوليد بن المغيرة كما هو معروف من أسباب النزول .
وانتص الثاني في عم النبي صلى الله عليه وسلم وزوجة عمه .
والنصان يخبران في حياة الثلاثة أنهم سيدخلون النار وهذا يعني أنهم سيموتون على الكفر ولن يدخلوا في الاسلام وواضح في ذلك الاخبار عن الغيب . فكم من مشرك كان مثلهم ضلالا وكفرا وعتوا وكيدا بالمسلمين ، ثم كان بعد من المسلمين كأبي سفيان وخالد وعمرو بن العاص . وظواهر الأمر لم تكن تدل على أن الوليد مثلا أبعد من أبي سفيان عن الاسلام . فللوليد تلك الشهادة العظيمة التي رأيناها سابقا في القرآن كما أن الآخر عم النبي صلى الله عليه وسلم

ولكنها النبوءة التي لا تتخلف اذ تقول فيكون ما قالت ولم يحدث أن انقرآن ذكر انسانا بأنه من أهل النار ثم أسلم .

٥ — « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا » (الفتح : ٢٧) .

منع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية واشترطت عليهم قريش اذا جاءوها في العام المقبل أن يدخلوها عزلا من كل سلاح الا السيوف في القرب .

فهل كان للمسلمين أن يثقوا بوفاء المشركين بعقدتهم وقد بلوا منهم نكث العهود ، وقطع الأرحام ، وانتهاك شعائر الله ؟ أليسوا اليوم يحبسون هديهم أن يبلغ محله ؟ فماذا هم صانعون غدا ؟

على أنهم لو صدقوا في تمكين المسلمين من الدخول فكيف يأمن المسلمون جانبهم اذا دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعهم وقوتهم ؟ ألا تكون هذه مكيدة يراد منها استدراجهم الى فخ ؟ وآية ذلك . اشتراط تجردهم من السلاح الا السيف في القرب وهو سلاح قد يطمئن به المسلمون الى أنهم لن ينالوا بأيديهم ورماحهم ولكن لا يأمنون معه أن ينالوا بسهامهم وبنبالهم .

في هذه الظروف المريبة يجيئهم الوعد الجازم بالأمور الثلاثة مجتمعة : الدخول والأمن وقضاء الشعيرة . فدخلوها في عمرة القضاء آمنين ، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم ، وقضوا مناسكهم كما أخرج ذلك الشيخان . وكان من بعد ذلك الفتح القريب .

٦ — كان القرآن بمكة يقص على المسلمين ما يثبت به فؤادهم ، ويعددهم الأمن والنصر الذي كان لن قبلهم « ولقد سبقنا كلمتنا لعبادنا المرسلين . انهم لهم المنصورون . وان جنودنا لهم الغالبون » (الصافات : ١٧١ — ١٧٣)

« انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » (غافر : ٥١) .

كان هذا يوم كانوا في مكة حيث كانوا ينامون على خوف ، ويستيقظون على خوف . ثم هاجروا الى المدينة فكيف كان الحال ؟ روى الحاكم وصححه : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار ، رمتهم العرب عن قوس واحدة وكانوا لا يبيتون الا بالسلاح ولا يصبحون الا فيه فقالوا : أترون انا نعيش آمنين مطمئنين لا نخاف الا الله فنزلت الآية : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » (النور : ٥٥) .

وروى ابن أبي حاتم عن البراء قال : نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد . فانظر بعد ذلك ماذا كان من نصر وماذا كان من أمن وماذا كان من استخلاف بلدة عدد سكانها مئات تقوم بها دولة كل من حولها يعادياها ، واذا بها بسنوات تضرب كل جزيرة العرب وتنتصر عليها ، وتضرب أكبر دولتين في العالم : دولة الفرس ودولة الروم فتنتصر عليهما ، ثم تتساح في الأرض فلا يستعصى على سيوف أهلها شعب ولا بلد .

٧ — « وما أنتم بمعجزين في الأرض ، وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير » (الشورى : ٣١) . « وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء » (العنكبوت : ٢٢) .

ان لكلام عن الشيء فرع تصوره هذا بالنسبة للانسان . أما بالنسبة للذات الالهية ، فان الكلام عن شيء أثر العلم به . وأنت ترى في هاتين الآيتين خطابا للانسان أنه لن يعجز الله ، ولكن يلاحظ في الآية الأولى أنه خاطب الانسان على الأرض فقط ، وفي الآية الثانية خاطبه على الأرض وفي السماء . فزيادة « في السماء » اذن في الآية الثانية زيادة ذات دلالة كبيرة ، هذه الزيادة فيها معنى النبوءة التي تبشر بإمكانية صعود الانسان الى السماء وتخطبه في كل أحواله بأنه خاضع لقهر المشيئة الالهية غير خارج عما تريد هذه الذات .

يا انسان لن تعجزنى على الأرض ، واذا صعدت الى السماء فلن تعجزنى ، ولم يصعد الانسان الى السماء الا في عصرنا هذا ، فكأن الخطاب اذن لانساننا الحالى وذلك من أسرار الاعجاز .

وفي كل حال يظهر لك كيف أن الزمان يظهر ما في القرآن من حق ، وكيف أن هذا القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

٨ — « والخيول والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون » (النحل : ٨) .

« وآية لهم أنا حملنا ثريتهم في الفلك المشحون • وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » (يس : ٤١ ، ٤٢) •

الآية الأولى ذكرت أصنافا مما يركبه الانسان وله فيه زينة ، وبعد أن عد هذه الأصناف ذكر أنه سيخلق ما لم يعلمه الصحابة المخاطبون الأول بهذه الآية ، ومن جو الآية نفهم أن هذا الشيء سيخلقه الله عز وجل هو مما يركب وفيه زينة بنفس الوقت غير الخيل والبغال والحمير •

والآية الثانية تحدد نوع تحديد بعض صفات هذه المركوبات وتقول :
« وآية لهم أنا حملنا ثريتهم في الفلك المشحون • وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » •

ترى ما هذا الذى هو من جنس الفلك ويركبه الانسان ؟
لقد كان يومها في مستقبل الغيب السفينة الفضائية والطائرة والسيارة والقطار وكل هذه المركوبات التى رأيناها حديثا تدخل لغويا في كلمة : « وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » •

واذن فنحن أمام آيتين تبشران بمركوبات جديدة للانسان ، وقد كان ما بشر به القرآن ، يبقى معنى لا بد من الاشارة اليه وهو أننا نلاحظ تطور المركوبات يوما بعد يوم كل يوم يأتى بجديد لا يعلمه الانسان قبله وهذا الشيء نفسه نفهمه من آخر الآية الأولى « ويخلق ما لا تعلمون » •

فالقرآن في الحقيقة يخاطب الانسان أبدا في كل زمان ومكان • فعندما أسمع الخطاب اليوم « ويخلق ما لا تعلمون » أفهم أن في غد شيئا جديدا ، ويكون اذن ما نراه من تطور كل يوم في عالم المركوبات داخل ضمنا في الآية •

وأخيرا نقول : ان بعض الصحابة منذ تنزل القرآن فهم أن الله سيخلق للانسان ما يركبه غير ما يعهده الناس قديما يسير في البر كما تسير السفن في البحر •

٩ — « وقطعناهم في الأرض أمما » (الأعراف : ١٦٨) •

«واذ تأذن ربك ليعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » (الأعراف : ١٦٧) •

« ضربت عليهم الذلة أين ما تقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس »
(آل عمران : ١١٢)

هذه الآيات في اليهود وان واقع التاريخ ، ومستقبل الزمان بالنسبة لعصر تنزل القرآن ، هو الذي يفسرها • فكان ما حدث تفسير القدرة الالهية للعلم الالهي ، اذ كان اليهود مشردين طوال هذا الزمان ، كما أخبر الله « وقطعناهم في الأرض أمما » ومع هذا التقطيع كان العذاب المتواصل من لدن عصر القرآن الى هذا الزمان •

والتاريخ يقص علينا قصة هذه الحقبة من تاريخ اليهود • وانه اضطهاد دائم • وذلة دائمة ، من ملاحقة الأسبان لهم ، الى مطاردة الكنيسة في كل مكان ، الى ما وقع لهم في روسيا ، وآخر أنباء هذا العذاب ما ساءهم اياه النازيون مما يعرفه أهل الأرض جميعا • هذه صورة مما وقع لهم في الغرب ، والصورة الأخرى التي وقعت لهم في الشرق والغرب أنهم أبدا محكومون من غيرهم ، وأنهم أبدا يعانون حياة الذلة ، وفي هذا وذاك عذاب « واذا تأذن ربك ليعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » •

ثم حدث أن عطف عليهم الشعوب والحكومات • أمريكا ، وانجلترا وروسيا ، وفرنسا • • والناس فكان لهم ما يسمى دولة فارجمع بعد ما ذكرناه الى الآية الثالثة ترى كيف تمت النبوءة « ضربت عليهم الذلة أين ما تقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس » •

عذاب متواصل وذلة دائمة الا بحبل من الله وحبل من الناس ، فلما كان هذان الحبلان • صار لهم دولة ، ولكن الآية الأولى تذكر أن العذاب لن ينقطع عنهم الى يوم القيامة • لذلك فهم على موعد معنا نحن المسلمين « انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » • وفي التوراة الحالية المحرفة هذا القول : « سأجمعك يا اسرائيل في أرض الميعاد ثم أذبحك ذبحا » وسيعلمون ماذا سيفعل بهم جند الله بعد أن تنتهي هذه الردة عن الاسلام ان شاء الله •

١٠ — والذي يريد أن يتتبع هذا النوع مما في القرآن يجد الكثير • ففي آية « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (الحجر : ٩) نبوءة تحققت وفي آية « فان لم تفعلوا ولن تفعلوا » (البقرة : ٢٤) نبوءة تحققت وفي آية « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » (فصلت : ٥٣) نبوءة تحققت • مظهرها ما كشف الانسان من علم وما يكشف ، وفي آية « اذا جاء نصر الله والفتح • ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا » (النصر : ١ ، ٢) نبوءة تحققت وفي آية

« ان الذى فرض عليك القرآن لراى الى معاد » (القصص : ٨٥)
نبوءة تحققت •

والشئ الذى نريد أن نخرج به هو أن القرآن اذا قال فذلك العلم
الذى لا يخطئ لأنه علم الله المحيط •
غير أن فهمنا للقرآن قد يخطئ وهذا هو البلاء الكبير عندما
نفهم القرآن فهما خاطئاً ، ونعطيه للناس ، بل نلزمهم به أو يلتزمون •
وهذا خطر كبير • لذلك ينبغى أن نكون على حذر عندما نقرأ تفاسير
القرآن : وكل مفسر فهم القرآن على ضوء ثقافة عصره فقدم لنا
فهمه للقرآن تفسيراً للقرآن ، وشنتان بين الفهم الخاطئ للقرآن
وحقيقة القرآن •

* * *

{

شئ آخر يدلك على أن هذا القرآن مصدره الله عز وجل ، وأنه
ما كان ليكون هكذا لولا أنه منزل من عند الله الذى أحاط علمه بكل
شئ • هذا الوجه الذى نريد أن نتحدث عنه الآن هو الذى أشارت
إليه الآيات القرآنية التالية :

« ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه
يختلفون » (النمل : ٧٦) •

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون
من الكتاب ويعفوا عن كثير » (المائدة : ١٥) •

« وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى
ورحمة لقوم يؤمنون » (النحل : ٦٤) •

« ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه »

(يوسف : ١١١)

* * *

ان الدراسات النقدية للتوراة لم تعترف بالصحة الا لسفر واحد
من أسفارهم • هو سفر « آرمياء » كما يذكر « مونتيه » فى تاريخ
« أسس المقدس » وليس الانجيل بأسعد حالا • فقد ألغى مجمع أساقفة

« نيقية » كثيرا من أخباره مما زرع الشك حول ما تبقى منه وهو الأناجيل . وهذه الأخيرة بدورها لا تعتبر الآن من الصحاح ، لأن النقد أثبت أنها قد وضعت بعد المسيح بأكثر من قرن أى بعد إحصار الحواريين الذين تنسب اليهم التعاليم المسيحية وعلى هذا فان شكوكا كثيرة تحوم الآن حول القيمة التاريخية للوثائق اليهودية والمسيحية . ان انجيلا واحدا نطق به عيسى على أنه كلمة الله ، فلم يكون الانجيل أربعة ؟ ولم كان بينها اختلاف وتعارض وزيادة ونقص ؟ ولقد لعن أرمياء في سفره المذكور « أقلام النساخ الكاذبة » .

ومن هنا كان للقرآن فيما يتعلق بهذه الكتب مواقف كل منها يشير الى ربانية مصدره ، حيث ان هذه المواقف كلها تدل على علم مطلق لا يأتيه الشك ، حتى يتحدى في بعض المواقف أن يأتوا بالتوراة ليثبتوا ما يدعون مما يذكر القرآن خلافه : « كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل الا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين » (آل عمران : ٩٣) .

— أول هذه المواقف أن التوراة والزبور والانجيل ، هذه الموجودة حاليا ليست هي بالضبط الكتب السماوية الأصلية بل داخلها تحريف وتبديل ، ونسى قسم منها وقد رأينا موقف النقد العلمى العقلى النصرانى من هذا الموضوع وكلمة أرمياء التى تتفق مع ما ألح القرآن عليه :

« ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وان هم الا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » (البقرة : ٧٨ ، ٧٩)

« من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » (النساء : ٤٦) .
« يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما نكروا به » (المائدة : ١٣) .



— الموقف الثانى :

ذكر القرآن الكريم كثيرا مما كان فى التوراة والانجيل من معان ووحى ، وعندما نستعرض هذه النصوص ونقرأ التوراة والانجيل فاننا (١٩ - الرسول)

نجد هذه النصوص قد طبقت ما في التوراة والانجيل ، مما يدل على أن قسما من التوراة والانجيل لم يحرف ، وعلى أن الله العليم بما أنزل هو منزل القرآن . اذ لا شك تاريخيا كما مر أن محمدا ليس له أى اطلاع على كتب دينية أو غير دينية .

وهذه الأمثلة :

١ — يقول القرآن :

« وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار » (المائدة : ٧٢) « واذا قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخفونى وأمى الاهين من دون الله ، قال سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، انك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم » (المائدة : ١١٦ ، ١١٧) . ويقول انجيل يوحنا الفقرة الثالثة الباب السابع عشر « وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته » .

ويقول انجيل مرقس الباب الثانى عشر (٢٨) « فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسنا سأله أية وصية هى أول الكل فأجابه يسوع ان أول كل الوصايا : اسمع يا اسرائيل الرب الهنا رب واحد وتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك ، هذه هى الوصية الأولى » .

ويقول انجيل متى الباب التاسع عشر (١٦) « واذا واحد تقدم وقال : أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية ؟ فقال له : لماذا تدعونى صالحا ؟ ليس أحد صالحا الا واحد وهو الله » .

وهذه نصوص صريحة فى الأنجيل الحالية تثبت أن دعوة عيسى كانت للتوحيد وأنه رسول ثم كان الانحراف وأتى القرآن ليصحح الانحراف .

٢ — يقول القرآن : : على لسان عيسى « ومصدقا لما بين يدى من التوراة » (آل عمران : ٥٠) ويقول : « وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة » (المائدة : ٤٦) ويقول مخاطبا لنا : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا

اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (الشورى : ١٣) •

ويذكر انجيل متى اصحاح (٥) على لسان عيسى : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض بل لأكمل فانى الحق أقول لكم ما جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء الى أن تزول السموات والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل فمن نقض احدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت السموات وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيما في ملكوت السموات فانى أقول لكم : ان لم يزد بركم على الكتب والقديسين لن تدخلوا ملكوت السموات » •
٣ — يقول القرآن :

« وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن واللسن باللسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له » (المائدة : ٤٥) •

وفي الاصحاح (٢١) من سفر الخروج :
وهذه هي الأحكام التي تضع أمامهم « من ضرب انسانا فمات يقتل قتلا ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا وان حصلت أذية تعطى نفسا بنفس وعينا بعين وسنا بسن ويذا بيد ورجلا برجل وكيا بكى وجرحا بجرح ورضا برض » •
٤ — يقول القرآن :

« هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها » (الأعراف : ١٨٩) « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام » (سورة ق : ٣٨) « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » (البقرة : ٢٩)

وتقول التوراة فى الاصحاح الأول من سفر التكوين بعد ذكر قصة الخلق : « وقال الله نعمل الانسان فخلق الانسان ذكرا وأنثى وباركهم الله وقال لهم أثمروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا وكان •• يوما سادسا » •

وفي الاصحاح الثانى من سفر التكوين :
— « فأكملت السموات والأرض وكل جندها » •
— « هذه مبادئ السموات والأرض حين خلقت يوم عمل الرب الاله الأرض والسموات » •

— « وجعل الرب الاله آدم ترابا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية » •

— « فأوقع الرب الاله ثباتا على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملا مكانها لحما وبنى الرب الاله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها اليه » •

٥ — يقول القرآن :

« ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم »
(الكهف : ٥١) ويقول : « مرج البحرين يلتقيان • بينهما برزخ لا يبغيان »
(الرحمن : ١٩ ، ٢٠) ويقول : « ألم نجعل الأرض مهادا • والجبال أوتادا • وخلقناكم أزواجا • وجعلنا نومكم سباتا • وجعلنا الليل لباسا • وجعلنا النهار معاشا • وبنيينا فوقكم سبعا شدادا • وجعلنا سراجا وهاجا • وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا • لنخرج به حبا ونباتا • وجنات ألفافا » (النبأ : ٦ — ١٦) ويقول : « وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها » (هود : ٦) •

وفي سفر أيوب اصحاب (٣٨) أجاب الرب أيوب وقال : « شد الآن حقوك كرجل — أى قف باستعداد — فانى أسألك فتعلمنى : أين كنت حين أسست الأرض ؟ أخبر ان كان عندك فهم من وضع قياسها وعلى أى شىء قرت قواعدها أو من وضع حجر زاويتها عندما ترنمت كراكب الصبح معا وهتف جميع بنى الله • من حجز البحر بمصاريع حين اندفق من فم الرحم هل تربط أنت عقد الثريا أو تفك ربط الجبار أخرج المنازل من أوقاتها وتهدى الشمس مع بناته من يهين لغراب صيده اذا نعب فراخه الى الله فأجاب أيوب : الرب وقال : ها أنذا حقير فماذا أجابك وضعت يدي على فمى » •

٦ — يقول القرآن :

« فلکم الله ربکم ، لا اله الا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل • لاتدرکه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير » (الأنعام : ١٠٢ ، ١٠٣) ويقول : « ليس كمثله شىء »
(الشورى : ١١) ويقول : « لله ملك السموات والأرض »
(المائدة : ١٢٠)

وتقول التوراة سفر الخروج :

« الرب يملك الى الدهر والأبد » الاصحاح (١٥) : وفي الاصحاح (٣٧) « عند الله جلال مرهب التقدير لا ندركه عظيم القوة والحق وكثير البر » وفي الاصحاح (٣٣) « هو ذا الله تعالى بقدرته من مثله » « هو ذا الله عظيم ولا نعرفه وعدد سنيه لا يفحص » .

٧ — يقول القرآن :

« واذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » (البقرة : ٥١) .

ويقول : « ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي ، أعجلتم أمر ربكم ، وألقى الألواح » (الأعراف : ١٥٠) ويقول : « وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا ، لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا » (طه : ٩٧) .

وفي الاصحاح (٣٣) من سفر الخروج « فانصرف موسى ونزل من الجبل ، وكان عندما اقترب الى المحلة أنه أبصر العجل والرقص فحمى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه .. ثم أخذ العجل الذي صنعوه وأحرقه بالنار حتى صار ناعما وذراه على وجه الماء » .

٨ — يقول القرآن : متحدثا عن موسى :

« قال رب أرني أنظر اليك ، قال لن تراني » (الأعراف : ١٤٣) .
وفي الاصحاح (٣٣) من سفر الخروج « فقال موسى : أرني مجدك (١٩) قال لا تقدر أن ترى وجهي لأن الانسان لا يراني ويعيش » (٢١) .

٩ — يقول القرآن :

« واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا » (البقرة : ٨٣)

وفي الاصحاح العشرين من سفر الخروج : « أنا الرب الهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أخرى أمامي لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة مما في السماء .. لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنني أنا الرب الهك غيور وأصنع احسانا الى ألوف من محبي وحافظي وصاياي » .

١٠ — يقول القرآن في سورة يوسف عن يوسف :

« اذ قال يوسف لأبيه يا أبت انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » (٤) ويقول سفر التكوين الفصل (٣٧) :
« قال رأيت حلما أيضا كأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدة له »
ويقول القرآن على لسان اخوة يوسف :

« اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين • قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين » (١٠ ، ٩) •
وفى سفر التكوين :

« والآن تعالوا نقتله ونطرحه فى بعض الآبار ونقول : ان وحشا ضاريا افترسه ونرى ما يكون من أحلامه ، وقال لهم رأوبين لا تسفكوا دما اطرحوه فى هذا البئر التى فى البرية » •
ويقول القرآن :

« قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » (١٧) •
« وجاعوا على قميصه بدم كذب » (١٨) •
وفى سفر التكوين :

« فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيسا من المعز وغمسوا القميص فى الدم • وحش ضار أكله افترس يوسف افتراسا » •
ويقول القرآن :

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله انه ربي أحسن مثواى » (٢٣) •
وفى سفر التكوين :

« وكان بعد هذه الأمور أن امرأة مولاه طمحت عينها الى يوسف وقالت ضاجعنى فأبى وقال لامرأة مولاه هوذا مولاي لا يعرف معى شيئا مما فى البيت وجميع ما هو له جعله فى يدي • فاتفق فى بعض الأيام أنه دخل البيت ليتعاطى أمره ولم يكن فى البيت أحد من أهله فأمسكت بثوبه وقالت ضاجعنى » •
ويقول القرآن :

« وقال الملك انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات ، يا أيها الملا أفئتوني فى رؤياى ان كنتم

للرؤيا تعبرون • قالوا أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام
بمالمين » (٤٣ ، ٤٤) •

ويقول سفر التكوين :

« ان فرعون رأى حلما كأنه واقف على شاطئ النهر فاذا بسبع
بقرات صاعدة منه وهى حسان المنظر وسمان الأبدان فرتعت فى المرج
وكان سبع بقرات أخرى صاعدة وراءها من النهر وهى قباح المنظر
وعجاف الأبدان فوقفت بجانب تلك على شاطئ النهر فأكلت البقرات
القباح المنظر العجاف الأبدان السبع بقرات الحسان المنظر السمان .. »

ثم نام فحلم ثانية فرأى كأن سبع سنابل قد نبتت فى ساق واحدة
وهى سمان جياذ وكان سبع سنابل دقاقا قد لفحتها الريح الشرقية
نبتت وراءها فابتلعت السنابل الدقاق السبع السنابل السمينة الممتلئة
واستيقظ فرعون فاذا هو حلم فلما كانت الغداة انزعجت نفسه فبعث
ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها فقصر عليهم فرعون حلمه فلم
يكن من يعبره لفرعون • »

من هذه النقول نعرف معنى الآية القرآنية التى ختمت بها سورة
يوسف « ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه » (١١١)
ونعرف كذلك وحدة الوحي ووجوده اذ رأينا أن سيدنا محمدا صلى
الله عليه وسلم لم يتلق أى تعليم سابق مما يوهم أن مثل هذا التلاقى
وليد دراسة ، كما أن البيئة العربية لم تكن منتشرة فيها هذه المعانى
أبدا ، ولم تكن تعرفها ، بدليل الآية التى ذكرت فى سورة يوسف
عقب القصة « ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنت لديهم
اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » (١٠٢) •

فعندما يتم التلاقى بين معنى ذكره الانجيل أو التوراة أو الزبور
مع معنى موجود فى القرآن ، مع ملاحظة ما ذكرناه آنفا فذلك دليل
لا يدحض على أن هذا القرآن من عند الله « لكن الله يشهد بما أنزل
اليك ، أنزله بطلمه » (النساء : ١٦٦) •

— الموقف الثالث :

رأينا فيما مضى أن التوراة والانجيل والزبور في الأصل من عند الله • ورأينا كذلك أنها قد دخلها تحريف وتبديل وتغيير ونسيان وضياح ، والشئ العادى اذن بعد هذا ، أن تحدث انحرافات ضخمة نتيجة لهذا ، ومفاهيم خاطئة ، وتصورات فاسدة ، واختلافات كثيرة ، ويأتى القرآن ليصحح لهم هذه المفاهيم كلها ، وهذه الأخطاء كلها ، وهذه الانحرافات كلها • فيبين ويوضح ويوبخ ويعاقب ويدعو وينذر ، ويعمل ويوضح ، ويطالب ويأمر ، وينهى بجزم وحزم وتعليم وارشاد وأستاذية مطلقة ، وسيادة بينة • فرد اليهود والنصارى معا الى القصد والى الطريق المستقيم « ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » (النمل : ٧٦) « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير ، والله على كل شئ قدير » (المائدة : ١٩)

وهذه أمثلة :

١ — أعطى قسم من الكتابين العصمة لبعض البشر ممن ليسوا بأنبياء ، فأطاعوهم وعطلوا نصوص الكتب السماوية ، وكما هو مشاهد الآن عند النصارى مع البابا • فقال لهم : « اتخفوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » (التوبة : ٣١) •

وقال :

« قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل » (المائدة : ٧٧)

٢ — ووصف بعض الكتابين الله بصفات خلقه • فقالوا عنه انه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع فقال لهم ولغيرهم :

« ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب » (سورة ق : ٣٨) •

٣ — ووقف اليهود من عيسى ابن مريم وأمه موقفا منكرا فقال عنهم :

« فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً . وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » (النساء : ١٥٥ — ١٥٧)

٤ — وأله بعض النصارى عيسى ابن مريم فقال :

« لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ، انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة » (المائدة : ٧٢) .

٥ — وقال بعض النصارى بالتثليث فرد عليهم :

« لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد » (المائدة : ٧٣) ووضع عيسى وأمه في المحل الصحيح « ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام » (المائدة : ٧٥) .

٦ — وتصور بعض الكتابيين أن اثمهم يحمله غيرهم وأن الانسان آثم بالأصل فقالوا بالخطيئة الأزلية ورفعها بالمسيح فقال : « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجز به » (النساء : ١٢٣)

وقال :

« ولا تزر وازرة وزر أخرى » (فاطر : ١٨) .

والأمثلة كثيرة جداً على هذا في القرآن ، كثرة تلفت النظر لدرجة أن الانسان لا يشك بتاتا اذا طالع هذه الكتب كلها ، أن القرآن قد استوعب معانيها وأصلح ما أفسدوه فيها ، وأقام الناس على الحق الذي لا شبهة فيه ، ويخرج أخيراً بهذه النتيجة :

ان الحديث عن الكتب السماوية وأهلها في القرآن يدل على علم محيط كامل بهذه الكتب وأهلها ، ويدل على علم محيط كامل في مواطن انخلاف التي لم يكن منها شيء معروف في جزيرة العرب ، ويدل على علم محيط كامل في مواطن الانحراف ، وكذلك بالتناقض بين النصوص ، كأثر عن هذا الانحراف واستعمال دقيق كامل للمصطلحات الكتابية . هذا مع أمية الرسول صلى الله عليه وسلم ووجود هذه الكتب في غير

اللغة العربية ، وعدم انتشارها ، وجهل البيئة العربية بمضامينها ، وثبوت أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتلق تعليما من أحد .
ان هذا كله لا شك يثبت أن هذا القرآن وحى من عند الله .

* * *

٥

وآخر ما نريد ذكره في فصل المعجزة القرآنية . هذه الخطوط العامة حول لغة القرآن ، وأسلوب القرآن ، وفي ذلك برهان أى برهان على كون هذا القرآن من عند الله .

ان المبتدىء في طريق ليس له فيها تجربة سابقة ولا لأحد قبله ريادة فيه ، يختلف وضعه عن المجرب الخبير ، أو من صاحب المجربين واستفاد من خبرتهم ، كما يقال هذا في الحل والترحال ، يقال مثله عن عالم الأدب ، لم كان حسان بن ثابت في الجاهلية أقوى شاعرية منه في الاسلام ؟

لأن المعانى التى كان يتحدث عنها في الجاهلية معان مطروقة من شعراء قبله . قالوا فيها كثيرا ، وفتحوا فيها آفاقا واسعة استفاد منها ، فقال وأجاد .

أما في الاسلام فالوضع يختلف . فقد أتى الاسلام بمفاهيم جديدة وقيم ومثل عليا تختلف عما في الحياة الجاهلية ، وأقام نظاما للحياة على أسس معاكسة تماما لما كان عليه الناس ، والمعركة بين جديد وقديم ، فكان اذن وهو يتحدث عن هذا الشيء الجديد كله رائدا غير مسبوق ، فشئ عاды اذن أن يكون شعره الاسلامى أضعف من شعره الجاهلى . ان زهير بن أبى سلمى لم يكن شعره بهذه الجودة لو لم يستفد من تجربة حجر الشعرية ، ولولا شعر زهير ما كان الحطيئة جيد الشعر ومعانى هؤلاء واحدة .

هذه قضية ينبغى أن تكون على ذكر منا ، ونحن نتحدث عن لغة القرآن وأسلوب القرآن .

وجرت عادة الناس أن لغة الأدب غير لغة القانون ، ولغة المخاطبة غير لغة الشعر ، وطريقة التعبير عن القضايا العلمية ، تختلف عن طريق التعبير في قضايا الخيال والتصور أو العاطفة ، وفي الأدب عادة بـ

الخيال فيقرب البعيد ويبعد القريب فيكون كذب وشطط واسفاف
ومجانة ..

وهذه قضية ثانية ينبغي أن تكون على ذكر منا كذلك .
والأديب عادة ينتزع الصورة من بيئته ، ومن محيطه مما يشاهده
أو يسمعه فيحلل ويركب ويغوص ويخلق ويدقق ، ولكنه لا يخرج عن
بيئته ومحيطه :

من زهير اذ يقول :

ترى العين والآرام في عرصاتها واطلاؤها ينهضن من كل مجثم
الى على بن الجهم اذ يقول للخليفة :

أنت كالكلب في الحفاظ على الود وكالتيس في قراع الخطوب
وهذه قضية ثالثة كذلك ينبغي أن نتذكرها أثناء الحديث عن لغة
القرآن وأسلوب القرآن .

وأى شاعر تكلم ، وأى أديب قال أو كتب ، لو عرض عليه ما قال
بعد مدة من قوله أو كتابته ، لغير أو بدل أو قدم أو آخر ، وأى قول
قيل يمكن أن ينتقده الناقدون . فيرون كلمة أجود من كلمة ، وحرفا
أجمل من حرف ، وجرسا ألطف من جرس ، أو أكثر مناسبة ، وقد
تجد القصيدة الجيدة فتجد فيها كلمة غير مناسبة لما قبلها ، أو جرسا
غير منسجم مع معنى ، الى آخر ما هو معروف عند نقاد الكلام ،
ولا تخلو قصيدة قيلت من أن توجد كلمة فيها يوجد غيرها أفصح
منها أو أدق تعبيراً أو أجود معنى .

وفيما رأيناه من نقد الخنساء لحسان في أوائل هذا البحث مثال
كاف ، فاذا ما اتضحت هذه القضايا كلها نقول : ان انسان يعقل
لا يستطيع أبدا أن يتصور أن هذا القرآن من عند محمد صلى الله
عليه وسلم أو سواه من البشر ، بل لابد أن يكون مصدر هذا القرآن
الذات العليا ذات الله عز وجل :

١ — فالقرآن لا يمكن أن يكون وليد البيئة العربية . فما فيه من
صور وما فيه من أمثال جل عن طوق الفكر وبعد عن قدرة البشر .
خذ مثالين على ذلك :

(١) « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء
حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع
الحساب . أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه

سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » (النور : ٣٩ ، ٤٠) ان هذا النص وخاصة المثل الثانى منه لا يمكن أن يكون وليد البيئة العربية ولا وليد العصر الذى وجد فيه ولتعرف لماذا ؟ اقرأ هذا التعليق : « فى هذه الآية اشارة الى الأمواج الداخلية والسطحية فأضخم أمواج المحيط وأشدّها رعبا هى أمواج غير منظورة تتحرك فى خطوط سيرها الغامضة بعيدا فى أعماق البحار وقد كان من المعروف منذ سنين كثيرة أن سفن البعثات الى القطب الشمالى كانت تشق طريقها بكل صعوبة فيما كان يسمى بالماء الميت ، والذى عرف الآن بأنه أمواج داخلية . وفى عام ١٩٠٠ لفت الأنظار كثير من مساحى البحار الاسكندنافيين الى وجود أمواج تحت سطح الماء والآن بالرغم من أن الغموض لا يزال يكتنف أسباب تكوين هذه الأمواج العظيمة التى ترتفع وتهبط بعيدا أسفل السطح فإن حدوثها على نطاق واسع فى المحيط قد أصبح أمرا معروفا جيدا ، فهى تقذف بالغواصات فى المياه العميقة كما تعمل شبقاتها السطحية على قذف السفن . ويظهر أن هذه الأمواج تتكسر عند التقائها بتيار الخليج ، وبتيارات أخرى قوية فى بحر عميق ، فالآية القرآنية تقول : « فى بحر لجى » اذن الكلام عن بحر عميق ، « يغشاه موج من فوقه موج » اذن أمواج داخلية وأمواج سطحية « من فوقه سحاب » اذن الكلام عن مكان يكثر فيه الضباب والصورة انما تنطبق على الانسان اذا كان تحت الأعماق أى تحت الأمواج الداخلية . مثل هذا التصور معجز لا يتصور من رجل الجزيرة العربية قبل أربعة عشر قرنا .

(ب) « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » (لقمان : ٢٧) « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » (الكهف : ١٠٩) مثل هذه الصورة مما لا يخطر على قلب بشر فى التعبير عن سعة علم الله بالكلمات التى تعبر عن هذا العلم الذى لا يتناهى بهذا التصوير البالغ الروعة الموجز الواضح السهل . أن تتقلب الأشجار كلها أقلاما والبحار كلها حبرا وفوق البحر أبحر وتبدأ الأقلام بالكتابة وينفد ماء البحر وتبقى بعد ذلك الكلمات لا تتناهى ، ان الأمة التى كان تصورها عن الاله أن تصنع صنم التمر ثم تعبدّه

ثم تأكّنه ، ليس بالامكان أن يصدر عن فرد من أبنائها مثل هذا التعبير والتصور ولكنه كلام الله .

٢ — والقرآن الكريم نزل منجما خلال ثلاث وعشرين عاما وكتاب تم جمعه وكماله خلال هذه الفترات الطويلة لابد — الا اذا كانت المسألة غير عادية — أن يكون هناك اختلاف في أسلوبه قوة وضعفا ما بين بدايته الى نهايته ولا بد أن يكون هناك اختلاف في المضامين . وهذا شيء يلاحظ عند كل من تعاطى صناعة الكلام ، وصناعة الأفكار ، وصناعة الاصلاح وصناعة الأمم . التجربة تغير الرأي ، والتجربة تقوى الأسلوب ، وليست آراء الانسان بعد عشرين عاما من العمل الاصلاحى هي نفسها قبل العشرين ، ولكنك في القرآن تجد ظاهرة الوحدة في الأسلوب سواء في ذلك ما نزل أولا أو ما نزل أخيرا وسواء في ذلك النص التشريعى ، أو النص الوعظى أو النص الوصفى أو النص انقصى . وظاهرة الوحدة في المعانى فلا تجد معنى متأخرا ينقض معنى متقدما ، بل يتممه وكل ذلك يتم بلا تدبير أو ترتيب أو تفكير يخرج النص الموحى به من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأخذ محله في القرآن ، ويبقى كما هو بلا تغيير ولا تبديل ، ويبقى هذا الأسلوب متميزا متفردا ما عرف له مثيل من قبل ومن بعد مختلفا عن أسلوب محمد صلى الله عليه وسلم نفسه في الكلام مع بقاء معانى القرآن أعظم وأحكم وأروع ما سمعته أذن الانسان . فالمسألة بانصاف ليست بشرية الصنع وهذه أمثلة على وحدة الأسلوب ووحدة المعانى .

من النصوص التشريعية في القرآن :

« يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فان كان له اخوة فلأمه السدس ، من بعد وصية يوصى بها أو دين ، أبأؤكم وأبنأؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ، فريضة من الله ، ان الله كان عليما حكيما » (النساء : ١١) .

ومن النصوص القصصية :

« وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء اقلعى غيظ الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين » (هود : ٤٤) .

« وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين »
(القصص : ٧)

ومن النصوص الوعظية :

« يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم • الذى خلقك فسواك فعدلك • فى أى صورة ما شاء ركبك • كلا بل تكذبون بالدين • وان عليكم لحافظين • كراما كاتبين • يعلمون ما تفعلون • ان الأبرار لفي نعم • وان الفجار لفي جحيم » (الانفطار : ٦ — ١٤) •
ومن النصوص الوصفية :

« ألم نجعل الأرض مهادا • والجبال أوتادا • وخلقناكم أزواجا • وجعلنا نومكم سباتا • وجعلنا الليل لباسا • وجعلنا النهار معاشا • وبنينا فوقكم سبعا شدادا • وجعلنا سراجا وهاجا • وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا • لنخرج به حبا ونباتا • وجنات ألفافا »
(النبأ : ٦ — ١٦)

هذه النصوص كما ترى بعضها نزل سابقا وبعضها نزل لاحقا ، وكل يتحدث عن معنى • ولكن هل تجد اختلافا فى الأسلوب ؟
ان انسانا ذا عقل لا يستطيع أن يحكم على هذه الظاهرة الا أنها خارقة للعادة •

— أول آية نزلت فى الخمر قوله تعالى :

« ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا »
(النحل : ٦٧)

فتعبير السكر والرزق الحسن دل على أن السكر غير الرزق الحسن ، فكانت أول آية غمزت من الخمر • ثم تأتى الآية الأخرى : « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيها اثم كبير ومنافع للناس واثمها أكبر من نفعهما » (البقرة : ٢١٩) •

ثم تأتى الآية الأخرى :

« لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » (النساء : ٤٣) •

ثم تنزل الآية الأخيرة :

« انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » (المائدة : ٩٠) فهل تجد تناقضا بين أول آية ذكرت الخمر وآخر آية • وعلى هذا فقس • فالقرآن تكامل خلال ثلاث

وعشرين عاما • ما نقض معنى متأخر معنى متقدم بل أكمله وأوضحه وتممه • وصدق الله العظيم : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (النساء : ٨٢) •

٣ — والقرآن الكريم طرق معانى ما طرقها أحد من قبل أمة العرب • فالمفروض لو كان الأمر بشريا ، أن يرى آثار ذلك من ضعف صياغة ، وقلب كلمات ، وتلعثم وتكلف الى غير ذلك ، الا أن الواقع غير ذلك فقد تحدث القرآن عن الجنة والنار والملائكة والانسان والجن والأخلاق والسياسة والكفر والايمان ، وتحدث عن الذات الالهية ، وناقش المعارضين ، وأفحم المجادلين ، وهو في ذلك كله في أعلى طبقات البلاغة ، وفي أعظمها ، وكل من أتى بعد وتحدث عن أى معنى طرقه القرآن ، كان فيما قال أقل الى درجة الثلاثين اذا قيس ما قيل الى لغة القرآن • لدرجة أنك لا تستطيع أن تجد في اللغة العربية كلها كلمة تحل محل الكلمة القرآنية بجمالها وجرسها ، وما تعطيه من معنى ، ومناسبتها لما قبلها وبعدها • هذه البلاغة العظيمة كلها لم يرافقها سُحطة فكر ، ولا كذبة خاطر ، ولا لفظة غير واقعية • بل الحق الذي لا يناقش فيه واحد •

ونرى ذلك بشكل مضطرب من أول القرآن لآخره • كتاب ضخيم لا يتخلف فيه حرف عما قلناه ، وزيادة على ذلك فان الكلمة القرآنية ، والآية القرآنية تكاد تعطيك معناها وان لم تعرفه ، وتكشف لك عما فيها وان لم تفهم ، فجرس الحرف ، ومحل الكلمة في الآية ، ومحل الآية في السورة ، كل ذلك عجيب ، مظهر عجبه أن هذا الكتاب على كونه أعلى طبقة من طبقات البلاغة عرفه الانسان • فانه سهل لدرجة أنه يفهمه كل انسان ، ولكن كل انسان يأخذ منه على قدر طاقته العقلية والروحية والقلبية • وكلما ارتقى أكثر كان في القرآن أكثر ، وكلما أتى جيل وجد في القرآن جديدا تفهمه الأجيال كلها • ولا تحيط بما فيه الأجيال كلها وصدق الله : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » (القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠)

يقرؤه عالم الاقتصاد المختص ، فيستخرج منه أرقى ما تترقى به الحياة الاقتصادية للانسان ، ويكتب في ذلك كتابا ضخما وفي القرآن مزيد لمستزيد •

يقرؤه عالم الجيولوجيا فيجد فيه أعجب ما اكتشف علم الجيولوجيا
في القرن العشرين ، فيؤلف في ذلك كتابا ضخما ، وفي القرآن مزيد
لمستزيد .

ويقرؤه عالم الفلك فيجد فيه أعجب ما عرف الانسان في الفلك
وفي القرآن مزيد

ويقرؤه عالم الاجتماع فيرى أن الحياة الاجتماعية اذا خرجت عن
سبيل القرآن كان في ذلك دمارها .

ويقرؤه أصحاب كل اختصاص فيرون أنهم لا يسعهم أن يكونوا
الاطلايذ صغارا ولا يحيطون بأسراره علما .

ويقرؤه الرجل العادي فيفهمه فيتذكر ويبكى ويتعظ . انه كتاب كل
انسان وان كان بيانه أرقى من كل بيان ، وكلمته أفصح من كل كلمة ،
حتى انك لو فتشت في كل قواميس اللغة عن كلمة تحل محل الكلمة
القرآنية فتكون أجمل منها أو أحكم أو أفصح أو حاولت أن تقدم
كلمة منه عن محلها أو تحذفها أو تؤخرها بحيث يكون ما فعلت أحسن
مما كان فانك لا تستطيع مهما بذلت من جهد . بل تنقطع أنت وشيطانك
ويبقى القرآن هو القرآن . وزيادة على ذلك فانك لا تجد الكلمة التي
تعطيك المعنى المقصود بأبعاده كلها كالكلمة القرآنية . وهذه أمثلة
توضح هذا الذي قدمناه هنا :

١ — « ولكم في القصص حياة » (البقرة : ١٢٩) .

قارن هذا التعبير بأي كلمة قالتها العرب في معناها أو يمكن أن
تقولها فانك ستجد الفارق الكبير بين التعبير القرآني وأي تعبير آخر .
فمثلا قال العرب في معنى الآية ما يلي : « قتل البعض احياء للجميع »
وقالوا : « أكثروا القتل ليقتل القتل » وقالوا : « القتل أنفى للقتل »
ولعل آخرها أجودها فلنقارنه في الآية لنجد أن التعبير القرآني أفصح
وأبلغ وأحكم في ستة أوجه وبعضهم أوصلها الى أكثر من عشرة :

(أ) أن التعبير القرآني أخصر لأن المقارنة ما بين كلمتي
« القصص حياة » أو « القتل أنفى للقتل » .

(ب) أن قولهم : « القتل أنفى للقتل » فيه التباس اذ ظاهره أن
القتل سبب لانتفاء نفسه بخلاف لفظ القرآن فانه واضح فيه أن نوعا
من القتل وهو القصص سبب لنوع من أنواع الحياة .

(ج) في قولهم : « القتل أنفى للقتل » كررت كلمة القتل مرتين أما التعبير القرآنى فذكرت فيه كلمتا قصاص وحياة •

(د) في قولهم : « القتل أنفى للقتل » لم يشمل الا نوعا مما ينبغي القصاص فيه • أما التعبير القرآنى فشمل القتل وغير القتل ، من ما القصاص فيه سبب من أسباب الحياة السعيدة الآمنة •

(هـ) أن القصد من القصاص حفظ الحياة الانسانية ولذلك كان تعبير القرآن أجود ، اذ أوضح المقصود مباشرة من تعبيرهم الآخر اذ ذكر المقصود تبعا •

(و) وأخيرا فان تعبيرهم قاصر وموهم وخاطيء ، اذ قد يكون القتل سببا لكثرة القتل كالقتل ظلما ، فتعبيرهم عمم مع أنه ما كل قتل نافيا للقتل على خلاف التعبير القرآنى • فانه صحيح شامل غير موهم ، صادق ظاهرا وباطنا • كيف قبلته أعطاك معنى صحيحا •

وفي تعريف كلمة القصاص وتكثير كلمة الحياة في التعبير القرآنى ، معانى عظيمة كبيرة أما هنا فليس في تعريف ولا اخبار أى ميزة •

٢ — « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » (الأنفال : ٦٠)

هذا مقطع أمرت به الأمة الاسلامية بالاستعداد ، وكان هذا الأمر لها في كل زمان ومكان • وشمل كل ما يلزم من أمر الاعداد والاستعداد ولنحاول أن نفهم النص :

« من » : في اللغة العربية تأتى للجنس أحيانا وهذا معناها هنا ، والقوة فسرهما الرسول صلى الله عليه وسلم بالرمى فلما قال الله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » صار المعنى وأعدوا لهم ما تستطيعون اعداده مما يرمى به ، أى من جنس ما يرمى به ، فشمل ذلك السهم والصاروخ والمدفع والقنبلة الذرية ، وكل ما يمكن أن يخترعه الانسان من أدوات الرمي ، ولما قال « ومن رباط الخيل » أى وجنس رباط الخيل ، فشمل ذلك كل ما يركب للمعركة أى شمل التعبير كل الآليات •

أرأيت الاعجاز الواضح اذ يسع النص القرآنى الزمان كله ، والمكان كله ، ولو أنك حاولت أن تغير كلمة أو حرفا من هذا التعبير لبدا القصور ، فانك ستجعل النص لزمان دون زمان أو قاصرا على جزء مما ينبغي اعداده •

٣ — « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » (البقرة : ١٨٧) •

هذا التعبير القصير الذي عبر عن المرأة بأنها لباس للرجل . وكذلك الرجل بالنسبة للمرأة كم فيه من معان ؟

(أ) يشترط في اللباس أن يكون خاصا بصاحبه ، وملكا له وحده ، وكذلك المرأة ينبغي أن تكون كلها لزوجها لا لغيره • لا خدما • ولا عينها • ولا جسمها ولا •••

(ب) ويشترط في اللباس أن يكون ساترا لعورة الرجل ، وكذلك لعورة المرأة ، وكذلك المرأة بالنسبة للرجل أو العكس ، زوجتى ينبغي أن تكون ساترة لعيوبى لا تفضحنى أما اذا كانت أداة فضيحة فهذا شئ لا يحتمل •

(ج) ويشترط في اللباس أن يكون طاهرا وكذلك المرأة أو الرجل • (د) ويشترط في اللباس أن يكون مناسبا لمكانة الانسان الاجتماعية وكذلك الرجل مع المرأة •

فهل تجد في اللغة العربية كلها كلمة تحل محل هذه الكلمة بحيث يبقى الجمال والكمال والجرس والانسجام مع السابق واللاحق وتعطى هذه المعانى كلها •

٤ — « نساؤكم حرث لكم » (البقرة : ٢٢٣) •

الحرث هي الأرض التى تفلح ليلقى فيها البذر ويلقى البذر من أجل الثمر فالرجل مهمته لقاء البذار والمرأة مهمتها حضانة هذه البذار ، الأرض يعتنى بها حتى تقطف الثمرة ، وتختار صالحة للزراعة ، ولا يلقي الانسان بذاره في الأرض ويتركها ، ولا يبذر في غير أرضه وقد تختلف طريقة البذار ويبقى محل البذار واحدا •

هل تجد كلمة في اللغة العربية تحل محل كلمة حرث ، لو قلت : « أرض » لما أعطت المعنى المراد ولو قلت ولو قلت فلن تجد أجمل وأكمل وأكثر معانى وأجود وأصدق منها في محلها •

٥ — « فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا »

(القصص : ٣٨)

الطين المشوى يسمى آجرا أو قرميذا بعد عملية صنعه ترى هل تحل واحدة من الكلمتين في محل هذا التعبير الجميل المصاغ هذه الصياغة العظيمة ، ثم التعبير القرآنى يدل على أن الآجر من ساعة الطلب غير موجود - في ذلك لفظة تدلنا على حماقة فرعون وبطره اذ لم

يقدر الزمان الكافي لعمل يحتاج الى زمن طويل وهل يحل محل كلمة الصرح كلمة أخرى ؟

٦ — « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات » (الأعراف : ١٣٣) •

ترى لو تقدمت كلمة متأخرة على أخرى متقدمة ، فهل يبقى الجمال والتناسق واللطافة والوزن والنغم والخفة على الأذن كما هي موجودة في هذه الصياغة ؟ حتما لا ••

٧ — « كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية » (العلق : ١٥) •

لو سألك سائل ماذا تعنى كلمة « سفح » في اللغة العربية فانك لا تعرف الا اذا رجعت الى قاموس ولكتك اذا رجعت الى الآية وتلوتها فان قلبك يكاد يحس بمعناها وان لم تعرف معناها وذلك سر من أسرار القرآن يحسه كل من له صلة في هذا القرآن •

وبعد •• فالقرآن لا يمكن أن يكون وليد بيئة ولا يمكن أن يكون الكمال فيه والتناسق فيه والترتيب فيه والجمال فيه والوحدة فيه والاختيار العظيم فيه الا من عند الله العظيم العليم •

* * *

والذى ذكرناه في هذه الفقرة الخامسة هو من خصائص القرآن المذكورة في الآيات :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » (القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ٤٠) « أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (النساء : ٨٢) « قرآنا عربيا غير ذى عوج » (الزمر : ٢٨) « الله نزل أحسن الحديث » (الزمر : ٢٣) •

* * *

وبهذا نختم الحديث عن المعجزة القرآنية ، ولم نذكر الا الطرف الأقل عنها • والا ففى القرآن مناحى لو بحثت لكان هنا محلها ككون القرآن فيه تبيان كل شيء « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » (النحل : ٨٩)

وككون القرآن يهdy دائما وفي كل شيء لأقوم الطرق •

« ان هذا القرآن يهdy للتى هى أقوم » (الاسراء : ٩) •

وغيرها وغيرها مما وصف الله به كتابه ، وتجد مصداقه فيه ،

الا أن بعضا مما له علاقة بما ذكرناه سنراه في الرسالة الثالثة التي تأتي بعد هذه الرسالة : « الاسلام » •

ولعل فيما كتب في هذا الباب كفاية لطالب الحق ليؤمن أن هذا القرآن من عند الله ، وأن محمد رسول الله ، وإذا بقى في قلبك شك ، فليجرب أن يؤلف مثل سورة مهما كانت قصيرة من سور القرآن ، فان عجز فليجرب أن يتعاون مع الآخرين ممن هم أبلغ ، فان عجزوا فقد قامت عليهم الحجة ولم يبق الا الضلال والحماقة وعمى القلب وموت الضمير •

« وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين • فان لم تفعلوا ولن تخطوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين » (البقرة : ٢٣ ، ٢٤)

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (الاسراء : ٨٨) •
« قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد » (فصلت : ٥٢) •

والى الفقرة الثانية من هذا الباب :

* * *

الفقرة الثانية معجزات أخرى

ان قدرة الانسان محدودة بما حداها الله عز وجل به من عالم لقوانين والأسباب ، فما كان ضمن هذه الدائرة استطاعه الانسان والا لا . فالانسان مثلا يستطيع اذا توفر لديه أوكسجين وهيدروجين والأدوات اللازمة لحدوث التفاعل بينهما أن يصنع منهما ماء فهذا داخل ضمن قوانين الكون واستطاعة الانسان ، ولكن الانسان لا يستطيع أن يوجد ماء من عدم مطلق . ويستطيع الانسان أن يتحكم بالكترونات وبروتونات النحاس فيصبح النحاس ذهباً اذا توفرت لذلك شروط وأدوات معينة . ولكن الانسان لا يستطيع أن يوجد ذهباً من لا شيء ، والبخار الموجود في الجو ينعقد مطراً اذا وجدت شروط معينة من برودة وكثافة وغيرها ، ويستطيع الانسان ببعض الوسائط أن يوفر هذه الشروط بالجو فينزل مطراً اصطناعياً كما يقولون . ولكن لا يستطيع الانسان بمجرد الكلام أن ينزل مطراً .

اذن رغم ما أعطى الله الانسان من امكانيات يستطيع بها تسخير هذا الكون لصالحه ، فان قدرة الانسان محدودة ضمن قوانين هذا الكون . ويبقى الله وحده ذا السلطان المطلق ، والقدرة المطلقة التي يخلق بها ما شاء من الممكنات .

بعد هذا نقول : ان مما يعرف به الانسان أنه رسول الله هو أن تظهر معه آثار قدرة الله . فتظهر على يديه خوارق لعادات وقوانين وأسباب هذا الكون مما لا يمكن أن يكون للجهد البشري فيه علاقة ، فيعرف الناس بذلك أن هذا الانسان رسول الله . بدليل أنها ظهرت معه آثار قدرة الله . وتقوم بذلك حجة الله على خلقه بأنه أرسل رسولا ، وتقوم بذلك حجة الرسول على الخلق بأنه صادق في دعوى الرسالة ، ولا يكون لأحد عذر في عدم متابعة الرسول بعد ذلك .

وكما تقوم الحجة على من عاصر الرسول صلى الله عليه وسلم تقوم على من بعدهم بثبوت معجزاته تاريخياً اذ الثابت تاريخياً كالثابت مشاهدة في اقامة الحجة .

ولم يوجد رسول أبدا في تاريخ العالم كانت له معجزات كثيرة ثابتة ثبوتا تاريخيا يتحدى أدق معايير النقد التاريخي مثل ما كان لخاتم رسل الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم . فان معايير النقد التي وضعها علماء المسلمين لاستخلاص الوقائع الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما وصل اليها العالم قط ولا يرقى انى نتائجها شك .

والدارس لهذه المعجزات الثابتة تاريخيا يرى بوضوح لا مزيد عليه ، آثار قدرة الله المباشرة مؤيدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأشكال وصور ومظاهر تحيط بكل الأوضاع . مما لا يبقى ريبا لمرتاب ، الا اذا مات انصافه مع قلبه فعلى بذلك عقله .

وهذه نماذج من هذه الواقعات التي لا تفسر الا بالقدرة الالهية المؤيدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع ملاحظة أن المعجزة الأساسية لرسول الله وبها قامت الحجة على خلق الله في كل العصور هي القرآن ، الذى رأينا بعض ما فيه مما يشهد أنه كتاب الله في الفقرة السابقة ومع ملاحظة أننا لم نرد الاستقصاء هنا وانما أردنا ضرب الأمثلة فقط ، والا فمعجزات الرسول عليه السلام كثيرة جدا .



١

أخرج مسلم والبيهقي وأبو نعيم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما : قال « سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة ذات الرقاع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا جابر .. ناد بوضوء . فقلت : ألا وضوء ؟ ألا وضوء ؟ قلت : يا رسول الله .. ما وجدت في الركب من قطرة . وكان رجل من الأنصار يبرد لرسول الله صلى الله عليه وسلم الماء فقال لى : انطلق الى فلان الأنصارى فانظر فى أشجابه من شىء فانطلقت اليه فنظرت فيها فلم أجد فيها الا قطرة فى عزلاء شجب يابسة مما لو أنى أفرغه لشربه واحد ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته قال :

اذهب فأتنى به . فأتيته به فأخذه بيده فجعل يتكلم بشىء لا أدري ما هو ويعمزه بيده ثم أعطانيه فقال :

« يا جابر .. ناد بجفنة الركب » .

فقلت : يا جفنة الركب .. فأتييت بها تحمل فوضعت بين يديه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده هكذا فبسطها في الجفنة وفرق بين أصابعه ثم وضعها في قعر الجفنة وقال : خذ يا جابر فصب على وقل بسم الله . فرأيت الماء يفور من بين أصابعه فقارت الجفنة وفارت حتى امتلأت فقال : يا جابر .. ناد من كانت له حاجة بماء . فأتى الناس فاستقوا حتى رووا ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده من الجفنة وهي ملاءى » .

وأخرج الشيخان من طريق اسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس رضي الله عنه قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت صلاة العصر والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه فأتى بوضوء فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده في ذلك الاناء وأمر الناس أن يتوضأوا منه فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضأوا من عند آخرهم » .

وأخرج الشيخان من طريق ثابت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بماء فأتى بقدر رحرأح فيه شيء من ماء فوضع أصابعه فيه فجعلت أنظر الى الماء ينبع من بين أصابعه فجعل القوم يتوضئون فحرزت من توضأ منه ما بين السبعين الى الثمانين » .

وأخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا بالزوراء فدعا بقدر فيه ماء فوضع كفه فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابعه وأطراف أصابعه فتوضأ أصحابه به جميعا . قلت لأنس : كم كانوا ؟ قال : زهاء ثلاث مائة » .

وأخرج أحمد والبيهقي والبزار والطبراني وأبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وليس في العسكر ماء فقال رجل : يا رسول الله .. ليس في العسكر ماء . قال : هل عندكم شيء ؟ قال : نعم . فأتى باناء فيه شيء من ماء فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابعه في فم الاناء وفتح أصابعه قال : فرأيت العيون تتبع من بين أصابعه فأمر بلالا ينادي في الناس : الوضوء المبارك » .

وأخرج البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « انكم تعدون الآيات عذابا وكنا نعوذها بركة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

قد كنا نأكل مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن نسمع تسبيح الطعام وأتى النبي صلى الله عليه وسلم باناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : حى على الطهور المبارك والبركة من الله ، حتى توضأنا كلنا » •

وأخرج البخارى عن مسور بن مخرمة رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل بالحديبية على ثمد قليل الماء يتربضه الناس تربضا فلم يلبث الناس حتى نزحوه وشكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم العطش فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه وكانوا بضع عشرة مائة من الصحابة » •

وأخرج البخارى عن البراء رضى الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا باناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد ثم انها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا •

وأخرج مسلم عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : « قدمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديبية ونحن أربع عشرة مائة وعليها خمسون شاة ما ترويهما فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جباها — يعنى الركبة — فاما دعا واما بزق فيها فجاشت فسقينا وأسقينا » •

وأخرج مسلم عن معاذ بن جبل رضى الله عنه « أنهم خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام تبوك فقال : انكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك وانكم لن تأتوها حتى يضحى النهار فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا فأتاها والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء فغرف من العين قليلا قليلا حتى اجتمع في شيء ثم غسل وجهه ويديه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوشك يا معاذ ان طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قدملىء جنانا » •

وأخرج الشيخان عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال : كنا في

سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكا اليه الناس العطش فدعا عليا ورجلا آخر فقال : ذهبا فابغياني الماء فانطلقا فلقيتا امرأة بين مزادتين — أو سطيحين — من ماء على بغيرها فقالا لها : أين الماء ؟ قالت : عهدي بالماء أمس هذه الساعة — أى يبعد مسيرة يوم كامل — فانطلقا بها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا باناء فأفرغ فيه من أفواه المزادتين فمضمض في الماء وأعاده في أفواه المزادتين وأوكأ أفواههما وأطلق العزالي — أى مصب الماء من القرية — ونودي في الناس أن اسقوا واستقوا فسقى من شاء واستقى من استقى وهى قائمة تنظر ما يفعل بمائها وأيم الله لقد أقلعوا عنهما وأنه ليخيل الينا أنها أشد ملاء منها حين ابتدأوا فيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجمعوا لها فجمعوا من بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاما كثيرا فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعلمين والله ما رزئنا من مائك شيئا ولكن الله عز وجل هو سقانا • قال : فأنت أهلها وقد احتسبت عنهم فقالوا : ما حبسك يا فلانة ؟ قالت : العجب • • لقيني رجلان وذهبا بى الى هذا الذى يقال له : الصابىء ، ففعل بمائى كذا وكذا • الذى قد كان فوالله لأنه أسحر من بين هذه وهذه — وقالت بأصبعها الوسطى والسبابة فرفعتهما الى السماء تعنى السماء والأرض — أو أنه لرسول الله حقا •

قال : فكان المسلمون بعد يعيرون على ما حولها من المشركين ولا يصيبون الصرم انذى هى فيه فقالت يوما لقومها : ما أرى الا أن هؤلاء القوم يدعونكم عمدا فهل لكم فى الاسلام ؟ فأطاعوها ، فدخلوا فى الاسلام •

وأخرج مسلم عن أبى قتادة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى سفر فأسرى ثم نام فما استيقظ الا والشمس فى ظهره فدعا بميضأة^(١) كانت معى فيها شئ من ماء فتوضأ منها ثم قال : احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نأ • فسار حتى امتد النهار فقال الناس : هلكنا وعطشنا • فقال : لا هلك عليكم •

ثم قال : انطلقوا الى عمرى • يعنى القدح الصغير فدعا بالميضأة فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يصب وأبو قتادة يسقيهم فقال النبى

(١) الميضأة : اناء يوضع فيه الماء •

صلى الله عليه وسلم : أحسنوا الماء كلكم سيروى ... حتى
ما بقى أحد .

* * *

٢

أخرج البخارى عن ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم كان يخطب الى جذع فلما اتخذ المنبر تحول اليه
فحن الجذع فأثاءه النبى صلى الله عليه وسلم فمسحه فسكن .
وأخرج أحمد وابن سعد والدارمى وابن ماجه وأبو نعيم والبيهقى
عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخطب
الى جذع قبل أن يتخذ المنبر فلما اتخذ المنبر وتحول اليه حن الجذع
فأثاءه فاحتضنه فسكن فقال صلى الله عليه وسلم : « لو لم أحتضنه
لحن الى يوم القيامة » .

وأخرج الدارمى والترمذى وأبو يعلى والبيهقى وأبو نعيم عن
أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم
الى جذع فلما اتخذ المنبر وقعد عليه خار الجذع كخوار الثور حتى
ارتج المسجد بخواره فنزل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتزمه
فسكت فقال : والذى نفسى بيده لو لم ألتزمه لما زال هكذا الى
يوم القيامة حزنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن سعد وابن راهويه فى مسنده والبيهقى عن سهل بن سعد
أنساعدى رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم
الى خشبة فلما اتخذ المنبر حنت الخشبة فأقبل الناس عليها ففرقوا
من حنينها حتى كثر بكاءهم فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثاءها
هو وضع يده عليها فسكت » .

وأخرج الدارمى وابن ماجه وابن سعد وأبو يعلى وأبو نعيم
والبيهقى عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال : « كان النبى صلى الله
عليه وسلم يخطب الى جذع فصنع المنبر فلما جاوز ذلك الجذع اليه
خار حتى تصدع وانشق فنزل صلى الله عليه وسلم فمسحه بيده
حتى سكن » .

وأخرج البيهقى وأبو نعيم عن أم سلمة رضى الله عنها قالت :
كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خشبة يستند اليها اذا خطب

فصنع له منبر فلما فقدته خارت خوار الثور حتى سمعها أهل المسجد فأتاها صلى الله عليه وسلم فاحتضنها فسكنت .

وأخرج ابن أبي شيبة والدارمي وأبو نعيم عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الى جذع فصنع له منبر فلما قام عليه حن الجذع حنين الناقة الى ولدها فنزل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فضمه اليه فسكن » .

وأخرج البخاري عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : « كان جذع يقوم اليه النبي صلى الله عليه وسلم فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع صوتا مثل أصوات العشار (النياق) حتى نزل النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه فسكت » .

قال التاج السبكي : حنين الجذع متواتر لأنه ورد عن جماعة من الصحابة الى نحو العشرين من طرق صحيحة كثيرة تفيد القطع بوقوعه ، وقال القاضي عياض بالشفاء : انه متواتر . وقال البيهقي : قصة حنينه من الأمور الظاهرة التي نقلها الخلف عن السلف .



٣

أخرج البخاري عن أنس — رضى الله عنه — قال : أصابت الناس سنة — جذب — على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يوم الجمعة يخطب أتاه أعرابي فقال : يا رسول الله .. هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وما نرى في السماء قرعة ، فوالذي نفسى بيده ما وضعهما حتى ثار سحب كأمثال الجبال ثم لم ينزل عن المنبر حتى رأيت الماء يتحادر على لحيته فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والذي يليه حتى الجمعة الأخرى فقام ذلك الأعرابي فقال : يا رسول الله .. تهدم البناء . فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وقال : اللهم حوالينا ولا علينا .. فما يشير بيده الى ناحية من السحاب الا انفرج حتى صارت المدينة مثل الجوبة وسال الوادي قناة شهرا ولم يجيء أحد من ناحية الا حدث بالجود » وأخرج مسلم مثله .

وأخرج البخاري عن ابن عمر — رضى الله عنه — قال : ربما ذكرت

قول الشاعر وأنا أنظر الى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يستسقى فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
وأخرج أبو نعيم عن ابن عباس — رضى الله عنه — أن ناسا من مضر أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يدعو الله أن يسقيهم فقال : اللهم اسقنا غيثا مغيثا ، هنيئا مريئا ، مريعا غدقا ، طبقا نافعا غير ضار ، عاجلا غير راث . فأطبقت عليهم حتى مطروا سبعا .

* * *

{

وأخرج الدارمي وأبو يعلى والطبراني واليزار وابن حبان والبيهقي وأبو نعيم بسند صحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما قال :

كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فأقبل أعرابي فلما دنا قال له النبي صلى الله عليه وسلم : أين تريد ؟ قال : الى أهلى . قال : هل لك في خير ؟ قال : وما هو ؟ قال : تشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله . قال : من شاهد على ما تقول ؟ قال : هذه الشجرة ، فدعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بشاطئ الوادى فأقبلت تخذ الأرض خدا حتى جاءت بين يديه فاستشهدها ثلاثا فشهدت أنه رسول الله ثم رجعت الى منبتها ورجع الأعرابي الى قومه فقال : ان يتبعونى آتكم بهم والا رجعت اليك فكنت معك .

وروى البخارى في تاريخه والبيهقي والدارمي والترمذى بسند صحيح عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : جاء أعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : بم أعرف أنك رسول الله ؟ — صلى الله عليه وسلم — فقال : ان دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتؤمن بى ؟ قال : نعم . فدعاه فجعل ينقر — أى يثب — حتى أتاه ، فقال : ارجع ، فعاد الى مكانه فأسلم الأعرابي .

وفى رواية : فجعل ينزل من النخلة شيئا فشيئا حتى سقط على الأرض فأقبل وهو يسجد ويرفع حتى انتهى الى النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال له : ارجع . فعاد ، فأسلم الأعرابي وقال : أشهد أنك رسول الله .

وروى الامام أحمد والطبراني والبيهقي عن يعلى بن مرة الثقفى

— رضى الله عنه — قال : « كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في مسير فذكر الحديث الى أن قال : تم سرنا حتى نزلنا منزلا فنام النبي صلى الله عليه وسلم فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيتها • وفي رواية : طافت به ثم رجعت الى مكانها فلما استيقظ صلى الله عليه وسلم ذكرت له ذلك فقال : هي شجرة استأذنت ربها في أن تسلم على فأذن لها » •

وأخرج البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : آذنت — أى أعلمت — النبي صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا له شجرة وأن الجن قالوا : من يشهد لك — أى بأنك رسول الله — فقال صلى الله عليه وسلم : هذه الشجرة ، ثم دعاها للشهادة فجاءت تجر عروقتها لها قعاقع » •

وأخرج الامام أحمد والبيهقى والطبرانى بسند صحيح عن يعلى ابن سبابة — رضى الله عنه — قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فأمر وديتين — أى نخلتين صغيرتين — فانضمتا •

وأخرج البزار عن بريدة بن الخصيب — رضى الله عنه — قال : سأل أعرابى النبي صلى الله عليه وسلم آية — أى علامة — تدل على أنه رسول الله فقال له : قل لتلك الشجرة : رسول الله يدعوك • فدعاها فمالَت الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها فتقطعت عروقتها ثم جاءت تخذ الأرض تجر عروقتها مغبرة حتى وقفت بين يدي رسول الله فقالت : السلام عليك يا رسول الله • قال الأعرابى : مرها فلترجع الى منبتها فرجعت فدلّت عروقتها فاستوت فقال الأعرابى : ائذن لى أسجد لك • أى بعد أن آمن به صلى الله عليه وسلم — كما صرح به في رواية — فقال له صلى الله عليه وسلم : لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها • فقال الأعرابى : فأذن لى أقبل يديك ورجليك فأذن له » •

قال الشيخ أحمد الدحلان في السيرة النبوية : وأحاديث كلام الشجر له صلى الله عليه وسلم كثيرة شهيرة رواها أهل السنن عن كثير من الصحابة منهم عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله ابن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وأسامة بن زيد ، وأنس بن مالك ، ويعلى بن مرة وغيرهم ورواها عنهم أضعافهم من التابعين •

وقال القاضى عياض في « الشفاء » عنها : فصارت في انتشارها

من القوة حيث هي : قال الشهاب الخفاجي : يعنى أنها نقلت عن كثير من الصحابة والتابعين حتى بلغت التواتر المعنوى وصارت في مرتبة قوية لا يشك فيها أحد من العقلاء .

* * *

٥

يقول الله تعالى :

« اقتربت الساعة وانشق القمر • وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر • وكذبوا واتبعوا أهواءهم ، وكل أمر مستقر »
(القمر : ١ — ٣)

روى البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « انشق القمر في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال عليه الصلاة والسلام : اشهدوا » .

وروى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه : « أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما » .

وروى الترمذى من حديث ابن عمر في قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » قال : قد كان ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم انشق فلقنتين فلقة دون الجبل وفلقة فوق الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا » .

وروى الامام أحمد عن جبير بن مطعم قال : « انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار فرقتين : فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل فقالوا : سحرنا محمد ، فقالوا : ان كان سحرنا فانه لا يستطيع أن يسحر الناس » .

وروى أبو نعيم في « الدلائل » عن ابن عباس قال :

« اجتمع المشركون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب والنضر بن الحارث ونظراؤهم فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ان كنت صادقاً فشق لنا القمر فلقنتين ، فسأل ربه فانشق » .

ونقل الخطيب في تفسيره عن حذيفة وقد خطب في المدائن قوله :
« ألا ان الساعة قد اقتربت وأن القمر قد انشق على عهد نبيكم » .

وكفى ذكره في القرآن الكريم حتى يحكم بتواتره اذ الآيات واضحة فيه ولا يمكن أن تفسر بغيره ولذلك أجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه كما قال القاضي عياض والسبكي وغيرهم .
ونقل صاحب كتاب « اظهر الحق » عن المقالة الحادية عشر من تاريخ فرثنة أن أهل مليار من اقليم الهند رأوه أيضا (أى حادث انشقاق القمر) .

وذكر الحافظ المزي عن ابن تيمية أن بعض المسافرين ذكر أنه وجد في بلاد الهند بناء قديما مكتوبا عليه : بنى ليلة انشق القمر .
وقد أثار بعض مبشرى النصارى شبهات حول هذا الموضوع ، من ناحية أن هذا الحدث كان ينبغي أن يذكر في كل التاريخ العالمية لو كان صحيحا متناسين أن الخسوف مثلا قد يقع في منطقة من العالم ، ويبقى ساعات ولا يراه الا أهلها . وقد ناقش مقالتهم صاحب الكتاب المذكور آنفا . وننقل جزءا من مناقشته للأمر قال :

١ — ان انشقاق القمر كان في الليل ، وهو وقت الغفلة والنوم والسكون عن المشى ، والتردد في الطرق . سيما في موسم البرد ، فان الناس يكونون مستريحين في داخل البيوت وزواياها ، مغلقين أبوابها ، فلا يكاد يعرف من أمور السماء شيئا الا من انتظره واعتنى به ، ألا ترى الى خسوف القمر فانه يكون كثيرا وأكثر الناس لا يحصل لهم العلم به حتى يخبرهم أحد به في السحر .

٢ — ان هذه الحادثة ما كانت ممتدة الى زمان كثير فما كان للناظر أن يذهب الى الغير الذى هو بعيد عنه وينبهه أو يوقظ النائم ويريه .

٣ — انها لم تكن متوقعة الحصول لأهل العلم ينظرونها في وقتها ، ويرونها كما أنهم يرون هلال رمضان ، والعیدين والكسوف والخسوف في أوقاتها غالبا لأجل كونها متوقعة الحصول ، ولا يكون نظر كل واحد الى السماء في كل جزء من أجزاء النهار أيضا فضلا عن الليل ، فلذلك رأى الذين كانوا طالبيين لهذه المعجزة ، وكذلك من وقع نظره في هذا الوقت الى السماء . كما جاء في الأحاديث الصحيحة : أن الكفار لما رأوها قالوا : سحركم ابن أبى كبشة ، فقال أبو جهل : هذا سحر فابعثوا الى أهل الآفاق حتى تنظروا رأوا ذلك أم لا . فأخبر أهل آفاق مكة أنهم رأوه منشقا وذلك لأن العرب يسافرون في الليل

غالبا و يقيمون في النهار • فقالوا : هذا سحر مستمر •• ثم نقل ما ذكرناه قبل هذا النقل •

٤ — انه قد يحول في بعض الأمكنة وفي بعض الأوقات في الديار التي ينزل فيها المطر كثيرا فانه يكون في بعض الأمكنة سحب غليظ ونزول المطر بحيث لا يرى الناظر في النهار الشمس ولا هذا اللون الأزرق الى ساعات متعددة • وكذا لا يرى في الليل القمر والكواكب ولا اللون المذكور في بعض أمكنة أخرى • لا أثر للسحاب ولا للمطر ، وتكون المسافة بين تلك الأمكنة والأمكنة الأولى قليلة ، وأهل البلاد الشمالية كالروم والفرنج في موسم نزول الثلج والمطر لا يرون الشمس الى أيام فضلا عن القمر •

٥ — ان القمر لاختلاف مطالعه ليس في حد واحد لجميع أهل الأرض فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين فيظهر في بعض الآفاق وبعض المنازل على أهل بعض البلاد دون بعض ••



٦

أخرج البخاري عن البراء رضى الله عنه : أن عبد الله بن عتيك لما قتل أبا رافع ونزل من درجة بيته سقط الى الأرض فانكسر ساقه قال فحدثت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أبسط رجلك ، فبسطتها فمسحها فكانما لم أشكها قط •

وأخرج الشيخان — البخاري ومسلم — عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر : « لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه • فلما أصبح قال : أين على ابن أبي طالب ؟ قالوا : يشتكى عينيه قال : فأرسلوا اليه فأتى به فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع » •

وأخرج البخاري عن يزيد بن أبي عبيد قال :

« رأيت أثر ضربة في ساق سلمة بن الأكوع فقلت : ما هذه الضربة ؟ قال : ضربة أصابتنى يوم خيبر ، فقال الناس : أصيب سلمة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فنفت فيها ثلاث نفثات فما اشتكيت منها حتى الساعة » •

وأخرج النسائي والترمذي والحاكم والبيهقي وصححوه وأخرجه
البرهان الحلبي من طرق متعددة حتى قال الشهاب الخفاجي في شرح
« الشفاء » : فلم يبق فيه شبهة :

عن عثمان بن حنيف رضى الله عنه أن رجلاً أعمى قال :

يا رسول الله .. ادع الله لى أن يكشف عن بصرى . فقال له
رسول الله صلى الله عليه وسلم : انطلق فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل :
اللهم انى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد انى
أتوجه بك الى ربك أن يكشف عن بصرى اللهم شفعه فى . فما قام
القوم من مجالسهم الا ورجع الرجل وقد أبصر وكان عثمان بن حنيف
وبنوه يعلمونه للناس فيدعون به عند تعسر قضاء الحاجات فتقضى .

وأخرج ابن عدى وأبو يعلى والبيهقي من طريق عاصم بن عمر
ابن قتادة عن جده قتادة بن النعمان : « أنه أصيبت عينه يوم بدر
فسالت حدقته على وجنته فأرادوا أن يقطعوها فسألوا رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال : لا .. فدعا به فغمز حدقته براحتة فكان
لا يدرى أى عينيه أصيبت » .

وأخرج البيهقي من وجه آخر عن قتادة مثله وزاد بعد قوله :
« براحتة » وقال : « اللهم اكسه جمالا » وأخرج ابن سعد عن
زيد بن أسلم رضى الله عنه أن عين قتادة بن النعمان أصيبت فسالت
على خده فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت أصح عينيه .
وأخرج البيهقي وأبو نعيم والطبراني من طرق : أن عين قتادة
أصيبت يوم أحد فوقعت على وجنته فردها صلى الله عليه وسلم فكانت
أحسن عينيه .

ولفظ رواية الطبراني وأبى نعيم عن قتادة قال : كنت يوم أحد
أتقى السهام بوجهى دون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان
آخرها سهمان ندرت سنه حدقتى فأخذتها بيدي وسعيت الى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فلما رآها فى كفى دمت عيناه فقال : اللهم
ق عين قتادة كما وقى وجه نبيك بوجهه فاجعلها أحسن عينيه وأحدهما
نظرا .. فصارت كذلك .

والظاهر أن احدى عينيه أصيبت فى بدر والأخرى فى أحد .

وأخرج الامام أحمد والطبراني عن الوازع قال : قدمت على
رسول الله صلى الله عليه وسلم والأشج فى ركب ومعنا رجل مصاب
(٢١ - الرسول)

فقلت : يا رسول الله .. ان معى خالا مصابا فادع الله له . قال : ائتنى به ، فأتيت به فأخذ طائفة من ردائه فرفعها حتى رأيت بياض ابطنه ثم ضرب ظهره وقال : اخرج عدو الله . فأقبل ينظر نظر الصحيح ليس بنظره الأول ثم أقعده بين يديه فدعا له ، ومسح وجهه فلم يكن في الوفد أحد بعد دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم يفضل عليه .

وأخرج أبو يعلى والبيهقى بسند حسنه ابن حجر في « المطالب العالية » عن أسامة بن زيد قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحجة التي حجها حتى اذا كنا ببطن الروحاء نظر الى امرأة تؤمه فحبس راحلته فلما دنت منه قالت : يا رسول الله .. هذا ابني ما أفاق من يوم ولدته الى يومى هذا ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ووضع بين صدره وواسطة الرحل ثم تفل في فيه وقال : اخرج يا عدو الله فانى رسول الله . ثم ناولها اياه وقال : خذيه فلا بأس عليه ، قال أسامة : فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حجه انصرف حتى اذا نزل ببطن الروحاء أتته تلك المرأة بشاة قد شوتها .

وأخرج أحمد وابن أبي شيبة والبيهقى والطبرانى وأبو نعيم من طريق سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أمه أم جندب قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند جمرة العقبة فرمى ورمى الناس ثم انصرف فجاءت امرأة ومعها ابن لها به مس — أى جنون — قالت : يا رسول الله .. ابني هذا به بلاء لا يتكلم ، فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم فجاءت بتور — اثناء من حجارة فيه ماء — فأخذه صلى الله عليه وسلم بيده فمج فيه ودعا فيه وأعاده فيه ثم أمرها فقال : اسقيه واغسله فيه . قالت : ففتتبعها فقلت : هبى لى من هذا الماء . قالت : خذى منه ، فأخذت منه حفنة فسقيتها ابني عبد الله فعاش فكان من يره ما شاء الله أن يكون قالت : ولقيت المرأة فزعمت أن ابنها براً وأنه غلام لا غلام خير منه . ولفظة أبى نعيم : براً وعقل عقلا ليس كعقول الناس .

وأخرج أحمد والدارمى والطبرانى والبيهقى وأبو نعيم عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن امرأة جاءت بابن لها فقالت : يا رسول الله .. ان بابنى هذا جنونا وانه يأخذه عند غداثنا وعشائنا فيفسد

علينا ، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره ودعا له ففتح
ثمة فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود فشفى .

وأخرج الحاكم عن أبي بن كعب قال :

كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاء أعرابي فقال : يا نبي الله
ان لى أخا به وجع . قال : وما وجعه ؟ قال : به لم — أى جنون —
قال : فائتنى به . فأتاه به فوضعه بين يديه فعوذه النبي صلى الله
عليه وسلم بفاتحة الكتاب وأربع آيات من أول سورة البقرة وهاتين
الآيتين :

« **والهكم الله واحد** » .. وآية الكرسي وثلاث آيات من آخر سورة
البقرة وآية من آل عمران : « **شهد الله أنه لا إله إلا هو** » ..
« **والهكم الله واحد** » .. وآية من سورة المؤمنون :
« **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ** » .. وآية من سورة الجن « **وأنه تعالى
جد ربنا** » .. وعشر آيات من أول الصافات وثلاث آيات من آخر
سورة الحشر و « **قل هو الله أحد** » والمعوذتين فقام الرجل كأنه لم يشك
شيئا قط .

ورواه عبد الله بن الإمام أحمد في الزوائد بسند حسن .

* * *

٧

ومعجزة أخرى متواترة النقل نقدم لها بما يلي :

لقد صعد الانسان الى ارتفاعات كبيرة فى هذا القرن ، ولكن رغم
هذا فانه باق ضمن اطار معين محدود فى السرعة والزمان والمكان .
فهو ما جاوز بعد دائرة الأرض ومجاوزته دائرة المجموعة الشمسية
مستحيل وأقرب نجم الى مجموعتنا الشمسية على ما يقال يبعد حوالى
أربع سنين ضوئية ، أى لو سار الانسان بسرعة ٣٠٠.٠٠٠ كيلو متر
فى الثانية فانه يصل بعد أربع سنوات وهذا مستحيل المستحيلات .

وهنا يظهر الفارق بين المعجزة والعادة ، والمعجزة تتعلق بقدرة
الله المباشرة ، أما العادة فهى خاضعة للأسباب التى جعل الله عز وجل
هذا العالم يسير عليها .

فقد أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى القدس
وعرج به الى ما فوق السماء السابعة ورجع بمدة زمنية قصيرة جداً

لم تتجاوز دقائق أو سويقات قليلة فكان في ذلك معجزة دلت على قدرة الله وعلى أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد يقول قائل : ان المعجزة حتى تقوم بها الحجة على الناس ينبغي أن تكون مشاهدة يراها الناس ، والاسراء والمعراج لم يرهما أحد وانما أخبر عنهما محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه والاخبار بالمعجزة وحده من صاحبها لا تقوم به الحجة على الناس .

والجواب أن الحجة قامت بسبب أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر عن قضايا ما كان ليستطيع الاخبار عنها لولا أنه أسرى به وعرج وبهذا قامت الحجة على الناس . إذ أن الناس عندما أخبرهم بما حدث له سألوه دليلا فقدم لهم جوابا عن كل ما سألوه وهذه أمثلة :

١ — أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي مالك عن أنس . . . فاما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا : يا أبا بكر . . هل لك في صاحبك يخبر أنه أتى في ليلته هذه مسيرة شهر ثم رجع في ليلة ؟ فقال أبو بكر : ان كان قاله فقد صدق . وانا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا ، نصدقه على خبر السماء . فقال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما علامة ما تقول ؟ قال : مررت بغير لقريش وهى في مكان كذا وكذا فنفرت الابل منا واستدارت وفيها بغير عليه غارستان غرارة سوداء وغرارة بيضاء فصرع فانكسر فلما قدمت العير سألوهم فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

٢ — أخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما كذبتنى قريش حين أسرى بى الى بيت المقدس قمت في الحجر فجلى الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر اليه .

٣ — أخرج ابن أبي حاتم والبيهقى وصححه والبزار والطبرانى وابن مردويه عن شداد بن أوس : « . . فأتانى أبو بكر فقال : يا رسول الله . . أين كنت الليلة ، فقد التمسك في مظانك ؟ فقلت : علمت أنى أتيت بيت المقدس الليلة . فقال : يا رسول الله . . انه مسيرة شهر فصفه ، قال : ففتح لى صراط كأنى أنظر اليه لا يسألنى عن شئ الا أنباته عنه ، قال أبو بكر : أشهد أنك رسول الله . فقال المشركون انظروا الى ابن أبي كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة ، فقال : ان من آية ما أقول لكم أننى مررت بغير لكم بمكان كذا وكذا قد

أضلوا بغيرا لهم فجمعه فلان وأن مسيرهم ينزلون بكذا ثم كذا
ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان
سوداوان فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حتى كان قريبا
من نصف النهار أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول
الله صلى الله عليه وسلم .

وليس في هذا النص والنص الأول تناقض فالنص الأول يتحدث
عن جمل عليه غرارة بيضاء وأخرى سوداء انكسرت رجله أما هذا فيتحدث
عن الجمل الأول في القافلة وعليه غرارتان سوداوان .

٤ — أخرج أحمد وابن أبي شيبة والنسائي والبزار والطبراني
وأبو نعيم بسند صحيح من طريق زرارة بن أوفى عن ابن عباس قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما كان ليلة أسرى بى فأصبحت
بمكة قطعت وعرفت أن الناس مكذبي . ففقد معتزلا حزينا فمر به
عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزىء :

هل كان من شيء ؟ قال : نعم . قال : وما هو ؟ قال : انى أسرى
بى الليلة . قال : الى أين ؟ قال : الى بيت المقدس . قال : ثم أصبحت
بين ظهرانينا ؟ قال : نعم . فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحده الحديث
ان دعا قومه اليه قال : رأييت ان دعوت قومك أتحدثهم ما حدثتني ؟
قال : نعم . قال : هيا معشر بنى كعب بن لؤى . فانفضت اليه
المجالس وجاءوا حتى جلسوا اليهما قال : حدث قومك بما حدثتني .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

انى أسرى بى الليلة . قالوا : الى أين ؟ قال : الى بيت المقدس .
قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم . قال : فمن بين مصفق
ومن بين واضح يده على رأسه متعجبا قالوا : وتستطيع أن تتعت
المسجد ؟ وفى القوم من سافر اليه قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : فذهبت أنعت فما زلت أنعت حتى التبس على بعض النعت
فجئء بالمسجد وأنا أنظر اليه حتى وضع دون دار عقيل — أو عقال —
فنعته وأنا أنظر اليه ، فقال القوم : أما النعت فوالله لقد أصاب .

٥ — أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي
وابن عساكر من طريق أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى
عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه حدث عن ليلة أسرى به . ثم
أصبح بمكة يخبرهم العجائب : انى أتيت البارحة بيت المقدس وعرج

بى الى السماء ثم رأيت كذا وكذا ، فقال أبو جهل : ألا تعجبون مما يقول محمد ؟ قال : فأخبرهم بغير قریش قال : لما كنت فى مصعدى رأيتها فى مكان كذا وكذا وانها نفرت فلما رجعت رأيتها عند العقبة وأخبرهم بكل رجل وبعيره كذا ومتاعه كذا فقال رجل : أنا أعلم الناس ببیت المقدس كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل ؟ فرفع لرسول الله صلى الله عليه وسلم بیت المقدس فنظر اليه فقال : بناؤه كذا وهيئته كذا وقربه من الجبل كذا .. فقال : صدقت .

٦ — وأخرج أبو نعيم عن محمد بن كعب القرظى قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم دحية الكلبي الى قيصر صاحب الروم وذكر قصة اجتماع أبى سفيان بهرقل وأستلة هرقل لأبى سفيان الى أن يذكر ما يلى على لسان أبى سفيان :

قلت : أيها الملك .. ألا أخبرك عنه خبرا فعرف أنه قد كذب ؟ قال : وما هو ؟ قلت : انه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم فى ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد ايلياء ورجع الينا فى تلك الليلة قبل الصباح . قال : وبطريق ايلياء عند رأس قيصر قال البطريق : قد علمت تلك الليلة .. قال فنظر اليه القيصر وقال : ما علمك بها ؟ قال : انى كنت لا أبيت ليلة حتى أغلق أبواب المسجد فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى فاستعنت عليه بعمالى ومن يحضرنى كلهم فعالجناه فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلا فدعوت النجاجة فنظروا اليه فقالوا : هذا باب سقط عليه النحات والبنيان فلا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى فرجعت وتركته مفتوحا فلما أصبحت غدوت فاذا الحجر الذى من زاوية الباب منقوب واذا فيه أثر مربوط الدابة فقلت لأصحابى : ما حبس هذا الباب الليلة الا على نبي وقد صلى الليلة فى مسجدنا ، فقال قيصر : يا معشر الروم .. أليس تعلمون أن بين عيسى وبين الساعة نبيا بشركم به عيسى ؟ وهذا هو النبي الذى بشر به عيسى فأجيبوه الى ما دعا اليه . فلما رأى نفوهم قال : يا معشر الروم .. دعاكم ملككم يختبركم كيف صلابتكم فى دينكم فشتمتموه وسببتموه وهو بين أظهركم .. فخروا له سجدا .

٧ — وأخرج مسلم من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد رأيتنى من الحجر وقریش.

تسألنى عن مسراى فسألونى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتتها فكربت
كرماً ما كربت مثله قط فرفعه الله لى أنظر اليه ما يسألونى عن شيء
الانباتهم به .

وهناك سؤال آخر يسأله بعض الناس وهو أين هى السماء التى
عرج اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
والجواب أن القرآن قد ذكر السماء فى كثير من آياته وأراد بها
المعنى اللغوى لها . وذكر أحيانا السماء وأراد بها المعنى اصطلاحيا
له ارتباط بالمعنى اللغوى ، ففى اللغة كل ما علاك فهو سماء ، قال
الله تعالى : « أنزل من السماء ماء » (الرعد : ١٧) « أو لم ير الذين
كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » (الأنبياء : ٣٠)
فهنا قصد المعنى اللغوى فقط « تكاد السموات يتفطرن من فوقهن
والملائكة يسبحون بحمد ربهم » (الشورى : ٥) « الله الذى خلق
سبع سموات » (الطلاق : ١٢) ذكرت هنا السماء بالمعنى
الاصطلاحى .

« انى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أظت السماء وحق
بها أن تنط ليس فيها موضع أربع أصابع الا ٠٠٠ » فالمقصود بالسموات
هذه سكن الملائكة ، والتى فيها الجنة فى السماء السابعة ، وسقفها
عرش الرحمن ، فهذه السموات هى التى عرج اليها رسول الله صلى الله
عليه وسلم كما سنرى فى الأحاديث بعد قليل . أما أين هى فالله أعلم
بذلك . اذ هى من المغيبات عنا ، أما ما يتصوره بعض الناس بأن هذه
الزرقة هى هذه السموات فهذا خطأ ووهم ، اذ هذه الزرقة ترى من
الأرض فقط فاذا ما ارتفع الانسان فى الفضاء غابت فهى انعكاسات
أضواء وأنوار وأجواء .

واذن فنحن نؤمن أن هناك سموات سبعا ، وعرشا فوقها ، أثبتناها
بإثبات الله اياها ، واخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها ،
ولا نجزم بمكانها وان كنا نجزم أنها فى جهة فوق بالنسبة لسكان
الأرض ، ولا نعرف عنها الا ما أخبرنا الله ورسوله ، هذه السموات
هى التى كان اليها العروج وهى التى تصعد اليها أرواح البشر وتنزل
الملائكة والروح منها .

ويتساءل آخرون : ما الحكمة في الاسراء والمعراج ؟

والحكمة — والله أعلم — تكمن في ناحيتين :

الأولى : أن الله أرى رسوله ما دعا اليه فقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو الى الايمان بالجنة ، ورأى الجنة وأن يدعو الى الايمان بالرسول ورأى الرسل • صلوات الله وسلامه عليهم ، والى الايمان بالملائكة ورأى الملائكة ، والى الايمان بالله ورأى آثار قدرة الله وملكوته وقد ذكر الله في القرآن :

« لنريه من آياتنا » (الاسراء : ١) •

الثانية : أن الله يعد رسوله لمرحلة جديدة من مراحل الدعوة الاسلامية • هذه المرحلة تشبه المرحلة التي رأى فيها موسى آيات الله الكبرى وهي مجابهة فرعون •

فقد قال الله عن موسى : « لنريك من آياتنا الكبرى • اذهب الى فرعون انه طغى » (طه : ٢٣ ، ٢٤) ان موسى الذى سيقابل فرعون الطاغية قد هب بهذه الرؤية لاحتقار كل القوى الأرضية ما دامت معه قوة الله ، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مأمورا بالصبر طوال المرحلة المكية ، وبعد الهجرة أمر بالمجابهة وكان الاسراء والمعراج قبل الهجرة بقليل • فكانت رؤية آيات الله الكبرى تمهيدا لهذه المرحلة التى سيقف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقلعة من أصحابه فى وجه الدنيا كلها • قال الله فى أوائل سورة النجم بعد الحديث عن المعراج : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » (١٨) ومن قبل كما ذكرنا أرى موسى من آيات الله الكبرى قبل مرحلة المجابهة •

* * *

وأخيرا بعد هذه المقدمات عن هذه المعجزة نبداً بذكر طرف عنها • قال الحافظ السيوطى :

اعلم أن الاسراء ورد مطولا ومختصرا من حديث أنس وأبى بن كعب وبريدة وجابر بن عبد الله وحذيفة بن اليمان ونسمة بن جندب وسهل ابن سعد وشداد بن أوس وصهيب وابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن مسعود وعبد الله بن أسعد بن زرارة وعبد الرحمن بن فرط وعلى بن أبى طالب وعمر بن الخطاب ومالك بن صعصعة وأبى أمامة وأبى أيوب وأبى جية وأبى الحمراء وأبى ذر وأبى سعيد الخدرى

وأبى سفيان بن حرب وأبى لیلی الأنصاری وأبى هريرة وعائشة
وأسماء بنتی أبی بکر وأم هانیء وأم سلمة .

وعد الامام القسطلانی فی « المواهب اللدنیة » ستة وعشرين
صحابیا وصحابیة رووا حدیث الاسراء والمعراج فهو اذن حدیث
متواتر مع نص القرآن علیه فی سورتی الاسراء والنجم وهذه بعض
روایات الحدیث :

١ — أخرج مسلم عن طریق ثابت عن أنس أن رسول الله صلى
الله علیه وسلم قال : أتیت بالبراق — وهو دابة أبيض طویل فوق
الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه — فركبته حتى أتیت
بيت المقدس فربطته بالحلقة التى تربط بها الأنبياء ثم دخلت المسجد
فصلیت فيه ركعتین ثم خرجت فجاعنى جبریل باناء من خمر واناء
من لبن فاخترت اللبن فقال جبریل : اخترت الفطرة ، ثم عرج بنا الى
السمااء الدنيا فاستفتح جبریل فقيل : من أنت ؟ قال : جبریل ، قيل :
ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث اليه ؟ قال : قد بعث اليه
ففتح لنا فاذا أنا بآدم فرحب بى ودعا لى بخير ، ثم عرج بى الى
السمااء الثانية فاستفتح جبریل فقيل : من أنت ؟ قال : جبریل ، قيل :
ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث اليه ؟ قال : قد بعث اليه ،
ففتح لنا فاذا أنا بابنئى الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا فرحبا
بى ودعوا لى بخير ثم عرج بنا الى السمااء الثالثة فاستفتح جبریل
فقيل : من أنت ؟ قال : جبریل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل :
وقد بعث اليه ؟ قال : قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بيوسف
واذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب بى ودعا لى بخير ثم
عرج بنا الى السمااء الرابعة فاستفتح جبریل ، قيل : من
هذا ؟ قال : جبریل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد
بعث اليه ؟ قال : قد بعث اليه ، ففتح لنا فاذا أنا بادريس فرحب
بى ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا الى السمااء الخامسة فاستفتح جبریل
قيل : من هذا ؟ قال : جبریل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل :
وقد بعث اليه ؟ قال : قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بهارون فرحب
بى ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا الى السمااء السادسة فاستفتح جبریل
قيل : من هذا ؟ قال : جبریل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل :
وقد بعث اليه ؟ قال : قد بعث اليه ، ففتح لنا فاذا أنا بموسى فرحب

بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء السابعة فاستفتح جبريل
قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل :
وقد بعث اليه ؟ قال : بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابراهيم مسند
ظهره انى البيت المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك
لا يعودون اليه ثم ذهب بى الى سدرة المنتهى فاذا ورقها كآذان الفيلة
واذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت فما أحد
من خلق الله يستطيع أن ينعتها فأوحى الى ما أوحى ففرض على خمسين
صلاة فى كل يوم وليلة ، فنزلت حتى انتهت الى موسى فقال : ما فرض
ربك على أمتك ؟ قلت : خمسين صلاة ، قال : ارجع الى ربك فاسأله
التخفيف فان أمتك لا تطيق ذلك فانى قد بلوت بنى اسرائيل وخبرتهم
فرجعت الى ربى فقلت : يا ربى .. خفف عن أمتى ، فحط على خمس
فرجعت الى موسى فقلت : حط عنى خمساً ، قال : ان أمتك لا يطيقون
ذلك فارجع الى ربك فاسأله التخفيف ، قال : فلم أزل أرجع بين
ربى وبين موسى حتى قال : يا محمد .. انهن خمس صلوات بكل
يوم وليلة لكل صلاة عشر فتلك الخمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم
يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم
يعملها لم تكتب شيئا فان عملها كتبت سيئة واحدة ، فنزلت حتى
انتهت الى موسى فأخبرته فقال : ارجع الى ربك فاسأله التخفيف ،
فقلت : قد رجعت الى ربى حتى استحييت منه .

٢ — وأخرج مسلم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مررت ليلة أسرى بى على موسى قائما يصلى فى قبره .

٣ — وأخرج أحمد وابن أبى شيبة والترمذى والحاكم وصحاحه والنسائى وابن جرير وابن مردويه والبيهقى عن حذيفة أنه حدث عن
ليلة أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال : « ما زایل البراق
حتى فتحت له أبواب السموات فرأى الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع
ثم عاد » ولفظ ابن مردويه : فأرى ما فى السموات وأرى ما فى الأرض .

٤ — أخرج مسلم من طريق مرة الهمداني عن ابن مسعود قال :
لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم فأنتهى الى سدرة المنتهى
واليها ينتهى ما يصعد به — وفى لفظ : ما يعرج به — من الأرواح حتى
يقبض منها واليها ينتهى ما يهبط به من فوقها حتى يقبض . « ان يغشى
السدره ما يغشى » قال : غشيها فرأى من ذهب وأعطى رسول الله صلى

الله عليه وسلم الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً المقحّمات .

* * *

٨

وعندما يدعو رسول الله لانسان فانك تجد ما دعا له قد تحقق تماماً كما دعا ، وكثرة الحوادث في هذا الموضوع تجعل الانسان على اليقين الكامل أن محمداً رسول الله وأن الله عز وجل يؤيد رسوله ويسدده ويستجيب دعاءه حتى لا يشك معه بقيمة الكلمة التي تخرج من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قال القاضي عياض في « الشفاء » : اجابة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لجماعة دعا لهم أو عليهم متواترة معلومة ضرورة . وأخرج الامام أحمد عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا دعا للرجل أدركت ولده وولد ولده » . وهذه أمثلة منتقاة من عشرات أو مئات الحوادث من نوعها في كل منها دليل ما قلناه :

١ — أخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن علي رضى الله عنه قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن فقلت : يا رسول الله .. تبعثنى وأنا شاب أقضى بينهم ولا أدري ما القضاء . فضرب بيده فى صدرى وقال : اللهم اهد قلبه وثبت لسانه . فوالذى فلق الحبة ما شككت فى قضاء بين اثنين .

٢ — أخرج البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن : « بارك الله لك » وأخرجه ابن سعد والبيهقى من وجه آخر وزاد : قال عبد الرحمن : لقد رأيتنى ولو رفعت حجرا لرجوت أن أصيب تحته ذهباً أو فضة .

٣ — أخرج الترمذى والحاكم وصححه عن سعد رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : اللهم استجب لسعد اذا دعاك . فكان لا يدعو الا استجيب .

٤ — أخرج الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : دعا لى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « اللهم فقهه فى الدين » وأخرجه الحاكم والبيهقى وأبو نعيم من وجه آخر عنه بزيادة : « وعلمه التأويل » فصار حبر هذه الأمة ولا سيما فى علم التفسير .

وأخرج الامام أحمد وأبو نعيم عن ابن عباس رضى الله عنهما
قال : مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسى ودعا لى بالحكمة
فلم تخطئنى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٥ — أخرج الشيخان عن أنس رضى الله عنه قال :

اشتكى ابن لأبى طلحة فمات وأبو طلحة خارج فلما رأت امرأته
أنه قد مات هيأت شيئاً ونحته فى جانب البيت فلما جاء أبو طلحة
قال : كيف الغلام ؟ قالت : هدأت نفسه ، وأرجو أن يكون قد استراح .
وظن أبو طلحة أنها صادقة فبات فلما أصبح اغتسل فلما أراد أن
يخرج أعلمته أنه قد مات فصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ثم
أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بما كان منهما فقال صلى الله عليه
وسلم : لعل الله يبارك لكما فى ليلتكما . قال سفيان : قال رجل من
الأنصار : فرأيت لهما سبعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن .

٦ — أخرج مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : ما على وجه
الأرض مؤمن ولا مؤمنة الا وهو يحبنى ، قلت : وما علمك بذلك ؟
قال : انى كنت أدعو أمى الى الاسلام فتأبى فقلت : يا رسول الله ..
ادع الله أن يهدى أم أبى هريرة الى الاسلام ، فدعا لها فرجعت
فلما دخلت البيت قالت : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ،
فرجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكى من الفرح كما
كنت أبكى من الحزن وقلت : يا رسول الله .. قد استجاب الله دعوتك
وهدى أم أبى هريرة الى الاسلام فادع الله أن يحببنى وأمى الى
عباده المؤمنين وأن يحببهم الينا ، فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم
حبب هذا وأمه الى عبادك المؤمنين وحبيبهم اليهما . فما أعلم مؤمناً
ولا مؤمنة الا وهو يحببنى وأحبه .

٧ — أخرج الشيخان عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال :
خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى خير فسرنا ليلاً فقال
رجل من القوم لعامر بن الأكوع : ألا تسمعن من هنيهاتك ؟ وكان عامر
رجلاً شاعراً فنزل يحدو بالقوم بقوله :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر فداء لك ما اقتتينا وثبت الأقدام ان لاقينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هذا السائق ؟ قالوا :
عامر ، قال : يرحمه الله . قال رجل من القوم : وجبت يا رسول الله

هلا أمتعتنا به ؟ فلما تصاف القوم تناول عامر سيفه ليضرب به ساق يهودى فرجع ذباب سيفه فأصاب ركبته فمات منه • وأخرجه مسلم من وجه آخر وفيه : فقال من هذا القاتل ؟ قالوا : عامر • قال : غفر لك ربك • قال : وما خص رسول الله صلى الله عليه وسلم قط أحدا به الا استشهد ، فقال عمر : لولا متعتنا بعامر ؟ أى ما استغفر لانسان يخصه قط الا استشهد •

٨ — أخرج البخارى عن أبى عقيل أنه كان يخرج به جده عبد الله ابن هشام الى السوق ليشتري الطعام فيلتقاه ابن الزبير وابن عمر فيقولان : أشركنا فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا لك بالبركة فيشركهم ، فربما أصاب الراحلة كما هي فيبعث بها الى المنزل •

٩ — أخرج الشيخان عن أبى بكر رضى الله عنه قال : طلبنا القوم فلم يدركنا منهم غير سراقه بن مالك على فرس له فقلت : يا رسول الله •• هذا الطلب قد لحقنا ، قال : لا تحزن ان الله معنا • فلما كان بيننا وبينه قدر قيد رمحين أو ثلاثة دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اللهم اكفناه بما شئت • فساخت به فرسه في الأرض الى بطنها فقال : يا محمد •• قد علمت أن هذا عملك فادع الله أن ينجينى مما أنا فيه فوالله لأعmin على من ورائى من الطلب • فدعا له صلى الله عليه وسلم فانطلق راجعا •

١٠ — أخرج البخارى فى « الأدب » والنسائى عن أم قيس أنها قالت : توفى ابنى فجزعت فقلت للذى يغسله لا تغسل ابنى بالماء البارد فيقتله فانطلق عكاشة بن محصن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بقولها فتبسم ثم قال : طال عمرها • فلا يعلم امرأة عمرت ما عمرت •

١١ — أخرج البيهقى وأبو نعيم من طريق يعلى بن الأزدى قال : سمعت النابغة — نابغة بنى جعدة — يقول : أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم شعرا فأعجبه فقال : جدت •• لا يفضض الله فاك • قال يعلى : فلقد رأيته ولقد أتى عليه نيف ومائة سنة وما ذهب له سن •

١٢ — أخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بكتابه الى كسرى فلما قرأه كسرى مزقه فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمزقوا كل ممزق •• فمزقوا •

١٣ — وروى البيهقي بأسناد صحيح أنه صلى الله عليه وسلم دعا على الحكيم بن أبي العاص وكان يختلج بوجهه — أى يحرك وجهه وحاجبيه وشفتيه — استهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال : كن كذلك • فلم يزل يختلج الى أن مات •

١٤ — وأخرج مسلم بن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه أن رجلا أكل عند النبي صلى الله عليه وسلم بشماله فقال : كل بيمينك • قال : لا أستطيع قال : لا استطعت — ما منعه الا الكبر • قال : فما رفعها الى فيه بعد •

* * *

٩

عندما تدرس حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تجدك دائما أمام حادث تشعر فيه أنك أمام قدرة الله المباشرة التى لا دخل لعالم الأسباب فيها ، ولا تستطيع أبدا أن تجد تعليلا لما تراه ، أو نقل اليك نقلا صحيحا ، الا أن الله جلت حكمته يجرى على يد هذا الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ما تقوم به الحجة على الكافر ، ويزداد به المؤمن يقينا ويخرج به الشاك عن شكه •

ولا يفوتنا هنا ونحن ننقل نوعا آخر من أنواع معجزاته صلى الله عليه وسلم أن نشير مرة ثانية الى أن هذه النقول هى أدق نقول تاريخية فى العالم • لأن معايير النقد التى وضعت لاستخراج صحيحها لا مثيل لها أبدا • مع ملاحظة أنها منقولة فى النهاية عن الصحابة الذين كانوا يعتقدون أن الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكبر الكبائر ، وقد زباهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدق ، وما كان أحدهم يسكت عن باطل رآه • فلو حدث أن صحابيا أخطأ فى النقل فانهم جميعا كانوا يردون عليه اذا بلغهم خطؤه ، واذن فنحن اذا ننقل هذه النقول ننقلها باطمئنان الائق الى ما بين يديه ، ولئن كان فى الأخبار المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ما هو ضعيف فالحلطة تكمن فى أجيال ما بعد الصحابة والتابعين • وعلماء النقد عند المسلمين ما تركوا أمثال هذه تمر ونحن نحاول ألا ننقل الا ما كان ثابتا بعد النقد والا كشاهد • بعد هذا نبدا بنقل مجموعة من الآثار تدور حول معنى واحد ، يظهر فيه الاعجاز ، وما ننقله فيه غيض من فيض وكثير مما نقلناه مروي بعدة روايات عن عدة صحابة ومخرج

في عدة كتب ولكننا اخترنا رواية من مجموعة روايات الحادثة الواحدة
وهاك هذه المختارات .

١ — روى البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله رضى الله
عنهما في قصة حفر الخندق قال : رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم
خمصا شديدا — وهو ضمور البطن من الجوع — فأخرجت جرابا فيه
صاع من شعير ولنا بهيمة — وهى الصغيرة من أولاد المعز — وفى
رواية عن جابر رضى الله عنه : انا يوم الخندق نحفر فعرضت لنا كدية
شديدة فجاءوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : هذه كدية
عرضت فى الخندق فقال : انا نازل . ثم أقام وبطنه معصوب بحجر
ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم
فضرب فعادت كتيبا أهيل فقلت : يا رسول الله .. أئذن لى الى البيت
فأذن فقلت لامراتى : رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم شيئا ما كان
لى فى ذلك صبر..، فعندك شئ؟ قالت : عندى شعير وعناق ، فذبحت
العناق وطبخت الشعير حتى جعلنا اللحم فى البرمة ثم جئت النبي
صلى الله عليه وسلم والعجين قد اختمر والبرمة بين الأثافي — أى
الأحجار التى توضع عليها القدر — كادت أن تنضج وقالت امرأتى :
لا تفضحنى برسول الله صلى الله عليه وسلم وبمن معه . فجئته
فساررته فقلت : يا رسول الله .. ذبحنا بهيمة لنا وطبخنا صاعا من
شعير فتعال أنت ونفر معك — يعنى دون العشرة — وفى رواية :
فقلت : طعيم لنا صنعته فقم أنت يا رسول الله ورجلا أو رجلاان ،
وكنت أريد أن ينصرف وحده قال : كم هو ؟ فذكرت له . فقال :
كثير طيب ، قل لها : لا تتزع البرمة ولا الخبز من التتور حتى آتى .
فصاح النبي صلى الله عليه وسلم : يا أهل الخندق .. ان جابرا صنع
سؤرا فحيهلا بكم — أى هلموا مسرعين — والسؤر الطعام الذى
يدعى اليه .

وفى رواية : فقال : قوموا . فقام المهاجرون والأنصار فلما دخل
على امرأته قال : ويحك .. جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالأنصار
والمهاجرين ومن معهم . قالت : هل سألك ؟ قلت : نعم . وفى رواية :
قال : لقيت من الحياء ما لا يعلمه الا الله تعالى وقلت : جاء الخلق على
صاع من شعير وعناق ، فدخلت على امرأتى أقول : افتضحت .. جاء

رسول الله بالجند أجمعين ، فقالت : هل كان سالككم طعامك ؟
فقلت : نعم . فقالت : الله ورسوله أعلم نحن أخبرناه بما عندنا .
وفي رواية : انها خاصمته في أول الأمر وقالت : بك بك . فلما أعلمها
بأنه أعلم النبي صلى الله عليه وسلم سكن ما عندها وقالت : الله
ورسوله أعلم . لعلمها بإمكان خرق العادة ودل ذلك على وفور عقلها
وكمال فضلها رضى الله عنها ، واسمها سهيلة بنت معوذ الأنصارية .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تنزل برمتكم ولا يخبز
عجينكم حتى أجيء . وفي رواية قال جابر : فجئت وجاء النبي صلى
الله عليه وسلم يقدم الناس فأخرجت المرأة له عجينا فبصق فيه وبارك
ثم عمد الى برمتنا وبصق فيها وبارك — أى دعا بالبركة — ثم قال
لجابر : ادع خابزة لتخبز مع زوجتك ثم قال لها : اقدحى — أى
اغرفى — من برمتكم ولا تنزلوها وهم — أى القوم الذين جاؤا معه —
ألف وأقعدهم عشرة عشرة يأكلون فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه
وانحرفوا — أى مالوا عن الطعام — وان برمتنا لتغط — أى لتغلى
وتفور كما هي — وان عجيننا ليخبز كما هو . وفي رواية فقال صلى
الله عليه وسلم لأصحابه : ادخلوا ولا تضاعطوا . فجعل يكسر الخبز
ويغرف حتى شبعوا أجمعين والتتور والقدر أملاً ما كنا فقال : كلوا
وأهدى . فلم نزل نأكل ونهدى يومنا أجمع . وفي رواية : فأكلنا
وأهدينا لجيراننا فلما خرج صلى الله عليه وسلم ذهب ذلك .

٢ — وأخرج مسلم عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : خرجنا
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة فأصابنا جهد حتى هممنا
أن ننحر بعض ظهرنا فأمر نبي الله صلى الله عليه وسلم فجمعنا مزادنا
فبسطنا له نطعا فاجتمع زاد القوم على النطع فتناولت لأحرز كم هو
فحرزته كربضة لعنز ونحن أربع عشرة مائة فأكلنا حتى شبعنا جميعا ثم
حشونا جرباننا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل من وضوء ؟
فجاء رجل بأداة له فيها نطفة ماء فأفرغها في قدح فتوضأنا كلنا
ندغفقه دغفقة أربع عشرة مائة .

٣ — وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : لما كان
يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة فقالوا : يا رسول الله . . لو أذنت
لنا ننحر نواضحنا فأكلنا وادهنا فقال عمر : يا رسول الله . . ان فعلت
قل الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم وادع الله لهم فيها بالبركة لعل

الله أن يجعل في ذلك الخير . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
نعم . فدعا بنطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم فجعل الرجل يأتي
بكف ذرة ويجيء الآخر بكف تمر ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع
على النطع من ذلك شيء يسير فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم
بالبركة ثم قال لهم : خذوا في أوعيتكم . فأخذوا حتى ما تركوا في
العسكر وعاء الا ملأوه فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : أشهد أن لا اله الا الله وأنى رسول الله
لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة . وأخرجه بنحوه
ابن سعد والحاكم وصححه البيهقي وأبو نعيم عن أبى عمرة الأنصارى
رضى الله عنه وأخرجه ابن راهويه وأبو يعلى وأبو نعيم وابن عساكر
عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلفظ :

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فأصابنا
جوع شديد فقلت : يا رسول الله .. خرج إلينا الروم وهم شباع
ونحن جياع وأرادت الأنصار أن ينحروا نواضحهم . فنادى في الناس :
من كان عنده فضل من زاد فليأتنا . فحزرنا جميع ما جاءوا به فوجدوه
سبعة وعشرين صاعا فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنبه
فدعا فيه بالبركة ثم قال : أيها الناس .. خذوا ولا تنتهبوا . فأخذوه
في الجرب والغرائر حتى جعل الرجل يعقد قميصه فيأخذ فيه حتى
حذروا وانه نحو ما كان يحزرون ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :
أشهد أن لا اله الا الله وأنى رسول الله لا يأتي بهما عبد بحق الا وقاه
الله حر النار .

٤ — وأخرج الشيخان عن أنس رضى الله عنه قال : قال أبو طلحة
لأم سليم : لقد سمعت صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفا
أعرف فيه الجوع فهل عندك من شيء ؟ قالت : نعم .. فأخرجت أقراصا
من شعير ثم ذهبت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرسلك
أبو طلحة ؟ قلت : نعم . فقال لمن معه : قوموا .. فجئت أبا طلحة
فأخبرته فقال أبو طلحة : يا أم سليم .. قد جاء رسول الله صلى
الله عليه وسلم والناس وليس عندنا ما نطعمهم . قالت : الله ورسوله
أعلم . فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هلمى ما عندك
يا أم سليم . فأنت بذلك الخبز ، فأمر به ففت وعصرت عليه عكة لها
فأدمته ثم قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء أن يقول
(٢٢١ - الرسول)

ثم قال : ائذن لعشرة • فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ثم قال : ائذن لعشرة • فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم قال : ائذن لعشرة حتى أكل القوم كلهم وشبعوا والقوم سبعون رجلا أو ثمانون • وأخرجه مسلم من عدة طرق وفي بعضها : ثم أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل البيت وأفضلوا ما بلغ جيرانهم • وفي بعضها : فقال : بسم الله عظم فيه البركة •

٥ — وأخرج الدارمي وابن أبي شيبة والترمذي والحاكم والبيهقي وصححوه وأبو نعيم عن سمرة بن جندب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بقصعة فيها طعام فتعاقبوها الى الظهر منذ غدوة يقوم قوم ويقعد آخرون فقال رجل لسمرة : هل كانت تمتد ؟ قال : ما كانت تمتد الا من هاهنا — وأشار الى السماء •

٦ — وأخرج البخاري عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضى الله عنهما قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثين ومائة فقال : هل مع أحد منكم طعام ؟ فاذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه فعجن ثم جاء رجل بغنم يسوقها فاشتري منه شاة فأمر بها فصنعت وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسواد البطن أن يشوى قال : وأيم الله ما من الثلاثين ومائة الا وقد حز له رسول الله عليه وسلم من سواد بطنها ان كان شاهدا أعطاه وان كان غائبا خبأ له قال : وجعل منها قصعتين فأكلنا منها أجمعون وشبعنا وفضل من القصعتين فحملنا على البعير •

٧ — وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : دعانى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : انطلق الى المنزل فقل : هلموا الطعام الذى عندكم • فأعطونى صحيفة فيها عصيدة بتمر فأتيته بها فقال لى : ادع أهل المسجد فقلت فى نفسى الويل لى مما أرى من قلة الطعام ، والويل لى من المعصية ، فدعوتهم فاجتمعوا فوضع النبي صلى الله عليه وسلم أصابعه فيها وغمز نواحيها وقال : كلوا بسم الله • فأكلوا حتى شبعوا وأكلت حتى شبعت ورفعتهما فاذا هى كهيتتهما حين وضعتها الا أن فيها آثار أصابع النبي صلى الله عليه وسلم •

٨ — وأخرج أبو يعلى والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي وأبو نعيم عن قيس بن النعمان رضى الله عنه قال : لما انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر مستخفين مرا بعبد يرعى غنما

فاستقياء اللبن فقال : ما عندي شاة تحلب غير أن هاهنا غناقا حملت أول الشتاء وقد أخرجت وما بقي لها لبن . فقال صلى الله عليه وسلم : ادع بها . فدعا بها فاعتقلها النبي صلى الله عليه وسلم ومسح ضرعها ودعا وجاء أبو بكر بمجن فحلب صلى الله عليه وسلم وسقى أبا بكر ثم حلب فسقى الراعى ثم حلب فشرب هو صلى الله عليه وسلم . فقال الراعى : من أنت . فوالله ما رأيت مثلك قط ؟ قال : محمد رسول الله . قال : أنت الذي ترعم قريش أنه صاب ؟ قال : انهم ليقولون ذلك . قال : فأشهد أنك نبي وأن ما جئت به حق وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي .

٩ — وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : والله الذي لا إله إلا هو أن كنت لأعتمد كبدي على الأرض من الجوع وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ولقد قعدت يوما على الطريق فمر بي أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليستتبعني فمر ولم يفعل ، ثم مر بي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فتبسم حين رأيته وعرف ما في نفسي وما في وجهي ثم قال : يا أبا هريرة . قلت : لبيك يا رسول الله .

قال : الحق . ومضى فاتبعته فدخل واستأذنت فأذن لي فدخلت فوجد صلى الله عليه وسلم لبنا في قدح فقال : من أين هذا اللبن ؟ قالوا : أهدها لك فلان وفلانة ، قال صلى الله عليه وسلم : أبا هريرة .

قلت : لبيك يا رسول الله .

قال : الحق بأهل الصفة فادعهم وادعهم لي . قال : وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال إذا أتته صلى الله عليه وسلم صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا فإذا أتته هدية أرسل إليهم فأصاب منها وأشركهم فيها فساغنى ذلك وقلت : وما هذا اللبن في أهل الصفة كنت أرجو أن أصيب من هذا اللبن بشربة أتقوى بها وإنى لرسول فإذا جاءوا أمرنى صلى الله عليه وسلم أن أعطيهم ما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا وأخذوا مجالسهم من البيت فقال : أبا هريرة . قلت : لبيك يا رسول الله . قال : خذ فأعطهم فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح

أعطيه خر فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح حتى انتهت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد روى القوم كلهم فأخذ القدح فوضعه على يده ونظر الى وتبسم وقال : يا أبا هريرة • قلت : لبيك يا رسول الله • قال : بقيت أنا وأنت • قلت : صدقت يا رسول الله • قال : اقعد فاشرب • فشربت • فقال : اشرب فشربت فما زال يقول اشرب فاشرب حتى قلت : لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكا فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة صلى الله عليه وسلم •

* * *

وبعد هذا ننتقل الى خاتمة هذا الباب :

تعقيب

ان المعجزة حجة على صحة دعوى الرسالة • غير أن بعض الناس يحاول أن يتهرب من حجيتها بذكر أشياء خارقة للعادة تظهر على يد غير الرسل ، يراها الناس ثم يعتبر ذلك دليلا على أنه لم تقم عليه الحجة بالمعجزة ، والحقيقة أن هنا أشياء كثيرة يراها الناس خارقة للعادة وليست كذلك • والمعجزة تختلف عن كل هذه الأشياء وبهذا تقوم الحجة على الناس ولنضرب أمثلة :

في دمشق من بلاد الشام يرى الناس في حي الأكراد ظاهرة عجيبة هي خروج رجل انسان من قبر صاحبه ، والرجل لم تتغير ولم تتبدل مع أن صاحبها متوفى من مئات السنين ، ونسمع كثيرا عن أخبار ناس سحرة يأتون أشياء عجيبة ، ونسمع كثيرا عن أشياء عجيبة تظهر على يد فقراء الهنود ، والرسول صلى الله عليه وسلم أخبرنا عن خوارق تظهر على يد الدجال في آخر الزمان ويروى لنا الثقات أن هناك ناسا من صلحاء المسلمين تظهر على أيديهم خوارق للعادة ، فمثلا يذكر ابن تيمية أن الشيخ عبد القادر الجيلاني منقولة كراماته تواترا •

فما مقام المعجزة التي تقوم بها الحجة بين هذه الأشياء ؟

كنا ذكرنا في مقدمة هذه الأبواب أن المعجزة تكون بخلق الله المباشر دون أن يكون للأسباب الكونية فيها أى تعلق • على خلاف السحر فإنه علم له قوانينه من أتقنها ظهر على يده منه ، وعلى خلاف

الأعاجيب التي تظهر نتيجة الرياضات الروحية • فان ذلك أثر من أسباب وقوانين كونية تخضع لها عوالم الروح •

ومن هنا كانت هذه الأشياء في الحقيقة نتائج عادية لمقدسات خاصة ، أما معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم فتختلف عن هذا كله لأنها ليست وليدة علم أو قانون كونى وسبب ، أما الخارقة للعادة التي تظهر على يد رجل صالح ، فهي مثل المعجزة من حيث كونها خارجة عن الأسباب ، ومن حيث كونها بقدره الله المباشرة •

ولكنها في العادة لا تكون الا على يد انسان متمسك بحبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي أثر من آثار اتباع الرسول • فهي كرامة لمن ظهرت على يده معجزة للرسول • لأنه لولا اتباعه للرسول ما أظهر الله على يديه مثل هذه الخوارق ، فالكرامة والمعجزة من مشكاة واحدة ، ولكن المعجزة تظهر مع دعوى الرسالة ، والكرامة تظهر تأييدا لصاحب الرسالة على يد انسان متبع للرسول •

ولا نحكم على الخارقة أنها كرامة الا بعد التأكد من استقامة صاحبها على أمر الله وسنة رسوله •

ان سنة الله جرت ألا يظهر خارقة للعادة بكل شروطها على يد انسان كذاب في دعوى الرسالة عنه ، وهنا سر الفرق الحقيقي بين المعجزة وكل خارقة أخرى •

فصاحب الكرامة لا يدعى الرسالة ، ولذا فان ظهورها على يده لا يجعل في الأمر التباسا ، خاصة وهو متبع لرسوله متمسك بشريعته •

وأما المسيح الدجال فليس يدعى الرسالة وتظهر معه الخوارق تأييدا لها حاشا ، ولكنه انسان جعله الله عز وجل أعظم فتنة للبشر اذ يدعى الألوهية ويظهر معه شيء من آثار قدرة الله ليبقى العقل البشرى مسئولا ، اذ العقل يعرف الله بصفات الكمال وهذا الانسان لا يمكن أن يكون هو الله • فما يظهره الله على يده فتنة يختبر بها العباد ، ولا يلتبس ما يظهر على يده بالمعجزة التي تقوم بها الحجة ، لأنه لا يدعى الرسالة أصلا ، ولو كان يدعى الرسالة ما ظهرت على يده مثل هذه الخوارق •

واذن بعض ما يظهر للناس أنه خوارق للعادة ليس هو في الحقيقة من هذا النوع •

وبعضها لا يظهر مع دعوى الرسالة فلا يلتبس بالمعجزة •

وتبقى المعجزة شاهدة على صحة دعوى الرسالة ، والكرامة اذا خرجت من أهلها دليل على صدق التابع والمتبوع ، فلا التباس بين المعجزة وغيرها والحجة قائمة على البشر بها •
ولا عذر لأحد لا يتبع صاحبها •
وأخيرا وقد انتهى هذا الباب •
نقول :

ان انسانا يرى معجزة المعجزات بين يديه « القرآن » ثم لا يؤمن بأن محمدا رسول الله ، أعمى القلب والعقل •
وان انسانا تؤكد له أصدق الوثائق التاريخية كثرة معجزات ممدد عليه السلام ثم لا يؤمن به ، مظلّم الوجدان والضمير •
وان انسانا مثل هذا ليقولن في يوم :
« وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير • فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير » (الملك : ١٠ ، ١١) •



والى الباب الثالث لنرى برهانا آخر على أن محمدا رسول الله •

الباب الثالث

النبوءات

ان المستقبل مجهول للانسان ، وكل ما يستطيع أن يتصوره الانسان بالنسبة للمستقبل هو من باب التوقعات التي تعتمد على المقدمات المؤدية للنتائج ، وحتى في هذه فمهما أوتى الانسان من صدق الحدس ، وقوة الادراك ، فان كلامه يبقى من باب التوقعات التي يمكن ألا تقع ، أما في حالة عدم وجود المقدمات التي تؤدي الى النتائج . فالمسألة تبقى من باب التخرصات أو التوهّمات ، ووقوعها في هذه الحالة من قبيل المصادفات ، وعدم وقوعها هو الأصل ، لقد تنبأ اليهودي الشيوعي الخبيث « ماركس » أن الثورة الشيوعية ستكون في ألمانيا وانجلترا ، وكان يستبعد أن تقوم في روسيا فكانت في روسيا للابسات خاصة ولم تكن في ألمانيا أو انجلترا .

فاذا ما وجدنا ظاهرة عند انسان ، هذه الظاهرة هي أنه تحدث عن المستقبل حديثاً ما خرمه المستقبل ، ولا في جزء من أجزائه ، فنحن اذن أمام ظاهرة تحتاج الى تحليل وتعليل ، وليس كلامنا هنا الا في حالة التصديق الكامل من الواقع للنبوءة الثابتة ، فليس كلامنا اذن في التوقعات ، وليس كلامنا في التكهّنات الكهنية التي يكذب الواقع عنرات منها ، وليس كلامنا في النبوءات المدعاة التي يدعى أنها قيلت قبل وقوع مضمونها . والحقيقة أنها قيلت بعده ، وليس كلامنا في أمر بيت فتنبأ بوقوعه بعض من بيته ، وليس كلامنا في انسان تحققت بعض نبوءاته وكذب الواقع بعضها ، وليس كلامنا في نبوءة كانت عن رؤيا منام أو ما يشبه رؤيا منام ، وليس كلامنا في نبوءة صدرت عن تابع نبي صديق فكانت كرامة له باتباعه لهذا النبي .

وانما كلامنا في اخبار عن المستقبل المجهول ، عن رجل يقول عن نفسه انه رسول ، ويتحقق هذا المستقبل تحقّقاً تاماً لا يخرم منه شيء . فتلك اذن نبوءة لا شك فيها واتصال بالله عالم الغيب والشهادة لا شك فيه .

هكذا يذكرون عن التوراة وهكذا ذكر القرآن ، يقول الله في القرآن :
« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا • الا من ارتضى من رسول »
(الجن : ٢٦ ، ٢٧)

ويذكرون عن التوراة : « فان أحببت وقلت في قلبك كيف أستطيع
أن أميز الكلام الذي لم يتكلم به الرب فهذه تكون لك آية أن ما قاله
ذلك النبي باسم الرب ولم يحدث فهذا الرب لم يكن تكلم به بل ذلك
النبي صورته في تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه » • الباب الثامن عشر
من كتاب الاستثناء : الثانية : ٢٢ •

وهذه نبوءات تحدث بها السيد الرسول محمد صلى الله عليه
وسلم تجعلك على مثل الشمس مبصرة • أن محمدا رسول الله صلى
الله عليه وسلم وأنه لا ينطق عن الهوى والذي نعرضه هنا في هذا
الباب قليل من كثير نجتريء به حتى يأخذ الانسان صورة واضحة
المعالم عن هذا الموضوع ومن أراد التوسع فعليه بالكتب التي استقصت
هذه الأبحاث ، وسترى في الأمثلة التي سنذكرها نبوءات عن حوادث
معينة لأشخاص معينين ونبوءات وقعت قديما وأخرى نراها الآن •
ونبوءات عن حوادث خاصة أو عامة تقع للأمة الاسلامية أو بينها
قريبا من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أو بعيدا وهذه هي الأمثلة
فتأملها :

١ — روى البخارى في صحيحه عن أنس بن مالك رضى الله عنه
قال : صعد النبي صلى الله عليه وسلم أحدا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان
فرجف بهم فقال : اثبت أحد فانما عليك نبى وصديق وشهيدان •
وهذه نبوءة فيها أن عمر وعثمان يستشهدان • وقد قتل عمر
أبولؤلؤة ، وقتل عثمان في الفتنة المعروفة •

٢ — وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبى موسى الأشعرى :
« أنه توضأ في بيته ثم خرج فقال : لألزم رسول الله صلى الله عليه
وسلم ولأكونن معه يومى هذا فجاء المسجد فسأل عن النبي صلى
الله عليه وسلم فقالوا : خرج وجهه هاهنا • فخرجت على اثره أسأل
عنه حتى دخل بئر « أريس » فجلست عند الباب وبابها من جريد
حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته وتوضأ فقامت اليه
فاذا هو قد جلس على بئر « أريس » وتوسط قفها — حافة البئر —
وكشف عن ساقيه ودلاهما في البئر فسلمت عليه ثم انصرفت فجلست

عند الباب فقلت : لأكونن بواب رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم
فجاء أبو بكر فدفع الباب فقلت : من هذا ؟ فقال : أبو بكر .
فقلت على رسلك ، ثم ذهبت فقلت : يا رسول الله .. هذا أبو بكر
يستأذن .

فقال : ائذن له وبشره بالجنة . فأقبلت حتى قلت لأبى بكر :
ادخل ورسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي بالجنة ، فدخل
أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم معه في القف
ودلى رجله في البئر كما صنع النبي صلى الله عليه وسلم وكشف
عن ساقيه ثم رجعت فجلست وقد تركت أخى يتوضأ ويلحقنى فقلت :
ان يرد الله بفلان خيرا — يريد أخاه — يأت به ، فاذا انسان يحرك
الباب فقلت : من هذا ؟

قال : عمر بن الخطاب .

فقلت : على رسلك .

ثم جئت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه وقلت :
هذا عمر يستأذن فقال : ائذن له وبشره بالجنة . فجئت عمر
فقلت : أذن ويمشي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة فدخل
فجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في القف عن يساره ودلى
رجليه في البئر ثم رجعت فجلست فقلت : ان يرد الله بفلان خيرا
— يعنى أخاه — يأت به ، فجاء انسان فحرك الباب فقلت : من هذا ؟
فقال : عثمان بن عفان ، فقلت : على رسلك وجئت النبي صلى الله
عليه وسلم فأخبرته فقال :

ائذن له وبشره بالجنة مع بلوى تصيبه . فجئت فقلت : ادخل
ويمشي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة مع بلوى تصيبك .
وفي رواية أخرى فقال : اللهم صبوا . فدخل فوجد القف قد ملئ
فجلس وجاههم من الشق الآخر .

فهذه نبوءة في أن عثمان ستصيبه بلوى وقد كانت هذه البلوى
هى ما حدث له في الفتنة التى أدت الى قتله عليه الرضوان ، ومما يرشح
هذا المعنى ما رواه ابن عبد البر في « الاستيعاب » عن عائشة قالت :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ادعوا لى بعض أصحابى . فقلت : أبو بكر ؟ قال : لا . فقلت :
عمر ؟ قال : لا . فقلت : ابن عمك على ؟ قال : لا . فقلت : عثمان ؟

قال : نعم • فلما جاء قال لى بيده ففتحت فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يساره ولون عثمان يتغير فلما كان يوم الدار وحصر قيل له : ألا تقاتل ؟ قال : لا • ان رسول الله عهد الى عهدا وأنا صابر نفسى عليه •

٣ — روى الشيخان عن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخل على أم حرام بنت ملحان — وهى من خالاته فى الرضاع — فتطعمه وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت ، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطعمته فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استيقظ وهو يضحك ، قالت : ما يضحكك يا رسول الله ؟

قال : ناس من أمتى عرضوا على غزاة فى سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ، ملوكا على الأسرة •

قالت : فقلت : يا رسول الله •• ادع الله أن يجعلنى منهم • فدعا لها ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ وهو يضحك • قالت : ما يضحكك يا رسول الله ؟

قال : ناس من أمتى عرضوا على غزاة فى سبيل الله •• كما قال فى المرة الأولى •

قالت : يا رسول الله •• ادع الله أن يجعلنى منهم •

قال : أنت من الأولين •

وقد غزا معاوية بن أبى سفيان قبرص فى سنة ثمان وعشرين هجرية ومعه من كبار الصحابة أبو ذر وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت ، وكانت مع عبادة زوجه أم حرام بنت ملحان •

٤ — أخرج الشيخان أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يوما : أياكم يحفظ ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الفتنة التى تموج كموج البحر ؟ فقال جذيفة رضى الله عنه : ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين ، ان بينك وبينها بابا مغلقا • قال : أيفتح أم يكسر ؟ قال : يكسر • قال : اذن لا يغلق أبدا • فتيل لحذيفة : من الباب ؟ قال : هو عمر • قيل له : أكان عمر يعلمه ؟ قال : نعم ، كما يعلم دون غد الليلة انى حدثته حديثا ليس بالأغاليط •

وأخرج الطبرانى عن أبى ذر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا تصيبكم فتنة ما دام هذا فيكم — يعنى عمر •

ويروى معناه عن عثمان بن مظعون وخالد بن الوليد • وكلنا يعلم أن الفتنة بين المسلمين وقعت بعد عمر • أما الردة فلم تكن فتنة بين المسلمين ، وإنما كفر بالاسلام حاربه المسلمون وهم يد واحدة •

٥ — وأخرج الشيخان عن مسلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : كان على تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم في خير وكان رمدا فقال : أنا أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج فلحق به فلما كان مساء الليلة التي فتح الله في صباحها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأعطين الراية غدا رجلا يحبه الله ورسوله يفتح الله عليه • فاذا نحن بعلى وما نرجوه فقالوا : هذا على • فأعطاه الراية ففتح الله عليه •

ووردت القصة أيضا من حديث ابن عمر وابن عباس وسعد وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وعمران بن حصين وجابر وأبي ليلى ، أخرجها كلها أبو نعيم •

٦ — أخرج البخاري عن أبي بكر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للحسن : ان ابنى هذا سيد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين • فهذه نبوءة عن انقسام وفرقة وصلح بواسطة الحسن ، وقد كان الانقسام وجرت الدماء ثم أصلح الله الحال عندما تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة ، وحقق دماء المسلمين •

٧ — وأخرج الشيخان عن سعد بن أبي وقاص قول رسول الله له وقد مرض بمكة حتى أشرف على الموت : « لعلك تخلف — أى تعيش — حتى ينتفع بك أقوام ويستضر بك آخرون » فشفاه الله وفتح الله العراق على يديه وهدى الله به أناسا أسلموا على يديه وغنموا معه • وأضر الله به ناسا من الكفار جاهدهم وقتل منهم وسبى •

٨ — وأخرج الشيخان عن أبي سعيد ومسلم عن أم سلمة وأبي قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » • قال الحافظ السيوطي : هذا الحديث متواتر من الصحابة بضعة عشر •

ففى الحديث ثلاث نبوءات أن هناك فئة باغية وأن عمارا سيقتل قتلا ، وأن الفئة الباغية قاتلته وقد كان هذا إذ قتلته فئة معاوية ولم

يكن بجانبها الحق ، وقد دخل كثير من الصحابة المعركة بجانب على بعد مقتل عمار لكون الحديث حجة له في كونه على الحق .

٩ — أخرج البخاري عن عدي بن حاتم قال : بينما أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فشكا اليه الفاقة وأتاه آخر فشكا اليه قطع السبيل . فقال : يا عدي بن حاتم .. ان طالت بك حياة لثنتين الطعينة تترتل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا الا الله — قلت فيما بيني وبين نفسي فأين ذعار طيء الذين سعروا ابلاد — ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى . قلت : كسرى ابن هرمز ؟

قال : كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بك حياة لثنتين الرجل يخرج ملء كفيه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد . قال عدي : قد رأيت الطعينة تترتل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف الا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى ، ولئن طالت بكم حياة سترون الثالثة .

قال البيهقي : قد وقعت الثالثة في زمن عمر بن عبد العزيز ثم أخرج عن عمر بن أسيد عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال : انما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا ، والله ما مات عمر ابن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء فما يبرح حتى يرجع بماله نتذكر من يضعه فيهم فلا نجده فيرجع بماله ، قد أغنى عمر ابن عبد العزيز الناس .

١٠ — أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : بينا نحن عند النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما اذ أتى ذو الخويصرة فقال : يا رسول الله .. اعدل . قال : ويلك .. ومن يعدل اذا لم اعدل ؟ خبت وخسرت ان لم أكن اعدل . قال عمر : يا رسول الله .. ائذن لي فيه أضرب عنقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فان له أصحابا يحقر أهدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية آيتهم رجل أسود احدى عضديه مثل ثدي المرأة — أو مثل البضعة — تدر در يخرجون على خير فرقة من الناس . قال أبو سعيد : فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله صلى

الله عليه وسلم وأشهد أن على بن أبى طالب قاتلهم وأمر بذلك الرجل
فالتمس فوجد فأتى به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم الذى نعتة .

وأخرج مسلم عن عبيدة قال : لما فرغ على من أصحاب النهر قال :
انتخوا فيهم ان كانوا القوم الذين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم
فان فيهم رجلا مخدج اليد فابتغياه فوجدناه فدعونا اليه فجاء حتى
تام عليه فقال : الله أكبر — ثلاثا — والله لولا أن تبطروا لحدثتكم
بما قضى الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن قتل هؤلاء ،
قلت : أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال :
أى ورب الكعبة — ثلاث مرات .

١١ — أخرج مسلم عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها أنها
قالت للحجاج : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان
فى ثقيف كذابا ومبيرا » فأما الكذاب فقد رأيناه وأما المبير فلا أخالك
الا اياه . وقد روى ابن سعد والبيهقى عن عمر ما يشير الى الحجاج ،
وكذلك روى الامام أحمد والبيهقى عن الحسن ما يشير اليه ، وأخرج
البيهقى عن على كذلك ما يشير اليه .

١٢ — وأخرج الشيخان عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ،
واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذى نفسى بيده لتتفقن كنوزهما
فى سبيل الله .

وأخرجه البخارى عن أبى هريرة .
وأخرج الحارث بن أبى أسامة عن أبى محيريز قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : فارس نطحة أو نطحتان ، ثم لا فارس بعد هذا
أبدا ، والروم ذوات القرون كلما هلك قرن خلفه قرن .
ومعروف تاريخيا أنه بسقوط دولة الأكاسرة انتهى أمرهم تماما
ولم يستردوا ملكهم بتاتا وبقي من يومها الأمر للمسلمين ، وبسقوط
دولة القياصرة فى القسطنطينية انتهت دولتهم تماما ولم يستردوها مرة
ثانية وبقي من يومها الأمر للمسلمين ، مع ملاحظة أن الدولة الرومانية
طال أمرها حتى سقطت بيد المسلمين سقوطا نهائيا ، على عكس الدولة
الفارسية وهذا ما أشار اليه الحديث الثانى .

١٣ — وأخرج أبو داود والترمذى عن سفينة قال : قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم : الخلافة بعدى في أمتي ثلاثون سنة ، ثم
تصير ملكا عضوضا بعد ذلك . وهكذا وقع خلافة أبى بكر سنتان
وثلاثة أشهر وعشرون يوما ، وخلافة عمر عشر سنين وستة أشهر
وأربعة أيام ، وخلافة عثمان احدى عشر سنة واحدى عشر شهرا
وثمانية عشر يوما ، وخلافة على أربع سنين وعشرة أشهر أو تسعة ،
وخلافة الحسن ستة أشهر فكانت ثلاثين .

والحديث الذى رواه البزار بسند حسن صحيح يتحدث بشكل
واضح عن مراحل الحكم في الأمة الاسلامية ، كما وقعت ونشبت هنا
نص الحديث كما ورد في كتاب « الموافقات » و « الامامة » :

« ان أول دينكم نبوة ورحمة وتكون فيكم ما شاء الله أن تكون
ثم يرفعها الله جل جلاله ، ثم يكون ملكا عاضا فيكم ما شاء
الله أن يكون ، ثم يرفعه الله جل جلاله ثم يكون ملكا جبرية فتكون
ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله ثم تكون خلافة على منهاج
النبوة تعمل في الناس بسنة النبى ، ويلقى الاسلام بجرانه في الأرض
يرضى عنها ساكن السماء وساكن الأرض لا تدع السماء من قطر
الا صبته مدرارا ، ولا تدع الأرض من نباتها وبركاتها شيئا
الا أخرجته » .

وواضح أن الدور الأول والثانى انتهى بزوال الخلافة الراشدة ،
وأن الدور الثالث استمر حتى زوال الدولة العثمانية ، وأن الدور
الرابع هو الذى نحن فيه وأن الدور الخامس قادم باذن الله .

١٤ — وأخرج مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « انكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط
فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم ذمة وزحما » والمقصود بالرحم أنهم
أخوال ابراهيم ابن السيد الرسول صلى الله عليه وسلم ، اذ المقصود
في ذلك أرض مصر والآثار في الأخبار عن فتح مصر كثيرة .

١٥ — وأخرج البيهقي عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : وعدنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم غزو الهند وقد غزوناها .

١٦ — روى الستة الا النسائي عنه عليه الصلاة والسلام :

« لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما نعالهم الشعر . ولا تقوم
الساعة حتى تقاتلوا قوما صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنوف كان
وجوههم المجان المطرقة » وينطبق الوصف تماما على التتار ، أما أصحاب

تعال الشعر فقد ذكر البيهقي : أن قوما من الخوارج خرجوا بناحية
الري وكانت نعالهم الشعر وقوتلوا •

١٧ — أخرج أبو يعلى عن معاوية بن خديج رضى الله عنه قال :
كنت عند معاوية فأتاه كتاب عامله : أنه أوقع بالترك وهزمهم ، فغضب
معاوية من ذلك ثم كتب له : لا تقاتلهم حتى يأتيك أمرى فانى سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لتظهرن الترك على العرب حتى
تلتحقها بمنابت الشيح والقيصوم — وهما نبتان يوجدان في بلاد العرب
وقد حدث أن السلطان خلال أربع مائة عام كان للترك على العرب
الامناطق الصحراء •

١٨ — روى البخارى : « لا تقوم الساعة حتى يقتتل فئتان
عظيمتان دعواهما واحدة وحتى يبعث دجالون قريب من ثلاثين كلهم
بزعم أنه رسول الله » •

وفي حديث ابن الزبير :

« بين يدي الساعة ثلاثون كذابا » •

وأخرج أحمد عن حذيفة بسند جيد : « سيكون في أمتي كذابون
دجالون سبعة وعشرين ، أربعة نسوة ، واني خاتم النبيين لا نبى
بعدي » •

وقد ظهر كثير من هؤلاء الكذابين حتى الآن ولعل أبرزهم في
عصرنا غلام أحمد القاديانى الذى ادعى أنه نبى نسخت به شريعة
محمد صلى الله عليه وسلم ومن هذه السلسلة الخبيثة مسيلمة ،
والأسود العنسى وسجاح •

١٩ — روى البخارى والحاكم فى المستدرک عن أبى هريرة :
« لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق
الابل ببصرى » • وروى ابن أبى شيبه وأحمد والحاكم وصححه عن
أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليت شعري متى
تخرج نار من جبل وراق تضيء لها أعناق البخت ببصرى كضوء النهار •
ويبدو أن الحديث هنا عن بركان عظيم يخرج من أرض الحجاز من
مكان عينه الرسول صلى الله عليه وسلم •
وقد وقع هذا •

قال النووى : تواتر العلم بخروج هذه النار عن جميع أهل الشام
قال السهمودى وكانت فى زمنه : وكان ابتداء الزلزلة بالمدينة مستهل

جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة • لكنها كانت خفيفة فلم يدركها بعضهم مع تكررها ، واشتدت في يوم الثلاثاء وظهرت ظهوراً عظيماً ثم في ليلة الأربعاء ثالث الشهر ، في الثلث الأخير من الليل حدثت زلزلة عظيمة جدا أشفق الناس منها واستمرت تزلزل بقية اليوم ثم الى يوم الجمعة ولها دوى أعظم من الرعد فتموج الأرض وتتحرك الجدران حتى وقع في يوم واحد دون ليلته ثمانى عشرة حركة •

وكانت هذه كلها مقدمات لظهور هذه النار وقد وصف القسطلانى في كتاب أفرد له هذه الحادثة هذه النار فقال :

« ان ضوءها استولى على ما بطن وما ظهر حتى كأن الحرم والمدينة قد أشرقت بهما الشمس وتأثر من لهيبها النيران ، وصار نور الشمس على الأرض يعتريه صفرة ، ولونها هي يعتريه حمرة والقمر كأنه كسف » •

وقال القسطلانى كذلك : « انها لم تزل مارة على سبيلها وهي تسحق ما والاها وتذيب ما لاقاها من الشجر الأخضر والحمى ، وان صرفها الشرقى آخذ بين الجبال فحالت دونها ثم وقفت ، وان طرفها الشامى وهو الذى يلى الحرم اتصل بجبل يقابله يقال له : وعيرة على قرب من شرقى جبل أحد » •

وقد ذكر هذه النار السمهودى في تاريخ المدينة ، وذكرها القاضى سنان والقاشانى والعماد بن كثير والمطرى وغيرهم ••

٢٠ — وفي الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم : « وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان » •

٢١ — روى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صنفان من أمتى من أهل النار لم أرهما بعد • قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت • وكذا ••• » •

وروى الامام أحمد والحاكم عن ابن عمر :

« يكون فى آخر هذه الأمة رجال يركبون على الميائثر حتى يأتوا أبواب المساجد • نساؤهم كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف ، العنوهن فانهن ملعونات ، لو كانت وراءكم أمة من الأمم لخدمهم كما خدمتكم نساء الأمم قبلكم » •

ولعل أدق وصف لما عليه وضع النساء فى زماننا من تبرج وعرى

ونتن وميوعة وفتنة ، هو ما وصفهن به الحديث الشريف ، وهذا لا شك معجزة واضحة ، اذ ما كان أحد يستطيع أن يتصور أن تصبح المرأة المسلمة في مثل هذه الحالة التي عليها الآن ، حتى انك لو كنت في بداية هذا القرن الرابع عشر الهجري لما استطعت أن تتصور بشكل من الأشكال هذا الوضع الحاضر لامرأة أصلها مسلمة .

٢٢ — أخرج أبو داود والبيهقي عن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة الى قصعتها — فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن . قيل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت . والمراقب لوضع المسلمين منذ ظهور ما يسمى بالمسألة الشرقية حتى الآن يجد هذه الظاهرة ظاهرة طمح الأمم بالعالم الاسلامي والكيد له والتخطيط لامتصاص خيراته واضحة جدا مع ما وصف به رسول الله المسلمين .

٢٣ — أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال » وقد مر على الأمة الاسلامية مئات السنين واجتاح الطاعون كثيرا من بلاد الاسلام في كثير من الأعصار . والمدينة المنورة يأتيها في كل سنة مسلمون من كل الأمصار وما حدث ولن يحدث باذن الله أن رؤيت مرة ظاهرة انتشار الطاعون في المدينة ، وهذا شيء معروف ماثور متعارف عليه عند علماء الاسلام .

٢٤ — وهذه جملة أحاديث تراها في عصرنا هذا واقعا يتحرك أمامك :

« أن بين يدي الساعة فشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة وقطع الأرحام وفشو الظلم وظهور الشهادة بالزور وكتمان شهادة الحق » .

« يأتي على الناس زمان لا يتبع فيه العليم ولا يستحيا فيه من الحليم ، ولا يوقر فيه الكبير ولا يرحم فيه الصغير يقتل بعضهم بعضا على الدنيا ، قلوبهم قلوب الأعاجم والسنتهم السنة العرب لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرا يسمى الصالح فيهم مستخفيا أولئك شرار خلق الله لا ينظر الله اليهم يوم القيامة » .

« لا تقوم الساعة حتى يجعل كتاب الله عارا ويكون الاسلام غريبا ، وحتى تبدو الشحنة بين الناس ، وحتى يقبض العلم ويهرم الزمان وينقص عمر البشر وينقص السنون والثمرات ويؤتمن التهماء ، ويتهم الأمناء ، ويصدق الكاذب ويكذب الصادق ، ويكثر الهرج — وهو القتل — وحتى تبني المغرف — أى القصور — فتطاول وحتى تحزن ذوات الأولاد — أى لعقوق أولادهم — وتفرح العواقر ويظهر البغى والحسد والشح ويهلك الناس ويكثر الكذب ويقل الصدق وحتى تختلف الأمور بين الناس ويتبع الهوى ، ويقضى بالظن ويكثر المطر ويقل الثمر ويغيب العلم — أى علم حقيقة الاسلام — غيبا ، ويفيض الجهل فيضا ، ويكون الولد غيظا والشتاء قيظا ، ويقوم الخطباء بالكذب فيجعلون حقى لشرار أمتى ، فمن صدقهم بذلك ورضى به لم يرح رائحة الجنة » .

* * *

وأخيرا نقول :

ان هذا الباب قد ألفت فيه كتب كثيرة ونقل فيها الكثير الكثير ، وهو قليل بالنسبة لما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابية عن المستقبل ، فقد روى البخارى ومسلم عن حذيفة قال : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما فما ترك شيئا يكون من مقامه ذلك الى قيام الساعة الا حدثه ، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه ، وقد علمه أصحابى هؤلاء وانه ليكون منه الشئ قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل اذا غاب عنه ثم اذا رآه عرفه » .

وروى مسلم عن عمرو بن أخطب الأنصارى قال : « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر ، فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس ، فأخبرنا بما هو كائن الى يوم القيامة فأعلمنا أحفظنا » .

انها النبوة ولا شئ غير ذلك « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (الكهف : ٢٩) . « فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها » (يونس : ١٠٨) .

النبوة التى دلتنا بما أخبرتنا عنه من غيوب أن لصاحبها صلة

كاملة بالله ، ولولا ذلك ما ظهر في كلام صاحبها آثار علم الله المحيط في الماضي والحاضر ، وكأنما المستقبل أمامه مكشوف يكشف الله له .

وهذه آثار أخرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحتاج إلى شرح لوضوح انطباقها على وضع أمتنا في هذا العصر ، فكأنما قيلت فيه عنه وهي مسطورة في كتب الأخبار عنه عليه السلام من مئات السنين نقلناها من كتاب « مطابقة الاختراعات العصرية للأحاديث النبوية » ، وقد نسب صاحبه كل حديث إلى مصدره ومرجعه من كتب الحديث :

١ — « لا تقوم الساعة حتى تروا أمورا عظاما لم تكونوا ترونها ولا تحدثون بها أنفسكم » .

٢ — « ولن يكون ذلك — أى من قضية الدجال — حتى تروا أمورا يتفاقم شأنها في نفوسكم وتساءلون بينكم هل كان نبيكم ذكر لكم منها ذكرا » .

٣ — « لا تقوم الساعة حتى يخرج الناس من المدينة إلى الشام يبتغون فيها الصحة » .

والشام تشمل فلسطين ولبنان والأردن وسوريا ، وانظر حال مصايف هذه البلاد تجد كيف أنها مملوءة بالحجازيين وغيرهم ممن يأتون للراحة فقط مما لم يكن موجودا من قبل .

٤ — « لا تقوم الساعة حتى تمطر السماء مطرا لا تكن منها بيوت المدر ولا تكن منها إلا بيوت الشعر » . ولعل صورة الطائرات في الحرب العالمية الثانية وهي تمطر المدن بوابل القنابل فتزعزع كل بناء ، تذكرنا بجزء مما ينطبق الحديث عليه ، إذ تأثير هذه القنابل على بيوت المدر أكثر من تأثيرها على بيوت الشعر .

٥ — أن الله تعالى قال في الحديث القدسي :

« أبث العلم في آخر الزمان حتى يعلمه الرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير فإذا فعلت ذلك بهم أخذتهم بحقي عليهم » . ومن رأى تسهيل العلم في زماننا وكثرة أدواته ومعاهده من مدارس واذاعة وجرائد ومجلات و... رأى مصداق الحديث .

٦ — ومن حديث على وله حكم المرفوع :

« ويحا للطالقان .. فان لله فيه كنوزا ليست من ذهب ولا فضة » والطالقان من قزوين وتلك ناحية وجود البترول .

٧ — « تخرج معادن مختلفة معدن منها قريب من الحجاز يأتيه من أشرار الناس » •

ونحن نعلم أن معدن البلاد القريبة من الحجاز في عصرنا انما يستخرجه الأجانب بوسائلهم الكثيرة وفي الحديث الآخر : « ستكون معادن يحضرها شرار الناس » ولاحظ كلمة يحضرها المشددة الضاد •

٨ — « ليأتين على الناس زمان لا يبقى منهم أحد الا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره » •

ومن رأى في زماننا قيام الحياة الاقتصادية كلها على المصارف والبنوك رأى الواقع الذى أخبر عنه الحديث •

٩ — « ما أنتم اذا مرج الدين وسفك الدماء وظهرت الزينة وشرف البنيان » •

وفي زماننا حدث هذا كله : اختلط الدين وكثر القتل وظهرت الزينة وكثر البنيان وشرف وتطاول كما في حديث آخر « وحتى يطاول الناس في البنيان » •

١٠ — « لا تقوم الساعة حتى يكون القرآن عارا ويتقارب الزمان » • وقد أصبح القرآن الآن رجعيا وأصحابه يعيرون بالرجعية وتقارب الزمان حتى قطعت المسافة الطويلة بالزمن القصير •

١١ — « كيف بكم أيها الناس اذا طغى نساؤكم وفسق شبابكم ؟ قالوا : يا رسول الله .. ان هذا لكائن • قال : نعم » • وقد حدث هذا كما يشاهد واقعا •

١٢ — « اذا كثر قراؤكم وقلت علماؤكم وكثرت أمراؤكم وقلت أمناؤكم والتمست الدنيا بعمل الآخرة وتفقّه لغير الله » • وقد كثر القراء وقل العلماء وكثر الأمراء حتى في كل قطر أمير وأصبحت الدنيا هدفا ولم تعد معاهد العلم تخرج طلابا لله •

١٣ — « ان بين يدي الساعة سنين خداعة يصدق فيها الكاذب وبكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين ويتكلم فيها الرويضة • قيل : وما الرويضة ؟ قال : الفاسق يتكلم في أمر العامة » •

« سيأتى على الناس سنوات خداعات يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين وينطلق فيها

الروبيضة • قيل : وما الروبيضة ؟ قال : الرجل التافه ينطق في أمر العامة » •

« والذي نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والبخل ويخون الأمين ويؤتمن الخائن وتهلك الوعول وتظهر التحوت • قالوا : يا رسول الله •• وما الوعول وما التحوت ؟ قال : الوعول : وجوه الناس وأشرافهم ، والتحوت : الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يعلم بهم » •

• « وكان زعيم القوم أرذلهم » •

ومن رأى واقع السنين التى نعيش بها علم مصداق هذه الآثار اذ تسلط على الناس فى كل مكان أكثر الناس وضاعة وانحطاطا وتقاهة ، وضاع أصحاب الحلوم والعقول •

١٤ — « سيكون بعدى سلاطين ، الفتن على أبوابهم كمبارك الابل لا يعطون أحدا الا أخذوا من دينه مثله » ولعله كلمة : « كمبارك الابل » أبلغ وصف مفهوم يومئذ للسيارات •

١٥ — « يوشك أن يؤمر عليهم الرويجل فيجتمع اليه قوم محلقة أقفيتهم بيض قمصهم فاذا أمرهم بشىء حضروا » •
فانظر هذا الوصف الدقيق لنوع الحلاقة والقمصان التى يلبسها بعض الموظفين ممن لم يكن نوعيتها معروفة قديما •

١٦ — « والمشى بالأسواق والأفخاذ بادية » • وهذا ينطبق على ما يسمى فى زماننا بالفرق الرياضية والكشفية ويرى خاصة أثناء الاستعراضات •

١٧ — « قص اللحية » وقد أصبح الآن السائد واللحية مستغربة •

١٨ — « لتسلكن سنن من قبلكم حذو النعل بالنعل ، ولتأخذن بمثل أخذهم ان شبرا فشبر وان ذراعا فذراع ، وان باعا فباع ، حتى لو دخلوا جحر ضب دخلتم فيه » • ومن رأى كثرة تقليدنا للغربيين فى أى مسلك سلوكه شاهد يقينا وقوع الحديث •

١٩ — ومما رواه معاذ فى أشراط الساعة :

« ان الدم يسفك بغير حقه ، والمال يعطى على الكذب » • وترى المال يعطى على الكذب فى صورة اعطائه لرجال المباحث السياسية على تقارير ، قسم كبير منها كاذب ، ولكتاب روايات مختلقة ، وأعداد يبرامج اذاعية مختلقة كاذبة وأشياء كثيرة من هذا القبيل •

٢٠ — « ويح لهذه الأمة .. ماذا يلقي فيها من أطاع الله . كيف يكذبونه ويضربونه أنه أطاع الله من أجل أنهم ما أطاعوا الله — قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله .. الناس يومئذ على الاسلام ؟

قال : نعم يا عمر .

قال عمر : يا رسول الله .. الناس يومئذ على الاسلام ؟

قال : نعم يا عمر .

قال عمر : يا رسول الله .. ولم ييغضون من أمرهم بطاعة الله ؟ قال : ترك القوم الطريق وتزين الرجل منهم بزينة المرأة لزوجها وتبرج النساء .. زيهم زى الملوك الجبابرة يسمنون كالنساء فاذا تكلم أولياء الله وأمرهم بطاعة الله قيل له : أنت قرين الشيطان ورأس الضلالة تكذب بالكتب ، تحرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، تأولوا كتاب الله على غير تأويله واستذلوا أولياء الله » .

ومن عرف وضع الأمة الاسلامية اليوم رأى كيف أن الدعاة الى الله وشريعته يضطهدون في كل مكان من قبل الحكام الظالمين .

٢١ — « ستكون فتنة يفارق الرجل فيها أخاه وأباه ، تطير الفتنة في قلوب الرجال منهم الى يوم القيامة حتى يعير الرجل فيها بصلاته كما تعير الزانية بزناها » .

وما رؤيت هذه الفتنة في العالم الاسلامي الا هذا العصر الذي فيه يلام الرجل على صلاته ويوبخ ، ويعير مع كثرة دعوات السوء المنتنة ودخول أصحابها فيها واستمرارهم عليها مع بطلانها .

٢٢ — « يأتى على الناس زمان يخير الرجل فيه بين العجز والفجور فمن أدرك ذلك الزمان فليختر العجز على الفجور » .

٢٣ — « سيخرج قوم في آخر الزمان هم دجالون كذابون ببدع من الحديث لم تسمعوا به أنتم ولا آباؤكم فاياكم واياهم لا يفتنونكم » .

٢٤ — « اذا كنت في قوم عشرين رجلا أو أقل أو أكثر فتصفت وجوههم فلم تر فيهم رجلا يهاب الله عز وجل فاعلم أن الامر قد حضر » .

٢٥ — « لا تقوم الساعة حتى يفيض المال قيضا ، ويغيض الكرام غيضا ، ويجترى الصغير على الكبير واللئيم على الكريم » .

٢٦ — « سيأتى على الناس زمان تمت فيه الصلوات ، ويشرفة فيه البنيان ويكثر فيه الحلف والتلاعن ويفشو فيه الرشا والزنا » .

وتباع الآخرة بالدنيا • فاذا رأيت ذلك فالنجا والنجا • قيل : وكيف النجا ؟ قال : كن حلسا من أحلاس بيتك وكف لسانك ويدك » •

٢٧ — « ليأتين على الناس زمان يؤمنون بالله ولا يشركون به شيئا ويصومون رمضان ويصلون الخمس وقد سلبوا دينهم لأنهم رأوا الحق فتركوه » •

٢٨ — « انى لأعلم أهل دينين من أمة محمد — صلى الله عليه وسلم — في النار : قوم يقولون ان كان أولنا ضلالا ما بال خمس صلوات في اليوم والليلة انما هما صلاتان : العصر والفجر » •
والذى يعرف شيئا عن طائفة الاسماعيليين يدرك صدق الحديث فانهم يؤمنون أن عليهم صلاتين فقط صباحا ومساء •

٢٩ — « سيظهر شرار أمتى على خيارهم حتى يستخفى فيهم المؤمن كما يستخفى فيكم المنافق اليوم » •
٣٠ — « ليكونن في أمتى أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف » وهذا واقع الآن بشكل واضح •

٣١ — « انه سيخرج في أمتى أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل الا دخله » •
٣٢ — « لا يخرج الدجال حتى يذهل الناس عن ذكره وحتى تترك الأئمة ذكره على المنابر » •

٣٣ — « لتتقضن عرى الاسلام عروة عروة • فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها ، وأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة » •
٣٤ — « يأتى على الناس زمان يصبح الرجل بصيرا ويمسى ما يبصر شعرة » — أى يضل الحق •

٣٥ — « ان الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا » •

٣٦ — « ان بين يدى الساعة فتنا كقطع الليل المظلم فتن كقطع الدخان يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه ، يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا ، يبيع أقوام أخلاقهم ودينهم بعرض من الدنيا » •

٣٧ — « ليت شعري كيف أمتى بعدى حين تتبخرت رجالهم وتمرح نساؤهم ، ليت شعري كيف هم حين يصيرون صفين : صفا ناصبى نحورهم في سبيل الله ، وصفا عمالا لغير الله » •

- ٣٨ — « اذا ظهر فيكم السكرتان : سكرة الجهل وسكرة حب العيش وجاهدوا في غير سبيل الله فالقائمون يومئذ بكتاب الله سرا وعلانية كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار » •
- ٣٩ — « ذلك أيام الهرج حين لا يأمن الرجل جليسه » •
- ٤٠ — قال أبيض — رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى لا تبقى ملة الا ولها منكم نصيب • قلت : ييادرون يخرجون من الاسلام ؟
- قال : يصلون بصلاتكم ويجلسون مجالسكم وهم معكم في سوادكم ، ولكل ملة منهم نصيب • قلت : — أى الوليد راوى الحديث — أى والله لكل ملة منهم نصيب الا الاسلام فلا نصيب له منهم الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم » •
- ٤١ — « من اقترب الساعة أن ترفع الأشرار وتوضع الأخيار ويفتح القول ويخزن العمل » •
- ٤٢ — « من اقترب الساعة تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال » •



وأنت اذا تأملت هذه الآثار فانك لا تجد فيها حديثا الا وترام أمامك واقعا على الأرض الآن ، مما لم يكن موجودا من قبل • حتى أن رائى العين لا يصف بأبلغ من هذا ، وانما كان هذا ، لأنه أثر علم الله المحيط الذى اطلع على بعضه محمدا صلى الله عليه وسلم فقال ما قال ووقع كل ما قال • وفى ذلك الشهادة الكاملة على أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله حقا وصدقا لا يمتري فى ذلك الا متكبر أو حاسد أو شيطان يرى الحق ولا يتبعه •

ان النبوءات التى اخترناها كلها نبوءات قد وقعت للرسول عليه السلام • ونبوءات أخرى لم يحن وقتها بعد ، ومن العجيب أن بعضها مذكور فى الكتب الدينية السابقة على رسولنا عليه السلام • وهذا يؤكد أن مصدر هذه النبوءات السابقة الوحي وأنها من القسم الذى لم يحرف فى الكتب الأولى ، وكل تعليل آخر ظاهر الفساد ، فلم تكن مثل هذه القضايا منتشرة ولا معروفة فى الجزيرة العربية •

والرسول عليه السلام أمى لا يحسن القراءة ، ولم تكن هذه الكتب أصلا مترجمة الى العربية فى ذلك الزمان ، عدا عن كون النسخ محدودة

جدا لا توجد إلا عند رؤساء الدين اليهودى بالنسبة لنسخ التوراة •
غير أن بعض هذه النبوءات موجودة في كتب العهد الجديد التي لا يؤمن
بها اليهود أصلا • وليست موجودة عندهم ولم تكن هناك أى صلة
بين النصراني ورسول الله صلى الله عليه وسلم عدا عن كون الفكر
النصراني لم يكن له أى صدى في مكة والمدينة • عدا ما ذكر أن
ورقة بن نوفل كان له مثل هذا الاتجاه •

الا أن اتصال الرسول بورقة كان محدودا ومعروفا ما جرى فيه •
ورقة آمن برسالة محمد من اللحظة الأولى ، فليس هناك من تحليل
لوجود هذه النبوءات المشتركة الا وحدة المصدر وهو الوحي •

أبرز هذه النبوءات المشتركة ثلاث :

١ — الاخبار عن يأجوج ومأجوج •

٢ — الاخبار عن المسيح الدجال •

٣ — الاخبار عن نزول عيسى ابن مريم في آخر الزمان وأنه يقتل

الدجال •

فقد أخبر الرسول عليه السلام عن مجيء ناس ذوى عدد هائل
سموا باسم يأجوج ومأجوج الى منطقة في فلسطين قبيل قيام الساعة ،
وأخبر عليه السلام بأحاديث متواترة عن ظهور انسان سماه المسيح
الدجال يدعى الألوهية وهو أكبر ما فتن به البشر ، وأن المسيح عليه
السلام يقتله بعد نزوله •

وقد ذكر في كتاب المشاهدات الباب ١٩ وفي الباب الثاني من
الرسالة الثانية الى أهل تسالونيق وهما كتابان نصرانيان :

« أن عيسى — عليه السلام — سيقتل الدجال وعسكره بعد

نزوله » •

وقد نقل عن حزقيال عليه السلام في كتب العهد القديم أنه أخبر
عن خروج يأجوج ومأجوج في الزمن المستقبل واهلاكهم حين وصولهم
الى جبال إسرائيل ثم عقب على ذلك في الكتاب المنسوب اليه في الباب
التاسع والثلاثين الفقرة الثامنة :

« ها هو جاء وصار يقول الرب الاله هذا هو اليوم الذي قلت

عنه » اشارة الى يوم القيامة •

ان هذا كله يؤكد لنا رسالة محمد بن عبد الله ويجعلنا على اليقين

الذي لا شك معه ، أن ما قاله عليه السلام هو الحق الذي لا يمتري فيه •

ملاحظة : قصة يأجوج ومأجوج واردة كذلك في القرآن ، ولكن التفاصيل التي ذكرناها عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنفا توضح وتبين الآيات القرآنية ، ومن عجيب الأخبار ما ذكره لنا الأستاذ محمد الصواف عن رجل سعودي سماه لنا كان في الصين وأخبره هذا الرجل وهو معروف في الحجاز : أنه عندما كان في الصين أخبره الصينيون أن عندهم قبيلتين معروفتين تسميان مأجوج ويأجوج وتسميان بهذا الاسم الآن وهما مشهورتان به .

* * *

الباب الرابع

الثمرات

ان دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام تختلف عن أى دعوة أخرى من دعوات البشر المنبئة عن هداية الله ، ولذلك كان شيئاً عادياً تماماً أن تكون آثارها وثمارها تختلف عن غيرها ، فإذا كان ثمار الدعوات الأخرى الاغراق فى الشهوات والملذات الحيوانية ، فان من ثمار دعوة الرسل ضبط النفس الا عن المتع المعقولة .

واذا كان من ثمار الدعوات الأخرى عدم التقيد بالحق والخير والمعروف . فانه شئ عادى أن يكون من ثمرات دعوة الرسل الالتزام بهذا ، وإذا كانت دعوات غير الرسل تعتبر الجمال مقدماً على الأخلاق ، فشئ عادى أن يكون من ثمرات دعوة الرسل اعتبار الجمال فى الأخلاق الكريمة العالية .

والقصد من هذا أن نقول :

ان الفطرة تحس بالخير والشر ، وان فطرة الانسان تستشعر الثمرة الطيبة للدعوة الطيبة ، كما يستشعر ذوق الانسان حلاوة الثمرة الطيبة ، وان فطرة الانسان تستشعر الثمرة الخبيثة للدعوة الخبيثة ، كما يستشعر ذوق الانسان مرارة الثمرة الرديئة .

ولذلك كان عند الفطرة نوع بصيرة تستطيع بها أن تميز ثمرات الرسول الحق من ثمرات مدعى النبوة الكاذب ، وأن ترى فى آثار كل ما يدل على صدق الأول وادعاء الثانى .

وقد أشارت الكتب السماوية الى هذا المعنى .

فقال الله تعالى فى القرآن :

« والبلد الطيب يخرج نباته بائن ربه ، والذي خبث لا يخرج الا نكدا » (الأعراف : ٥٨) .

ويذكرون فى انجيل متى الباب السابع الفقرة (١٥ ، ١٦) على لسان المسيح قوله :

« احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم

من داخل ذئاب خاطفة • من ثمارهم تعرفونهم ، هل يجتتون من الشوك
عنبا أو من الحسك تينا •
ويقول الله تعالى :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم
تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم
من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج
شطأه فأزره فاستظل فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم
الكفار » (الفتح : ٢٩) •

ويذكرون في الباب الثالث عشر من انجيل متى الفقرة (٣١ ، ٣٢)
على لسان المسيح عليه السلام :

« قدم لهم مثلا آخر قائلا : يشبه ملكوت السموات حبة خردل
أخذها انسان وزرعها في حقله • وهى أصغر جميع البذور ، ولكن متى
نمت فهى أكبر البقول وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتى وتأوى
في أغصانها » •

يعرف النبی من ثماره ، لذلك كان لابد من كتابة هذا الفصل لتبيان
أن ثمار محمد عليه السلام لا يمكن أن تكون الا ثمار نبى •
وستعرض في هذا الفصل عشر ثمرات من ثمراته عليه الصلاة
والسلام • فى كل منها شهادة كاملة على أنها منبثقة من شجرة النبوة
الطيبة العطرة المثمرة •

أولا — التوحيد :

فى الهند اليوم ٢٠٠ مليون بقرة ، هذه الأبقار يعتبرها الهنود
مقدسة ، وبالتالي فانهم لا يستفيدون منها بقاتا ، ويخرمون ذبحها ،
وأكثر من هذا فإن الشعب الهندى كله مسخر لخدمتها ، وتعيش على
حسابه ، فكم يحتاج هذا العدد من الأبقار الى مراعى وطعام ؟
وكم تعطل طاقات على حساب هذا المعنى •

وزيادة على ذلك فان لهذا البقر سلطانا على كل شيء • تقف
البقرة فتوقف وراءها السيارات ولا يزعجها أحد حتى تمضى هى
فيمضى غيرها • وتبول فى أى مكان وتخشى فى أى مكان • وتعتدى على
مال أى انسان ، ولا أحد يجروء على أن يعترض سبيلها بشيء • وفى
الهند هذه السنين مجاعة تهدد عشرات الملايين ، ترى لو استفاد
الشعب الهندى من البقر ألا تنحل شيء من أزمتهم ؟

ان هذه الصورة من صور الشرك جعلت البشر مسخرا لخدمة البقر •
وفي مصر اليوم أهرامات ضخمة جدا ، أحجارها ضخمة جدا ،
نقلت من أمكنة بعيدة جدا ، نقلها آلاف من أبناء الشعب المصرى
الى منطقة الأهرامات ، وتعبت فى بناء هذه الأهرامات آلاف
الأدمغة و آلاف الأيدي من أجل ماذا ؟

من أجل أن يصنعوا قبرا لفرعون الذى كانوا يعبدونه كاله !!
فكم أنفق من جهد ، وكم أنفق من أموال ؟ بسبب هذه الصورة
من صور الشرك •

شعب من البشر مسخر كله لخدمة فرد من البشر •
وفي العالم اليوم حوالى ثلاثة عشر مليونا من الطائفة الاسماعيلية ،
التي تعبد رجلا كاله وتقدم له كل عام خمس أموالها ، تجعله فى كفة
ميزان ، وتجعل الذهب فى كفة أخرى حتى يتساويا ، وتقدمه له
كهديّة سنوية ، ثلاثة عشر مليونا من البشر يستغلهم فرد باسم الألوهية •
ليجهدوا ويقدموا ، أما هو فيأخذ ويكتز وينفق بلا حساب على أشياء
كثيرة وقد يكون المرشح لهذا المنصب داعرا فاسقا ماجنا ، ينال هذا
كله ويصرفه فى كل سبيل داعر ، ذلك أثر من آثار الشرك بالله ، أن
يستغل فرد من البشر شعبا كاملا من البشر باسم ألوهية الانسان
وعبودية الانسان للانسان •

وفي العالم اليوم شعوب وثنية ، وقديما كانت الوثنية منتشرة
فى العالم كله لم تخل منها أمة من الأمم :

الرومان واليونان والهند والصين واليابان والعرب •• والشعوب
الأفريقية من مصر الى غيرها •• فماذا تعنى هذه الوثنية ؟ قبل أن
نقول ماذا تعنى نضرب أمثلة عن نماذج منها :

(أ) عند العرب :

١ — روى البخارى عن أبى رجاء العطاردى قال : كنا نعبد
الحجر ، فاذا وجدنا حجرا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فاذا
لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم
طفنا به •

٢ — وقال الكلبى : كان الرجل اذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة
أحجار فنظر الى أحسنها فاتخذها ربا ، وجعل ثلاثا أثافي لقدره واذا
ارتحل تركه •

٣ — وقال صاعد في كتاب « طبقات الأمم » : كانت حمير تعبد الشمس . وكنانة القمر . وتميم الدبران . ولخم وجذام المشتري ، وطىء سهيلا ، وقيس الشعري العبور ، وأسد عطار .

٤ — وقال الكلبي : كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه . فاذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضا .

٥ — وكان لكل قبيلة من العرب صنم ولكل ناحية أو مدينة صنم خاص وكان في فناء الكعبة وحدها ثلاثة مائة وستون صنما للعبادة .

٦ — قال سعيد بن جبير في شرح الأزلام : « الأزلام حصى بيض كانوا إذا أرادوا غدوا أو رواحا كتبوا في قدحين في أحدهما : أمرني ربي وفي الآخر : نهاني ربي ، ثم يضربون بهما فأيهما خرج عملوا به . »
(ب) عند الهنود :

يقول أبو الحسن الندوي عن حال الوثنية في الهند :

« بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس ، فقد كان عدد الآلهة في ويد ثلاثة وثلاثين ، وقد أصبحت في هذا القرن ٣٣٠ مليوناً ، وقد أصبح كل شيء رائعا وكل شيء جذابا ، وكل مرفق من مرفق الحياة لها يعبد ، وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والالهات الحصر وأربت على العد . فمنها أشخاص تاريخية وأبطال تمثل فيهم الله — زعموا — في عهود وحوادث معروفة ومنها جبال تجلى عليها بعض آلهتهم ، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها اله ، ومنها نهر الكنج الذي خرج من رأس « مهاديو » الاله ، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة ، والأجرام الفلكية وغير ذلك ، وأصبحت الديانة نسيجا من خرافات وأساطير وأناشيد وعقائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان ، ولم يستسغها العقل السليم في زمن من الأزمان » .

(ج) والفرس :

كانوا يعبدون ملوكهم ونيرانهم ، واليابانيون يعتبرون ملكهم ابن الشمس المعبودة ، واليونانيون يعبدون اله المطر فلانا وآلهة الحب فلانة واله الحرب فلانا .. وهكذا ...

فماذا تعنى هذه الوثنيات كلها ؟

تعنى أن الانسان اعتبر نفسه أقل من الحجر ، وأقل من الشمس ، وأقل من الحيوانات ، وأقل من مظاهر الطبيعة كلها ، بل جعلها في مقام السيد ، وجعل نفسه في مقام العبد الذليل ، وجعلها تتحكم به بواسطة وبغير واسطة .

وقال النصارى : ان المسيح ابن الله وأعطوه حكم الأب — تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

فأصبح المسيح عندهم الها ، كما اعتبر العنود بوذا من قبل الها ، وهؤلاء وهؤلاء صنعوا التماثيل لهذا وهذا وعبدوها ، فأصبحت ديانة وثنية شركية من ناحيتين : من ناحية عبادة الأصنام ومن ناحية عبادة الانسان ، ونتج عن هذا أن اعتبر النصارى خليفة المسيح الممثل بالبابا له حكم المسيح من حيث طاعة أوامره ونواهيه ، فأصبح التحليل والتحریم والتضليل والتخريف الذى عليه طابع الديانة المقدسة الصادر من قبل البابا هو كل شيء . فكانت مآسى وفظائع من حجر على العقل ، وقتل للأنفس ، وسلب للحريات ، ومقاومة لكل حق ما ذكر التاريخ منه الكثير .

* * *

والحد ناس قديما وألحدوا في هذا العصر الا الأقل ، فماذا يعنى الالحاد ؟

يعنى الالحاد أن الانسان عيد الكون كله بدلا من أن يعبد أجزاء منه ، وخلع على الكون كله صفات الألوهية ، فالكون يخلق ويرزق ، ويعطى ويمنع ، ويحيى ويميت ، ويتصرف ويعمل ، ويرتب ويبدع ويكون ، واعتبروا أنفسهم أعظم ما في هذا الكون فعبدوا أنفسهم ، اعتبروا أن الانسان مصدر التشريع ، ومصدر الحاكمية ، ومصدر الأمر والنهى . وهو جر أن يفعل وأن يترك وأن يعمل كل شيء فغلبتهم شهواتهم ، وظلموا بعضهم ، وأصبح كل واحد من هؤلاء يعتبر نفسه الها ، وأخيرا اعتبرت الفلسفة الشيوعية الشعب كله الها يفعل ما يشاء ، لا راد لحكمه ، وتمثل الشعب بأفراد تصرفوا كآلهة ، فحدث على يدهم من المآسى ما لم يحدث على يد غيرهم ، حتى أنه قتل في زمان ستالين وحده تسعة عشر مليوناً من أبناء الشعوب المسماة بالاتحاد السوفيتي .

فلم يكن الالحاد اذن الا صورة جديدة من صور الشرك ، انتقل به الانسان من الجزئية الى الكلية ، ومن الشرك الواضح الى الشرك المقتنع ، فأعطى الكون كله صفات الألوهية بعدما كان يعطى أجزاء منه ، وعبد نفسه وتعبد لها بعدما كان يعبد غيره .

* * *

ومحمد وحده بوحي من الله ، من يوم بعثته الى قيام الساعة ، هو الذى وضع الانسان فى محله الصحيح فعلمه :

١ — أن الكون كله ، قمره وشمسـه ونجومه وأرضه وحيواناته من بقر ونمر وأسد وعجل ، ونباتاته كلها ، وأحجاره ومعادنه وكل شىء فيه خلق للانسان ! فالانسان سيده والانسان مكرم ومفضل عليه .
« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » (البقرة : ٢٩) .
« ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض » (لقمان : ٢٠)

ومن حق الانسان أن يستفيد من الأرض وخيراتها ، ومن القمر وما فيه ، ومن المريخ وغيره ، كل الكون مسخر للانسان والانسان أكرم ما فيه :

« ولقد كرّمنا بنى آدم » (الاسراء : ٧٠) .

٢ — وأن الله خالق الكون والانسان ، هو وحده الاله المتصف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، المستحق وحده للعبادة . والانسان عبده وحده :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » (الذاريات : ٥٦) .
فالناس كلهم عباد الله . . رسولهم ونبيهم ، وملكهم وخادمهم ، وكبيرهم وصغيرهم ، ولا يجوز أن يعطوا عبوديتهم لأحد سواه :
« وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون » (الانبياء : ٢٥) .

« ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » (آل عمران : ٧٩) .

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهك اله واحد ، فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »

(الكهف : ١١٠)

لا اله الا الله .

لا حجر ولا قمر ولا بشر ولا كون ولا مجلسا نيايبا يحل ويحرم
كما يشاء ، ولا شعب ولا حاكم ولا محكوم ولا بشرية كلها .
كل الكون للانسان ، والانسان لله . مقام الانسان السيادة على
المخلوقات ، لأنها مسخرة له ، والعبودية لله وحده : بنقلة واحدة نقل
محمد صلى الله عليه وسلم البشر من أحط الدرجات الى أعلى الدرجات ،
وبذلك وجد المسلم ، وهذه أول ثمرة من ثمار محمد صلى الله عليه
وسلم وهي أول ثمرة من ثمار كل نبي ولكن الناس انحرفوا :
مكتوب في نسخ التوراة الموجودة الآن .

« لو دعا نبي أو من يدعى الالهام في المنام الى عبادة غير الله
يقتل هذا الداعي وان كان ذا معجزات عظيمة » . الباب الثالث عشر
من سفر الاستثناء ، وفي الباب السابع عشر منه :
« لو ثبت على أحد عبادة غير الله يرحم رجلا كان أو امرأة » .
ومكتوب في نسخ الانجيل الحالي :

« وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقي وحدك
ويسوع المسيح الذي أرسلته » . انجيل يوحنا الباب السابع عشر — ٣
وفي الباب الثاني عشر من انجيل مرقس — ٢٨ « فجاء واحد من
الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسنا سأل : أية وصية
هي أول الكل ؟ فأجابه يسوع : ان أول كل الوصايا : اسمع يا اسرائيل
الرب الهنا رب واحد » .



وبهذه النظرة الى الكون والانسان ، فتح المسلم أقفال الكون
بالتجربة والمشاهدة ، يدفعه في ذلك عقيدة أن الكون كله للانسان ،
وعليه أن يستفيد منه ، ولئن وصلت الحضارة الغربية اليوم الى القمة
في تسخير الكون ، فذلك بسبب أنها أخذت هذا المعنى عن الحضارة
الاسلامية ، ولولا ذلك لما كان في أوروبا حضارة ولا علم وأين
يكون ومحاكم التفتيش وسيف الكنيسة مسلطة على رأس كل من يفكر ،
يقول « بريفولت » في كتابه « بناء الانسانية » :
« ما من ناحية من نواحي تقدم أوروبا الا وللحضارة الاسلامية
فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير » .

ويقول في موضع آخر :

« لم تكن العلوم الطبيعية التي يرجع فيها الفضل الى العرب هي التي أعادت أوروبا الى الحياة ، ولكن الحضارة الاسلامية قد أثرت في حياة أوروبا تأثيرات كبيرة ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى الى أوروبا » .

ولكن للأسف فان أوروبا أخذت جزءا فقط من هدى محمد صلى الله عليه وسلم في هذا الموضوع ولو أخذته كله لأفلحت واهتدت .
ان هذه الثمرة من ثمار محمد صلى الله عليه وسلم التي لا يصلح الانسان الا بها ، ولا يأخذ محله الصحيح الا اذا اعتقدها ، لا يمكن أن تكون على هذا الكمال والتمام في دعوة محمد عليه الصلاة والسلام لولا أنه رسول الله حقا . أراد الله به أن ترجع الانسانية عن الانحراف الى الاستقامة .

* * *

ثانيا - التبشير باليوم الآخر وطلب النجاة فيه وجعله محور سلوك الانسان :

مكتوب في كتاب أيوب في الباب الثاني والأربعين منه فقرة (١٧) :
« ومات أيوب شيخا معمرًا ويبيعث مرة أخرى مع الذين يبعثهم الرب » .

ومكتوب في انجيل مرقس الباب الثالث عشرة فقرة (٣٢) :
« وما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ، ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن - أي المسيح - الا الآب - أي الله » ،
وتعالى أن يكون أبا أو يكون له ولد ، وانما ذكرنا العبارة هنا لندلل على ذكر يوم القيامة في كتب العهد القديم والجديد .

ومكتوب في الباب التاسع عشر من انجيل متى هكذا (١٦) : « واذا واحد تقدم وقال أيها المعلم الصالح .. أي صلاح أعمل لتكون لي انحية الأبدية ؟ »

ان الرسل كلهم بعثوا من أجل أن يبشروا بالحياة الأبدية الطيبة للصالحين والعذاب الأبدى للطالحين .

« رسلا مبشرين ومنقرين لتلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (النساء : ١٦٥) .

ان من ثمار محمد صلى الله عليه وسلم أنه أخرج باذن الله وأمره جيلا من البشر لم يعد له همة الا في أن ينال رضا الله ، وينال سعادة الأبد ، ودل البشرية على الطريق الى ذلك • فكان أتباعه أعظم نماذج عرفها العالم كطلاب آخرة • هذا مع قيام كامل في أمر الدنيا اصلاحا ورعاية ، ولكن كمر الى الآخرة • وهذه أمثلة على هذه النماذج تخرجها تربية محمد صلى الله عليه وسلم في كل جيل وكان فيها القدوة الأولى :

١ — أخرج الامام أحمد باسناد صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

حدثني عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على حصير قال : فجلست فاذا عليه ازاره وليس عليه غيره ، واذا الحصير قد أثر في جنبه ، واذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع وقرظ — ورق السلم يدبغ به — في ناحية من الغرفة ، واذا اهاب معلق فابتدرت عيناى فقال : ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ فقلت : يا نبي الله .. وما لى لا أبكى وهذا الحصير قد أثر في جنبك وهذه خزانتك لا أرى فيها الا ما أرى وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نبي الله وصفوته ، وهذه خزانتك • قال : يا ابن الخطاب .. أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟

٢ — وأخرج أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : « مات أبو بكر رضى الله عنه فما ترك ديناراً ولا درهما ، وكان قد أخذ قبل ذلك ماله فآلقاه في بيت المسال » •

٣ — ومن حديث طويل أخرجه ابن عساكر عن الحسن البصرى في عمر بن الخطاب :

« فقالوا : ما ترون يا معشر المهاجرين والأنصار الى زهد هذا الرجل والى حليته ؟

لقد تقاصرت الينا أنفسنا مذ فتح الله على يديه ديار كسرى وقيصر ، وطرفى المشرق والمغرب ، ووفود العرب والعجم يأتونه فيرون عليه هذه الجبة قد رقعها اثنتى عشرة رقعة • فلو سألتكم معاشر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأنتم الكبراء من أهل المواقف والمشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والسابقين من المهاجرين والأنصار

يغير هذه الجبة بثوب لين يهاب فيه منظره ويعدى عليه جفنة من
الطعام ويراح عليه جفنة يأكله ومن حضره من المهاجرين والأنصار .
فقال القوم بأجمعهم : ليس لهذا القول الا على بن أبى طالب
رضى الله عنه فانه أجرأ الناس عليه وصهره على ابنته ، أو ابنته حفصة
— فانها زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو موجب لها لموضعها
من رسول الله صلى الله عليه وسلم — .

فكلموا عليا فقال على :

لست بفاعل ذلك ولكن عليكم بأزواج النبی صلى الله عليه وسلم .
فأنهن أمهات المؤمنين يجترئن عليه .
قال الأحنف بن قيس : فسألوا عائشة وحفصة رضى الله عنهما وكانتا
مجتمعتين .

فقالت عائشة : انى سائلة أمير المؤمنين ذلك .
وقالت حفصة : ما أراه يفعل وسيبين لك ذلك .
فدخلتا على أمير المؤمنين فقربهما وأدثاهما .
فقالت عائشة : يا أمير المؤمنين .. أتأذن أكلك ؟

قال : تكلمى يا أم المؤمنين ! قالت : ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم مضى لسبيله . الى جنته ورضوانه لم يرد الدنيا ولم ترده ،
وكذلك مضى أبو بكر رضى الله عنه على أثره لسبيله بعد احياء سنن
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل المكذبين ، وأدحض حجة المبطلين ،
بعد عدله فى الرعية ، وقسمه بالسوية ، وارضاء رب البرية ، فقبضه
الله الى رحمته ورضوانه وألحقه بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم
بالرفيق الأعلى . لم يرد الدنيا ولم ترده ، وقد فنح الله على يديك
كنوز كسرى وقيصر وديارهما ، وحمل اليك أموالهما ودانت لك أطراف
المشرق والمغرب ، ونرجو من الله المزيد ، وفى الاسلام التأييد ، ورسول
العجم يأتونك ، ووفود العرب يردون عليك ، وعليك هذه الجبة ،
قد رقعتها اثنتى عشرة رقعة ، فلو غيرتها بثوب لين يهاب فيه منظرك ،
ويعدى عليك بجفنة من الطعام ويراح عليك بجفنة تأكل أنت ومن
حضرك من المهاجرين والأنصار ؟

فبكى عمر عند ذلك بكاء شديدا ثم قال :

سألتك بالله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
شبع من خبز بر عشرة أيام أو خمسة أو ثلاثة ، وجمع بين عشاء
وغداء حتى لحق بالله ؟!

فقالت : لا •

فأقبل على عائشة فقال :

هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرب اليه طعام على مائدة في ارتفاع شبر من الأرض • كان يأمر بالطعام فيوضع على الأرض ويأمر بالمائدة فترفع ؟

قالتا : اللهم نعم •

قال لهما : أنتما زوجتا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمهات المؤمنين ، ولكما على المؤمنين حق وعلى خاصة • ولكن أتيتما ترغباني في الدنيا واني لأعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس جبة من الصوف فربما حك جلده من خشونتها ، أتعلمان ذلك ؟

قالتا : اللهم نعم •

فقال : هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرقد على عباءة على طاقة واحدة وكان مسحاً في بيتك يا عائشة تكون بالنهار بساطاً وبالليل فراشاً فندخل عليه فنرى أثر الحصير على جنبه ، ألا يا حفصة أنت حدثتيني أنك ثنيت له ذات ليلة فوجد لينها فرقد فلم يستيقظ الا بأذان بلال فقال لك : يا حفصة .. ماذا صنعت ؟ أثنيت المهاد ليلتي حتى ذهب بى النوم الى الصباح ؟ مالى وللدنيا ومالى شغلتموني بلين الفراش يا حفصة !

أما تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مغفورا له ما تقدم عن ذنبه وما تأخر ، أمسى جائعاً وورقد ساجداً ، ولم يزل راکعاً وساجداً وباكياً ومتضرعاً في آناء الليل والنهار الى أن قبضه الله برحمته ورضوانه ! لا أكل عمر طيباً ، ولا لبس ليلاً ، فله أسوة بصاحبيه ، ولا جمع بين ادامين الا الملح والزيت ، ولا أكل لحماً الا في كل شهر ينفض ما انفض من القوم ، فخرجتا فخيرتا بذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل كذلك حتى لحق بالله عز وجل •

٤ — رأيت عثمان بن عفان رضى الله عنه يقبل في المسجد وهو يومئذ خليفة ، قال : ويقوم وأثر الحصير بجنبه •

فيقال : هذا أمير المؤمنين • • هذا أمير المؤمنين • •

وعن شرحبيل بن مسلم أن عثمان رضى الله عنه كان يطعم الناس طعام الامارة ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت •

٥ — أخرج أبو نعيم في « الحلية » ج ١ ص ٨٢ عن رجل من ثقيف أن عليا رضى الله عنه استعمله على عكبر قال :
ولم يكن السواد يسكنه المصلون — وقال لى : اذا كان عند الظهر فرح الى : فرجعت اليه فلم أجد عنده حاجبا يحبسنى عنه دونه ، فوجدته جالسا وعنده قدح وكوز ماء — فدعا بطينة فقلت فى نفسى :
لقد آمننى حتى يخرج الى جوهرى ولا أدرى ما فيها ، فاذا عليها خاتم فكسر الخاتم ، فاذا فيها سويق ، فأخرج منها فصب فى القدح ، فصب عليه ماء فشرب وسقانى ، فلم أصبر فقلت :
يا أمير المؤمنين .. أتصنع هذا بالعراق وطعام العراق أكثر من ذلك ؟!

قال : أما والله ما أختم عليه بخلا عليه ، ولكنى أبتاع قدر ما يكفينى فأخاف أن يفنى فيصنع من غيره ، وانما حفظى لذلك ، وأكره أن أدخل بطنى الا طيبا .

٦ — أخرج أبو نعيم فى « الحلية » ج ١ ص ١٠١ عن عروة قال : دخل عمر بن الخطاب على أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه فاذا هو مضطجع على طنفسة رحله ، متوسد الحقيبة فقال له عمر : ألا اتخذت ما أتخذ أصحابك ؟

فقال : يا أمير المؤمنين .. هذا يبلغنى المقييل .
وقال معمر فى حديثه : لما قدم عمر الشام تلقاه الناس وعظماء أهل الأرض فقال عمر : أين أخى ؟ قالوا : من ؟ قال : أبو عبيدة ، قالوا : الآن يأتىك . فلما أتاه نزل فاعتقه فقال : ثم دخل عليه بيته فلم ير فى بيته الا سيفه وترسه ورحله .

٧ — وأخرج أبو نعيم فى « الحلية » عن الحسن قال :
كان عطاء سلمان رضى الله عنه خمسة آلاف درهم ، وكان أميرا على زهاء ثلاثين ألفا من المسلمين ، وكان يخطب الناس فى عبادة يفتش بعضها ويلبس بعضها ، واذا خرج عطاؤه أمضاه — أى تصدق به — ويأكل من سفيف يده .

٨ — روى الامام أحمد عن محمد بن كعب أن ناسا نزلوا على أبى الدرداء رضى الله عنه ليلة قررة فأرسل اليهم بطعام سخن ولم يرسل اليهم بلحف ، فقال بعضهم : لقد أرسل الينا بالطعام فما هنأنا مع القر ، لا أنتهى أو أبين له . قال الآخر : دعه ، فأبى .

فجاء حتى وقف على الباب ، رآه جالسا وامرأته ليس عليها من الثياب الا ما لا يذكر فرجع الرجل وقال :
ما أراك بت الا بنحو ما بتنا به •
قال : ان لنا دارا ننقل اليها قدمنا فرشنا ولحفنا اليها — أى الدار الآخرة — ولو ألفيت عندنا منه شيئا لأرسلنا اليك به وأن بين أيدينا عقبة كؤودا ، المخف فيها خير من المثقل أفهمت ما أقول لك ؟
قال : نعم •

٩ — وأخرج أبو نعيم عن عمر بن حمزة بن عبد الله قال : كنت جالسا مع أبي فمر رجل فقال :
أخبرنى ما قلت لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما يوم رأيتك تكلمه بالجرف ؟ قال : قلت : يا أبا عبد الرحمن •• رقت مضغتك ، وكبر سنك ، وجلساؤك لا يعرفون حقك ولا شرفك ، فلو أمرت أهلك أن يجعلوا لك شيئا يلطفونك اذا رجعت اليهم ، قال : ويحك •• والله ما شبت منذ احدى عشرة سنة ولا ثنتى عشرة سنة ولا ثلاث عشرة سنة ولا أربع عشرة سنة ولا مرة واحدة فكيف لى ؟
وانما بقى منى كظمئى الحمار •

١٠ — أخرج عمر بن شبة عن أفلح مولى أبى أيوب رضى الله عنه قال : كان عمر رضى الله عنه يأمر بحل تتسج لأهل بدر يتتوق فيها — أى يتجود ويبالغ — فبعث الى معاذ بن عفراء حلة فقال لى معاذ :
يا أفلح •• بع هذه الحلة • فبعتها له بألف وخمس مائة درهم ثم قال : اذهب فابتع لى بها رقابا ، فاشتريت له خمس رقاب ، ثم قال :
والله ان امرءا اختار قشرين يلبسهما على خمس رقاب يعتقها لعين الرأى ، اذهبوا فأنتم أحرار •



ما مضى يتبين كيف أن الجيل الذى رباه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم جيل أصبح همه الأعلى الآخرة ، ولم يعد له فى غيرها همة ، الا اذا كان وسيلة الى الآخرة تقربهم الى الله ، وتفرع عن هذا الأصل سلوك لا مثيل له فى أى جانب من جوانب الحياة ، والحياة والمسأل هما الميزان الذى يمتحن به ايمان الانسان بالمبدأ والعقيدة • فعلى قدر تضحيته يكون ايمانه ، والتضحية التى نراها عند الصحابة — الجيل

الذى رباه رسول الله — بالنفس والمال ابتغاء وجه الله والدار الآخرة
تضحية لا مثيل لها في تاريخ العالم أبدا ، مما يدل على مقدار إيمانهم
باليوم الآخر ، حتى أصبح محور وجودهم • وهذه أمثلة على تضحيتهم
بالمال والنفس تؤكد لك مقدار استقرار هذا المعنى في أنفسهم :

(أ) تقول زوجة طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه :

دخلت يوما على طلحة فرأيت منه ثقلا فقلت له : مالك ؟ لعله رابك
من شيء فنعتبك •

قال : لا ، ولنعم حليلة المرء المسلم أنت • ولكن اجتمع عندي
مال ولا أدري كيف أصنع به ؟

فقلت : وما يغمك منه ! ادع قومك فاقسمه بينهم •

فقال : يا غلام •• على بقومى •

فسألت الخازن : كم قسم ؟

قال : أربع مائة ألف •

كذا في « الترغيب » ورجاله ثقات •

(ب) وأخرج أبو نعيم في « الحلية » عن سعيد بن عبد العزيز قال :

— كان للزبير بن العوام ألف مملوك يؤدون اليه الخراج ، فكان

يقسمه كل ليلة ثم يقوم الى منزله وليس معه شيء •

— سمعت السيدة عائشة رضى الله عنها يوما رجة في المدينة فقالت :

ما هذا ؟ قالوا : قافلة لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام

تحمل من كل شيء ، وكانت سبعمائة بعير فقالت : يدخل عبد الرحمن

الجنة حبوا — أى بسبب غناه — فلما بلغه ذلك قال :

انى لأرجو أن أدخلها قائما ، فجعل القافلة كلها في سبيل الله

الجمال وما عليها ووزعها على الناس •

(ج) أخرج الطبرانى في « الكبير » عن مالك الدار — هو مالك

ابن عياض مولى عمر — ذكره الحافظ في « الاصابة » :

أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخذ أربع مائة دينار ، فجعلها

في صرة فقال للغلام : اذهب بها الى أبى عبيدة بن الجراح — رضى الله

عنه — ثم تله في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع ، فذهب الغلام اليه فقال :

يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه في بعض حاجتك •

فقال : وصله الله ورحمه • ثم قال :

تعالى يا جارية •• اذهبي بهذه السبعة الى فلان ، وبهذه الخمسة

الى فلان ، وبهذه الخمسة الى فلان ، حتى أنفدما ورجع الغلام الى عمر فأخبره • فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل رضى الله عنه فقال : اذهب بهذا الى معاذ بن جبل وتله في البيت حتى تنتظر ما يصنع ، فذهب بها اليه فقال :

يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه في بعض حاجتك ، فقال : رحمه الله ووصله ، تعالى يا جارية •• اذهبي الى بيت فلان بكذا • اذهبي الى بيت فلان بكذا • فاطلعت امرأة معاذ وقالت :

ونحن والله مساكين •• فأعطنا • فلم يبق في الخرقه الا ديناران فدحى بهما — أى رمى — اليها ، ورجع الغلام الى عمر فأخبره فسر بذلك فقال : انهم اخوة بعضهم من بعض •

(د) أخرج ابن سعد عن أم درة قالت : أتيت عائشة بمائة ألف ففرقتها وهي يومئذ صائمة فقلت لها : أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحما تقطرين عليه ؟ فقالت : لو كنت أذكرتني لفعلت •

(هـ) وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غزا • فلما توجه الى أحد أراد أن يتوجه معه ، فقال له بنوه : ان الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت فنحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد ، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يا رسول الله •• ان بنى هؤلاء يمنعوننى أن أخرج معك ، والله انى أرجو أن أستشهد ، فأطأ بعرجتى هذه في الجنة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد •

وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة • فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتل يوم أحد شهيدا •

(و) تقدم أنس بن النضر يوم أحد وانكشف المسلمون فاستقبله سعد بن معاذ فقال :

يا سعد بن معاذ •• الجنة ورب الكعبة انى أجد ريحها من دون أحد ، قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون فما عرفه الا أخته بينسانه •

(ز) وأخرج ابن سعد عن جعفر بن عبد الله بن مسلم الهمداني
رضي الله عنه قال :

لما كان يوم اليمامة كان أول الناس جرح أبو عقيل الأنيفي رضي
الله عنه رمى بسهم فوق بين منكبیه وفؤاده فشطب في غير مقتل
فأخرج السهم ووهن شقه الأيسر — لما كان فيه • وهذا أول النهار
وجر إلى الرجل ، فلما حمى القتال وانهزم المسلمون وجاوزوا رجالهم
وأبو عقيل واهن من جرحه سمع معن بن عدي رضي الله عنه يصيح
بالأنصار :

الله •• الله •• والكرة على عدوكم • وأعنق معن يقدم القوم
وذلك حين صاحت الأنصار :

أخلصونا •• أخلصونا •• فأخلصوا رجلا رجلا يميزون • قال
عبد الله بن عمر رضي الله عنه : فنهض أبو عقيل يريد قومه ، فقلت :
ما تريد يا أبا عقيل •• ما فيك قتال ؟

قال : قد نوه المنادي باسمي • قال ابن عمر : فقلت انما يقول :
يا للأنصار •• لا يعنى الجرحى •

قال أبو عقيل : أنا رجل من الأنصار وأنا أجيبه ولو حبوا ،
قال ابن عمر : فتحزم أبو عقيل وأخذ السيف بيده مجردا ثم جعل
ينادي : يا للأنصار •• كرة كيوم حنين • فاجتمعوا — رحمهم الله —
جميعا يقدمون المسلمون دربة — أي جرأة وشجاعة وقفة — دون عدوهم
حتى اقتحموا عدوهم الحديقة فاختلفوا واختلفت السيوف بيننا
وبينهم • قال ابن عمر : فنظرت إلى أبي عقيل وقد قطعت يده المجروحة
من المنكب فوقعت على الأرض وبه من الجراح أربعة عشر جرحا كلها
قد خلصت إلى مقتل ، وقتل عدو الله مسيلمة ، قال ابن عمر :

فوقعت على أبي عقيل وهو صريع آخر رمق فقلت : يا أبا عقيل ••

فقال : لبيك — بلسان ملثاث — لن الدبرة ؟ قال : قلت : أبشر ،
ورفعت صوتي قد قتل عدو الله • فرفع أصبعه إلى السماء يحمد الله
ومات يرحمه الله • قال ابن عمر : فأخبرت عمر رضي الله عنه بعد أن
قدمت خبره كله فقال : رحمه الله •• ما زال يسأل الشهادة ويطلبها ،
وان كان ما علمت من خيار أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم
وقديم اسلام •

(ح) وفي يوم اليرموك قال عكرمة بن أبي جهل :
« قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواطن ، وأفر منكم
اليوم ؟ .. ثم نادى : من يبائع على الموت ؟
فبأيعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور رضى الله عنهما في
أربع مئة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد
رضى الله عنه حتى أثبتوا جميعا جراحا وقتل منهم خلق ، منهم : ضرار
ابن الأزور ، وأتى خالد رضى الله عنه بعدما أصبحوا بعكرمة جريحا
فوضع رأسه على فخذه ، وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه
وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر في حلوقهما الماء ويقول : كلا ..
زم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد » .

(ط) وروى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال :
« انى لفى الصف الأول يوم بدر ، اذ التقت فاذا عن يمينى ويسارى
فتيان حديثا السن فكأنى لم آمن بمكانهما اذ قال لى أحدهما سرا من
صاحبه : يا عم .. أرنى أبا جهل .

فقلت : يا ابن أخى .. ما تصنع به ؟
قال : عاهدت الله ان رأيت أنه أقتله أو أموت دونه .
فقال لى الآخر سرا من صاحبه مثله .

قال : فما سرنى أنفى بين رجلين مكانهما فأشرت لهما اليه فشدا
عليه مثل الصقرين حتى ضرباه ، وهما ابنا عفراء » .

فهل وجد جيل فى العالم مثل هذا الجيل ، بلغ فى التضحية فى
سبيل الله وابتغاء رضوانه وطمعا فى جنته وخوفا من ناره كما بلغ
هذا الجيل العظيم الذى رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ولعل فى الأمثلة التالية من صبر الصحابة وتحملهم الأذى وثباتهم
على دعوة الله حرصا على السعادة الأبدية ، ما يجعلك على اليقين
الذى ما بعده يقين ، أن تربية الرسول صلى الله عليه وسلم كانت
أعظم تربية ربانية فى تاريخ الانسان . هدفها رضوان الله دون
مطمح آخر :

(أ) أرى خباب بن الأرت عمر بن الخطاب ظهره وفيه آثار
تعذيب المشركين له فقال عمر : ما رأيت كاليوم . قال خباب : أوقدوا
لى نارا فما أطفأها الا ودك ظهري » أى دهنه .

(ب) وقال أبو ذر :

قلت : يا رسول الله .. انى أريد أن أظهر دينى • فقال رسول الله :
أخاف عليك أن تقتل ، قلت : لا بد منه وان قتلت •
قال : فسكت عنى فجئت وقريش حلقا يتحدثون فى المسجد فقلت :
أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله •

فانتقضت الحلق فقاموا فضربونى حتى تركونى كأنى نصب أحمر ،
وكانوا يرون أنهم قد قتلونى ، فأفقت فجئت الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فرأى ما بى من الحال فقال لى : ألم أنك ؟ فقلت : يا رسول
الله .. كانت حاجة فى نفسى قضيتها » •

(ج) عن أبى رافع قال :

وجه عمر بن الخطاب رضى الله عنه جيشا الى الروم وفيهم رجل
يقال له عبد الله بن حذافة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم
فأسره الروم ، فذهبوا به الى ملكهم فقالوا له : ان هذا من أصحاب
محمد — صلى الله عليه وسلم — فقال له الطاغية :

هل لك أن تنتصر وأشركك فى ملكى وسلطانى ؟

فقال له عبد الله : لو أعطيتنى ما تملك وجميع ما ملكته العرب
على أن أرجع عن دين محمد صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما فعلت •
قال : اذن أقتلك •

قال : أنت وذاك • فأمر به فصلب •

وقال للرماة : ارموه قريبا من يديه قريبا من رجليه ، وهو يعرض
عليه وهو يأبى ، ثم أمر به فأنزل ، ثم دعا بقدر فصب فيها ماء حتى
احترقت ، ثم دعا بأسيرين من المسلمين فأمر بأحدهما فألقى فيها
وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى ، ثم أمر به أن يلقي فيها فلما
ذهب به بكى ، فقليل له : انه قد بكى ، فظن أنه جزع فقال :
ردوه ، فعرض عليه النصرانية فأبى •

فقال : ما أبكاك اذن ؟

فقال : أبكاني أنى قلت فى نفسى : تلقى الساعة فى هذا القدر فتذهب
فكنت أشتهى أن يكون بعدد كل شعرة فى جسدى نفس تلقى فى الله •

فقال الطاغية : هل لك أن تقبل رأسى وأخلى عنك ؟

قال له عبد الله : وعن جميع أسارى المسلمين ؟

قال : وعن جميع أسارى المسلمين •

قال عبد الله : فقلت في نفسي عدو من أعداء الله أقبل رأسه يخلي عني وعن أسارى المسلمين لا أبالي ، فدنا منه فقبل رأسه فدفع اليه الأسارى ، فقدم بهم على عمر رضى الله عنه فأخبر عمر بخبره فقال عمر :

حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة ، وأنا أبداً فقام عمر فقبل رأسه •

(د) وعن عثمان رضى الله عنه قال :

بينما أنا أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبطحاء اذ بعمار وأبيه وأمه يعذبون في الشمس ليرتدوا عن الاسلام فقال أبو عمار : يا رسول الله •• الدهر هكذا • فقال : صبرا يا آل ياسر • اللهم اغفر لآل ياسر • وقد فعلت ، وفي رواية : صبرا يا آل ياسر صبرا يا آل ياسر •• فان موعدكم الجنة • (هـ) وعن أبي الأسود قال :

••• وكان عم الزبير يعلق الزبير في حصير ويدخن عليه بالنار وهو يقول : ارجع الى الكفر • فيقول الزبير : لا أكفر أبدا • ترى أيمن أن يكون هذا التفانى في طلب رضوان الله ! لا ثمرة من ثمار نبي ؟

أو يمكن أن يستطيع كذاب على الله أن يجعل أصحابه في هذه الدرجة من الرغبة في نيل رضوان الله ؟ ان من المعروف أن فاقد الشيء لا يعطيه ، ان الرجل الذي يكذب على الله لا يؤمن به ولا يؤمن باليوم الآخر الذي أعده ، فلا يستطيع أن ينقل الناس الى هذه الحال من الايمان ، لولا أنه أعلى في هذا الموضوع منهم بكثير • فلقد نقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس الى حال الرهبة من الله بشكل لا نرى مثله الا عند نبي •

فأعطاهم اليوم الآخر حسا رقيقا مرهفا • اذا وقع أحدهم في المعصية جاد بنفسه من أجل التخلص من آثارها ، وترفعوا عن الشهوات والدنيا واحتقروا مظاهر الحياة الفسانية ، حتى أن أحدهم أصبح ولا تساوى الدنيا عنده شيئا يذكر ، فأصبحت الفضيلة لهم عادة ، والأمانة عندهم محترمة ، وكلمتهم عهدا • وكل ذلك حرصا على رضوان الله وطلبا لجنته وخوفا من ناره •

(أ) روى الامام مسلم :

« أن معاذ بن مالك الأسلمي أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله .. انى ظلمت نفسى وزنيت ، وانى أريد أن تطهرنى ، فرده . فلما كان من الغد أتاه فقال : يا رسول الله .. انى زنيت ، فرده الثانية . فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قومه فقال : أتعلمون بعقله بأسا ؟ تتكرون منه شيئا ؟ فقالوا : ما نعلمه الا وفى العقل من صالحينا فيما نرى ، فأتاه الثالثة فأرسل اليهم أيضا فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله ، فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرجم .
قال : فجاءت الغامدية فقالت :

يا رسول الله .. انى قد زنيت فطهرنى .

وأنه ردها فلما كان الغد قالت : يا رسول الله .. لم تردنى ؟ لعلك أن تردنى كما رددت معاذ . فوالله انى لحبلى . قال :
أما لا فاذهبى حتى تلدى ، قال : فلما ولدته أتته بالصبي فى خرقه ، قالت : هذا قد ولدته .

قال : فاذهبى فأرضعيه حتى تقطميه ، فلما قطمته أتته بالصبي فى يده كسرة خبز فقالت : هذا يا نبى الله .. قد قطمته وقد أكل الطعام ، فدفع الصبي الى رجل من المسلمين ثم أمر فحفر لها الى صدرها وأمر الناس فرجموها فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع نبى الله سبه اياها فقال :

« مهلا يا خالد .. فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له . ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت » .

(ب) حدث الطبري قال :

« لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض ، أقبل رجل بحق معه فدفعه الى صاحب الأقباض فقال والذين معه : ما رأينا مثل هذا قط ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه فقالوا : هل أخذت منه شيئا ؟ فقال :
أما والله لو لا الله ما أتيتكم به .

فعرفوا أن للرجل شأنا فقالوا : من أنت ؟ فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدونى ولا غيركم ليقرظونى . ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه ، فأتبعوه رجلا حتى انتهى الى أصحابه فسأل عنه فاذا هو عامر ابن عبد قيس » .

(ج) أرسل سعد قبل القادسية ربيع بن عامر رسولا الى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابى الحرير وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة العظيمة ، وعليه تاج وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب •

ودخل ربيع بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل عليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه فقالوا له : ضع سلاحك •

فقال : انى لم آتكم ، وانما جئتكم حين دعوتهمونى ، فان تركتهمونى هكذا والارجعت •

فقال رستم : ائذنوا له • فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها •

فقالوا له : ما جاء بكم ؟

فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام •

(د) هم فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالببيت فلما دنا منه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفضالة ؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله • قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟

قال : لا شىء • • كنت أذكر الله •

فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : استغفر الله ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه ، وكان فضالة يقول :

والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئا أحب الى منه •

قال فضالة : فرجعت الى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث اليها

فقالت : هلم الى الحديث •

فقلت : يا أبى الله عليك والاسلام •

(ه) عن أبى موسى قال :

انتهينا الى النجاشى وهو جالس فى مجلسه وعمرو بن العاص

عن يمينه وعمارة عن يساره والقسييسون جلوس سماطين وقد قال

عمرو وعمارة : انهم لا يسجدون لك ، فلما انتهينا بدرنا من عنده من

القسييسين والرهبان : اسجدوا للملك ، فقال جعفر : لا نسجد الا لله •

انه بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبح الضمير يقظا على اليوم الآخر ، لا يغفل عنه ، فاستقام بذلك عمود الحياة كلها . اليوم الآخر الذى دعا اليه كل المرسلين وغفل عنه كل الناس وهو أهم قضايا الانسان لأنها قضية مصيره ويجعلها الانسان أبسط قضايا لعبة الحس بالدنيا عليه حتى اذا مات الانسان وانكشف له صدق الرسل فيما أخبروا عنه ندم ولات حين مناص .

واحياء الانسان بهذه الذكرى واحياء هذه الحقيقة فى قلب الانسان هى الثمرة الثانية من ثمرات رسول الله صلى الله عليه وسلم وانها لثمره نبوة لا ثمرة كذابين مدعين ، ولا يستطيع العقل أن يتصور الا هذا .



ثالثا — انسانية واحدة كريمة :

وجاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظرة الناس بعضهم الى بعض ما يلى :

١ — فى الهند :

لم يعرف فى تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشد قسوة ، وأعظم فصلا بين طبقة وطبقة ، وأشد استهانة بشرف الانسان من النظام الذى اعترفت به الهند دينيا ومدنيا وخضعت له آلافا من السنين . ولا تزال ، وقد بدت طلائع التفاوت الطبقي فى آخر العهد الوبدي . بتأثير الحرف والصنائع وتوارثها ، أو بحكم المحافظة على خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجابتها . وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت فى الهند الحضارة البرهمية ، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندى . وألف فيه قانون مدنى وسياسى اتفق عليه فى البلاد ، وأصبح قانونا رسميا ومرجعا دينيا فى حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـ « منو شاستر » .

يقسم هذا القانون أهل البلاد الى أربع طبقات متميزة وهى :

١ — البراهمة : طبقة الكهنة ورجال الدين .

٢ — شترى : رجال الحرب .

٣ — ويش : رجال الزراعة والتجارة .

٤ — شودر : رجال الخدمة .

ويقول « منو » مؤلف هذا القانون :

« ان القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه •
وشتري من سواعده • وويش من أفخاذه • والشودر من أرجله •
ودزع لهم فرائض وواجبات لصالح العالم • فعلى البراهمة تعليم
ويد ، أو تقديم النذور للآلهة ، وتعاطي الصدقات • وعلى الشتري
حراسة الناس ، والتصدق وتقديم النذور ودراسة ويد ، والعزوف
عن الشهوات • وعلى ويش رعى السائمة ، والقيام بخدمتها ، وتلاوة
ويد والتجارة والزراعة • وليس لشودر الا خدمة هذه الطبقات الثلاث •

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقا فقد قال :
ان البراهمة هم صفوة الله ، وهم ملوك الخلق ، وان ما في العالم
هو ملك لهم ، فانهم أفضل الخلائق ، وسادة الأرض ، ولهم أن يأخذوا
من مال عبيدهم شودر من غير جريرة ما شاعوا ، لأن العبد لا يملك
شيئا ، وكل ماله لسيده ، وان البرهمي الذي يحفظ رك ويد « الكتاب
المقدس » هو رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة • بذنوبه وأعماله ،
ولا يجوز للملك حتى في أشد ساعات الاضطراب والفاقة أن يجبي
من البراهمة جباية ، أو يأخذ منهم أتاوة ، ولا يصح لبرهمي في بلاده
أن يموت جوعا ، وان استحق برهمي القتل لم يجز للحاكم الا أن
يخلق رأسه ، أما غيره فيقتل •

أما الشتري فانهم وان كانوا فوق الطبقتين « ويش وشودر »
ولكنهم دون البراهمة بكثير • يقول « منو » : ان البرهمي الذي هو
في العاشرة من عمره يفوق الشتري الذي ناهز مائة كما يفوق
الوالد ولده •

أما شودر « المنبوذون » فكانوا في المجتمع الهندي — بنص هذا
القانون المدني الديني — أخط من البهائم ، وأذل من الكلاب ، فيصرح
القانون بأن من سعادة « شودر » أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس
لهم أجر وثواب بغير ذلك ، وليس لهم أن يقتتوا مالا ، أو يدخروا كنزا ،
فان ذلك يؤذي البراهمة ، واذا مد أحد من المنبوذين الى برهمي يدا
أو عصا ليطش به ، قطعت يده ، واذا رفضه في غضب فدعت رجله ،
واذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهميا فعلى الملك أن يكوى
استه وينفيه من البلاد ، وأما اذا مسه بيده أو سبه فيقطع لسانه ،

وإذا ادعى أنه يعلمه سقى زيتا فائرا ، وكفارة قتل الكلاب والقطعة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء » .

٢ — في فارس :

وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجرى في عروقهم دم الهى ، وكان الفرس ينظرون اليهم كآلهة ، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئا علويا مقدسا يدعون أنه يجرى في عروقهم ، فكانوا يكفرون لهم وينشدون الأناشيد بألوهيتهم ، ويرونهم فوق القانون ، وفوق الانتقاد ، وفوق البشر ولا يجرى اسمهم على لسانهم ، ولا يجلس أحد في مجلسهم ، ويعتقدون أن لهم حقا على كل انسان ، وليس لانسان حق عليهم ، وأن ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وفقات نعيمهم انما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق .

كما يعتقدون أن طبقة البيوتات الروحية والأشراف فوق العامة في طبيعتهم ، وفوق مستوى الناس في عقولهم ونفوسهم ، ويعطونهم سلطة لا حد لها ، ويخضعون له خضوعا كاملا يقول « آرتهرسين » :

« كان المجتمع الايراني مؤسسا على اعتبار الحرف والنسب ، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة ، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقارا لأمر أو كبير ، وكان من قواعد السياسة الساسانية ، أن يقنع كل واحد بمركزه الذى منحه نسبه ، ولا يستشرف لما فوقه . ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التى خلقه الله لها ، وكان ملوك ايران لا يولون وضيعا وظيفه من وظائفهم ، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزا واضحا ، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع .

وكان في هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتهان للانسانية . يظهر لك جليا في مجالس الأمراء والأشراف ، حيث يقوم الناس على رؤوس الأمراء كأنهم جماد لا حراك بهم ، ويجلسون مزجر الكلب .

ثم يبالغون في تمجيد القومية الفارسية ، ويرون أن لها فضلا على سائر الأجناس والأمم ، وأن الله قد خصها بمواهب ومنح لم يشرك فيها أحدا . وكانوا ينظرون الى الأمم حولهم نظرة ازدراء وامتهان ، ويلقبونها باللقاب فيها الاحتقار والسخرية .

٣ — هذان مثلان يبينان لنا حال العالم في قضية الانسان حين

البعثة • وليس هما كل شيء ، فالليونان والرومان كل واحدة منهما كانت ترى غيرها برابرة ، وهى وحدها نموذج النوع الانسانى العالى ، وكنت ترى هذا الشعور بالأفضلية حتى على مستوى القبيلة ، حتى على مستوى الأسرة ، ولم يكن يخطر ببال قضية الانسانية الواحدة ••

٤ — وما لنا نذهب بعيدا فحتى الآن نرى :

أن هتلر يعتبر الشعب الجرمانى أعظم شعوب الدنيا ، وله حق سيادة العالم •

والشعب الأمريكى لا يزال يعامل السود معاملة احتقار وازدراء وامتهان ، ولا يعترف لأسود بحق لدرجة أن سينما البيض لا يدخلها سود • ومطعم البيض لا يدخله سود ، ومدرسة البيض لا يدخلها سود • وفى جنوب أفريقيا الأسود أحقر عند البيض من الكلب •

بل أكثر من هذا بقيت الكنيسة النصرانية فترة طويلة فى أفريقيا لا ترى أن الرجل الأسود أهل لأن يكون قسيسا ، وأخيرا تظهر الطبقة بشكل آخر : رأسمالية — بورجوازية — بروليتاريا •

* * *

هذا بشكل عام ، فاذا ما نظرنا الى المسألة من زاوية أخرى ، زاوية أن الانسانية رجل وامرأة ، وكل منهما انسان ، فانك تجد ولا تزال تجد مثل هذه الصور :

فى القرن السادس الميلادى كانت بعض الجامعات الكنسية تبحث : هل المرأة انسان أو حيوان ؟

وكان العرب يئدون بناتهم حتى قال صعصعة بن ناجية :

جاء الاسلام وقد فديت ثلاثة مائة مؤودة •

وكان الهنود اذا مات الرجل حرموا على زوجته أن تتزوج وأهانوها حتى أصبحت عادة عندهم أن تحرق المرأة نفسها اذا مات زوجها لتتخلص مما يصيبها بعد موته ، وقد يحدث عندهم أن يخسر الرجل زوجته فى القمار ، وفى كل مكان ليس للمرأة شخصيتها الحقوقية المستقلة •

وحتى الآن تجد أن القانون الفرنسى لا يسمح للمرأة أن تتصرف فى أموالها الا باذن زوجها ، والقانون الانجليزى لا يسمح لها بتغيير اسمها الا باذن زوجها ، أما هو فخر ••

واذا نظرنا الى الانسانية من وجه آخر • وجه الأحرار والعبيد ،

فاننا نجد صورا من البشاعة في معاملة الرقيق لا تصور ، الرقيق ليس له حق حياة ولا كرامة ولا يوجد شعور أصلا بانسانيته .

* * *

هذا كله كان وبعض منه كما رأينا لا يزال .
فماذا فعل محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر من الله ووحى ؟

لقد أعلن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقق عمليا انسانية الانسان ، ووحدة الانسانية ، وكرامة الانسان ، الرجل انسان ، والمرأة انسان ، والعبد انسان ، والناس كلهم سواء في هذه الانسانية ، فلا شعب أعلى من شعب ، ولا جنس أعظم من جنس .
وفي ذلك يقول صاحب كتاب « هذا الدين » :

« من العصبية القبلية بل عصبية العشيرة بل عصبية البيت ، التي كانت تسود الجزيرة ، ومن عصبية البلد ، وعصبية الوطن ، وعصبية اللون ، وعصبية الجنس ، التي كانت تسود وجه الأرض كله ..
من هذه العصبيات الصغيرة التي لم تكن البشرية تتصور غيرها في ذلك الزمان ، جاء الاسلام ليقول للناس :

ان هناك انسانية واحدة ، ترجع الى أصل واحد ، وتتجه الى اله واحد . وأن اختلاف الأجناس والألوان ، واختلاف الرقعة والمكان ، واختلاف العشائر والآباء .. كل أولئك لم يكن ليتفرق الناس ويختصموا ، ويتحوصلوا وينعزلوا ، ولكن ليتعارفوا ويتألفوا .
وتتوزع بينهم وظائف الخلافة في الأرض ، ويرجعوا بعد ذلك الى الله الذي ذراهم في الأرض واستخلفهم فيها .

وقال لهم الله سبحانه في القرآن الكريم :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير »
(الحجرات : ١٣)

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذي تساعلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » (النساء : ١) .

« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم واللوانكم ،
ان فى تلك آيات للعالمين » (الروم : ٢٢) •

ولم تكن هذه مبادئ نظرية ولكنها كانت أوضاعاً عملية •
لقد انساح الاسلام فى رقعة من الأرض فسيحة ، تكاد تضم جميع
الأجناس وجميع الألوان •• وذابت كلها فى النظام الاسلامى • ولم
تقف وراثـة لون ، ولا وراثـة جنس ، ولا وراثـة طبقة ، ولا وراثـة
بيت ، دون أن يعيش الجميع اخوانا ، ودون أن يبلغ كل فرد منهم
ما تؤهله له استعداداته الشخصية ، وما تكفله له صفة الانسان •
واستقر هذا الخط العريض فى الأرض ، بعد أن كان غريباً فيها ،
أشد الغرابة ، ومستكراً فيها كل الاستتكار — وحتى بعد انحسار
المد الاسلامى ، لم تستطع البشرية أن تنتكر له كل التكر ، ولم تعد
تستغربه كل الاستغراب •

حقيقة : انها لم تستطع أن تتمثله كما تمثلته الجماعة المسلمة ،
ولم يستقر فيها استقراره فى المجتمع الاسلامى •
وحقيقة : ان عصبية شتى صغيرة ما تزال تعيش ، عصبية
الأرض والوطن ، وعصبية الجنس والقوم ، وعصبية اللون واللسان •
وحقيقة : ان الملونين فى أمريكا وجنوب أفريقيا يؤلفون مشكلة
حاددة بارزة ، كما يؤلفون مشكلة ناعمة مستترة فى أوروبا كلها •

ولكن فكرة الانسانية الواحدة ما تزال خطأ عريضاً فى هتافات
البشرية اليوم ، وما يزال هذا الخط الذى خطه الاسلام هو أصل
التفكير البشرى — من الناحية النظرية — وما تزال تلك العصبية
الصغيرة تبزغ وتختفى ، لأنها ليست أصيلة ولا قوية •

وجاء الاسلام والكرامة الانسانية وقف على طبقات معينة ، وعلى
بيوت خاصة ، وعلى مقامات معروفة • أما الغناء — غناء الجماهير —
فهو غناء لا وزن له ولا كرامة •• غناء !!

وقال الاسلام كلمته المدوية : ان كرامة الانسان مستمدة من
انسانيته ذاتها ، لا من أى عرض آخر كالجنس ، أو اللون ، أو الطبقة ،
أو الثروة ، أو المنصب ، الى آخر هذه الأعراض العارضة الزائلة ••
والحقوق الأصيلة للانسان ، مستمدة اذن من تلك الانسانية التى ترجع
الى أصل واحد كما أسلفنا •

وقال لهم الله القرآن الكريم :

« ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (الاسراء : ٧٠) .
« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة »

(البقرة : ٣٠)

« واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين » (البقرة : ٣٤) .

« وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه »
(الجاثية : ١٣)

وعلم الناس منذئذ :

أن الانسان — بنوعه — كريم على الله ، وأن كرامته ذاتية أصيلة .
لا تتبع جنسه ، ولا لونه ، ولا بلده ، ولا قومه ، ولا عشيرته ،
ولا بيته . ولا عرضا من هذه الأعراض الزائلة الرخيصة .

انما تتبع كونه انسانا من هذا النوع الذى أفاض عليه ربه
الكريم . ولم تكن هذه المبادئ نظرية ، انما كانت واقعا عمليا ، تمثل
فى حياة الجماعة المسلمة ، وانساحت به فى أرجاء الأرض ، فعلمته
للناس ، وأقرته فى أوضاع حياتهم ، كذلك وعملت جمهور الناس . .
ذلك الغناء . . أنه كريم ، وأن له حقوقا ، هى حقوق الانسان ، وأن
له أن يحاسب حكامه وأمراءه ، وأن عليه ألا يقبل الذل والضميم
والمهانة . وعلمت الحكام والأمراء ألا تكون لهم حقوق زائدة على
حقوق الجماهير من الناس — وأنه ليس لهم أن يهينوا كرامة أحد
من ليس بحاكم أو أمير .

وكان هذا ميلادا جديدا « للانسان » ميلادا أعظم من الميلاد
الحسى .

فأى انسانية لانسان اذا لم تكن له حقوق الانسان ، وكرامة
الانسان ، واذا لم تكن تلك الحقوق متعلقة بوجوده ذاته ، وبحقيقته
التي لا تتخلف عنه فى حال من الأحوال ؟
بدأ أبو بكر رضى الله عنه عهده بقوله :

« لقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى .
وان أسأت فقومونى . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله . فان عصيته
غلاطة لى عليكم » .

وخطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال يعلم الناس حقوقهم تجاه الأمراء

« يا أيها الناس .. انى والله ما أرسل اليكم عمالا ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا من أموالكم . ولكنى أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم . فمن فعل به شيء من ذلك فليرفعه الى . فوالذى نفس عمر بيده ، لأقصنه منه .. فوثب عمرو بن العاص فقال :

« يا أمير المؤمنين .. أرايتك ان كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته ، انك لتقتص منه » ؟

قال عمر : « أى والذى نفس عمر بيده لأقصنه منه . وكيف لا أقص منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ألا لا تضربوا الناس فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتتوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم » .

وكتب عثمان رضى الله عنه كتابا الى جميع الأمصار قال فيه :

« انى آخذ عمالى بموافاتي كل موسم قد سلطت الأمة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلا يرفع على شيء ولا على أحد من عمالى الا أعطيته . وليس لى ولا لعمالى حق قبل الرعية الا متروك لهم . وقد رفع الى أهل المدينة أن أقواما يشتمون ويضربون . فمن ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم ، يأخذ حقه حيث كان منى أو من عمالى ، أو تصدقوا ، ان الله يجزى المتصدقين » .

والمهم — كما أسلفنا — أن هذه لم تكن مجرد مبادئ نظرية أو مجرد كلمات تقال .

فقد طبقت تطبيقا واقعيا ، وسرت فى أوساط الشعوب حتى اتخذت قاعدة للأوضاع العملية .

وحادثة ابن القبطى الذى سابق ابن عمرو بن العاص ، فاتح مصر وواليتها ، فسبقه فضربه ابن عمرو ، فشكا أبوه الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأقصه منه فى موسم الحج وعلى ملا من الناس .. حادثة معروفة .

وقد اعتاد الكتاب أن يقفوا فيها عند عدل عمر .. ولكن الحادثة أوسع دلالة على ذلك التيار التحررى الذى أطلقه الاسلام فى ضمائر الناس وفى حاجاتهم .

فمصر اذ ذاك بلد مفتوح . حديث عهد بالفتح الاسلامى . وهذا

القبطى لم يزل على دينه فردا من جماهير البلد المفتوحة • وعمرو
ابن العاص هو فاتح هذا الاقليم ، وأول أمير عليه من قبل الاسلام •
وحكام هذا الاقليم قبل الفتح الاسلامى هم الرومان :
أصحاب السياط التى تجلد ظهور شعوب المستعمرات ، ولعل ذلك
القبطى كان ما يزال ظهره يحمل آثار سياط الرومان •

ولكن المد التحررى الذى أطلقه الاسلام فى أنحاء الأرض ، أنسى
ذلك القبطى سياط الرومان وذلها ، وأطلقه انسانا حرا كريما ، يغضب
لأن يضرب ابن الأمير ابنه بعد اشتراكهما فى سباق • وهذه أخرى ،
ثم تحمله هذه الغضبة لكرامة ابنه الجريحة على أن يركب من مصر الى
المدينة لا طيارة ولا سيارة ولا باخرة ولا قطارا ، ولكن جملا ، يخب
به ويضع الأشهر الطوال ، كل ذلك ليشكو للخليفة •

الخليفة الذى حرره يوم الفتح تحت راية الاسلام ، والذى علمه
الكرامة بعد أن نسيها تحت وقع سياط الرومان •

وهكذا ينبغي أن نفهم ، وأن ندرك عمق المد الاسلامى التحررى •
فليست المسألة فقط أن عمر عادل ، وأن عدله لا تتناول اليه الأعناق
فى جميع الأزمان •

ولكن المسألة بعد ذلك أن عدل عمر المستمد من الاسلام ، ومنهجه
ونظامه ، انطلق فى الأرض نيارا جارفا محررا مكرما للانسان • بصفته
« الانسان » •

هذا المستوى الرفيع ، لم ترتفع اليه الانسانية قط • هذا صحيح
ولكن هذا الخط العريض الذى خطه الاسلام ، فى كرامة الانسان
وحريته وحقوقه تجاه حكامه وأمرائه ، قد ترك فى حياة البشر آثارا
لا شك فيها • وبعض هذه الآثار هو الذى يدفع بالبشرية اليوم الى
اعلان « حقوق الانسان » •

وحقيقة أن هذا الاعلان لم يأخذ طريقه الواقعى فى حياة البشرية •
وحقيقة أن « الانسان » ما يزال يلقي المهانة والاذلال والتعذيب
والحرمان فى شتى أنحاء الأرض •

وحقيقة أن بعض المذاهب تجعل مقام الانسان دون مقام الآلة ،
وتقتل حرية الانسان وكرامته وخصائصه العليا فى سبيل الانتاج ومضاعفة
الدخل ، والتفوق فى الآلة •
كل هذا صحيح •

ولكن هذا الخط ما يزال قائما في مدارك البشرية وتصوراتها ولم يعد غريبا عليها كما كان يوم جاءها الاسلام .

وهذه نماذج من توجيهات السيد الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الباب نذكرها كأمثلة على هديه في بناء جوانب انسانية الانسان :
(أ) كلکم بنو آدم و آدم خلق من تراب .. لينتهين قوم يفتخرون بأبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان .

(ب) وعن عائشة رضي الله عنها أن فتاة قالت - يعني للنبي صلى الله عليه وسلم - : ان أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته وأنا كارهة . فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم الى أبيها فجعل الأمر اليها فقالت : يا رسول الله .. انى أجزت ما صنع أبى ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس الآباء من الأمور شىء .

(ج) عن معاوية بن سويد بن مقرن قال :

لطمت مولى لنا فهربت ثم جئت قبيل الظهر فصليت خلف أبى فدعاه ودعانى ثم قال للخادم : أمثل منه . فعفا ثم قال : كنا بنى مقرن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لنا خادم الا واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أعتقوها . ففعل له : ليس لهم خادم غيرها . فقال : فليستخدموها فإذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها .

(د) وعن المعرور بن سويد قال :

رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه مثلها فسألته عن ذلك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هم اخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم عليه .

(هـ) وكان عمر رضي الله عنه يقول : أبو بكر سيدنا وأعق سيدنا

— يعنى بلالا .

وسنرى ان شاء الله في الرسالة الثالثة « الاسلام » هذه المعانى

بالتفصيل .

هذه ثمرة من ثمرات محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي
ثمرة ما كانت لتكون لولا أنه رسول الله •
ان بيئة الجزيرة العربية ما كانت لتتبع منها فكرة وحدة الانسانية
وكرامتها ، بل ما كانت لتخرج انسانا له رسالة للبشرية عامة • فكل
المقدمات ما كانت لتوحى بنتيجة من هذا النوع •
يقول العقاد :

ثم يستمع الناس الى دعوة من أعماق جزيرة العرب تتادى
بنى الانسان جميعا الى دين واحد واله واحد وحق واحد :
« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً
وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات : ١٣) •
« وما أرسلناك الا كافة للناس » (سبأ : ٢٨) •
« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (الانبياء : ١٠٧) •
ويفصل رسول الدعوة آيات الكتاب الذى أنزل اليه فيقول في
تفسير هذه الآيات :

« لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى »
ولو لم يكن من سعة المسافات بين المقدمات ، وهذه النتيجة غير هذا
الذى أجملناه لكان فيه الكفاية • لكن العجب منه يتضاعف ويتعاضم
حين تأتى النتيجة من أعماق الجزيرة العربية حيث مشتجر الأنساب
والأعراق على نحو لم يعرف له مثيل بين الأمم والعصبيات ، وبقيّة
تبقى بعد ذلك لعجب فوق ذلك العجب المتضاعف المتعاضم فان الرسول
صلى الله عليه وسلم الذى نادى بهذه المساواة بين الأصول والأمم ،
لم يكن دون أحد من أبناء الجزيرة كلها حسبا ونسبا من أبويه
الشريفيين • بل كان من شرف الأبوة فى الذؤابة التى يعترف بها
الكافرون ، وهذا الرسول هو الذى يتعلم منه الناس أنهم اذا صلحوا
واسـتـقاموا « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون »
(المؤمنون : ١٠١)

* * *

رابعا — المسئولية الفردية :

» ذهبت طالبة شابة من جامعة فرانكفورت تقول لمدير الجامعة
مستجدة ان والديها يهددانها بالطرد ، ولما سألتها عن السبب أجابت :

لأنها ستضع مولودا وقالت : انها لا تعلم اسم أو شخصية والده ، لأنه كان يرتدى قناعا حيث انها ارتكبت الفاحشة في أيام الكرنفال أو الناشنج ، وهذه الحادثة ليست الا قصة صغيرة تقع أمثالها عشرات الألوف كل سنة في بلاد الاباحية التي أحيت تقاليد الدعارة الجماعية تحت ستار التطور والتحرر . فكانت أعياد الكرنفال أو الناشنج التي تستمر ثلاثة أيام وفيها تباح كل الأعراض والحرمانات ، بل انه من المخالف لآداب التقاليد أن تسير فتاة مع صديقها هذه الليلة أو تسهر زوجة بجانب زوجها . وأيام الاباحية الثلاثة تبدأ رسميا في الدقيقة ١١ من الساعة ١١ من اليوم ١١ من الشهر ١١ من كل سنة مع تفاوت بسيط في مواعيدها بين مدينة وأخرى ، وفي أثناء هذه المهرجانات بهذه المناسبة تتعري النساء من كل شيء تقريبا وهن يختلطن بالرجال حيث تجري الدعارة الجماعية ومن دون أن يعرف كل رجل ما اسم هذه التي يرافقها ومن دون أن تعرفه هي أيضا ، لأن الجميع يحرصون على ارتداء الأقنعة ، وفلسفة الألمان في هذه الأعياد هي أن من حق البشر أن يخطئوا ، لأنهم اذا لم يخطئوا فسيرتفعون الى مستوى الآلهة ، وهذا غير معقول وأن خطاياهم ستغفر لهم حتما لأن المسيح قد دفع الثمن وطلب من أجلهم ، وهم يرددون هذه الفلسفة في صحفهم ومجالسهم وفي كل مكان » .

هذه ثمرة من ثمرات الفكرة النصرانية التي تقول :

ان الانسان خاطيء منذ ولادته ، لأن أباه آدم قد ارتكب الخطيئة . وأن المسيح عليه السلام صلب — حسب زعمهم — حتى يكفر عن البشر خطاياهم ، فهو قد تحمل خطايا البشر .

وهذه الفكرة معناها أن الانسان مسئول عن أعمال غيره ، وغيره مسئول عن أعماله ، وبين هذا وهذا تضيع المسؤولية الفردية التي يحس بها الانسان أنه مسئول عن أعماله فقط . صغيرها وكبيرها ، وليس مسئولا عن عمل غيره بتاتا .

ويترتب على الفكرة الأولى ناحيتان خطيرتان :

الأولى : أن الانسان غير طاهر القلب والنفس منذ نشأته بسبب وراثته الخطيئة وهذا يؤثر تأثيرا سيئا في نظرتة لنفسه من حيث انه كما ورث الخطيئة ولم يخطيء ، فسيعتمد على غيره في حمل خطاياهم عنه .

الثانية : أنه ما دام غيره مسئولاً عن ذنوبه ، فانه لن يبالى بهذه الذنوب . وعندئذ تملأ الخطيئة الأرض ، وادرس ما يحدث في كنائس أمريكا وبريطانيا وغيرهما بالذات تجد مقدار اللامبالاة في الخطيئة . وهذا أكثر الأديان أتباعا الآن في العالم .



توجد عند البراهمة والبوذيين والجيتيين — وهي ديانات لها أتباعها الكثر في العالم عقيدة شبيهة — من حيث سلب مسئولية الانسان الفردية — بالديانة النصرانية .

هذه العقيدة هي عقيدة تناسخ الأرواح ، وخلاصة هذه العقيدة أن الروح بعدما تفارق جسدا في هذه الدنيا تنتقل الى جسد آخر في هذه الدنيا نفسها . ولا يكون هذا الجسد الثانى أو القالب الثانى بكلمة أصح الا متفقا مع الحياة التى قد أعدها الانسان لنفسه بأعماله وأفكاره وميوله وعواطفه في حياته الأولى . فان كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه سيئة ولتأثيرها قد حدثت فيه مؤهلات واستعدادات سيئة ، فان روحه ستنتقل الى طبقة مبتذلة من طبقات الحيوانات أو النباتات ، وأما ان كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه سالحة ولتأثيرها قد حدثت فيه مؤهلات واستعدادات سالحة ، فان روحه سترتقى الى طبقة من الطبقات العليا .

هذه العقيدة مقتضاها أننى أنا الانسان الحالى ، انسان بهذا الوضع نتيجة لسلوك غيرى ، وحصيلة لسلسلة طويلة من أعمال المخلوقات قبلى ، وهذه المخلوقات السابقة على ، هي أنا ، وأنا بأعمالى الحاضرة ساكون بالتالى نباتا أو حيوانا أو انسانا . ويحس الانسان بذاته أنه منقطع الشعور النفسى بما كان .
فماذا ينتج عن هذه العقيدة ؟

١ — سينتج عن هذه العقيدة شعور لدى الانسان بأن الحيوان والنبات والانسان سواء في ميدان الوجود ، اذ الحيوان كان انسانا والنبات كان حيوانا . ويترتب على هذا ألا يجوز اىذاء النبات والحيوان والانسان ، حتى ولو آذانى الانسان ، وعندئذ فان أمة من هذا النوع تعتقد مثل هذه العقيدة معرضة للفناء والحرمان والاضمحلال ، ومثل

هذه العقيدة ليست صالحة ولذلك فإن أهلها يعيشون مشتتين بين واقعهم الذى يعملون ، وعقيدتهم التى يعتقدون .

٢ — كما ينتج عن هذه العقيدة رهبانية مميتة عمليا . اذ أن أهل هذه العقيدة يعتقدون أن الشهوة هى أصل كل فساد فى الأرض وهى التى تلوث الروح بالذنوب والآثام ، ولأجلها تنتقل الروح من قالب الى قالب وتذوق وبال أعمالها مرة بعد مرة ، فالانسان اذا أودى بها ، وقضى عليها ، ولم يشغل نفسه بمشاغل الدنيا وشواغبها ، فلروحه أن تنال الخلاص من دورة التناسخ . ويقولون :

ليست هناك سبيل أخرى للخلاص من دورة التناسخ غير هذه ، لأنه من المحال اذا انشغل الانسان بمشاغل الدنيا وشواغبها وشئونها الخلابة أن يأمن على نفسه الافتتان بالدنيا والاسترسال وراء شهواتها وملاهيها . والنتيجة اللازمة لذلك — يقولون — ان من أراد لنفسه الخلاص من دورة التناسخ فعليه أن ينعزل عن الدنيا ، ولا يسكن الا فى الغابات ، ورؤوس الجبال وكهوفها ، وأن من لم يفعل ذلك فعليه أن يئأس من الخلاص من دورة التناسخ ، ويستعد للانضمام الى طبقات الحيوانات والنباتات .

٣ — ولما كانت الفكرة الأولى والثانية غير عمليتين . فالناس نتيجة لذلك اما أن يسلكوا الطريق المرسوم للخلاص من دورة التناسخ بزعمهم فتفنى البشرية كلها لو سلكت هذا الطريق . واما انسان لن يمشى فى هذا الطريق وهو بالتالى لا يبالي لأنه ليس مسئولا عن حاضره ولا يهتمه مستقبله .

* * *

ويظهر انعدام المسؤولية الفردية عند البشرية بصورة أخرى ، كلها غير معقول :

تظهر بصورة أخذ الثأر من أى قريب للقاتل ، كما يحدث عند العرب فى الجاهلية ، وتظهر بصورة الايمان بأن الانسان غير مسئول أمام أحد عند الملحدّين الفوضويين ، وتظهر بصورة أن الانسان مسئول أمام القانون فقط فاذا استطاع أن يهرب من عين القانون فعل ما شاء .

* * *

وهناك صورة أخرى تتعدم فيها المسؤولية موجودة عند اليهود :
فاليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار ، الذي غفر له كل شيء ،
فمهما فعلوه من جرائم أو مآسى ، أو مفاسد ، أو مظالم ، فإن
خصوصيتهم هذه تجعلهم بمنجاة من عذاب الله الا بشكل بسيط
جدا جدا .

هذه صور من فرار الانسان من المسؤولية كانت يوم بعث محمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زالت . وهى كلها صور غير معقولة ،
وآثارها خطيرة على الانسان ، والحياة الانسانية كلها ، من حيث انعدام
مسئولية الانسان أو قصورها ، مما يؤدي الى انحراف فطبع في السلوك .
فماذا فعل محمد صلى الله عليه وسلم بأمر الله ووحيه :

لقد كان الاعلان الذى أعلنه الاسلام هو أن الانسان لا يتحمل
الا مسؤولية أعماله وحده ، فلا يتحمل مسؤولية جد ولا مسؤولية ذنب
أخ وعم ، الا اذا كان له علاقة في الموضوع ، وأن الجيل اللاحق
لا يتحمل أوزار الجيل السابق . وانما الانسان مسئول عن أعماله
وحده صغيرها وكبيرها أمام الله فى الآخرة ، وأمام شريعة الله فى الدنيا
فقال القرآن: « ولا تزر وازرة وزر أخرى » (فاطر : ١٨) .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول
عن رعيته » .

وخاطب القرآن الناس :

« ليس بامانيكم ولا امانى اهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به »
(النساء : ١٢٣)

فأصبح المسلم يحاسب نفسه على الصغيرة والكبيرة . حتى قال
قائل المسلمين : « كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع فى
الحرام » وأصبح الذى يقدم الانسان أو يؤخره هو عمل الانسان
حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر قريش .. اشقروا
أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا بنى عبد مناف .. لا أغنى
عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن عبد المطلب .. لا أغنى عنك من
الله شيئا ، وياصفية — عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم — لا أغنى
عنك من الله شيئا ، ويا فاطمة — بنت محمد صلى الله عليه وسلم —
سلينى ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئا » رواه البخارى
ومسلم .

وبذلك استقام سلوك الانسان ، وتحرر ضمير الانسان من التواكل والاعتماد على الآخرين ، وبذلك لم يعد الانسان غير مبال في أمر الخطيئة ، وبذلك استقلت شخصية الانسان استقلالاً تاماً ، وبذلك أصبح الخير مرجواً من الانسان ، وبذلك قضى على الخرافة ، وقامت الحقيقة محلها .

هذه الثمرة العظيمة من ثمار دعوة محمد صلى الله عليه وسلم تدل على أن محمداً رسول الله ، لأنها ثمرة ما كانت لتكون لولا الوحي ، وقد صاغ العقاد هذا الموضوع صياغة عالية نأخذ من فقراتها ما يلي :

« وللديانة الانسانية مناط واحد ، هو ضمير كل فرد من أفرادها . فما لم يكن لهذا الضمير حساب ، وعليه تبعة ، فلا ديانة لانسان ، ولا لجملة الناس . وفكرة التبعة الفردية والمسئولية الفردية بسيطة ، سهلة الفهم ، تتجدد الحاجة الى تطبيقها كل يوم ، في كل بيئة اجتماعية ، فلو كانت الفكرة تروج بمقدار بساطتها ، وسهولة فهمها ، وتتجدد الحاجة الى تطبيقها ، لما خلا المجتمع الانساني قط من مبدأ المسئولية الفردية منذ أوائل عهد الانسان بالاجتماع .

لكن الواقع أن هذه الفكرة البسيطة قد أهملت ، وظلت مهمة من عهد البداوة الى عهود الحضارة الأولى ، لأن محاسبة الفرد لم يكن لها مرجع الى سلطان واحد ، اذ كان الفرد من القبيلة يعتدى على فرد من قبيلة أخرى ويندر أن ترضى قبيلة المعتدى أن تسلمه الى قبيلة المعتدى عليه . فان لم تسلمه تضامنت في الدفاع عنه ، ووقعت الحرب بين القبيلتين ، أو تعرض كل فرد من أفراد قبيلة المعتدى لأخذ الثأر منه ، وقد يتوارثون الثأر الى الأبناء والأعقاب .

فمضى نظام القبيلة على مسئولية القبيلة كلها من جميع أفرادها ، ثم تطورت القبيلة وتآلف الشعب من جملة قبائل متعارفة على نظامها القديم فثبتت على عاداتها لصعوبة التغيير في الجماعات التي تقوم على المحافظة ، وعلى رعاية المآثرات السلفية ، وبلغ من ثبات هذه العادات أن روما التي كانت تسمى أم الشرائع ، جعلت الأب مسئولا عن الأسرة ، وأباح له التصرف في أرواحها وأموالها . وقد ناظرته في الشرق شريعة حمورابي ، فجعلت من حق الرجل الذي تقتل ابنته أن يتسلم ابنة القاتل ليقتلها كأنها لا تحسب عندهم انساناً مستقلاً بحياته .

وكانت في الهند حضارات تأخذ بمبدأ المسؤولية الفردية ، ولكنها ترجع بها الى حياة سابقة متسلسلة من حياة سابقة على مدى الأزمنة التي لا تعرف لها بداية منذ أزل الآزال ، فهو مولود بجرائره وآثامه ، وكفارة تلك الجرائم والآثام الى الأجل المقدور ، وليست تبعاته مرهونة بما يعمل بعد ميلاده . بل هي سابقة للميلاد لاحقة به آمادا بعد آماد . « كان القول الشائع أن عصيان آدم جريرة لا يسئل عنها وحده بل يسئل عنها كل ولد من ذريته » .

أما الدعوة الاسلامية فالمسؤولية الفردية فيها شيء جديد كل الجدة لم يتطور مما تقدمه ولم يكن نتيجة قط لاحدى هذه المقدمات . ومعجزة المعجزات فيها أنها قامت بالمسؤولية الفردية حيث يصدها كل عرف قائم ، ويعوقها كل نظام مصطلح عليه في المعاملات والعقوبات . قامت بها في أعماق الجزيرة العربية ، ولا قانون فيها غير قانون الثار ، ولا شريعة لها غير شريعة القبيلة ، وتعلم الناس « وأن ليس للإنسان الا ما سعى » (النجم : ٣٩) أن جيلا لا يؤخذ بجريمة أسلافه ، ولا يؤخذ خلفاؤه بجريته .

« تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسئلون عما كانوا يعملون » (البقرة : ١٣٤) « كل امرئ بما كسب رهين » (الطور : ٢١)

فمرحلة شاسعة لم يعمل فيها تاريخ البشرية كله ما عمله الاسلام وحده ، مبتدئا بغير سابقة ، بل مبتدئا على الرغم من العوائق والموانع والمناقضات . ولم تكن هذه المرحلة الشاسعة نافلة من نوافل الرأي على حواشي العقيدة ، ولكنها هي الفتح الأكبر من فتوح الضمير في جميع مراحل التاريخ . اذ لا قوام للخلق ولا للدين بغير التبعة ، ولا معنى بغير التبعة لتكليف ولا حساب .



خامسا - المعدل :

ثمرة خامسة من ثمار محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نتحدث عنها في هذه الفقرة . تشهد أنه رسول الله ، ولولا ذلك ما كانت ولا غيرها هذه الثمرة ، هي المعدل الذي ما عرف تاريخ العالم له

مثيلاً وسنختار حوادث من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة الذين رباهم • نرى فيها كيف ارتفعت النفس البشرية بمحمد صلى الله عليه وسلم وبهديه الى آفاق هي أعلى ما يطمح اليه الطامحون على مدى الأزمان والأجيال • ونرى بذلك كيف أن القرآن كان واقعاً حياً متمثلاً بهذا الجيل الفريد ، وكيف أن القرآن يرفع الانسان الى أعلى آفاق الانسانية وغيره يدنيه نحو حضيض الحيوانية •

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، أن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » (النساء : ١٣٥) •

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى • واتقوا الله ، أن الله خبير بما تعملون » (المائدة : ٨) •

« وإذا حكمتكم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (النساء : ٥٨) •

١ — أخرج ابن ماجه عن أبي سعيد رضى الله عنه قال : جاء أعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم يتقاضاه ديناً كان عليه فاشتد عليه حتى قال : أخرج عليك الا قضيتنى • فانتهره أصحابه فقالوا : ويحك • • • تدرى من تكلم ؟ قال : انى أطلب حقى • فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هلا مع صاحب الحق كنتم ؟ ثم أرسل الى خولة بنت قيس فقال لها : ان كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمر فنقضيك • فقالت : نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله • فاقترضه فقضى الأعرابي وأطعمه ، فقال : أوفيت • • • أوفى الله لك • فقال : « أولئك خيار الناس انه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع » •

أى من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه • والحديث رواه البزار عن عائشة مختصراً والطبرانى من حديث ابن مسعود رضى الله عنه بإسناد جيد •

٢ — وأخرج البخارى عن عروة أن امرأة سرقَت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الفتح ففرع قومها الى أسامة بن زيد (٢٦ — الرسول)

رضى الله عنه يستشفعونہ • قال عروة : فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أتكلمنى فى حد من حدود الله • فقال أسامة : استغفر لى يا رسول الله •

فلما كان العشى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال :

« أما بعد •• فانما هلك الناس أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » •

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك المرأة فقطعت يدها فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت • قالت عائشة رضى الله عنها : كانت تأتى بعد ذلك فأرفع حاجتها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم •

٣ — أخرج البيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن أبا بكر الصديق — رضى الله عنهم — قام يوم الجمعة فقال :

اذا كان بالغداة فأحضروا صدقات الابل نقسم ولا يدخل علينا أحد الا باذن • فقالت امرأة لزوجها :

خذ هذا الخطام لعل الله يرزقنا جملاً ، فأتى الرجل فوجد أبا بكر وعمر قد دخلا الى الابل فدخلا معها فالتفت أبو بكر فقال : ما أدخلك علينا ؟

ثم أخذ منه الخطام فضربه ، فلما فرغ أبو بكر من قسم الابل دعا بالرجل فأعطاه الخطام وقال : استقد — أى اقتص منى كما ضربتك فاضربنى — فقال له عمر : والله لا يستقيد •• لا تجعلها سنة • قال أبو بكر : فمن لى من الله يوم القيامة ؟ فقال عمر : ارضه • فأمر أبو بكر غلامه أن يأتية براحلة ورحلها وقطيفة — أى كساء له خمل — وخمسة دنانير فأرضاه بها •

٤ — كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد وكل بتقدير حصّة المسلمين فى خير عبد الله بن رواحة ، وكان أهلها يهودا وفى ذلك يروى البيهقي عن ابن عمر رضى الله عنه حديثاً منه :

كان عبد الله بن رواحة رضى الله عنه يأتهم كل عام فيخرصها — أى يخمنها — عليهم ثم يضمنهم الشطر فشكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة خرصه وأرادوا أن يرشوه فقال :

يا أعداء الله •• تطعمونى السحت — أى الحرام — والله لقد

جئتم من عند أحب الناس الى ولأنتم أبغض الى من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملن بغضى اياكم وحبى اياه على أن لا أعدك عليكم • فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض •

٥ — أخرج ابن عساكر وسعيد بن منصور والبيهقي عن الشعبي قال : كان بين عمر وبين أبي بن كعب رضى الله عنهما شيء فقال عمر : « اجعل بينى وبينك رجلا ، فجعل بينهما زيد بن ثابت رضى الله عنه ، فأتياه فقال عمر :

أتيناك لتحكم بيننا وفي بيته يؤتى الحكم • فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال : هاهنا يا أمير المؤمنين • • فقال له عمر : هذا أول جور جرت في حكمك ، ولكن أجلس مع خصمى ، فجلسا بين يديه فادعى أبى وأنكر عمر فقال زيد لأبى : أعف أمير المؤمنين من اليمين وما كنت لأسألك لأحد غيره فحلف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض المسلمين عنده سواء •

٦ — وأخرج ابن سعد وابن راهويه عن عطاء قال : كان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يأمر عماله أن يوافوه بالمواسم فاذا اجتمعوا قال : « يا أيها الناس • • انى لم أبعث عمالى عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم ، انما بعثتهم ليحجزوا بينكم وليقسموا هيئكم فمن فعل به غير ذلك فليقم » فما قام أحد الا رجل قام فقال : يا أمير المؤمنين • • ان عاملك فلانا ضربنى مائة سوط • قال : خيم ضربته ؟ قم فاقتص منه ، فقام عمرو بن العاص رضى الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين • • انك ان فعلت هذا يكثر عليك وتكون سنة يأخذ بها من بعدك • فقال : كيف لا أقيد وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه • قال : فدعنا لنرضيه •

قال : دونكم فأرضوه • • فاقتدى منه بمائتى دينار كل سوط بدينارين •

٧ — وأخرج ابن عساكر قال :

كتب عمر بن الخطاب الى فيروز الديلمى رضى الله عنهما : « أما بعد • • فقد بلغنى أنه قد شغلك أكل اللباب بالعسل فاذا أتاك كتابى هذا فاقدم على بركة الله فاغز فى سبيل الله » فقدم فيروز فاستأذن على عمر رضى الله عنهما فأذن له فزاحمه فتى من قریش

فرفع فيروز يده فلطم أنف القرشى فدخل القرشى على عمر مستدماً
فقال له عمر : من فعل بك ؟

قال : فيروز .. وهو على الباب •

فأذن لفيزوز بالدخول فدخل فقال : ما هذا يا فيروز ؟

قال : يا أمير المؤمنين .. انا كنا حديثي عهد بملك ، انك كتبت
الى ولم تكتب اليه وأذنت لى بالدخول ولم تأذن اليه فأراد أن يدخل
في اذنى قبلى فكان منى ما قد أخبرك •

قال عمر : القصاص •

قال فيروز : لا بد ؟

قال : لا بد •

فجثى فيروز على ركبتيه وقام الفتى ليقص منه فقال له عمر
رضى الله عنه : على رسلك أيها الفتى حتى أخبرك بشيء سمعته من
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم ذات غداة وهو يقول : قتل الليلة الأسود العنسى الكذاب قتله
العبد الصالح فيروز الديلمي • أفتراك مقتصاً منه بعد أن سمعت هذا
من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال الفتى : قد عفوت عنه بعد
أن أخبرتني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا • فقال فيروز
لعمر : أفترى هذا مخرجى مما صنعت اقرارى له وعفوه غير مستكره ؟
قال : نعم • قال فيروز : فأشهدك أن سيفى وفرسى وثلاثين ألف من
مالى هبة له •

٨ — وأخرج الطبرى عن اياس بن سلمة عن أبيه قال : « مر عمر
ابن الخطاب فى السوق ومعه الدرة فخفقتنى بها خفقة فأصاب طرف
ثوبى فقال : أمط عن الطريق • فلما كان فى العام المقبل لقينى فأخذ
بيدى فانطلق بى الى منزله فأعطانى ست مائة درهم وقال : استعن
بها على حجك واعلم أنها بالخفقة التى خفقتك • قلت : يا أمير المؤمنين ..
ما ذكرتها •

قال : ما نسيتها •

٩ — أخرج المحب الطبرى فى مناقب العشرة قال :

كان لعثمان عبد فقال له : انى كنت عركت أذنك فاقصص منى

فأخذ بأذنه ثم قال عثمان : اشدد .. يا حبذا قصاص في الدنيا لا قصاص في الآخرة .

١٠ — وأخرج ابن عساكر عن علي بن ربيعة قال : جاء جمعة ابن هبيرة الى علي رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين .. يأتيك انرجلان أنت أحب الى أحدهما من نفسه — أو قال : من أهله وماله — والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك ، فتقضى لهذا علي هذا . قال : فلهذه علي رضي الله عنه وقال : ان هذا شيء لو كان لي فعلت ولكن إنما ذا شيء لله .

١١ — وأخرج الترمذي والحاكم عن الشعبي قال : خرج علي ابن أبي طالب الى السوق فاذا هو بنصراني يبيع أدراعا فعرف علي رضي الله عنه الدرع فقال : هذه درعي .. بيني وبينك قاضي المسلمين . وكان قاضي المسلمين شريحا — كان علي استقصاه — فلما رأى شريح أمير المؤمنين قام من مجلس قضائه وأجلس عليا في مجلسه وجلس شريح قدماه الى جنب النصراني فقال علي :

اقض بيني وبينه يا شريح . فقال شريح :

ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ فقال علي : هذه درعي وقعت مني منذ زمان . فقال شريح : ما تقول يا نصراني ؟

فقال النصراني : ما أكذب أمير المؤمنين .. الدرع درعي .

فقال شريح : ما أرى أن تخرج من يده ، فهل من بينة ؟

فقال علي : صدق شريح .

فقال النصراني : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء . أمير المؤمنين يجيء الى قاضيه ، وقاضيه يقضيه علي ؟ .. هي والله يا أمير المؤمنين درعك اتبعك وقد زالت عن جملك الأورق فأخذتها فاني أشهد أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله . فقال علي :

أما اذ أسلمت فهي لك — وحمله علي فرس — .

١٢ — وأخرج أبو نعيم في « الحلية » عن الحارث بن سويد قال : كان المقداد بن الأسود رضي الله عنه في سرية فحصرهم فعزم الأمير أن لا يجسر أحد دابته — أي لا يخرجها للمرعى — فجسر رجل دابته لم تبلغه العزيمة فضربه فرجع الرجل يقول : ما رأيت كما لقيت اليوم قط . فمر المقداد فقال : ما شأنك . فذكر له قصته

فتقلد السيف وانطلق معه حتى انتهى الى الأمير فقال : أقد من نفسك •
فأقاده فعفا الرجل فرجع المقداد وهو يقول : « لأموتن والاسلام
عزيز » •



ان هذا العدل الذى رأينا بعض نماذجه فيما مضى ، انما كان
وليد دعوة السيد الرسول صلى الله عليه وسلم والا فان العرب قبل
كان شعارهم : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » وان الانسان ليعجب
كيف، تمثل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا العدل بهذه
السرعة ، وبهذا العمق ، بحيث أنهم غلبوا أمما ، وسيطروا عليها •
فساسوها سياسة عادلة لا مثيل لها ، مما أدى بهذه الشعوب أن تدخل
في الاسلام أفواجا بمجرد أن رأوا معاملة هؤلاء الفاتحين الذين
لا يغلبون ، العادلين الذين لا يجورون •

وعلى الرغم من تضائل جيل الصحابة بالنسبة لرقعة الأرض
المفتوحة ، فان قوة الحياة التى صبقتها تربية الرسول صلى الله عليه
وسلم فى قلوب الأصحاب ، كانت كافية لأن تجعل الأمور تمشى فى
طريقها المستقيم •

وحتى بعد ذلك ، والى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فان قضية
الاسلام المتحقيقين بالاسلام علما وعملا • هم الذين يضربون أبدا المثل
الأعلى فى العدل الربانى العظيم ، الذى يتضاعل بجانبه كل قضاء •
وأنقل هنا مثلين لقاض من قضية الدولة العباسية • هو شريك
ابن عبد الله قاضى الكوفة فى زمن الخليفة المهدي • لنرى فيهما نزاهة
القضاء الاسلامى وعبدله •

١ — قال عمر بن الهياج : كنت من صحابة شريك ، فأتيته يوما
وهو فى منزله باكرا فخرج الى بغرو ليس تحته قميص عليه كساء ،
فقلت له : ألا تقوم الى مجلس الحكم ؟

قال : غسلت ثيابى أمس فلم تجف فأنا أنتظر جفوفها ، اجلس •
فجلست فجعلنا نتذاكر باب « العبد يتزوج بغير إذن مواليه » فقال :
ما تحفظ فيه ؟ ما تقول فيه ؟

وكانت الخيزران قد وجهت رجلا فى الطراز الى الكوفة وجاء الوالى
عيسى بن موسى الأمر بالألا يتعرض له ، فكان هذا الرجل حر التصرف
لا يعصى له أمر ، ولا سلطان للأمير عليه •

فخرج علينا ذلك اليوم من زقاق يفضى الى النخع ، ومعه جماعة من أصحابه • عليه جبة خز وطيلسان على برذون فاره ، واذا رجل بين يديه مكتوف فلما مر بييت القاضى صاح الرجل :

واغوثة • • أنا بالله ثم بالقاضى • ففتح شريك الباب وخرج ، فدعا به فاذا ظهره مكشوف وآثار الضرب فيه ، فأقعدته الى جنبه وقال له : ما شأنك ؟ قال : أنا رجل أطرز وأعمل الوشى ، هذه صناعتى ، وكراء مثلى مئة فى الشهر • وأخذنى هذا منذ أربعة أشهر قسرا ، وحبسنى وألزمنى بالعمل بقوتى ، ولا يعطينى أجرا ولى عيال قد ضاعوا ، فهربت منه فلحقنى فضربنى وكثفنى • فقال شريك للوكيل : قم فاجلس مع خصمك •

قال : أصلحك الله يا أبا عبد الله • • هذا من خدم السيدة ، وهذا أمرها فاحبسه حتى يشتغل لها • قال : ويلك • • قم فاجلس معه كما يقال لك • فقام فجلس معه • قال :

ما هذه الآثار التى تظهر بظهر هذا الرجل ؟ من أثرها به ؟ قال : أصلح الله القاضى • • انما ضربته أسواط بيدي وهو يستحق أكثر من هذا لأنه لم يشتغل للسيدة • احبسه حتى يشتغل ، هذا أمر السيدة • فألقى شريك رداءه وقام فدخل داره ، وأخرج سوطا وضرب بيده على مجامع ثوب الوكيل وقال للرجل :

اذهب الى أهلك • • وجعل يضرب الوكيل • فهم أعوانه أن يخلصوه فقال : من هاهنا من شباب الحى ؟ فجاءه جماعة فقال :

من وقف من هؤلاء فاذهبوا به الى الحبس ، فهربوا جميعا وتركوه ، وما زال يضربه حتى رأى أن ذلك يكفيه ، فتركه فانصرف وهو يهدده بانتقام السيدة ، فألقى السوط من يده ، وعاد الى ما كنا فيه من المذاكرة كأنه لم يصنع شيئا وقال لى :

يا أبا حفص • • ما تقول فى العبد يتزوج بغير إذن مواليه ؟

وأراد الوكيل أن يركب برذونه فاستعصى عليه ، ولم يكن معه من يمسك له الركاب فجعل يضرب البرذون فصاح به شريك :

أرفق به • • ويلك ، فانه أطوع لله منك ، فمضى ماشيا ، فقال لى شريك : خذ فيما كنا فيه ، قلت : ما لنا ولهذا الآن ؟ قد فعلت والله فعلة ستكون لها عاقبة مكروهة • من ضرب وكيل الخيزران فكأنه ضربها ، ومن ضربها فكأنما ضرب الخليفة • قال : أعز أمر الله يعزك •

خذ فيما كنا فيه • فعدنا نتذاكر في مسألة الغبد يتزوج بغير إذن مواليه •
وذهب الوكيل الى موسى بن عيسى أمير الكوفة فدخل عليه شاكيا
بأكيا ، وكشف عن ظهره فارتاع الوالى وغضب وقال : من فعل بك هذا ؟
قال : شريك •

قال : لا والله ما أتعرض لشريك •

قال : سأشكوك الى السيدة •

قال : لا أتعرض لشريك • فمضى الوكيل ولم يعد •

٢ — وكان موسى بن عيسى أمير الكوفة من كبار أمراء البيت
العباسي ، وكان له سلطان الامارة وسلطان النسب ، وكان مع ذلك كله
يتجنب أن يكون بينه وبين القاضي خلاف ، ويبتعد عن طريقه ولا يعارضه
في شيء • ولم ينج مع هذا كله من الخلاف ، ولم يختلفا لأن الأمير
عرض له في قضائه بين الناس ، ولا لأنه دخل مؤيدا لمدع أو مدعى
عليه ، بل اختلفا من أجل دعوى أقيمت على الأمير نفسه ، وسبب
الدعوى أن الأمير أراد أن يوسع داره ، وكان الى جنبها بستان نخل
لاخوة ورثوه من أبيهم ، وكانوا خمسة اخوة وأختا واحدة ، فاشتري
منهم جميعا الا الأخت ، فانها أبت أن تبيع فزادها في الثمن وضاعفه
لها أضعافا ، وهي تصر على الالباء • فغاضه أن يفسد عليه أمره حمق
هذه المرأة ، وأراد أن يضطرها الى البيع وكان بينها وبين حصص
اخوتها التي باعوها سياج ، فبعث غلمانها ليلا فأزالوه •

وأصبحت المرأة فرأت نخلها قد اختلط بنخل اخوتها ولم تعد تعرف
أرضها من الأرض التي باعوها للأمير • فأقبلت تبكي وتلطم ، ولا تدري
ماذا تفعل ، وذهبت تكلم الأمير فلم يسمع منها وقال لها :

خذي ثمن الأرض أضعافا •

فقالت : لا أبيعها • • وانطلقت تتوسل اليه بوجوه البلد ، فما
وجدت منهم مسعفا ولا معينا فقال لها واحد من جيرانها :

أنا أدلك على من يخلص لك حقك • فاستبشرت وابتهجت وقالت :
ومن هو ؟ قال : القاضي • اذهبي اليه فنادى : أنا بالله ثم بالقاضي ،
وقصى عليه قصتك •

فذهبت تسأل الناس : أين قصر القاضي ؟ فيضحكون منها ويقولون

لها : ومتى كان للقاضي قصر ؟ اطلبه في المسجد أو في داره ، ودلوها على داره فرأت دارا صغيرة من اللبن والطين ، ما على بابها حرس ، وليس حولها جند . فقالت في نفسها : أين هذا من قصر الأمير ؟ وهمت بالرجوع ، ثم أحبت أن تجرب . فقرعت الباب تسأل عنه ، فقالت لها امرأته : هو في مجلس الحكم في المسجد ، فدخلت الى المسجد تسأل عنه فدلوها عليه ، فصاحب : أنا بالله ثم بالقاضي . قال : من ظلمك ؟

قالت : الأمير . . . موسى بن عيسى .

قال : فيم . . . وما دعواك ؟ فحككت له قصتها ، فأعطاه ورقة بعد أن ختمها وقال لها : امضي بها الى بابه حتى يحضر معك . فلما أرادت الدخول على الأمير صاح بها الحاجب : مكانك يا امرأة ماذا تريدين ؟

قالت : الأمير .

فأراد أرجاعها فقالت :

ان معي هذه ، قال : وما هذه يا امرأة ؟ قالت : بطاقة القاضي للأمير فوثب وقال : تقولين انها بطاقة القاضي ، هاتيها لأراها . فلما رآها قال : ويحك . . . ولم لم تقولي من أول الأمر ان معك بطاقة القاضي ؟ ادخلي . فلما قرأها الأمير أمر بدعوة صاحب الشرطة فلما جاءه قال :

امض الى شريك فقل له : يا سبحان الله . . . ما رأيت أعجب من أمرك ؟ امرأة ادعت دعوى لم تصح أعديتها على ، فحاول صاحب الشرطة أن يعتذر عن هذه المهمة ، فأصر الأمير فأرسل صاحب الشرطة من يأخذ له أغراضه الى السجن ولما أوصل الرسالة أمر به شريك الى السجن لأنه يتدخل في شأن القضاء ، فأرسل الأمير الحاجب فسجنه شريك أيضا ، فأرسل اليه الأمير وجوه الكوفة للوساطة فسجنهم جميعا ، فجاء الأمير ليلا ففتح باب السجن وأخرجهم جميعا ، ولما بلغ من الغد الأمر الى شريك قال لعلامه :

الحقنى بثقلى الى بغداد ، والله ما طلبنا هذا منهم ، ولكن أكرهونا عليه وقد ضمنوا لنا الاعزاز فيه اذا تقلدناه لهم ، وركب دابته ومضى نحو قنطرة الكوفة في طريقه الى بغداد ، وأخبر الناس الأمير فلحقه وجعل يمشى معه ويقول له :

يا أبا عبد الله .. تثبت ، أنظر ، دع أعوانى ، أفتحبس اخوانك ؟
فخوانك تحبسهم ؟ قال : نعم . لأنهم مشوا لك فى أمر لم يجز لهم المشى
فيه ، ولست براجع حتى يردوا جميعا الى الحبس ، والا مضيت
الى أمير المؤمنين فاستعفيته مما قلدنى . فأمر موسى بردهم جميعا
الى الحبس وهو واقف مكانه ، حتى جاءه السجنان فقال : قد رجعوا
الى الحبس . فقال القاضى لغلामه : خذ بلجامه فقلده الى مجلس
الحكم ، ونودى على المرأة فجاءت فأجلسها معه ، فقال الأمير : أنا
قد حضرت أفلا تطلق من حبستهم ، قال : أما الآن فنعم ، وأمر باخراجهم
من السجن وقال للأمير :

ما تقول يا رجل فيما تدعيه هذه المرأة ؟

قال : صدقت .

قال : أتعيد سياجها وترد ما أخذته منها ؟

قال : نعم .

قال للمرأة : بقى لك شئ تدعيه ؟

قالت : نعم . بيت حارس البستان ومتاعه .

قال : ما تقول ؟

قال : أرد ذلك كله .

قال : بقى لك شئ ؟

قالت : لا ، وجزاك الله خيرا .

قال : قومى . ووثب فأخذ بيد موسى وأجلسه فى مجلسه وقال

له : السلام أيها الأمير .. أتاأمر بشئ ؟ فضحك وقال : بأى شئ

أمر ؟ قال : ذاك حق الشرع وهذا حق الأدب .

* * *

عدل لا مثيل له ، ذلك ثمرة من ثمار محمد صلى الله عليه وسلم

تدل على أنها ثمرة نبى ، اذ ليس لها مصدر سواه تنسب اليه فى

أمة لم تهذبها ثقافة سابقة ، ولا تجربة قضائية مستمدة ، ولا رقابة

اجتماعية متعارف عليها .

* * *

سادسا — الطاعة المبصرة :

وثمره سادسة من ثمار سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم تشهد أنها ثمرة نبي ونبوة ، هي الطاعة المبصرة ، وذلك أن العرب شعب لم يترب على طاعة أحد ، ولم يترب على نظام ولا انضباط ، وليس لديه مفهوم عن الولاء لحكومة ما ، أو الخضوع لها ، وأما غير العرب فالأمر عندهم مختلف ، طاعة عمياء للوكهم ، ومرؤوسيه في كل شيء . إذا أمروا بالشئ كان خيرا ، وإذا نهوا عنه نفسه كان شرا ، لا يقال لهم لا ، ولا يحاسبون ولا يراقبون .

وحدث ذلك الحدث الضخم ، أن الأمة التي لا تعرف النظام ، أصبحت منظمة ، والتي لا تعرف الطاعة أصبحت مطيعة ، ولكنها طاعة من نوع جديد فريد ، طاعة بالحق لا بالباطل ، بالعدل لا بالظلم لمن يستحق الطاعة لا لمن لا يستحقها ، فكان لك فتحا جديدا في تاريخ الوعي عند الشعوب ، لدرجة أن العربي الذي كان يتعصب لقريبه وينصره وان كان على الباطل ، ولا يطيع فيه أحدا أبدا صار على ابن عمه إذا كان على الباطل ، ويطيع فيه أبعد الناس نسبا عنه في الحق ، والذي كان أبعد الناس عن الانضباط ، صار أكثر الناس انضباطا ، ومن قرأ تاريخ العرب في الجاهلية ، عرف الفارق الكبير بين ذلك الواقع وواقعهم بعد . وهذه أمثلة من واقعهم بعد تربية الرسول صلى الله عليه وسلم إياهم :

(أ) روى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عبد الله بن أبي : ألا ترى ما يقول أبوك ؟ قال : ما يقول بأبي أنت وأمي ؟ قال : يقول : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فقال : فقد صدق والله يا رسول الله . أنت والله الأعز وهو الأذل . أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر بأبيه مني ، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتيتهما به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا . فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبي على بابها بالسيف لأبيه ثم قال :

« أنت القائل : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ أما والله لتعرفن العزة لك ، أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لا يأويك ظله ولا تأويه أبدا إلا باذن من الله ورسوله » .

فقال : يا للخزرج .. ابني يمنعني بيتي !

فقال : والله لا يأويه أبدا الا باذن منه . فاجتمع اليه رجال فكلموه فقال : والله لا يدخله الا باذن من الله ورسوله . فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال : اذهبوا اليه فقولوا له : خله وسكنه . فأتوه فقال : أما اذ جاء أمر النبي صلى الله عليه وسلم فنعم .

(ب) ومن كلام لسعد بن معاذ يوم بدر يخاطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« انى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم .. فأظن حيث شئت ، وصل جبل من شئت ، واقطع جبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك » .

(ج) ويروى كعب بن مالك قصته مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فيقول فيها :

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال :

« فاجتتبنا الناس — أو قال : تغيروا لنا — حتى تنكرت لى نفس الأرض فما هى الأرض التى أعرف . الى أن قال : حتى اذا طال على من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار أبى قتادة ، وهو ابن عمى وأحب الناس الى ، فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام فقلت له :

يا أبا قتادة .. أنشدك بالله ، هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت فعدت فنأشدته فسكت ، فعدت فنأشدته فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار » .

ويقول : بينما أنا أمشى فى سوق المدينة اذا نبطى من نبط اهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول :

« من يدلنى على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى جاغنى ، فدفع الى كتابا من ملك غسان ، وكنت كاتباً فقرأته فاذا فيه : أما بعد .. فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جافاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضية فالحق بنا أواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه

أيضا من البلاء فتيمنت بها التتور ، فسجرتها « حتى نزلت توبته
وكان ما كان •

(د) وللعرب ولع في الخمر تتحدث عن معاقرتها والاجتماع على
شربها الشعراء ، وشغلت جانبا كبيرا من شعرهم وتاريخهم وأدبهم ،
وكثرت أسماؤها وصفاتها في لغتهم ، وكثر فيها التدقيق والتفصيل
كثرة تدعو الى العجب ، وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائما يرفرف
عليها علم يسمى غاية ، وشاعت تجارتها عندهم حتى أصبحت كلمة
التجارة مرادفة لكلمة بيع الخمر ، ومع هذا كله فما يكاد تحريم الخمر
ينزل حتى انتهى أمر الخمر من أرض العرب • روى أبو بريدة عن
أبيه قال :

بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة ، اذ قمت
حتى أتى رسول الله فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر : « يا أيها الذين
آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان »
(المائدة : ٩٠) الى قوله تعالى : « فهل أنتم متهون » (٩١) فجئت الى
أصحابي فقرأتها عليهم الى قوله تعالى : « فهل أنتم متهون » ••
قال : وبعض القوم شربته في يده ، شرب بعضا وبقي بعض في الاناء
فقال بالاناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا في باطيتهم
فقالوا : انتهينا ربنا •• انتهينا •

(هـ) ولقد تأصل فقه الطاعة في المعروف عند العرب وغيرهم
من المسلمين حتى وصل الى عجائز الناس :

أخرج مالك عن ابن أبي مليكة قال : ان عمر بن الخطاب رضى
الله عنه بر بامرأة مجذومة وهى تطوف بالبيت فقال لها : « يا أمة
الله •• لا تؤذى الناس • لو جلست في بيتك • فجلست • فمر بها
رجل بعد ذلك فقال : ان الذى كان نهارك قد مات فارجعى • قالت :
ما كنت لأطيعه حيا وأعصيه ميتا •

(و) وتأصل فقه الطاعة بالمعروف في أنفسهم ظاهرا وباطنا في
الغيبة والحضور في المنشط والمكره :

لما عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد غضب ناس ، وممن
غضب علقمة بن علاثة وهو من أمراء العرب فانظر ماذا كان جوابه
في هذه الحادثة اللطيفة :

« لقي عمر رضى الله عنه علقمة بن علاثة جوف الليل وكان عمر

يشبه بخالد بن الوليد رضى الله عنه • فقال له علقمة : يا خالد • عزلك هذا الرجل ، لقد أبى اد شحا ، لقد جئت اليه وابن عم لى نسأله شيئا فأما اذ فعل فلن أسأله شيئا • فقال له عمر : هيه فما عندك ؟ فقال : هم قوم لهم علينا حق فنؤدى لهم حقهم وأجرنا على الله • فلما أصبحوا قال عمر لخالد : ماذا قال لك علقمة منذ الليلة ؟ قال : والله ما قال لى شيئا • قال : وتحلف أيضا • فجعل علقمة يقول لخالد : مه يا خالد • فقال عمر : كلاهما قد صدق ، وأجاز علقمة وقضى له حاجته •

(ز) ولكن طاعتهم طاعة ضمن حدود المعروف أما أن تكون على غير ذلك فلا :

أخرج الشيخان عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : استعمل النبى صلى الله عليه وسلم رجلا من الأنصار على سرية بعثهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا • قال : فأغضبوه فى شيء فقال :

اجمعوا لى خطبا ، فجمعوا فقال : أوقدوا نارا ، فأوقدوا ثم قال : ألم يأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسمعوا لى وتطيعوا ؟ قالوا : بلى • قال : فادخلوها • قال : فنظر بعضهم الى بعض وقالوا : انما قررنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار • قال : فسكن غضبه وطفئت النار فلما قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم ذكروا ذلك له فقال : « لو دخلوها ما خرجوا منها ، انما الطاعة فى المعروف » •

وكان الصحابة يتذكرون هذا الأصل ويتواصون به حتى لا ينحرفوا بانحراف سلطان أو حكم :

لما ولى زياد الحكم بن عمر الغفارى خراسان أرسل عمران ابن الحصين رضى الله عنهما يطلبه حتى اذا لقيه قال : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا طاعة لأحد فى معصية الله تبارك وتعالى ؟ قال : نعم • فقال عمران : الحمد لله — أو الله أكبر •

(ح) وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد على سرية ومعه فى السرية عمار بن ياسر رضى الله عنهما قال : فخرجوا حتى اذا أتوا قريبا من القوم الذين يريدون أن يصبحوهم نزلوا فى بعض الليل قال :

وجاء القوم النذير فهربوا حيث بلغوا ، فأقام رجل كان قد أسلم هو وأهل بيته فأمر أهله فتحملوا وقال : قفوا حتى آتيكم ، ثم جاء حتى دخل على عمار رضى الله عنه قال :

يا أبا اليقظان .. انى قد أسلمت وأهل بيتى فهل ذلك نافعى ان أنا أقسمت • فان قومى قد هربوا حيث سمعوا بكم ، قال : فقال له عمار : فأقم فأنت آمن •

فانصرف الرجل هو وأهله ، قال : فصبح خالد القوم فوجدهم قد ذهبوا فأخذ الرجل وأهله فقال له عمار : انه لا سبيل لك على الرجل .. قد أسلم •

قال : وما أنت وذاك ؟ أتجير على وأنا الأمير ؟

قال : نعم ، أجير عليك وأنت الأمير • ان الرجل قد آمن ولو شاء لذهب كما ذهب أصحابه ، فأمرته بالمقام لاسلامه • فتنازعا فى ذلك حتى تشاتما فلما قدما المدينة اجتمعا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر عمار الرجل وما صنع فأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم أمان عمار ونهى يومئذ أن يجير أحد على الأمير ، فتشاتما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال خالد :

يا رسول الله .. أيشتمنى هذا العبد عندك ، أما والله لولاك ما شتمنى • فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم :

كف يا خالد عن عمار فانه من ييغض عمار ييغضه الله عز وجل ومن يلعن عمارا يلعنه الله عز وجل • ثم قام عمار واتبعه خالد بن الوليد حتى أخذ بثوبه فلم يزل يترضاه حتى رضى عنه ، ونزلت هذه الآية :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم(١) ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول » (النساء : ٥٩)
فيكون الله ورسوله هو الذى يحكم فيه •
« ذلك خير وأحسن تأويلا »(٢) (النساء : ٥٩) •

* * *

والمسألة فى هذا الموضوع كما يلى :

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم علم الانسان أن الله وحده

(١) أمراء السرايا •

(٢) خير عاقبة •

هو الذى يستحق الطاعة وحتى الرسول صلى الله عليه وسلم انما يطاع لله ، وغير رسول الله انما يطاع بطاعة الله « من يطع الرسول فقد اطاع الله » (النساء : ٨٠) « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (١) أى من المسلمين ، أما غير المسلم فلا طاعة له ، والمسلم طاعته فى حدود كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لذلك ختمت الآية : « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » (٢) وعلى هذا فمن أمر بمعصية الله فلا طاعة له ، وبهذا تماسكت شخصية الانسان تماسكا لا مثيل له ، فصار المسلم يقول : لا ، اذا كان ينبغى أن يقال مهما كان وراءها ، لا يبالى ان كان الناس كلهم عليه فى الباطل ، لا يساير الناس ولا يداريهم على حساب الحق . أما فى الحق فهو أكثر الناس طاعة وانضباطا اذ فى هذه الحالة جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر الله طاعة الأمير فرضا ، وفى الباطل معصيته مريضة : قال أبو جعفر المنصور الخليفة لطاووس : ناولنى الدواة . فرفض . قال : أخشى أن تكتب فيها معصية فأكون شريك فيها . فما أبلغ هذا فى ثمار النبوة وما أدله عليها ألا يطيع الانسان غير الله .

* * *

سابقا — أجيال خيرة جريئة بالحق :

وثمره أخرى من ثمار محمد صلى الله عليه وسلم تشهد أنه رسول الله :

ما هو الخير وما هو الشر ؟ وما هو المعروف وما هو المنكر ؟ واذا عرفنا الخير والشر والمعروف والمنكر ، فما هى أجزاء هذا وهذا ، وأفراد هذا وهذا ؟ واذا عرفنا الجميع فكيف نقتلع جذور الشر ونقضى عليه ، ونمكن للخير وندعمه ؟ وكيف نوجد بشرا ليس للشر فى قلوبهم نصيب ، وقد نذروا للخير أنفسهم ، همهم الأعلى اقامة بنيانه وارساء حقائقه ؟ هذه قضايا يعجز عن كل واحد منها الكثير ، ولا يجمع بينها أحد ولكن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بفترة بسيطة من الزمن عرف الانسان بالخير كله والشر كله وربى جيلا يعشق الخير ،

ويبغض الشر ويتفانى من أجل أن تقوم الحياة البشرية على الخير
المشرق المنير • فخرجت نماذج ما عرف العالم بعد الرسل عليهم
الصلاة والسلام أقوى منها ، ولا أصلب في هذا الأمر •

* * *

اقرأ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم واقرأ القرآن والحديث
فانك لا تجد خيرا الا ذكر ، ولا شرا الا ذكر ، ولا تجد شيئا قال عنه
رسول الله صلى الله عليه وسلم انه خير تستطيع أن تحكم عليه غير
ذلك الا اذا جانبك العقل ولم تخضع لحجة ، ولا تجد شيئا قال عنه
رسول الله صلى الله عليه وسلم انه شر تستطيع أن تحكم عليه غير
ذلك ، الا اذا كنت متبعا للشهوات ميلا مع الهوى « ولو اتبع الحق
اهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » (المؤمنون : ٧١)
ومهما حاولت أن تجد شيئا من الشر لم ينف عنه رسول الله صلى الله
عليه وسلم فانك لا تجد ، ومهما حاولت أن تجد شيئا من الخير لم
يأمر به فانك لا تجد ، والشئ المهم بعد ذلك أن هذا الخير تمثل
بمجتمع بشرى لم يبق فيه للشر ظهور ، وكل ذلك ببركات رسول الله
صلى الله عليه وسلم وتربيته • وسنضرب هنا أمثلة من حياة المسلمين
يتبين فيها حربهم العنيفة للمنكر وحرصهم على المعروف وأمرهم به :
ولن نختار هذه الأمثلة من حياة الصحابة في زمن الرسول صلى
الله عليه وسلم ، فانه هو الذي كان يتولى الأمر ، ولا في زمن الخلفاء
الراشدين لشهرة ذلك عن عصرهم • بل سنقدم أمثلة عما حدث بعد
يرى منها كيف أن الماء الذي فجره محمد رسول الله صلى الله عليه
وسلم بقى أبدا صافيا زلالا خيرا يحيى القلوب بالخير ويميت
بها الشر :

(أ) أخرج الطبراني وأبو يعلى عن أبي فنيل عن معاوية
ابن أبي سفيان رضى الله عنه أنه صعد المنبر يوم الغمامة فقال
عند خطبته :

انما المال مالنا والفقى فيئنا ، فمن شئنا أعطيناه ومن شئنا منعناه ،
فلم يجبه أحد ، فلما كان في الجمعة الثانية قال مثل ذلك فلم يجبه
حد ، فلما كان في الجمعة الثالثة قال مثل مقالته فقام اليه رجل ممن
حضر المسجد فقال :

(٢٧ - الرسول)

كلا .. انما المال مالنا والفيء فيئتنا فمن حال بيننا وبينه حاكمناه الى الله بأسياقنا .

فنزل معاوية رضى الله عنه فأرسل الى الرجل فأدخله فقال القوم : هلك الرجل ، ثم دخل الناس فوجدوا الرجل معه على السرير فقال معاوية للناس : ان هذا الرجل أحيانى .. أحياء الله ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

سيكون بعدى أمراء يقولون ولا يرد عليهم ، يتقاحمون في النار كما تتقاحم القردة .

وانى تكلمت أول جمعة فلم يرد على أحد فخشيت أن أكون منهم ثم تكلمت في الجمعة الثانية فلم يرد أحد على قلت في نفسى انى من القوم ، ثم تكلمت في الجمعة الثالثة فقام هذا الرجل فرد على فأحيانى ، أحياء الله .

قال الهيثمى : رواه الطبرانى في الكبير والأوسط وأبو يعلى ورجاله ثقات .

(ب) أخرج مسلم عن الحسن البصرى أن عائذ بن عمرو رضى الله عنه دخل على عبيد الله بن زياد فقال : أى بنى .. انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ان شر الرعاء الحطمة . فايك أن تكون منهم ، قال له : اجلس فانما أنت من نخالة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . قال : وهل كانت لهم نخالة ؟ انما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم » .

(ج) روى الخمسة الا البخارى عن طارق بن شهاب : « أن أول من بدأ بخطبة العيد قبل الصلاة مروان فقام اليه رجل فقال : الصلاة قبل الخطبة » وفي رواية الترمذى : « يا مروان .. خالفت السنة » زاد أبو داود : « أخرجت المنبر في يوم عيد ولم يكن يخرج فيه وبدأت بالخطبة قبل الصلاة » قال : قد ترك ما هنالك . قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : أما هذا فقد قضى ما عليه ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » وليس عند النسائى الا الأخير أى المسند .

(د) وفي « الاحياء » عن الشافعى قال : حدثنى محمد بن على

قال : انى لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور وفيه ابن أبى ذؤيب وكان والى المدينة الحسن بن زيد قال : أتى الغفاريون فشكوا الى أبى جعفر شيئاً من أمر الحسن بن زيد قال الحسن : يا أمير المؤمنين .. سل عنهم ابن أبى ذؤيب . قال : فسأله فقال : ما تقول فيهم يا ابن أبى ذؤيب ؟ قال : أشهد أنهم أهل تحطم فى أعراض الناس كثيرون الأذى لهم . قال أبو جعفر : قد سمعتم . فقال الغفاريون : يا أمير المؤمنين .. سل عن الحسن بن زيد . قال : أشهد عليه أنه يحكم بغير الحق ، ويتبع هواه . فقالوا : قد سمعت ما قال فيه ابن أبى ذؤيب وهو الشيخ الصالح ؟ قال : يا أمير المؤمنين .. أسأله عن نفسك . فقال : ما تقول فى ؟ قال : أعفى . فقال : أسألك بالله الا أخبرتنى . قال : تسألنى بالله .. كأنك لا تعرف نفسك ؟ قال : والله لتخبرنى . قال :

أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته فى غير أهله ، وأشهد أن الظلم ببابك فاش .

قال : فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده فى قفا ابن أبى ذؤيب فقبض عليه ثم قال له : أما والله لولا أنى جالس هاهنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك ، قال : فقال ابن أبى ذؤيب : يا أمير المؤمنين قد ولى أبو بكر وعمر فأخذوا الحق وقسما بالسوية ، وأخذوا بأقفاء فارس والروم وأصغروا آناهم ، قال : فخلى أبو جعفر قفاه وخلقى سبيله وقال : والله لولا أعلم أنك صادق لقتلتك .. فقال ابن أبى ذؤيب : والله يا أمير المؤمنين انى لأنصح لك من ابنك المهدى .

(هـ) وصاح الشيخ عز الدين بن عبد السلام بالملك أيوب : يا أيوب .. ما حجتك عند الله ان قال لك : ألم أبوى لك ملك مصر ثم تبيع الخمر . قال : وهل جرى ذلك ؟ قال : نعم ، الحانة الفلانية يباع فيها الخمر وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة ، قال : هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبى . قال : أنت ممن يقولون : « **أنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مهتدون** » (الزخرف : ٢٢) فأمر الملك برفعها .

وسأل الشيخ تلميذه الباجى قال : يا سيدى .. أما خفته ؟ قال الشيخ : يا بنى .. استحضرت هبة الله فصار قدامى مثل القط .

(و) وللنووى مواقف فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ننقل بعضها :

لما ورد دمشق من مصر السلطان المجاهد العظيم الملك الظاهر بيبرس بعد قتال التتار واجلائهم عن البلاد زعم له وكيل بيت المال أن كثيرا من بساتين الشام من أملاك الدولة فأمر الملك بالحوطة عليها — أى بحجزها — وتكليف واضعى اليد على شئ منها اثبات ملكيته وإبراز وثائقه فلجأوا الى الشيخ النووى فى دار الحديث فكتب الى الملك هذا الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم :

الحمد لله رب العالمين • قال الله تعالى : « ونكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » (الذاريات : ٥٥) وقال تعالى : « واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » (آل عمران : ١٨٧) وقال تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » (المائدة : ٢) •

وقد أوجب الله على المكلفين نصيحة السلطان أعز الله أنصاره ، ونصيحة عامة المسلمين ، ففى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « الدين النصيحة • • لله ، وكتابه ، وأئمة المسلمين وعامتهم » •

ومن نصيحة السلطان — وفقه الله لطاعته وأولاه بكرامته — أن تنتهى اليه الأحكام اذا جرت على خلاف قواعد الاسلام • فقد أوجب الله تعالى الشفقة على الرعية ، والاهتمام بالضعفة وإزالة الضرر عنهم • قال الله تعالى :

« واخفض جناحك للمؤمنين » (الحجر : ٨٨) •

وفى الحديث الصحيح : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انما تتصرون وترزقون بضعفائكم » •

وقال صلى الله عليه وسلم : « من كشف عن مسلم كربة من كرب الدنيا كشف الله عنه كربة من كرب يوم القيامة • والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » •

وقال صلى الله عليه وسلم : « اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا ففرق بهم فارق به ، ومن شق عليهم فاشقق عليه » •

وقال صلى الله عليه وسلم « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ان المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » .
وقد أنعم الله علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان ، أعز الله أنصاره . فقد أقامه لنصرة الدين ، والذب عن المسلمين ، وأذل به الأعداء من جميع الطوائف وفتح عليه الفتوحات المشهورة ، في المدة اليسيرة ، وأوقع الرعب منه في قلوب أعداء الدين وسائر الماردية . ومهد له البلاد والعباد ، وقمع بسببه أهل الزيغ والفساد ، وأمدّه بالاعانة واللفظ والسعادة ، فله الحمد على هذه النعم الظاهرة ، والخيرات المتكاثرة ، ونسأل الله الكريم دوامها له وللمسلمين وزيادتها في خير وعافية .. آمين .

وقد أوجب الله شكر نعمه ووعد الزيادة للشاكرين .

فقال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم » (ابراهيم : ٧) .

وقد لحق المسلمون بسبب هذه الحوطة على أملاكهم ، أنواع من الضرر ، ولا يمكن التعبير عنها ، وطلب منهم اثبات لا يلزمهم ، فهذه الحوطة لا تحل عند أحد من علماء المسلمين . بل من في يده شيء فهو ملكه ، لا يحل الاعتراض عليه ، ولا يكلف باثباته . وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يجب العمل بالشرع ويوصى نوابه به ، فهو أولى من عمل به .

والمستول اطلاق الناس من هذه الحوطة ، والافراج عن جميعهم ، فأطلق أطلقك الله من كل مكروه ، فهم ضعفة ، ومنهم الأيتام والأرامل والمساكين والضعفة ، والصالحون وبهم تنصر وتعان وترزق ، وهم سكان الشام المبارك ، جيران الأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم ، وسكان ديارهم ، فلهم حرمان من جهات ، ولو رأى السلطان ما يلحق الناس من الشدائد لأشتد حزنه عليهم ، وأطلقهم في الحال ، ولم يؤخرهم ، ولكن لا تنهى إليه الأمور على وجهها ، فإله أغث المسلمين يفتك الله ، وارفق بهم يرفق الله بك ، وعجل لهم الافراج قبل وقوع الأمطار ، وتلف غلاتهم فان أكثرهم ورثوا هذه الأملاك من أسلافهم ، ولا يمكنهم تحصيل كتب شراء — أي اسناد تملك — وقد نهبت كتبهم ، وإذا

رفق السلطان بهم حصل له دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن
رفق بأمة ، ويظهره على أعدائه •

فقد قال الله تعالى : « ان تتصروا الله ينصركم » (محمد : ٧) •

وتتوفر له من رعيته الدعوات ، وتظهر في مملكته البركات ، ويبارك
له في جميع ما يقصده من الخيرات • وفي الحديث عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم أنه قال : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل
بها الى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل
بها الى يوم القيامة » •

فنسأل الله الكريم أن يوفق السلطان للسنن الحسنة التي يذكر بها
الى يوم القيامة ، ويحميه من السنن السيئة ، فهذه نصيحتنا الواجبة
علينا للسلطان ونرجو من فضل الله تعالى أن يلهمه الله فيها القبول ••
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته • والحمد لله رب العالمين وصلواته
وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه •

فغضب السلطان من هذه الجرأة عليه وخشى اذا لان له أن يعيد
معه في الشام سيرة العز بن عبد السلام في مصر ، فأجابه بالرد
الشديد ، وأراد أن يعجل عليه بالعقوبة ، فأمر بقطع رواتبه وعزله
من مناصبه •

فقالوا له : انه ليس للشيخ راتب ، وليس له منصب •

ولما رأى الشيخ أن الكتاب لم يفد ، وأن هذا اللين منه لم
يأت بنفع ، ذهب اليه بنفسه ، وقابله وكلمه كلاما غليظا • وأراد السلطان
أنبطش به ، فصرف الله قلبه عن ذلك وحمى الشيخ منه ، وأبطل الأمر
بـ « الحوطة » وخلص الناس من شرها •

ثم جاءت قضية أخرى :

أراد السلطان أن يجهز جيشا ، ففرض على الناس ضريبة جديدة ،
فعاذوا منه بالشيخ واجتمع اليه علماء دمشق ووكلوه أن يكتب ما يريد
وهم يمضون معه الكتاب ، وكانت الوحشة لا تزال قائمة بينه وبين
الملك ، لما كان منه في « قضية الحوطة » • فلم يكتب اليه رأسا بل
كتب الى الأمير بدر الدين الخازن ليوصل كتابه اليه وكان بدر الدين

نائب المملكة وأتابك الجيوش — أى القائد العام — وكان موصوفاً
بكثرة المودة ومحبة العلماء والصلحاء وحسن السيرة .
قال تلميذه السخاوى :

فمما كتبه وأرسل به ورقة الى الظاهر تتضمن وجوب العدل فى
الرعية ، وازالة المكوس عنهم ، ووضع العلماء والشيوخ خطوطهم معه .
فقرأ الأمير الكتاب ورفع الورقة الى السلطان ، فاشتد غضبه ،
واحتج بأنه يريد هذا المال للجهاد وهم يعارضونه وكان عليهم أن
يؤيدوه وأنهم ينكرون عليه ، ولم يكونوا ينكرون على الكفار لما كانوا
يحكمون البلاد ، قبل أن يخرجهم منها بجهاده الطويل ، ومثابرتة عليه .
وتوعد العلماء ، فتقاعسوا ، ولكن النووى لم يبال ، وكتب اليه فى
الجواب هذا الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين .. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ،
من عبد الله يحيى النووى ينهى : ان خدام الشرع ، كانوا يكتبوا ما بلغ
السلطان أعز الله أنصاره فجاء الجواب بالانكار والتوبيخ والتهديد ،
وفهمنا من أن الجهاد ذكر فى الجواب على خلاف حكم الشرع ، وقد
أوجب الله ايضاح الأحكام عند الحاجة اليها ، فقال تعالى :

« واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه »
(آل عمران : ١٨٧)

« ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون
ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله ، ما على الحسنيين من سبيل ،
والله غفور رحيم » (التوبة : ٩١) .

وذكر فى الجواب أن الجهاد ليس مختصاً بالأجناد ، وهذا أمر
لم ندعه ولكن الجهاد فرض كفاية ، فاذا قرر السلطان له أجنادا
مخصوصين ، ولهم أخباز معلومة من بيت المال كما هو الواقع ، تفرغ
باقى الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم ، من
الزراعة والصنائع وغيرها مما يحتاج الناس كلهم اليه ، فجهاد الأجناد
مقابل بالأخباز المقررة لهم ، ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شئ ما دام
فى بيت المال شئ ، من نقد أو متاع أو أرض أو ضياع تباع
أو غير ذلك .

وهؤلاء علماء المسلمين في بلاد السلطان أعز الله أنصاره منفقون على هذا ، وبيت المال بحمد الله معمور ، زاده الله عمارة وسعة وخيرا وبركة ، في حياة السلطان المقرونة بكمال السعادة له والتوفيق والتسديد والظهور على أعداء الدين « وما النصر الا من عند الله » (آل عمران : ١٢٦) وانما يستعان في الجهاد وغيره بالافتقار الى الله تعالى ، واتباع آثار النبي صلى الله عليه وسلم وملازمة أحكام الشرع وجميع ما كتبناه ، أولا وثانيا هو النصيحة التي نعتقدها وندين لله بها ، ونسأله الدوام عليها حتى نلقاه ، والسلطان يعلم أنها نصيحة له وللرعية ، وليس فيها ما يلام عليه ، ولم نكتب هذا للسلطان الا لعلمنا أنه يحب الشرع ومتابعة أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرفق بالرعية ، والشفقة عليهم واکرامه لآثار النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل ناصح للسلطان موافق على هذا الذي كتبناه ، وأما ما ذكر في الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار حين كانوا في البلاد ، فكيف تقاس ملوك الاسلام وأهل الايمان والقرآن ، بطغاة الكفار ، وبأى شيء كنا نذكر طغاة الكفار وهم لا يعتقدون شيئا من ديننا ؟ وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة العلماء ، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه ، وأى حيلة لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ، ولا علم لهم به ، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام ؟ وأما أنا في نفسي فلا يضرني التهديد ، ولا أكثر منه ، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان فاني أعتقد أن هذا واجب على وعلى غيري ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله « انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار » (غافر : ٣٩) « وأفوض أمري الى الله ، ان الله بصير بالعباد » (غافر : ٤٤) وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول الحق حيثما كنا ، وأن لا نخاف في الله لومة لائم ، نحن نحب للسلطان معالي الأمور وأكمل الأحوال وما ينفعه في آخرته ودنياه ويكون سببا في دوام الخيرات له ويبقى ذكره له على مر الأيام يخلد في سنته الحسنة ويجد نفعه « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا » (آل عمران : ٣٠) . وأما ما ذكر في تمهيد سلطان البلاد وإدامته الجهاد وفتح الحصون وقهر الأعداء ، فهو بحمد الله من الأمور الشائعة التي اشترك في العلم بها الخاصة والعامة ، وسارت في أقطار الأرض والله الحمد .

وثواب ذلك مدخر للسلطان الى يوم تجد كل نفس ما عملت من
خير محضرا ، ولا حجة لنا عند الله اذا تركنا النصيحة الواجبة علينا •
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » •

* * *

وبعد •• اذا لم يكن تمييز الخير والشر والمعروف من المنكر
وتبيان كل ، وتربية الناس على محبة الخير والمعروف ، وبغض الشر
والمنكر ، اذا لم يكن هذا من ثمار النبوة فما هي ثمار النبوة ؟
لقد بين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس الخير والشر •
ودل الناس على أن يفعلوا الخير وحده ، وعلى أن يحاربوا الشر
أنى كان • فكانوا مثلا عليا لا مثيل لها في ذلك ، استحقوا معها أن يكونوا
خير أمة أخرجت للناس « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف
وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (آل عمران : ١١٠) •
نعم انها ثمار النبوة ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك ، فلم تكن
الجزيرة العربية مرشحة لشيء من هذا ولا غيرها لولا وحى الله •

* * *

ثامنا — دولة هداية لا جباية :

وثمرة ثامنة :

أخرج ابن سعد عن سفيان بن أبي العوجاء قال : قال عمر
ابن الخطاب — رضى الله عنه — : والله ما أدرى خليفة أنا أم ملك ؟
فان كنت ملكا فهذا أمر عظيم • قال قائل : يا أمير المؤمنين •• ان
بينهما فرقا ، فان الخليفة لا يأخذ الا حقا ولا يضعه الا في حق ، وأنت
بحمد الله كذلك ، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطى هذا ••
فسكت عمر •

وقال عمر لسلطان : أملك أنا أم خليفة ؟ فقال له سلطان : ان
أنت جبيت من أرض المسلمين — أى أرض الدولة الاسلامية وان كانت
لذمى غير مسلم — درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعت في غير حق ،
فأنت ملك غير خليفة •

هذه هي الثمرة المقصودة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شرع بأمر من الله للناس في شأن المال شريعة لا يمكن أن يوجد أعدل منها ، فلا يؤخذ من أحد المال إلا بعدل ، ولا يتملك انسان ملكا إلا بحق وعدل ، وقبل ذلك لم تكن في الأرض نظرية للتملك صالحة ولا عادلة ، ولا نظرية للجباية صالحة أو عادلة ، وكان شعار الحكومات قبل الاسلام : الجباية ، فأصبح شعار حكومة الاسلام : الهداية •

* * *

يقول الدكتور « الفرد ج. ميكر » عن الحكم الرومانى فى مصر :
« ان حكومة مصر — الرومية — لم يكن لها الا غرض واحد وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين ، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم فى الحياة ، أو تهذيب نفوسهم ، أو اصلاح أمور أرزاقهم ، فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد الا على القوة ولا يحس بشئ من العواطف على الشعب المحكوم » •

ويقول مؤلف « ايران فى عهد الساسانيين » عن الوضع فى ايران :
« كان الجباة لا يتحرزون من الخيانة ، واغتصاب الأموال فى تقدير الضرائب وجباية الأموال •

« ان ما قام به كسرى أنوشروان من اصلاح النظام المالى كان فى مصلحة مالية المملكة أكثر منه فى مصلحة الرعية • فلم تزل العامة يعيشون فى الجهل والضعف كما كانوا فى السابق •

« كان الفلاحون فى شقاء وبؤس عظيم ، وكانوا مرتبطين بأراضيهـم ، وكانوا يستخدمون مجاناً ، ويكلفون كل عمل • يقول المؤرخ « اميان مارسيينوس » : ان هؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسيرون خلف انجيوش مشاة كأنه قد كتب عليهم الرق الدائم ، ولم يكونوا ينالون اعانة أو تشجيعاً من راتب أو أجرة ، وكانت علاقة الفلاحين بالملك أصحاب الأراضى كعلاقة العبيد بالسادة » •

* * *

أين هذا مما حدث ببركات رسول الله صلى الله عليه وسلم مما نرى نماذحه هنا :

(أ) أوصى عمر بن الخطاب وصية لن يلي أمر المسلمين بعده منها :

« وأوصيه بأهل الأمصار خيرا فانهم رداء الاسلام ، وجباة الأموال ، وغيظ العدو ، وأن لا يؤخذ منهم الا فضلهم عن رضاهم » • « وأوصيه بذمة الله وبذمة رسوله ، أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفهم الا طاقتهم » •

(ب) وأخرج ابن زنجويه عن رجل من ثقيف قال : استعملني على بن أبي طالب رضي الله عنه على عكبرا فقال لي وأهل الأرض عندي : « ان أهل السواد قوم خدع ، فلا يخدعك فاستوف ما عليهم » ثم قال لي : رح الي • فلما رجعت اليه قال لي :

انما قلت لك الذي قلت لأسمعهم ، لا تضربن رجلا منهم بسوط في طلب درهم ، ولا تقمه قائما ، ولا تأخذن منهم شاة ، ولا بقرة انما أمرنا أن نأخذ منهم العفو • • أتدرى ما العفو ؟ الطاقة • وفي رواية البيهقي : « ولا تبيعن لهم رزقا ولا كسوة شتاء ولا صيفا ولا دابة يعتملون عليها ولا تقم رجلا قائما في طلب درهم » • قال : قلت : يا أمير المؤمنين • • اذن أرجع اليك كما ذهبت من عندك •

قال : وان رجعت كما ذهبت • • ويحك ، انما أمرنا أن نأخذ منهم العفو — يعني الفضل — •

(ج) وأخرج أبو عبيد عن يزيد بن أبي مالك قال : كان المسلمون بالجابية وفيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأتاه رجل من أهل الذمة يخبره أن الناس قد أسرعوا في غنبه فخرج عمر رضي الله عنه حتىلقى رجلا من أصحابه أحمل ترسا عليه غنّب فقال عمر : وأنت أيضا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين • • أصابتنا مجاعة • فانصرف عمر رضي الله عنه وأمر لصاحب الكرم بقيمة غنبه •

(د) وأخرج الحاكم عن ابراهيم بن عطاء عن أبيه أن زادا — أو ابن زياد — بعث عمران بن حصين رضي الله عنه ساعيا فجاء ولم يرجع معه درهما ، فقال له : أين المال ؟ قال : وللمال أرسلتني ؟ أخذناها كما كنا نأخذها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعناها في الموضع الذي كنا نضعها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم •

(هـ) وكتب عمر بن عبد العزيز الى عروة بن محمد :
« أما بعد .. فانك كتبت الى تذكر أنك قدمت اليمن فوجدت .
على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ثابتة في أعناقهم كالجزية يؤدونها
على كل حال ان أخصبوا أو أجذبوا ، أو حيوا أو ماتوا ، فسبحان الله
رب العالمين ، ثم سبحان الله رب العالمين ثم سبحان الله رب العالمين
إذا أتاك كتابي هذا فدع ما تتكره من الباطل الى ما تعرفه من الحق
ثم ائتنف — أى خذ — الحق فاعمل به بالغاً بى وبك ما بلغ وان أحاط
بمهج أنفسنا وان لم ترفع الى من جميع اليمن الا جفنة من كتم فقد
علم الله أنى بها مسرور ، اذا كانت موافقة للحق .. والسلام » .

(و) وأخرج ابن عساكر والواقدي عن عبد الله بن أبي حدر
الأسلمي رضى الله عنهما قال : لما قدمنا مع عمر بن الخطاب رضى الله
عنه الجابية اذا هو بشيخ من أهل الذمة يستطعم ، فسأل عنه فقيل :
هذا رجل من أهل الذمة كبر وضعف ، فوضع عنه عمر رضى الله عنه
الجزية التى فى رقبته وقال : كلفتموه الجزية حتى اذا ضعف تركتموه
يستطعم ؟ فأجرى عليه من بيت المال عشرة دراهم وكان له عيال .
وفى رواية أبى عبيد وابن زنجويه والعقيلي عن عمر رضى الله عنه
أنه مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب المساجد فقال : ما أنصفناك
إذا كنا أخذنا منك الجزية فى شبيبته ثم ضيعناك فى كبرك . ثم أجرى
عليه من بيت المال ما يصلحه .

(ز) وأخرج عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال : « أراد عمر
رضى الله عنه أن يأخذ دار العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه فيزيدها
فى المسجد ، فأبى العباس أن يعطيها إياه ، فقال عمر : لآخذنها .
قال : فاجعل بينى وبينك أبى بن كعب رضى الله عنه . قال : نعم ،
فأتيا أبيا فذكرا له فقال أبى : أوحى الله الى سليمان بن داود عليهما
الصلاة والسلام أن يبنى بيت المقدس وكانت أرضا لرجل فاشتري منه
الأرض فلما أعطاه الثمن قال : الذى أعطيتنى خير أم الذى أخذت منى ؟
قال : بل الذى أخذت منك . قال : فانى لا أجيز ثم اشتراها منه بشيء
أكثر من ذلك فصنع الرجل مثل ذلك مرتين أو ثلاثا فاشتترط عليه
سليمان عليه الصلاة والسلام أنى ابتاعها منك على حكمك فلا تسألنى
أيها خير ؟ قال : فاشتراها منه بحكمه فاحتكم اثنتى عشر ألف قنطار
ذهبا فتعاضم ذلك سليمان أن يعطيه فأوحى الله اليه : « ان كنت تعطيه

من شيء هو لك فأنت أعلم وإن كنت تعطيه من رزقنا فاعطه حتى يرضى » • ففعل • قال : وأنا أرى أن عباسا أحق بداره حتى يرضى • قال العباس : فاذا قضيت لى فانى أجعلها صدقة للمسلمين » •

وفى رواية : فقال أبى لعمر : ما أرى أن تخرجه من داره حتى ترضيه • فقال له عمر : أرأيت قضاءك هذا فى كتاب الله وجدته أم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أبى : بل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم • فقال عمر : وما ذاك ؟ فقال : انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان سليمان بن داود صلى الله عليه وسلم لما بنى بيت المقدس جعل كلما بنى حائطاً أصبح منهدماً فأوحى الله اليه : أن لا تبني فى حق رجل حتى ترضيه • فتركه عمر فوسعها العباس رضى الله عنهما — بعد ذلك فى المسجد •

وأخرج ابن جرير الطبرى عن زياد بن جزء الزبيدى فقال : افتتحنا الاسكندرية فى خلافة عمر رضى الله عنه فذكر الحديث وفيه : ثم وقفنا ببليهب وأقمنا ننتظر كتاب عمر حتى جاعنا فقرأه علينا عمرو رضى الله عنه وفيه :

« أما بعد •• فانه جاعنى كتابك تذكر أن صاحب الاسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن ترد عليه ما أصيب من سبائا أرضه ولعمري لجزية قائمة تكون لنا ولن بعدنا من المسلمين أحب الى من فىء يقسم ثم كأن لم يكن ، فاعرض على صاحب الاسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تخيروا من فى أيديكم من سبيهم بين الاسلام وبين دين قومهم ، فمن اختار منهم الاسلام فهو من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن اختار دين قومه ضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه ، فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فانا لا نقدر على ردهم ، ولا نحب أن نصالحه على أمر لا نفى له به » •

قال : فبعث عمرو الى صاحب الاسكندرية يعلمه الذى كتب به أمير المؤمنين قال فقال : قد فعلت • قال : فجمعنا ما فى أيدينا من السبائا واجتمعت النصارى فجعلنا نأتى بالرجل ممن فى أيدينا ثم نخيره بين الاسلام والنصرانية ، فاذا اختار الاسلام كبرنا تكبيرة هى أشد من تكبيرنا حين تفتح القرية • قال : ثم نحوزه اليها واذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه اليهم ووضعنا عليه الجزية وجزعنا

من ذلك جزعا شديدا ، حتى كأنه رجل خرج منا اليهم قال : فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم وقد أتى فيمن أتينا به بابى مريم عبد الله ابن عبد الرحمن قال القاسم : وقد أدركته وهو عريف بنى زبيد قال : هو قفناه فعرضنا عليه الاسلام والنصرانية وأبوه وأمه وأخوته فى النصرارى فاختار الاسلام فحزنناه الينا ووئب عليه أبوه وأمه وأخوته يجاذبوننا حتى شققوا عليه ثيابه ثم هو اليوم عريفا كما ترى .. فذكر الحديث .

* * *

ان نقل الدولة من دولة جباية ظالة ، الى دولة هداية كاملة ، مع مرافقة نظرية فى التملك والحقوق فى الملك لا مثيل لها فى تاريخ العالم ، ثمرة من ثمار محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا لم يكن رسم طريق التملك العادل الذى ليس فيه ظلم ولا حيف ولا حرام ، والحقوق التى فى هذا الملك للفقراء والمساكين والغارمين .. بحيث تقوم قضايا المال على العدل الذى لا باطل معه . اذا لم يكن هذا من ثمار النبوة ، فما هى ثمار النبوة ؟ ان محمدا رسول الله لا شك فى هذا ولا ريب .

* * *

تاسعا وعاشرا — جهاد وحرية :

وثمره تاسعة :

« لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغي » (البقرة : ٢٥٦) .

اذن هى الحرية الدينية لغير المسلمين فى ظل دولة الاسلام .
فقد أعطى الاسلام الحرية للناس فى عقائدهم اذا خضعوا لحكم الاسلام ما لم يكن وثنيا من جزيرة العرب ، فهذا لا حرية له ، وما عدا هذا فما عرف الناس مكانا يأمنون فيه على دينهم غير أرض الاسلام .
والدليل على ذلك واضح ، هو أنه حيث فتح المسلمون أرضا فيها دين وجدت بقايا أهل هذا الدين موجودين ، ولو أن المسلمين كانوا يكرهون رعاياهم على اعتناق دينهم كما فعل غيرهم لما وجدت هذه الظاهرة .
انك لا تجد مثلا مسلما واحدا فى أسبانيا مع أن المسلمين فيها كانوا ثلاثين مليونا ، بينما تجد نصارى فى بلاد الشام حتى الآن من بقايا النصارى الأولين ، وتجد يهودا ، ولا يزال غير المسلمين هم الأكثرية فى

الهند مع أن المسلمين حكموا ثمان مائة سنة ، وهكذا تتكرر الظاهرة في كل مكان .

لقد حاول مرة السلطان سليم الأول أن يأخذ أولاد النصارى ويربيهم على الاسلام ، فوقف أمامه علماء المسلمين معارضين ، وأعلنوا أن هذا لا يجوز فعدل عن فكرته .

ومن قرأ معاهدات المسلمين مع غيرهم من أبناء الأرض المفتوحة ، وجد سعة صدر المسلمين وتسامحهم ، وعلم أن دعوة الاسلام لم تسلك طريقها الى التلويح الا عن طريق الاقناع والمعاملة الحسنة ، والايمان بالقيم العظيمة الموجودة في هذا الدين ، وقرأ نص المعاهدة التى كتبت بين نصارى الشام وبين عمر تجد هذا المعنى واضحاً ، وهذا نص المعاهدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان ، أمان لأنفسهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبرها ، وسائر ملتها أنها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من صلبانهم ولا شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن ايلياء أحد من اليهود . وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على ايلياء من الجزية ، ومن أحب من ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعتهم وصليبيهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعتهم ، وعلى صليبيهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان فيها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ، ومن شاء رجع الى أرضه . وأنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذين عليهم من الجزية » شهد على ذلك من الصحابة رضى الله عنهم : خالد بن الوليد رضى الله عنه وعمر بن العاص رضى الله عنه وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه .. ومن قرأ شهادة السكان غير المسلمين رأى مصداق ذلك .

يقول البطريرك « عيشويابه » عام ٦٥٦ هجرية :
« ان العرب الذين مكثهم الزمن من السيطرة على العالم يعاملوننا
بعدالة كما تعرفون » •

ويقول « مكاريوس » بطريك أنطاكية : « أدام الله بناء دولة الترك
خالدة الى الأبد • فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم
بالأديان سواء أكان رعاياهم مسيحيين ، أم ناصريين ، يهودا أو سامرة » .
ويقول أرنولد : حتى ايطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم
الى التركي لعلهم يحظون كما حظى رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح
الذين يئسوا من التمتع بهما في ظل أى حكومة مسيحية •
ويقول : وحدث أن هرب اليهود الأسبانيون المضطهدون في جموع
هائلة فلم يلجأوا الا الى تركيا في نهاية القرن الخامس عشر •

ويقول ريتشارد ستير من أبناء القرن السادس عشر : وعلى الرغم
من أن الأتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب .. سمحوا
للمسيحيين جميعا للاغريق منهم واللاتين أن يعيشوا محافظين على
دينهم ، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاءوا بأن منحوهم كنائسهم لأداء
شعائهم المقدسة في القسطنطينية وفي أماكن أخرى كثيرة جدا ، على
حين أستطيع أنؤكد بحق بدليل اثنتى عشرة عاما قضيتها في أسبانيا
اننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب بل انا في خطر
على حياتنا وسلفنا •



وحتى الجزية التي هي من جانب رمز للخضوع لسلطان الاسلام ،
هي من جانب آخر رمز على الحرية الدينية ، فالجزية من هذا الجانب
تفرض على رعايا الدولة الاسلامية من غير المسلمين ، في مقابل حمايتهم
وعدم مشاركتهم في الحروب ، وفي ذلك منتهى العدل • اذ القتال في
الاسلام قتال عقيدى • فالمسلم الذى يقاتل انما يقاتل بوحى من اسلامه
وعقيدته ، وفي سبيل ربه ودينه • فلو أننا طالبنا رعايانا من غير المسلمين
أن يقاتلوا معنا فكأننا في هذه الحالة نجبرهم على القتال من أجل عقيدة
لا يؤمنون بها ، وذلك منتهى الظلم ، وخاصة اذا كان القتال ضد أبناء
دينهم أنفسهم • فالجزية اذن من هذا الجانب لصالح هؤلاء الرعايا ،
وجزاء متمم لحريتهم ، بدليل أنه حدث في التاريخ الاسلامى أن ناسا

من غير المسلمين شاركوا في جيوش المسلمين فأسقط عنهم المسلمون الجزية .

* * *

وحتى العقوبة الصارمة التي فرضها الاسلام على المرتدين عن الاسلام وهي القتل ، هذه العقوبة لصالح الأقليات غير الاسلامية في الأرض الاسلامية من جانب . اذ غير المسلم عندما يعلم أن الدخول في الاسلام باختياره ، ولكنه اذا دخل وخرج فجزاؤه القتل ، فذلك يجعله يفكر كثيرا قبل اعتناقه الاسلام فيقدم عليه بعد دراسة طويلة واقتناع كامل .

* * *

قارن هذه الحرية المعطاة لغير المسلمين في الأرض الاسلامية ، في عقائدهم وديانتهم ، بما يفعل الآخرون حديثا وقديما من اجبار الانسان على تغيير عقيدته ، أو قتله أو سجنه ، أو تعذيبه أو اضطهاده ، أو فرض فكر معين عليه يعتنقه ويتبناه ، أو عدم السماح له بدراسة دينه وعقيدته ، أو يحال بينه وبين من يمكن أن يلقنه دينه ، وتجد في ذلك مآسى وحوادث تثير شجن الانسان . لكن لو درست التاريخ الاسلامي ، فانك لا تجد حادثة واحدة شبيهة بهذا وهذه أمثلة على أعمال غير المسلمين :

يذكر صاحب كتاب « كشف الآثار في قصص أنبياء بنى اسرائيل » وهو كتاب صاحبه نصراني :

١ — أمر قسطنطين الأعظم بقطع آذان اليهود واجلائهم الى أقاليم مختلفة ، ثم أمر امبراطور الروم في القرن الخامس أن يخرج اليهود من الاسكندرية التي كانت مأمونهم . . وأمر بهدم كنائسهم . ومنع عبادتهم وعدم قبول شهادتهم ، وعدم نفاذ الوصية ان أوصى أحد منهم لأحد في ماله ، ولما احتجوا على ذلك نهب جميع أموالهم وقتل كثيرا « ص ٢٧ » .

٢ — أن يهود بلدة أنطيوخ لما أسروا بعدما صاروا مغلوبين ، قطع أعضاء البعض وقتل البعض ، وأجلى الباقيين كلهم ، وظلم الامبراطور الروماني اليهود الموجودين في المملكة كلها ، وأجلاهم وهيج

الدول الأخرى على هذه المعاملة فتحملوا بذلك الظلم من آسيا الى أقصى حد في أوروبا ، ثم بعد مدة كلفوا في أسبانيا أن يقبلوا شرطا من شروط ثلاثة : أن يقبلوا المسيحية ، فان أبوا عن قبولها يكونون محبوسين ، وان أبوا عن كليهما يجلون من أوطانهم ومثل ذلك حدث في فرنسا (ص ٢٨) •

٣ — ومن القوانين التي أصدرها الكاثوليكيون : ولا يجوز الأكل مع اليهودي ويجب نزع أولادهم منهم لتربيتهم تربية مسيحية (ص ٢٩) •
٤ — وقد ثبت تاريخيا أن اليهود أجلوا من فرنسا سبع مرات (ص ٣٠، ٣١) •

٥ — وحدث لهم في النمسا وأسبانيا وبريطانيا من القتل والطرده والاكراه الكثير ، وقد أجلى ادوارد الأول ملك بريطانيا أكثر من خمسة عشر ألفا من اليهود بعد أن نهب أموالهم (ص ٣٢) •

* * *

ويذكر توماس نيوتن في كتابه عن نبوءات الكتب المقدسة : أن النصارى عندما فتحوا بيت المقدس في الحروب الصليبية قتلوا أكثر من سبعين ألفا من المسلمين •
ونقول : ان المسلمين عندما استردوا المدينة بعد زمن طويل لم يقتلوا انسانا واحدا بعد الفتح •

* * *

وأصدر الملك لويس الحادي عشر سنة ١٧٢٤ قانونا يقول فيه : ان الكاثوليكية وحدها مأذون بها وأما أصحاب الديانات الأخرى فجزاؤهم الأشغال المؤبدة ، وكل واعظ يدعو الى ملة غير الكاثوليكية جزاؤه الموت •
وقتل في فرنسا في مذبة واحدة وهي الشهيرة بمذبة برتولساوس واحد وثلاثين ألفا من البروتستانت •

وقتل محاكم التفتيش حرقا بالنار حوالي مائتين وثلاثين ألفا ، والذين قتلوا بالسيف وبالآلات التعذيب خلق كثير هذا من غير المسلمين ، أما المسلمون فقد ذكرنا أنه لم يبق في أسبانيا من الثلاثين مليون من

المسلمين مسلم واحد ، كلهم غدر بهم فمن قتل أو طريد أو مكره على تغيير دينه •

ان اعطاء الانسان الحرية الكاملة في أمر اختياره عقيدته وعدم اجباره على تغيير دينه بأى واسطة من وسائل الاكراه ، ثمرة من ثمار محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم • ما كانت لتكون لولا الوحي • ان العرب هذا الشعب القاسى ، كان يمكن أن يمثل في حال النصر الدور الذى مثله التتار من بعد • قتل جماعى ، ومحو للحضارة ، ولكن الغرب على العكس من ذلك • مثلوا على مسرح التاريخ أروع أمثلة الرحمة والتسامح مع الشعوب المغلوبة ، وهذا ليس من أخلاقهم في الأصل لولا دعوة الله ودين الله ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم •



بل ان عملية الجهاد المستمر ، والتضحيات الكثيرة التى بذلت فيه من أجل اخضاع العالم لسلطان الله ، مع اعطاء الفرد الحرية في البقاء على دينه أو الانتقال منه الى الاسلام دين الله الحق ، بالاقتناع الكامل ، دليل كامل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله •

فالذين يتصورون أن مقام النبوة يتنافى مع الحرب العادلة ، تصوراتهم معكوسة تماما • ان حرب الأنبياء وحدها هى المعقولة في العالم ، اذ أن الحياة البشرية لا تستقيم الا على قانون الله وشريعته • فما لم يكن العالم خاضعا لسلطان الله ، فان العالم تمزقه بمن فيه وقتذاك أهواء البشر ، أما اذا خضع لسلطان الله المتمثل بعباده المستقيمين الصالحين ، وشريعة الله ، فان في ذلك صلاحه • وكما قدمنا فلا يعنى اخضاع البشر لسلطان الله اجبارهم على الدخول في دين الله •

والذين ينكرون على رسول الله الجهاد في سبيل الله : اما ملحدون ، وهؤلاء أصغر من أن يرد عليهم لأن القتل والخراب الذى يحدث على أيديهم بغير حق يندى له جبين الوحوش • فقد قتلت روسيا من رعاياها من أجل اقامة الحكم الشيوعى تسعة عشر مليوناً • واما أهل دين : كاليهود والنصارى وهؤلاء يناقضون أنفسهم فان في التوراة التى يؤمن بها جميعهم نصوصا كثيرة تدل على أن الأنبياء جاهدوا في سبيل الله ، وفي الانجيل وكتب العهد الجديد ما يدل على أن الأنبياء يحاربون وهذه شواهد :

١ — مذكور في كتاب المشاهدات الباب (١٩) والرسالة الثانية انبأب الثاني لأهل تسالونيق وهما كتابان نصرانيان : أن عيسى عليه أنسلام سيقتل الدجال وعسكره بعد نزوله • أى قرب قيام الساعة وهذه عقيدة المسلمين أيضا •

٢ — وفي سفر التثنية (١٠) : واذا دنوت من قرية لتقاتلها ادعهم أولا الى الصلح فان قبلت وفتحت لك الأبواب فكل الشعب الذى بها يخلص ويكونون لك عبيدا يعطونك الجزية • وان لم ترد تعمل معك عهدا وبدأت بالقتال معك فقاتلها أنت واذا سلمها الرب الهك بيدك اقتل جميع من بها من جنس الذكر بحد السيف دون النساء والأطفال والدواب وما كان فى القرية غيرهم واقسم للمعسكر الغنيمة بأسرها • وكل من سلب أعدائك الذى يعطيك الرب الهك • وهكذا فافعل بكل القرى البعيدة منك جدا • فأما القرى التى تعطى أنت اياها فلا تستحيى منها نفسا البتة ولكن أهلكهم هلاكا كلهم بحد السيف • الحيثى والآمورى والكنعانى والفرزى والحوابى والبابوسى كما أوصاك الرب الهك •

٣ — وفى الباب الثانى عشر من سفر صموئيل الثانى هكذا (٢٩) : فجمع داوود الشعب وسار الى راية فحارب أهلها وفتحها وأخذ تاج ملكهم على رأسه •

والنصوص عندهم فى هذا كثيرة تجدها فى سفر الخروج الباب الثالث الفقرة (٤٣) وفى الباب الرابع والثلاثين منه (١٠) وفى سفر العدد الباب الثالث والثلاثين وفى سفر صموئيل الأول الباب السابع والعشرون (٨) وفى سفر الملوك الباب الثامن عشر (٢٠) وغيرها كثير • يقول بولس المقدس عند النصارى فى الرسالة العبرانية الباب الحادى عشر فقرة (٣٢) : وماذا أقول أيضا لأنه يعوزنى الوقت أن أحدث عن جدعون وباراق وشمشون ويفتاح وداوود وصموئيل والأنبياء الذين بالايما قهروا ممالك صنعوا برا نالوا مواعيد سدوا أفواه أسود أطفأوا النار ، نجوا من حد السيف تقووا من ضعف صاروا أشداء فى الحرب هزموا جيوش غرباء •



وأخيرا الجهاد فى سبيل الله ثمرة من ثمار النبوة ، وعدم اكراه

الناس على الدخول في الاسلام ثمرة أخرى ، وكلتاها تشهد أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه الثمار كلها غيض من فيض ، والا فان ثمار النبوة كثيرة تعجز الانسان عن الاحصاء . وحيثما نظرت في الاسلام ذلك الاسلام على أنه دين الله رب العالمين ، وأن محمدا رسول الله هذا الاله العظيم وأنه المبلغ عنه .

والى الباب الخامس لنرى حجة أخرى على رسالة رسولنا عليه السلام .

* * *

البَابُ الْخَامِسُ

البشارات

١

ان القرآن الكريم ذكر بوضوح وفي أكثر من سورة أن الكتب السماوية السابقة قد بشرت بمحمد صلى الله عليه وسلم : « واذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » (الصف : ٦) •

« ورحمتى وسعت كل شيء ، فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون • الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » (الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧) • « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين » (البقرة : ٨٩) •

ان ظاهرة عامة كنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم للعالمين جميعا ، ويترتب عليها معانى كثيرة من وحدة للإنسانية وتوحيد دينها • تحتاج الى مقدمات ومبشرات توجد استعدادا عاما عند الناس لها •

* * *

٢

والدارس للنصوص التاريخية التى تتحدث عن فترة ما قبل البعثة وأثناءها يلاحظ ملاحظة هامة ، هى أن الناس فعلا الذين كلن لهم صلة بكتاب سماوى كان واضحا فى أذهانهم أنه سيبعث نبى ، وكانوا يرتقبون ظهوره ، وأن بعضا من علمائهم قد أعلن اسلامه بمجرد اجتماعه بهذا النبى صلى الله عليه وسلم •

فمن ذلك قصة سلمان الفارسي كما تذكرها روايات كثيرة ، وتنقله من عالم الى عالم في النصرانية ، حتى دله آخرهم على الترقب لنبي كاد أن يبعث من أرض العرب ، وذلك سبب مجيئه الى أرض العرب وسكناه فيها .

ومن ذلك القصة التي يرويها البخاري عن أبي سفيان عندما استدعاه هرقل في بلاد الشام اذ يقول هرقل في آخرها : « وقد كنت أعلم أنه خارج نبي ولم أكن أظن أنه منكم » .
ومن ذلك ما ذكرته صفية بنت حيي أم المؤمنين عن أبيها وعمها اليهوديين قالت :

« لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل قباء ، غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر مغلسين ، فلم يرجعا حتى كاد غروب الشمس ، فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهويناء ، فهششت اليهما فما التفت الى أحد منهما مع ما بهما من الهم ، فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي : أهو هو ؟ — أي المبشر به في التوراة — قال : نعم والله ، قال : أثبتته وتعرفه . قال : نعم . قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت أبدا » .

ومن ذلك قصة اسلام عبد الله بن سلام :

قال ابن هشام في سيرته : قال ابن اسحاق : وكان من حديثه كما حدثني بعض أهله عنه وعن اسلامه حين أسلم وكان حبرا عالما قال : لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكل له فكنت مسرا لذلك صامتا عليه حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فلما نزل بقباء في بني عمرو ابن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها ، وعمتي خالدة ابنة الحارث تحتي جالسة فلما سمعت الخبر بقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرت ، فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيرى : خبيك الله .. والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما ما زدت . قال فقلت لها : أي عمة .. هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به ، قال فقالت : فذاك اذن . قال : ثم خرجت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت ثم رجعت الى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا ..

ومن ذلك قصة النجاشي وموقفه من أصحاب السيد الرسول صلى

الله عليه وسلم في هجرتهم اليه وقوله بعد نقاش وعرض عندما أوفدت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد لخراجهم :

« .. أشهد أنه رسول الله وأنه المبشر به عيسى في الانجيل » .

وقد اشتهر حديث اليهود للأوس والخزرج عن خروج نبي وكان ذلك من جملة العوامل التي جعلت هذا الاستعداد الكبير عند الأوس والخزرج للإيمان :

فمن ذلك ما جاء عن سلمة بن سلامة رضى الله عنه ، وكان من أصحاب بدر قال : كان لنا جار من يهود بنى عبد الأشهل ، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار ، فقالوا له : ويحك يا فلان .. أو ترى هذا كائنا أن الناس يبعثون بعد موتهم الى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم ، قال : نعم والذي يحلف به وليود أى شخص أن له بحظه من تلك النار أعظم تتور يحمونه ثم يدخلونه اياه فيطبقونه عليه بأن ينجو من تلك النار غدا . فقالوا له : ويحك .. وما آية ذلك ؟ قال : نبى يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده الى مكة واليمن . قالوا : ومن يراه ؟ فنظر الى وأنا من أحدثهم سفا فقال : ان يستنفد — أى يستكمل — هذا الغلام عمره يدركه ، قال سلمة : والله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وهو — أى ذلك اليهودى — بين أظهرنا فأما به وكفر بغيا وحسدا فقلنا له : ويحك يا فلان .. أأست الذى قلت لنا فيه ما قلت . قال : بلى ، ولكن ليس به .

* * *

٣

وعلى كل حال فان وجود الكتب الدينية العالمية الآن أصبح كثيرا ، وانتشارها واسعا ، ولعل دراسة منصفة تستخرج الكثير مما له علاقة بهذه الحقيقة . هذا مع الاعتقاد بأن هذه الكتب قد حرفت وبدلت ، يشهد على ذلك كل دراسة جيدة لنصوص هذه الكتب ولواقعها التاريخي ، يكفي كبرهان عملى على تحريف أحدثها وأقربها إلينا « الانجيل » أن الانجيل الواحد أصبح أربعة بينها تعارض أحيانا وبعضها يزيد على بعض أو ينقص وفي سندها التاريخي شك .

وقد قام بهذه الدراسة المنصفة الواسعة الواعية علماء كبار ،

جمعوا بين معرفة اللغات ، ومعرفة الديانات ، فتخرج معهم الشيء العجيب الذي لا يدع مجالا لانسان يحترم عقله أن يشك بأن هناك مشاركات بمحمد النبي العربى قبل ميلاده بمئات السنين ، ونحن هنا ناقلون نماذج من هذه الدراسات ، وسيرى أى منصف أن هؤلاء العلماء ما ظلموا وما حرفوا وما اعتسفوا فى فهم النصوص ولا حملوها فوق ما تحتل . بل فهم هذه النصوص على غير ما ذكروه ، هو الاعتساف والتحريف ، وتحميل النصوص مالا تحتل ، وكتمان للشهادة ونأى عن الحق :

« الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم »
(البقرة : ١٤٦)

* * *

{

يقول العقاد :

من هذه الدراسات كتاب باللغة الانجليزية ألفه « مولانا عبد الحق قديارتى » وسماه « محمد فى الأسفار الدينية العالمية » واستفاد فى مقارناته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية وبعض اللغات الأوروبية ولم يقنع فيه بكتب التوراة والانجيل بل عمم البحث فى كتب فارس والهند وبابل القديمة ، وكانت له فى بعض أقواله توفيقات تضارع أقوى ما ورد من نظائرها فى شواهد المتدينين كافة ، ولا نذكر أننا اطلعنا على شواهد أقوى منها فى روايات الأقدمين أو المحدثين من أتباع الديانات الأولى أو الديانات الكتابية .

يقول الأستاذ عبد الحق : ان اسم الرسول العربى « أحمد » مكتوب بلفظه العربى فى السامافيدا من كتب البراهمة وقد ورد فى الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثانى ، ونصها : « أن أحمد تلقى الشريعة من ربه وهى مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس » . ولا يخفى المؤرخ وجوه الاعتراض التى قد تأتى من جانب المفسرين البرهميين بل ينقل عن أحدهم « سينا أشاريا » أنه وقف عند كلمة أحمد فالتمس لها معنى هنديا وركب منها ثلاثة مقاطع وهى « أهم » و « آت » و « هى » وحاول أن يجعلها تفيد « انتى وحدى تلقيت الحكمة من أبى » قال الأستاذ

عبد الحق ما فحواه : ان العبارة منسوبة الى البرهمي « فاترا كانفا » من أسرة كانفا ولا يصدق عليه القول بأنه وحده تلقى الحكمة من أبيه .
في مواضع كثيرة يرى المؤلف أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم مذكور بوصفه الذي يعنى الحمد الكثير والسمعة البعيدة ومن أسمائه الوصفية اسم « سشرافا » الذي ورد في كتاب الآثار « فافيدا » .
وكذلك صنع بكتب زرادشت التي اشتهرت باسم الكتب المجوسية فاستخرج من كتاب « زندافستا » نبوءة عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين « سوشياننت » ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة « أبا لهب » ويدعو الى اله واحد لم يكن له كفؤاً أحد وليس له أول ولا آخر ولا ضريع ولا قريع ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة .
وهذه هي جملة الصفات التي يوصف بها الله سبحانه في الاسلام :
أحد صمد ليس كمثله شيء لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

ويشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزرادشتية ، تنبئ عن دعوة الحق التي يجيء بها النبي الموعود ، وفيها إشارة الى البادية العربية ، ويترجم نبذة منها الى اللغة الانجليزية معناها بغير تصرف :
« ان أمة زرادشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون ، وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ، ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار في هياكلهم ، يولون وجوههم نحو كعبة ابراهيم التي ظهرت من الأصنام ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ وهي الأماكن المقدسة للزرادشتيين ومن جاورهم ، وأن نبيهم ليكون فصيحاً يتحدث بالمعجزات » .

وقد أشار المؤلف بعد الديانات الآسيوية الكبرى الى فقرات من كتب العهد القديم ، والعهد الجديد ، فقال : ان النبي عليه السلام هو المقصود بما جاء في الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية « جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتللاً من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم » .

وجاء بالنص العبري كما يلي : « ويومر يهووه مسيناتي به وزارح مسعير لاهو هوفيع مهرباران وأتامر بيوث قودش حيميفو أيش داف لامو » .

فترجمه هذا : « ان الرب جاء من سيناء ونهض من سعيير لهم
وسطم من جبل فاران وجاء مع عشرة آلاف قديس وخرج من يمينه
نار شريعة لهم » .

وقال : ان الشواهد القديمة جميعا تنبىء عن وجود فاران في مكة
يقدر قال المؤرخ « جيروم » واللاهوتى « يوسبيوس » : ان فاران
بلد عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام الى الشرق من أيلة .
ونقله عن ترجمة التوراة السامرية التى صدرت فى سنة ١٨٥١ :
« ان لسماعيل سكن برية فاران بالحجاز وأخذت له أمه امرأة من أرض
مصر » ثم قال : ان سفر العدد من العهد القديم يفرق بين سيناء
وفاران اذ جاء فيه : « ان بنى اسرائيل ارتحلوا من برية سيناء ،
فحلت السحابة فى برية فاران » ولم يسكن أبناء اسماعيل قط فى
غرب سيناء فيقال : ان جبل فاران واقع الى غربها . ولم يحدث قط
أن نبيا سار بقيادة عشرة آلاف قديس غير النبى محمد عليه السلام ،
و « قوديش » تترجم بقديس فى رأى المؤلف الذى يناقش ترجمتها
بالملائكة فى الترجمات الأخيرة .

كذلك لم يحدث قط أن نبيا غيره جاء بشريعة بعد موسى الكليم
فقول موسى الكليم : ان نبيا مثلى سيقم لكم الرب الهكم من اخوتكم
أبناء ابراهيم . يصدق على النبى العربى صاحب الشريعة ولا يصدق
على نبى من أبناء ابراهيم تقدمه فى الزمن اءه — نقل هذا المقطع
من كتاب العقاد « مطلع النور » باختصار بعض جملة — .



ومن هذه الكتب التى قام أصحابها بدراسة النصوص الحالية
للكتب الدينية اليهودية والنصرانية : كتاب اسمه « اظهر الحق »
لـ « رحمت الله بن خليل الهندى » ولعل هذا الكتاب أعظم دراسة
تقدية لنصوص الديانتين اليهودية والنصرانية وأدق نقد لاعتراضات
أتباع هاتين الديانتين على الديانة الاسلامية ، بحيث يرى أى دارس
منصف للكتاب أن يهود اليوم ونصارى اليوم والسابقين لهم الى
فترات طويلة من الزمان ليسوا على شىء ، وأن الاسلام وحده هو
الذى يصح أن يسمى دينا ، فهو وحده دين الله الحق فى هذا الزمان .

ولأهمية الكتاب نعرض صورة مختصرة له هنا ، ثم نأخذ منه ما له علاقة في بحثنا من نصوص لا زالت موجودة — رغم التحريف والتبديل — تبشر بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقارىء الكتاب يحس احساسا يقينيا أن المؤلف متمكن من كتب العهدين القديم والجديد تمكنا تاما ، فكأنه قرأهما عشرات المرات واطلع على كل ما كتبه أهلها من تفاسير أو شروح أو تعليقات عليهما . وكتب كتابه بعد ذلك . وسبب تأليف الكتاب أن المبشرين النصارى أخذوا يهاجمون الاسلام مهاجمات عنيفة في الهند أثناء الاحتلال البريطانى ، وركزوا هجومهم حول خمس نقاط فتصدى لهم كثير من علماء المسلمين ، وكان من آثار هذا التصدى أن عقدت مناظرة بين أكثر المبشرين سلاطة لسان وبين مؤلف الكتاب حضرها أكبر رجالات الهند . كان من نتائجها أن انسحب القس المبشر بعد أن قامت عليه الحجة ولما يتم النقاش في المسائل المقرر نقاشها .

والكتاب يناقش المسائل الخمس التى أثارها المبشرون النصارى وهاجموا بها الاسلام وهى :

١ — أن دعوى القرآن بأن فى التوراة والانجيل تحريفا وأن اليهود والنصارى حرفوا الكلم عن مواضعه دعوى باطلة .

٢ — أن بعض آيات القرآن منسوخة وأن النسخ دليل على أن القرآن ليس من عند الله لأن أحكامه بهذا قابلة للتبديل والتعديل .

٣ — أن الله ثلاثة : الآب والابن وروح القدس ، والاسلام يدين بوحداية الله ومحاولتهم البرهنة على عقيدة التثليث ومن ثم التهجم على عقيدة التوحيد .

٤ — أن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم وليس كلام الله المنزل وتشكيكهم فى طريقة جمعه وتواتره .

٥ — انكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه خاتم الأنبياء .

والكتاب ناقش هذه المسائل الخمس مناقشة دقيقة مستفيضة كل مسألة فى باب وزاد بابا سادسا تناول فيه العهدين القديم والجديد مع مقدمة وبحث فى كل منها ما يلى :

(أ) المقدمة وتشمل ثمانى ملاحظات عامة بين يدى الكتاب يذكر فى بعضها مراجع الكتاب وطبعات المراجع وسنة طبعها وأين طبعت ،

ويذكر بعض عادات المبشرين في بعضها ويعتذر في بعضها عن بعض ألفاظ يستعملها ويبين أنهم يستعملون أشد منها مئات المرات .

(ب) الباب الأول : تناول فيه الكلام على العهدين العتيق والجديد كل باب من أبوابهما ، واستشهد من كلام مؤرخيهم وعلمائهم على تبيان المطعون فيه من الأبواب والآيات ، وبين بالحجج الدامغة أنه لا يوجد لدى علمائهم في كلتا الديانتين سند متصل لأي كتاب من كتب العهدين ثم تناول بعد ذلك ما في كتب العهدين من الاختلاف والأغلاط ، وبين أن إدعاءهم بأن هذه الكتب الموجودة بين أيديهم الهامية ، ادعاء باطل ، وساق برهانا على هذا البطلان بسبعة عشر وجها لكثرة ما بها من أغلاط وتحريف واختلافات عجز مفسروهم عن التوفيق بينها ، ثم ان الكاثوليك والبروتستانت يختلفون في الاعتراف ببعض هذه الكتب ، فما يعترف به الكاثوليك يفكره البروتستانت والعكس بالعكس .

(ج) الباب الثاني : أثبت فيه وجود التحريف في كتب العهدين القديم والجديد مصداقا لقوله تعالى : « يحرفون الكلم عن مواضعه » (النساء : ٤٦) وأثبت أن بعض هذا التحريف كان عن عمد ، وكان يأتي هذا التحريف أحيانا بالزيادة وأحيانا بالنقصان ، وأحيانا بالتبديل اللفظي ، وساق على التحريف بالزيادة خمسة وأربعين شاهدا كما ساق على التبديل اللفظي خمسة وثلاثين شاهدا ، واكتفى بهذا القدر مخافة الاطالة . أما التحريف بالنقص فقد ساق عليه عشرين شاهدا ، كما أورد عدة مغالطات للمبشرين النصارى فندها ببراهين ساطعة ، ثم نقل على سبيل الاستدلال أقوال النصارى الثقات عندهم من المفسرين والمؤرخين ليزيد حججه نصاعة وقوة ، وبلغت هذه الاستدلالات من أقوالهم الثلاثين قولا مما يدل على سعة اطلاع وتتبع حريص لاقامة الحجة عليهم من كتبهم وبلسان علمائهم ، وفي ختام هذا الباب أورد أمورا يزول بها استبعاد وقوع التحريف في كتبهم بل تثبت وقوع التحريف .

(د) الباب الثالث : أثبت فيه بالأدلة القاطعة نسخ بعض الأحكام في الشريعتين الموسوية والمسيحية بعد أن بين ماهية النسخ ، ثم برهن على أن الأحكام العملية للتوراة نسختها شريعة عيسى ، وأن لفظ النسخ موجود في كلام قديسيهم ، الى غير ذلك من الأمور الهامة ،

مبيناً أكاذيبهم في اختصاص الشريعة الإسلامية بالنسخ ، مبرهننا على أن النسخ في اصطلاح الشريعة الإسلامية موجود مثله عند اليهود والنصارى .

(هـ) الباب الرابع : في ابطال التثليث .

وهذا الباب ينقسم الى مقدمة وثلاثة فصول .

١ — المقدمة وهي كمدخل الى الفصول الثلاثة يذكر فيها اثنتى عشرة قضية ، ككون التوراة مصرحاً فيها بتحريم عبادة غير الله وكتصريح العهد الجديد والقديم بأن الله ليس كمثله شئ ، وأن النصوص المتشابهة محمولة على هذا التتزيه .

٢ — الفصل الأول : في ابطال التثليث بالبراهين العقلية ، ويأتى على ذلك بسبعة براهين كلها دامغة في استحالة التثليث من الناحية العقلية .

٣ — الفصل الثانى : في ابطال التثليث بأقوال المسيح ، ويأتى فيه باثنى عشر قولاً عن السيد المسيح من الانجيل الحالى ، كلها تثبت أن المسيح دعا الى التوحيد الخالص وأنه رسول فقط وكمثال :
(أ) من انجيل يوحنا اصحاب سابع جملة (٣) : « وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته » .

(ب) في الباب التاسع عشر من انجيل متى هكذا : « ٠٠ (١٦) واذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية . (١٧) فقال له : لماذا تدعونى صالحاً ليس أحد صالحاً الا واحد وهو الله » .

٤ — الفصل الثالث : في مناقشة النصوص الانجيلية التى يتمسك بها المثلثون واثبات أن فهمهم لها خاطيء هذا على فرض ثبوتها ومن المؤكد تاريخياً بطلان بعضها .

فمثلاً يعتمدون على اطلاق كلمة ابن الله فى الانجيل على مرادهم مع أن الانجيل نفسه يطلتها على كل صالح « طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون » (انجيل متى باب خامس : ٤٤) « وصلوا لأجل الذين يسبونكم لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات » (٤٥ : نفس المصدر) ، « لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى » (يوحنا باب ٨ : ٤٢) .

وهكذا يثبت أن كل نص حملوه على التثليث قد استعمله المسيح على غير ما فهموه في خطاب الناس حتى لا يبقى مجال لمتشكك .

(و) الباب الخامس : أثبت فيه أن القرآن من عند الله باثني عشر وجها ، وكل وجه كاف لإقامة الحجة ، وناقش الشبهات التي يذكرها بعض المبشرين ، وتحدث بعد ذلك عن السنة وثبوتها ، وبرهن على وجود الروايات للسانية عند اليهود والنصارى التي سجلت متأخرة مع ملاحظة جواز الكذب عليهم لأنهم يرون الكذب جائزا في موضوع النقل إذا كان لصالح الشريعة . أما المسلمون فعلى عكس هذا تماما ، والدارس لموضوع السنة يرى أن أدق نقد في العالم عرف أو سيعرف هو نقد علماء السنة للوصول الى الحديث الصحيح .

(ز) الباب السادس : أثبت فيه نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ودفع فيه كل مطعن توهمه هؤلاء القسوس الذين هاجموا الاسلام أو ادعوا أنهم توهموه وقسم الباب الى فصلين :

الفصل الأول : في اثبات النبوة وسلك فيه ستة سبل ، كل سبيل يؤدي الى اقامة الحجة بأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله .

١ — معجزاته . ٢ — أخلاقه .

٣ — كمال شريعته . ٤ — انتصاره .

٥ — حاجة الناس اليه والى شريعته .

٦ — تبشير الأنبياء السابقين عليه بنبوته عليه السلام .

الفصل الثاني : في دفع المطاعن التي يتوهمها المبشرون منافية لدعوى النبوة وهم يفعلون هذا مدعين أنهم مؤمنون بنصوص العهد القديم والجديد ، وأنبياء العهدين ولما كانوا مؤمنين بنصوص العهدين القديم والجديد فانه يذكر المطاعن التي وجهوها الى السيد الرسول صلى الله عليه وسلم . ويثبت أن رسل العهدين قد فعلوا مثلها أو أشد منها ، وأكثر من هذا يثبت أن بيتهم كله من زجاج ، وأن ما يذكرونه في العهدين في حق الرسل لا يليق بالمؤمنين العاديين فضلا عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم المبرئين عندنا من كل مذمة .

ويبدأ الفصل في ذلك تصوراتهم الفاسدة في نصوصهم المحرفة عن الرسل ، وما يتكلمون في حقهم من الكلام القبيح ، كنسبة الزنا اليهم والمعاصي ، ويأتى هنا بما لا يستطيع أحد أن يهضمه مما يجعل مقام الرسل وحاشاهم عرضة لسخرية الساخرين ، فاذا كان هذا

مفهومهم الفاسد عن الرسل فبأى شيء يعترضون على محمد صلى الله عليه وسلم ولم يقع في أدنى ما ذكروه عن رسلهم كذبا .

ثم يذكر المطاعن ويرد عليها واحدا واحدا :

المطعن الأول : في عملية الجهاد الاسلامي وكيف أنهم يرون أن ذلك متناف مع مقام الرسالة ، ويذكر للرد على هذا الطعن خمسة أمور :

١ — حول استحقاق الكافرين العقاب من الله لهم في الدنيا والآخرة ، ويذكر ذلك عن كتبهم .

٢ — أن الأنبياء السابقين الذين ورد ذكرهم في العهد القديم قاتلوا الكفار وسبوا نساءهم وذراريهم ، ويأتى كدليل على ذلك بعشرات الشواهد من العهد القديم المعترف عليه عندهم .

٣ — أن الجهاد في الاسلام أرحم بما لا يقاس بما يذكرونه في كتبهم عن عمليات القتال السابقة .

٤ — أن عملية الجهاد عندنا لا تعنى الاكراه على الدخول في الاسلام ولكن تاريخهم هم وخاصة النصارى ملئ بجرائم الاغارة على عقائد البشر واکراههم ، ويذكر من ذلك أمثلة تقشعر منها جلود الانسان . محاكم تفتيشهم ، مذابحهم الفظيعة ، طريقتهم القذرة في الحرب ، وطريقتنا الرحيمة . ان التاريخ كله ضدهم وكله معنا .

٥ — يتحدث عن الجهاد في الشريعة الاسلامية .

المطعن الثانى : أن محمدا لم تظهر على يده معجزة فلذلك هو ليس نبيا ، ويرد على هذا أولا : يثبت من كتبهم أنه ليس مشروطا عندهم وجود المعجزة للنبي فحتى على صحة دعواهم فليس هذا مطعنا بالنسبة لعقيدتهم ، ولكن الحقيقة غير ذلك فان معجزات محمد صلى الله عليه وسلم أكثر من معجزات أى رسول ويثبت هذا .

المطعن الثالث : موضوع زواجه صلى الله عليه وسلم بكثيرات وخاصة بزینب وتحريم زواج زوجاته بعد وفاته ويرد على هذا الكلام بثمانية مقاطع :

١ — أن الأنبياء الذين يعترفون على نبوتهم في الكتب المعتمدة عندهم تزوجوا أكثر من عدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم بكثير فما أحله الله لرسوله حلال وما حرم حرام .

٢ — أن قصة زواجه بزینب كما يوردونها باطلة لا أساس لها ،

وقد ذكرت في القرآن ، والسنة الصحيحة على خلاف ما أوردوه ونقلوه .

٣ — أن التحريم والتحليل بيد الله ، ولذلك نجد شيئاً تقصه كتب المهدين فعله أنبياء سابقون وحرمة أنبياء لاحقون ، واذ ثبت أن القرآن وحى من الله فما أحله حلال وما حرمة حرام . ورسول الله لم يفعل ما حرمة الله .

٤ — أن هؤلاء يطعنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وما خالفه أمرا مما ذكر في القرآن وينسبون أن كتبهم تذكر عن رسولهم كذبا أنهم خالفوا الوحي الذي نزل عليهم .

٥ — يذكر في هذا المقطع أمورا فظيعة مذكورة في كتبهم تجرح مقام عيسى وحوارييه وحاشاهم من كلام هؤلاء الاتباع المارقين وكذلك مما حدث في تاريخ كنائسهم من الاثم والزنا والفجور مما لا يطيق أحد أن يسمعه . . أفيطعنون بعد ذلك بنا وبماذا ؟ ونحن أظهر أهل الأرض ذيلا .

٦ — خطوهم في فهم بعض الآيات القرآنية .

٧ — اذا صدر للنبي أمر ولم يفعله يكون عاصيا ، أما اذا فعل شيئاً مباحا له في الأصل فلا حرج فاذا ما أطاع الرسول الله فلا مأخذ عليه .

٨ — يذكرون في كتبهم أن هوشع النبي أمره الله أن يتزوج بزانية وأن يتعشق بامرأة فاسقة محبوبة لزوجها — وحاشاه — وأمثال هذا كثير في كتبهم ويذكر بعضا منه فكيف ينكرون على محمد صلى الله عليه وسلم زواجه بزينة بعد طلاقها من زوجها وانتهاء عدتها بأمر الله ، ويذكر في ذلك أن كتبهم تذكر أن الله خص بعد أنبيائه بأمور خصوا بها عن غيرهم ، تجوز لهم ولا تجوز لغيرهم ، ومحمد رسول الله . فاذا خص بحكم فأى وجه للطعن عليه مع ملاحظة تفرد به بكل كمال مما لا تتناول اليه أعناق الرجال .

المطعن الرابع : يدعون فيه أن محمدا أذنبا والمذنب لا يكون رسولا ويرد على كلامهم بخمسة مقاطع يثبت فيها عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم عن الذنب وأنه لم يرتكب ذنباً قط .

وبذلك ينتهي الكتاب ، والكتاب في الحقيقة أنفس كتاب في علمنا ، ناقش الديانة النصرانية واليهودية نقاشا دقيقا في النصوص والمضمون (٢٩ - الرسول)

معتمدا على كلام علمائهم نفسه ، وفي تصورنا أن أى منصف من أتباع الديانتين يطلع على الكتاب كله مضطرا لنبذ دينه والدخول في الاسلام .
ونبدأ الآن بنقل الجزء المتعلق بالبشارات من الفصل الأول من الباب السادس لأنه هو المقصود هنا ، مع ملاحظة أننا حذفنا بعض مقاطع من فقراته لم نجد ضرورة لنقلها والمكان الذى تم فيه حذف تشير اليه بثلاث نقط وكل ما نذكره هنا هو كلامه بنصه :
قال فى المسلك السادس من مسالكه لاثبات نبوة محمد عليه السلام تحت عنوان : اخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته عليه السلام ما يلى :

ولما كان القسيسون يغلطون العوام فى هذا الباب تغليطا عظيما استحسننا أن أقدم على نقل تلك الأخبار أمورا ثمانية تفيد للنظر بصيرة « الأمر الأول » أن الانبياء الاسرائيليين مثل أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى عليه السلام ، أخبروا عن الحوادث الآتية كحادثة بختنصر وقورش واسكندر وخلفائه ، وحوادث أرض آدوم ومصر ونيوى وبابل ، ويبعد كل البعد أن لا يخبر أحد منهم عن خروج محمد الذى كان وقت ظهوره ، كأصغر البقول ، ثم صار شجرة عظيمة تتأوى طيور السماء فى أغصانها ، فكسر الجبابرة والأكاسرة ، بلغ دينه شرقا وغربا ، وغلب الأديان وامتد دهرها بحيث مضى على ظهوره ومولده ألف ومائتين وثمانين الى هذا الحين ، ويمتد ان شاء الله الى آخر بقاء الدنيا ، وظهر فى أمتة ألوف ألوف من العلماء الربانيين ، والحكماء المتقين ، والأولياء ذوى الكرامات والمجاهدات والسلطين العظام ، وهذه الحادثة كانت أعظم الحوادث ، وما كانت أقل من حادثة أرض آدوم ونيوى وغيرهما . فكيف يجوز العقل السليم أنهم أخبروا عن الحوادث الضعيفة وتركوا الاخبار عن الحادثة العظيمة .

« الأمر الثانى » أن النبى المقدم اذا أخبر عن النبى المتأخر لا يشترط فى اخباره أن يخبر بالتفصيل التام بأنه يخرج من القبيلة الفلانية فى السنة الفلانية فى البلد الفلانى ، وتكون صفته كيت وكيت ، بل يكون هذا الاخبار فى غالب الأوقات مجملا عند العوام ، وأما عند الخواص فقد يصير جليا بواسطة القرائن ، وقد يبقى خفيا عليهم أيضا لا يعرفون مصداقه الا بعد ادعاء النبى اللاحق أن النبى المتقدم أخبر عنه ، وظهور صدق ادعائه بالمعجزات وعلامة النبوة ، وبعد

الادعاء وظهور صدقه يصير جليا عندهم بلا ريب ، ولذلك يعاتبون ، كما عاتب المسيح عليه السلام علماء اليهود بقوله : « ويل لكم أيها الناموسيون لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة ما دخلتم أنتم والداخلون منعتوهم » كما هو مصرح به في الباب الحادي عشر من انجيل لوقا .

« الأمر الثالث » : ادعاء أن أهل الكتاب ما كانوا ينتظرون نبيا آخر غير المسيح وإيلياء ادعاء باطل لا أصل له ، بل كانوا منتظرين لغيرهم أيضا لما علمت في الأمر الثاني أن علماء اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام سألوا يحيى عليه السلام أولا : أنت المسيح ؟ ولما أنكر سألوه : أنت إيلياء ؟ ولما أنكر سألوه : أنت النبي ؟ أي النبي المعهود الذي أخبر به موسى ، فعلم أن هذا النبي كان منتظرا مثل المسيح وإيلياء وكان مشهورا بحيث ما كان محتاجا إلى ذكر الاسم ، بل الإشارة إليه كانت كافية . وفي الباب السابع من انجيل يوحنا بعد نقل قول عيسى عليه السلام هكذا ٤٠ « فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا هذا بالحقبة هو النبي » ٤١ « وآخرون قالوا هذا هو المسيح » وظهر من هذا الكلام أيضا أن النبي المعهود عندهم كان غير المسيح ولذلك قابلوا المسيح .

« الأمر الرابع » : ادعاء أن المسيح خاتم النبيين ولا نبي بعده باطل لما عرفت في الأمر الثالث أنهم كانوا منتظرين للنبي المعهود الآخر الذي يكون غير المسيح وإيلياء عليهم السلام ولما لم يثبت بالبرهان مجيئه قبل المسيح فهو بعده . وقد يتمسكون لاثبات هذا الادعاء بقول المسيح المنقول في الآية الخامسة عشر من الباب السابع من انجيل متى هكذا : « احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة » والتمسك به عجيب لأن المسيح عليه السلام أمر بالاحتراز من الأنبياء الكذبة لا الأنبياء الصدقة أيضا ولذلك قيد بالكذبة . نعم لو قال احترزوا من كل نبي يجيء بعدى لكان بحسب الظاهر وجه للتمسك . . . فمقصود المسيح عليه السلام التحذير من هؤلاء الأنبياء الكذبة والمسحاء الكذبة لا من الأنبياء الصادقين أيضا ، ولذلك قال بعد القول المذكور في الباب السابع : « من ثمارهم تعرفونهم هل يجتنبون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً » ومحمد صلى الله عليه وسلم من الأنبياء الصادقين كما يدل عليه ثماره على ما عرفت في المسالك المتقدمة .

« الأمر الخامس » : الاخبارات التى نقلها المسيحيون فى حق عيسى عليه السلام لا تصدق عليه على تفاسير اليهود وتأويلاتهم ، ولذلك هم ينكرونه أشد الانكار والعلماء المسيحية لا يلتفتون فى هذا الباب الى تفاسيرهم وتأويلاتهم ويفسرونها ويؤولونها بحيث تصدق فى زعمهم على عيسى عليه السلام . قال صاحب « ميزان الحق » فى الفصل الثالث من الباب الأول فى الصفحة ٤٦ من النسخة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٤٩ : « المعلمون القدماء من الملة المسيحية ادعوا هذه الدعوى الصحيحة فقط : ان اليهود أولوا الآيات التى كانت اشارة الى يسوع المسيح بتأويلات غير صحيحة وغير لائقة وبينوها خلاف الواقع » انتهى . وقوله : ادعوا هذه الدعوى الصحيحة فقط غلط يقينا ، لأن المعلمين القدماء كما ادعوا هذه الدعوى ادعوا أن اليهود حرفوا الكتب تحريفا لفظيا كما عرفت فى الباب الثانى . لكنى أقطع النظر عن هذا وأقول : كما أن تأويلات اليهود فى الآيات المذكورة مردودة غير صحيحة وغير لائقة عند المسيحيين ، كذلك تأويلات المسيحيين فى الاخبارات التى هى فى حق محمد صلى الله عليه وسلم مردودة غير مقبولة عندنا . وسترى أن الاخبارات التى نقلها فى حق محمد صلى الله عليه وسلم أظهر صدقا من الاخبارات التى نقلها الانجيليون فى حق عيسى عليه السلام . فلا بأس علينا ان لم نلتفت الى تأويلاتهم الفاسدة . وكما أن اليهود ادعوا فى حق بعض الاخبارات التى هى فى حق عيسى عليه السلام على زعم المسيحيين أنها فى حق مسيحهم المنتظر أو فى حق غيره أو ليست فى حق أحد ، والمسيحيون يدعون أنها فى حق عيسى عليه السلام ولا يبالون بمخالفتهم . فهكذا نحن لا نبالى بمخالفة المسيحيين فى حق بعض الاخبارات التى هى فى حق محمد صلى الله عليه وسلم ولو قالوا انها فى حق عيسى عليه السلام . وسترى أيضا أن صدقها فى حق محمد صلى الله عليه وسلم أليق من صدقها فى حق عيسى عليه السلام فادعائونا أحق من ادعائهم . . .

« الأمر السادس » : أن أهل الكتاب سلفا وخلفا عادتهم جارية بأنهم يترجمون غالبا الأسماء فى تراجمهم ويوردون بدلها معانيها ، وهذا خبط عظيم ومنشأ للفساد وأنهم يزيدون تارة شيئا بطريق التفسير فى الكلام الذى هو كلام الله فى زعمهم ، ولا يشيرون الى الامتياز ،

وهذان الأمران بمنزلة الأمور العادية عندهم ومن تأمل في تراجمهم المتداولة بالسنة مختلفة وجد شواهد تلك الأمور الكثيرة .

* * *

واذا عرفت هذه الأمور الستة أقول : ان الاخبارات الواقعة في حق محمد صلى الله عليه وسلم توجد كثيرة الى الآن أيضا ، مع وقوع التحريفات في هذه الكتب ومن عرف أولا طريق اخبار النبي المتقدم عن النبي المتأخر على ما عرف في الأمر الثانى جزم بأن الاخبارات المحمدية في غاية القوة . وأنقل في هذا المسلك عن الكتب المعتمدة عند علماء بروتستنت ثمانى عشرة بشارة^(١) :

البشارة الأولى : « في الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء هكذا : ١٧ — فقال الرب لى نعم جميع ما قالوا ١٨ — وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين اخوتهم وأجعل كلامى في فمه ويكلمهم بكل شئ أمره به ١٩ — ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فأنا أكون المنتقم من ذلك ٢٠ — فأما النبي الذى يجترى بالكبرياء فى اسمى ما لم أمره به بأن يقوله أم باسم آلهة غيرى فليقتل ٢١ — فان أحببت وقلت فى قلبك كيف أستطيع أن أميز الكلام الذى لم يتكلم به الرب فهذه تكون لك آية أن ما قاله ذلك النبي فى اسم الرب ولم يحدث فالرب ما تكلم به بل ذلك النبي صورته فى تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه » . وهذه البشارة ليست بشارة يوشع عليه السلام كما يزعم الآن أحبار اليهود ولا بشارة عيسى عليه السلام كما زعم علماء بروتستنت بل هى بشارة محمد صلى الله عليه وسلم لعشرة أوجه :

« الوجه الأول » : قد عرفت فى الأمر الثالث أن اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام كانوا ينتظرون نبيا آخر مبشرا به فى هذا الباب وكان هذا المبشر به عندهم غير المسيح فلا يكون هذا المبشر به يوشع ولا عيسى عليهما السلام .

« والوجه الثانى » : أنه وقع فى هذه البشارة لفظ « مثلك » ويوشع وعيسى عليهما السلام لا يصح أن يكونا مثل موسى أما أولا فلأنهما من بنى اسرائيل ولا يجوز أن يقوم أحد من بنى اسرائيل مثل موسى

(١) بعض البشارات أثرتنا عدم نقلها لصعوبة ادراك مضمونها الا بتأمل

كما تدل عليه الآية المباشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء وهي هكذا : « ولم يقم بعد ذلك في بني اسرائيل مثل موسى يوفه الرب وجها لوجه » فان قام أحد مثل موسى بعده من بني اسرائيل يلزم تكذيب هذا القول ..

« الوجه الثالث » : انه وقع في هذه البشارة لفظ « من بين اخوتهم » ولا شك أن الأسباط الاثني عشر كانوا موجودين في ذلك الوقت مع موسى عليه السلام حاضرين عنده فلو كان المقصود كون النبي المبشر به منهم قال « منهم » لا من بين اخوتهم ، لأن الاستعمال الحقيقي لهذا اللفظ أن لا يكون المبشر به له علاقة الصليبية والبطنية ببني اسرائيل ، كما جاء لفظ الاخوة بهذا الاستعمال الحقيقي في وعد الله هاجر في حق اسماعيل عليه السلام في الآية الثانية عشر من الباب السادس عشر من سفر التكوين وعبارتها في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا : « وقبالة بجميع اخوته ينصب المضارب » .

وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا : « بخضرة جميع اخوته يسكن » وجاء بهذا الاستعمال أيضا في الآية الثامنة عشر من الباب الخامس والعشرين من سفر التكوين في حق اسماعيل في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا « منتهى اخوته جميعهم سكن » وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا « أقام بخضرة جميع اخوته » والمراد بالاخوة هاهنا بنو عيسو واسحاق وغيرهم من أبناء ابراهيم عليه السلام . وفي الباب الثاني من سفر الاستثناء هكذا « وقال لى الرب : ثم أوصى الشعب أنكم ستجوزون في تخوم اخوتكم بنى عيسو الذين في ساعير وسيخشونكم فلما جزنا اخوتنا بنى عيسو الذين يسكنون ساعير الخ » والمراد باخوة بنى اسرائيل بنو عيسو ولا شك أن استعمال لفظ اخوة بنى اسرائيل في بعضهم مفهم كما جاء في بعض المواضع من التوراة استعمال مجازى ولا تترك الحقيقة ولا يصار الى المجاز ما لم يمنع عن الحمل على المعنى الحقيقي مانع قوى . ويوشع وعيسى عليهما السلام كانا من بنى اسرائيل فلا تصدق هذه البشارة عليهما .

« الوجه الرابع » : انه وقع في هذه البشارة لفظ : « سوف أقيم » ويوشع عليه السلام كان حاضرا عند موسى عليه السلام داخلا في بنى اسرائيل نبيا في هذا الوقت فكيف يصدق عليه هذا اللفظ .

« الوجه الخامس » : انه وقع في هذه البشارة لفظ « أجعل كلامي في فمه » وهو اشارة الى أن ذلك النبي ينزل عليه الكتاب والى أنه يكون أميا حافظا للكلام وهذا لا يصدق على يوشع عليه السلام لانتقاء كلا الأمرين فيه •

« الوجه السادس » : انه وقع في هذه البشارة « ومن لم يطمع كلامه الذي يتكلم به فأنا أكون المنتقم من ذلك » فهذا الأمر لما ذكر لتعظيم هذا النبي المبشر به فلا بد أن يمتاز ذلك المبشر به بهذا الأمر عن غيره من الأنبياء فلا يجوز أن يراد به بالانتقام من المنكر العذاب الأخرى الكائن في جهنم أو المحن والعقوبات الدنيوية التي تلحق المنكرين من الغيب لأن هذا الانتقام لا يختص بانكار نبى بل يعم الجميع فحينئذ يراد بالانتقام الانتقام التشريعى فظهر منه أن هذا النبي يكون مأمورا من جانب الله بالانتقام من منكروه فلا تصدق على عيسى عليه السلام لأن شريعته خالية عن أحكام الحدود والقصاص والتعزير والجهاد •

« الوجه السابع » : في الباب الثالث من كتاب الأعمال في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا : « ١٩ — فتوبوا وارجعوا كي تمحى خطاياكم ٢٠ — حتى اذا تأتى أزمنة الراحة من قدام وجه الرب ويرسل المنادى به لكم وهو يسوع المسيح ٢١ — الذى اياه ينبغي للسماء أن تقبله الى الزمان الذى يسترد فيه كل شىء تكلم به الله على أفواه أنبيائه القديسين منذ الدهر ٢٢ — ان موسى قال ان الرب الهكم يقيم لكم نبيا من اخوتكم مثلى له تسمعون في كل ما يكلمكم به ٢٣ — ويكون كل نفس لا تسمع ذلك النبى تهلك من الشعب » • فهذه العبارة سيما بحسب التراجم الفارسية تدل صراحة على أن هذا النبى غير المسيح عليه السلام وأن المسيح لابد أن تقبله السماء الى زمان ظهور هذا النبى ومن ترك التعصب الباطل من المسيحيين وتأمل في عبارة بطرس ظهر له أن هذا القول من بطرس يكفى لابطال ادعاء علماء بروتستنت • ان هذه البشارة في حق عيسى عليه السلام وهذه الوجوه السبعة التي ذكرتها تصدق في حق محمد صلى الله عليه وسلم على أكمل وجه لأنه غير المسيح عليه السلام ويمثل موسى عليه السلام في أمور كثيرة ١ ، ٢ — كونه عبد الله

ورسوله ٣ — كونه ذا نكاح وأولاد ٤ — كون شريعته مشتملة على السياسات المدنية ٥ — كونه مأمورا بالجهاد ٦ — اشترط الطهارة وقت العبادة في شريعته ٧ — وجوب الغسل للجنب والحائض والنفساء في شريعته ٨ — اشترط طهارة الثوب من البول والبراز ٩ — حرمة غير المذبوح وقرابين الأوثان ١٠ — كون شريعته مشتملة على العبادات البدنية والرياضات الجسمانية ١١ — أمره بحد الزنا ١٢ — تعيين الحدود والتعزيرات والقصاص ١٣ — كونه قادرا على اجرائها ١٤ — تحريم الربا ١٥ — أمره بانكار من يدعو الى غير الله ١٦ — أمره بالتوحيد الخالص ١٧ — أمره الأمة بأن يقولوا له عبد الله ورسوله لا ابن الله أو الله والعباد بالله ١٨ — موته على الفراش ١٩ — كونه مدفونا كموسى ٢٠ — وعدم كونه ملعونا لأجل أمته • وهكذا أمور آخر تظهر اذا تؤمل في شريعتها ولذلك قال الله تعالى في كلامه المجيد : **« انا أرسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا »** (الزمل : ١٥) وكان من اخوة بنى اسرائيل لأنه من بنى اسماعيل وأنزل عليه الكتاب وكان أميا جعل كلام الله في فمه وكان ينطق بالوحي كما قال الله تعالى : **« وما ينطق عن الهوى • ان هو الا وحي يوحى »** (النجم : ٣ ، ٤) وكان مأمورا بالجهاد وقد انتقم الله لأجله من صناديد قريش والأكاسرة والقيصرة وغيرهم وظهر قبل نزول المسيح •••

« الوجه الثامن » : انه صرح في هذه البشارة بأن النبي الذي ينسب الى الله ما لم يأمره يقتل ، فلو لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم نبيا حقا لكان يقتل ، وقد قال الله في القرآن المجيد أيضا : **« ولو تقول علينا بعض الأقاويل • لأخفنا منه باليمن • ثم لقطعنا منه الوتين »** (الحاقة : ٤٤ — ٤٦) وما قتل بل قال الله في حقه : **« والله يعصمك من الناس »** (المائدة : ٦٧) •

« الوجه التاسع » : ان الله بين علامة النبي الكاذب أن اخباره عن الغيب المستقبل لا يخرج صادقا • ومحمد صلى الله عليه وسلم أخبر عن الأمور الكثيرة المستقبلية كما علمت •• وظهر صدقه فيها ، فيكون نبيا صادقا لا كاذبا •

« الوجه العاشر » : ان علماء اليهود سلموا كونه مبشرا به في التوراة ولكن بعضهم أسلم وبعضهم بقى في الكفر •••

البشارة الثانية : الآية الحادية والعشرون من الباب الثاني
والثلاثين من سفر الاستثناء هكذا : « هم أغاروني بغير الله وأغضبوني بمعبوداتهم الباطلة . وأنا أيضا أغيرهم بغير شعب ، وبشعب جاهل أغضبهم » ، والمراد بشعب جاهل العرب ، لأنهم كانوا في غاية الجهل والضلال وما كان عندهم علم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية وما كانوا يعرفون سوى عبادة الأوثان والأصنام وكانوا محقرين عند اليهود لكونهم من أولاد هاجر الجارية ، فمقصود الآية أن بنى إسرائيل أغاروني بعبادة المعبودات الباطلة فأغيرهم باصطفاء الذين هم عندهم محقرين وجاهلون فأوفى بما وعد ، فبعث من العرب النبي صلى الله عليه وسلم فهداهم إلى الصراط المستقيم كما قال الله تعالى في سورة الجمعة : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » (الجمعة : ٢) وليس المراد بالشعب الجاهل اليونانيين كما يفهم من ظاهر كلام مقدسهم بولس في الباب العاشر من الرسالة الرومية لأن اليونانيين قبل ظهور عيسى عليه السلام بأزيد من ثلثمائة سنة كانوا فائقين على أهل العالم كلهم في العلوم والفنون ، وكان جميع الحكماء المشهورين مثل سقراط وبقرات وفيثاغورس وأفلاطون وأرسطاطاليس وأرشميدس وبليناس وأقليدس وجالينوس وغيرهم الذين كانوا أئمة الرياضيات والطبيعات وفروعها قبل عيسى عليه السلام ، وكان اليونانيون في عهده على غاية درجة الكمال في فنونهم وكانوا واقفين على أحكام التوراة وقصصها وسائر كتب العهد العتيق أيضا بواسطة ترجمة سبتوجنت التي ظهرت باللسان اليوناني قبل المسيح بمقدار مائتين وست وثمانين سنة ، لكنهم ما كانوا معتقدين للملة الموسوية وكانوا متفحصين عن الأشياء الحكيمة الجديدة .

البشارة الثالثة : في الباب الثالث والثلاثين من سفر الاستثناء في
الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا : « وقال جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير واستعلن من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار في يمينه سنة من نار » فمجيئه من سيناء اعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام ، واشراقه من ساعير اعطاؤه الانجيل لعيسى عليه السلام ، واستعلائه من جبل فاران انزاله القرآن لأن فاران جبل عن جبال مكة ، ففي الباب الحادي والعشرين من سفر التكوين في حال

اسماعيل عليه السلام هكذا : « ٢٠ — وكان الله معه ونما وسكن في البرية وصار شابا يرمى بالسهم ٢١ — وسكن بركة فاران » ولا شك أن اسماعيل عليه السلام كانت سكoonته بمكة ولا يصح أن يراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير ومن فاران أيضا فانتشرت في هذه المواضع لأن الله لو خلق نارا في موضع لا يقال جاء الله من ذلك الموضع الا اذا أتبع تلك الواقعة وحى نزل في ذلك الموضع أو عقوبة أو ما أشبه ذلك وقد اعترفوا أن الوحي أتبع تلك في طور سيناء فكذا لا بد أن يكون في ساعير وفاران .

البشارة الرابعة : في الآية العشرين من الباب السابع عشر من سفر التكوين وعد الله في حق اسماعيل عليه السلام لابراهيم عليه السلام في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا : « وعلى اسماعيل أستجيب لك هوذا أباركه وأكبره وأكثره جدا فسيلد اثني عشر رئيسا وأجعل له شعب كبير » . وقوله : أ جعل له لشعب كبير . يشير الى محمد صلى الله عليه وسلم لأنه لم يكن في ولد اسماعيل من كان لشعب كبير غيره ، وقد قال الله تعالى ناقلًا دعاء ابراهيم واسماعيل في حقه عليهم السلام في كلامه المجيد أيضا : « رينا وأبعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك أنت العزيز الحكيم » (البقرة : ١٢٩) .

البشارة الخامسة : الآية العاشرة من الباب التاسع والأربعين من سفر التكوين هكذا كما في الترجمة العربية سنة ١٧٢٢ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ :

« فلا يزول القضيبي من يهوذا والمدبر من تحت فخذه حتى يجيء الذي له الكل واياه تنتظر الأمم » .

وفي الترجمة العربية سنة ١٨١١ هكذا : « فلا يزول القضيبي من يهوذا والرسم من تحت أمره الى أن يجيء الذي هو له واليه تجتمع الشعوب » .

« يذكر المؤلف هنا كلاما طويلا محتواه أن القضيبي هنا لا يفسر الا بالنبوة ويفند كل تفسير آخر مستشهدا بالتاريخ والوقائع المذكورة في كتب اليهود والنصارى أنفسهم ومقتضى كلامه أن الذي له الكل واياه تنتظر الأمم لابد أن يكون محمد عليه السلام ولا يصح أن يفسر به غيره لأنه لو فسرنا أن المقصود بذلك المسيح لكان فهمنا

متناقضا مع النص اذ المسيح من آل اسرائيل ومن ذريته والكلام هنا عن نبوة تخرج عن ذرية اسرائيل الى انسان تجتمع اليه الشعوب من غيرهم وليس ذلك لغير محمد عليه السلام .

البشارة السادسة : الزبور الخامس والأربعون هكذا :

« فاض قلبى كلمة صالحة أنا أقول أعمالى للملك (١) لسانى قلم كاتب سريع الكتابة (٢) بهى فى الحسن أفضل من بنى البشر (٣) انسكبت النعمة على شفقتك لذلك باركك الله الى الدهر (٤) تقلد سيفك على فخذك أيها القوى بحسنك وجمالك (٥) استله وانجح واملك من أجل الحق والدعة والصدق وتهديك بالعجب يمينك (٦) نبلك مسنونة أيها القوى فى قلب أعداء الملك الشعوب تحتك يسقطون (٧) كرسيك يا الله الى دهر الداهرين عصا الاستقامة عصا ملكك (٨) أحبيت البر وأبغضت الاثم لذلك مسحك الله الهك بدهن الفرح أفضل من أصحابك (٩) المر والميعة والسليخة من ثيابك من منازل الشريفة العاج التى أبهجتك (١٠) بنات الملوك فى كرامتك قامت الملكة عن يمينك مشتملة بثوب مذهب موسى (١١) اسمعى يا بنت وانظرى وأنصتى بأذنيك وانسى شعبك وبنت أبيك (١٢) فيشتهى الملك حسنك لأنه هو الرب الهك وله تسجدون (١٣) بنات صور يأتينك بالهدايا لوجهك يصلى كل أغنياء البشر (١٤) كل مجد ابنة الملك من داخل مشتملة بلباس الذهب الموشى (١٥) يبلغن الى الملك عذارى فى أثرها قريباتها اليك يقدمن (١٦) يبلغن بفرح وابتهاج يدمعن الى هيكل الملك (١٧) ويكون بنوك عوضا من آبائك وتقيمهم رؤساء على سائر الأرض (١٨) سأذكر اسمك فى كل جيل وجيل من أجل ذلك تعترف لك الشعوب الى الدهر والى دهر الداهرين » اهـ . وهذا الأمر مسلم عند أهل الكتاب أن داود عليه السلام يبشر فى هذا الزبور بنبى يكون ظهوره بعد زمانه ولم يظهر الى هذا الحين عند اليهود نبى يكون موصوفا بالصفات المذكورة فى هذا الزبور ويدعى علماء بروتستنت أن هذا النبى عيسى عليه السلام ويدعى أهل الاسلام سلفا وخلفا أن هذا النبى محمد صلى الله عليه وسلم فأقول انه ذكر فى هذا الزبور من صفات النبى المبشر به هذه الصفات (١) كونه حسنا (٢) كونه أفضل البشر (٣) كون النعمة منسكبة على شفتيه (٤) كونه مباركا الى الدهر (٥) كونه متقلدا بالسيف (٦) كونه قويا (٧) كونه ذا حق ودعة وصدق (٨) كونه هداية يمينه

بالعجب (٩) كون نبلة مسنونة (١٠) سقوط الشعب تحته (١١) كونه محبا للبر ومبغضا لللاثم (١٢) خدمة بنات الملوك اياه (١٣) اتيان الهدايا اليه (١٤) انقياد كل أغنياء الشعب له (١٥) كون أبنائه رؤساء الأرض بدل آبائهم (١٦) كون اسمه مذكورا جيلا بعد جيل (١٧) مدح الشعوب اياه الى دهر الداهرين . وهذه الأوصاف كلها توجد في محمد صلى الله عليه وسلم على أكمل وجه . أما الأول فلأن أبا هريرة رضى الله عنه قال : « ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجرى في وجهه » . وعن أم معبد رضى الله عنها قالت في بعض ما وصفته به : « أجمل الناس من بعيد وأحلامهم وأحسنهم من قريب » . وأما الثانى فلأن الله تعالى قال في كلامه المحكم : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » (البقرة : ٢٥٣) الآية . وقال أهل التفسير : أراد بقوله : « ورفع بعضهم درجات » (البقرة : ٢٥٣) محمدا صلى الله عليه وسلم أى رفعه على سائر الأنبياء من وجوه متعددة وقد أشجع الكلام في تفسير هذه الآية الامام الهمام الفخر الرازى في تفسيره الكبير . وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » أى لا أقول ذلك فخرا لنفسي بل تحدثا بنعمة ربي . وأما الثالث فغير محتاج الى البيان ، حتى أقر بفصاحته الموافق والمخالف ، وقال الرواة في وصف كلامه : انه كان أصدق الناس لهجة فكان من الفصاحة بالمحل الأفضل والموضع الأكمل . وأما الرابع فلأن الله تعالى قال : « ان الله وملائكته يصلون على النبي » (الأحزاب : ٥٦) وألوف ألوف من الناس يصلون عليه في الصلوات الخمس . وأما الخامس : فظاهر وقد قال هو بنفسه : « أنا رسول الله بالسيف » . وأما السادس : فكانت قوته الجسمانية على الكمال . وأما شجاعته فقد قال ابن عمر رضى الله عنه : « ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود من رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقال على كرم الله وجهه : « وانا كنا اذا حمى البأس وإحمرت الحدى اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ، ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا الى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا » . وأما السابع : فلأن الأمانة والصدق من الصفات الجبلية له صلى الله عليه وسلم كما قال النضر بن الحرث لقريش : « قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم

فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى اذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم فلتقم انه ساحر ، لا والله .. ما هو بساحر »
وسأل هرقل عن حال النبي صلى الله عليه وسلم أبا سفيان فقال :
هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا . وأما الثامن :
فلأنه رمى يوم بدر وكذا يوم حنين وجوه الكفار بقبضة تراب فلم
يبق مشرك الا شغل بعينه فانهزموا وتمكن المسلمون منهم قتلا وأسرا
فأمثال هذه من عجيب هداية يمينه . وأما التاسع : فلأن كون أولاد
اسماعيل أصحاب النبل في سالف الزمان غير محتاج الى البيان وكان
هذا الأمر مرغوبا له وكان يقول : « ستفتح عليكم الروم ويكفيكم
الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه » ويقول : « ارموا بنى اسماعيل
فان أباكم كان راميا » ويقول عليه السلام : « من تعلم الرمي ثم
تركه فليس منا » . وأما العاشر : فلأن الناس دخلوا أفواجا أفواجا
في دين الله في مدة حياته . وأما الحادى عشر : فمشهور يعترف
به المعاندون أيضا كما عرفت في المسلك الثانى . وأما
الثانى عشر : فقد صارت بنات الملوك والأمراء خادمة للمسلمين في
الطبقة الأولى ومنها شهريانو بنت يزدجرد كسرى فارس كانت تحت
الامام المهام الحسين رضى الله عنه . وأما الثالث عشر والرابع عشر :
فلأن النجاشى ملك الحبشة ومنذر بن ساوى ملك البحرين وملك عمان
انقادوا وأسلموا ، وهرقل قيصر الروم أرسل اليه بهدية والمقوقس
ملك القبط أرسل اليه ثلاث جوازي وغلاما أسود وبغلة شهباء وحمارا
أشهب وفرسا وثيابا وغيرها . وأما الخامس عشر : فقد وصل من
أبناء الامام الحسن رضى الله عنه الى الخلافة في أقاليم مختلفة من
الحجاز واليمن ومصر والمغرب والشام وفارس والهند وغيرها .

أما السادس عشر والسابع عشر : فلأنه ينادى ألوف ألوف ،
جيل بعد جيل في الأوقات الخمسة بصوت رفيع في أقاليم مختلفة :
« أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله » ويصلى عليه
في الأوقات المذكورة غير المحصورين من المصلين والقراء يحفظون
منشوره والمفسرون يفسرون معانى فرقانه والوعاظ يبلغون وعظه .
والعلماء والسلاطين يصلون الى خدمته ويسلمون عليه من وراء الباب
— أى باب قبره عليه السلام .

البشارة السابعة : فيها : « لأن الرب يسير بشعبه ويشرف المتواضعين بالخلاص تفتخر الأبرار بالمجد ويبتهجون على مضاجعهم ترفيع الله في حلوقهم وسيوف ذات فمين في أياديهم وانتقامهم من الأمم وتوبيخاتهم ليصنعوا انتقاما في الأمم وتوبيخات في الشعوب ليقيدوا ملوكهم بالقيود وأشرافهم بأغلال من حديد ليضعوا بهم حكما مكتوما هذا المجد يكون لجميع الأبرار » . (لم تتحقق هذه البشارة الا بالمسلمين الذين فعلوا هذا باسم الله والله) .

البشارة الثامنة : في الباب الثاني والأربعين من كتاب أشعيا هكذا : ٩ — « التي قد كانت أولاها قد أتت وأنا مخبر أيضا بأحداث قبل أن تحدث وأسمعكم اياها » .

١٠ — « سبحوا للرب تسبيحة جديدة حمده من أقاصى الأرض راكبين في البحر وملؤه الجزائر وسكانهن » .

١١ — « يرتفع البرية ومدتها في البيوت نمل قيثار سبحوا يا سكان الكهف من رؤوس الجبال يصيحون » .

١٢ — « يجعلون للرب كرامة وحمده يخبرون به في الجزائر » .

١٣ — « الرب كجبار يخرج مثل رجل مقاتل يهوش الغيرة بصوت ويصيح على أعدائه بتقوى » .

١٤ — « سكت دائما صمت صبرت صبورا فأتكلم مثل الطائفة ما بدد وابتلع معا » .

١٥ — « أخرج الجبال والآكام وكل نباتهن أجفف وأجعل الأنهار جزائر والبحيرات أجففهن » .

١٦ — « وأقيد العمى في طريق لم يعرفوها والسبيل لم يعلموا أسيرهم فيها أصير أمامهم الظلمة نورا والعقب سهلا هذا الكلام صنفته لهم ولا أخذلهم » .

١٧ — « اندبروا الى ورائهم والمتكلمون على المنحوتة القائلون للمسبوكة انكم آلهتنا ليخزون خزيا » وظهر من الآية التاسعة أن أشعيا عليه السلام أخبر أولا عن بعض الأشياء ثم يخبر عن الأخبار الجديدة الآتية في المستقبل فالحال الذي يخبر عنه من هذه الآية الى آخر الباب غير الحال الذي أخبر عنه قبلها ولذلك قال في الآية الثالثة والعشرين هكذا : « من هو بينكم ان يسمع هذا يصغى ويسمع الآية » والتسبيحة الجديدة عبارة عن العبادة على النهج الجديد التي هي في

الشريعة المحمدية وتعميمها على سكان أقاصى الأرض وأهل الجزائر وأهل المدن والبرارى ، اشارة الى عموم نبوته صلى الله عليه وسلم ولقظ قي دار أقوى اشارة اليه لأن محمدا صلى الله عليه وسلم فى أولاد قي دار بن اسماعيل • وقوله : « من رؤوس الجبال يصيحون » اشارة الى العبادة المخصوصة التى تؤدى فى أيام الحج يصيح ألوف ألوف من الناس : لبيك اللهم لبيك • وقوله : « حمذه يخبرون به فى الجزائر » اشارة الى الأذان يخبر به ألوف ألوف فى أقطار العالم فى الأوقات الخمسة بالجهر • وقوله : « الرب كجبار يخرج مثل رجل مقاتل يهوش الغيرة » يشير الى مضمون الجهاد اشارة حسنة بأن جهاده وجهاد تابعيه يكون لله وبأمره خاليا عن حظوظ الهوى النفسانية ولذلك عبر الله عن خروج هذا النبى وخروج تابعيه بخروجه وبين فى الآية الرابعة عشر سبب مشروعية الجهاد وأشار فى الآية السادسة عشر الى حال العرب لأنهم كانوا غير واقفين على أحكام الله وكانوا يعبدون الأصنام وكانوا مبتلين بأنواع الرسوم القبيحة الجاهلية كما قال الله تعالى فى حقهم : « وان كانوا من قبل لى ضلال مبين » (آل عمران : ١٦٤) وقوله : « لا أخذلهم » اشارة الى كون أمته مرحومة « غير المفضوب عليهم ولا الضالين » (الفاتحة : ٧) والى تأييد شريعته • وقوله : « والمتوكلون على المنحوتة القائلون للمسبوكة انكم آلهتنا ليخزون خزيا » وعد بأن عابدى الأصنام والأوثان كمشركى العرب وعابدى الصليب وصور القديسين يحصل لهم الخزي والهزيمة التامة ووفى بما وعد فان مشركى العرب وهرقل عظيم الروم وكسرى فارس ما قصرُوا فى اطفاء النور الأحمدي لكنهم ما حصل لهم سوى الخزي التام وعاقبة الأمر لم يبق أثر الشرك فى اقليم العرب وزالت دولة كسرى مطلقا وزالت حكومة أهل الصليب من الشام مطلقا وأما فى الأقاليم الأخر فمن بعضها انمحي أثره مطلقا كبخارى وكابل وغيرها ومن بعضها قل كالهند والسند وغيرها وانتشر التوحيد شرقا وغربا •

البشارة التاسعة : فى الباب الرابع والخمسين من كتاب أشعيا هكذا :

١ « سبحى أيتها العاقر التى لست تلدين انشدى بالحمد وهلى انتى لم تلدى من أجل أن الكثيرين من بنى الوحشة أفضل من بنى ذات رجل يقول الرب » ٢ « أوسعى موضع خيمتك وسرادق مضاربك

أسطى لا تشفقى طول حبالك ثبتي أوتادك « ٣ » لأنك تتفذين يمنة
ويسرة زرعك يرث الأهم ويعمر المدن الخربة « ٤ » لا تخافى لأنك
لا تخزين ولا تخجلين فانك لا تستحيين من أجل أنك خزي صبائك
تقسين وعار ترمك لا تذكرين أيضا « ٥ » فانه يقول عليك الذى
صنعك رب الجنود اسمه وفاديك قدوس اسرائيل اله جميع الأرض
يدعى « ٦ » انما الرب دعاك مثل الامراة المطلقة والحزينة الروح
وزوجة منذ الصبا مردولة قال الهك « ٧ » لساعة فى قليل تركتك وبرحمة
عظيمة أجمعك « ٨ » فى ساعة الغضب أخفيت قليلا وجهى عنك
وبالرحمة الأبدية رحمتك قال فاديك الرب « ٩ » مثلما فى أيام نوح
لى هذا حلفت له أن لا أصب مياه نوح على الأرض هكذا حلفت أن
لا أغضب عليك وأن لا أوبخك « ١٠ » فان الجبال ترتجف والتلال
تزلزل ورحمتى لا تزول عنك وعهد سلامى لا يتحرك قال رحيمك الرب «
١١ » فقيرة مستأصلة بعاصف بلا تعزية ها أنذا أبلط بالرتبة حجارتك
وأونسك بالسفير « ١٢ » وأجعل يسبا محاضك وأبوابك حجارة منقوشة
وجميع حدودك لأحجار مشتهية « ١٣ » جميع بنيك متعلمين من الرب
وكثرة السلام لبنيك « ١٤ » وبالببر تؤسسين فابتعدى من الظلم لأنك
لا تخافين ومن الهيبة لأنها لا تقرب منك « ١٥ » ها يأتى الجار الذى
لم يكن معى والذى قد كان قريبا يقترب منك « ١٦ » ها أنا ذا خلقت
صائغا الذى ينفخ فى النار جمرًا ويخرج اناء لعمله وأنا خلقت قتولا
للاهلاك « ١٧ » كل اناء مجبول ضدك لا ينجح وكل لسان يخالفك فى
القضاء تحكمين عليه هذا هو ميراث عبيد الرب وعدلهم عندى يقول
الرب « اوهه »

فأقول : المراد بالعاقر فى الآية الأولى مكة المعظمة لأنها لم يظهر
منها نبي بعد اسماعيل ولم ينزل فيها وهى بخلاف أورشليم لأنه ظهر
فيها الأنبياء الكثيرون وكثر فيها نزول الوحي • وبنو الوحشة عبارة
عن أولاد هاجر لأنها كانت بمنزلة المطلقة المخرجة عن البيت ساكنة
فى البرية ولذلك وقع فى حق اسماعيل فى وعد الله هاجر « هذا سيكون
انسانا وحشيا » كما هو مصرح به فى الباب السادس عشر من سفر
التكوين • وبنو ذات رجل ، عبارة عن أولاد سارة فخاطب مكة الله آمرا
لها بالتسبيح والتهلل واتشاد الشكر لأجل أن كثيرين من أولاد هاجر
صاروا أفضل من أولاد سارة فحصلت الفضيلة لها بسبب حصول

الفضيلة لأهلها ، ووفى بما وعد بأن بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا أفضل البشر خاتم النبيين من أهلها في أولاد هاجر . وهو المراد بالصائغ الذى ينفخ فى النار جمرا وهو القتل الذى خلق لاهلاك المشركين وحصل لها السعة بواسطة هذا النبى وما حصل لغيرها من المعابد فى الدنيا اذ لا يوجد فى الدنيا معبد مثل الكعبة من ظهور محمد صلى الله عليه وسلم الى هذا الحين والتعظيم الذى يحصل لها من القرابين فى كل سنة من مدة ألف ومائتين وثمانين لم يحصل لبيت المقدس الا مرتين مرة فى عهد سليمان عليه السلام لما فرغ من بنائه ومرة فى السنة الثامنة عشر من سلطنة يوشيا ويبقى هذا التعظيم لمكة الى آخر الدهر ان شاء الله كما وعد الله بقوله : لا تخافى لأنك لا تخزين ولا تخجلين لأنك لا تستحيين . وبقوله : برحمات عظيمة أجمعك وبالرحمة الأبدية رحمتك . وبقوله : حلفت أن لا أغضب عليك وأن لا أوبخك . وبقوله : رحمتى لا تزول عنك وعهد سلامى لا يتحرك . وملك زرعها شرقا وغربا وورثوا الأمم وعبروا المدن فى مدة قليلة لا تتجاوز اثنين وعشرين سنة من الهجرة ومثل هذه الغلبة فى مثل هذه المدة القليلة لم يسمع من عهد آدم عليه السلام الى زمان محمد عليه السلام لمن يدعى الدين الجديد وهذا مفاد قول الله : وزرعك يرث الأمم ويعمر المدن المخربة . سلاطين الاسلام سلفا وخلفا اجتهدوا اجتهدا تاما فى بناء الكعبة والمسجد الحرام وتزيينهما وحفر الآبار والبرك والعيون فى مكة ونواحيها والغرباء يحبون مجاورتها من ظهور الاسلام الى هذا الحين سيما فى هذا الزمان وألوف من الناس يصلون اليها فى كل سنة من أقاليم مختلفة وديار بعيدة ووفى بما وعد بقوله : « كل ائنا مجبول بضدك لا ينجح » لأن كل شخص من المخالف قام بضدها أذله الله كما وقع بأصحاب الفيل . . .

البشارة العاشرة :

فى الباب الخامس والستين من كتاب أشعيا هكذا :

١ « طلبنى الذين لم يسألونى قبل

ووجدنى الذين لم يطلبونى

قلت ها أنذا الى الأمة الذين لم يدعوا باسمى » .

٢ « بسطت يدي طول النهار

الى شعب غير مؤمن

الذى يسلك بطريق غير صالح وراء أفكارهم » •

٣ « الشعب الذى يغضبني أمام وجهي دائما » •

« الذين يذبحون في البساتين ويذبحون على اللبن » ٤ « الذين يسكنون في القبور في مساجد الأوثان يرقدون الذين يأكلون لحم الخنزير والمرق المنجس في آنياتهم » ٥ « الذين يقولون ابعده عني لا تقرب مني لأنك نجس هؤلاء يكونون دخانا في رجزى نارا متقدة طول النهار » ٦ « ها مكتوب قدامي لا أسكت بل أرد وأكافي جزاء في حضهم » فالمراد بالذين لم يسألوني والذين لم يطلبوني العرب لأنهم كانوا غير واقفين على ذات الله وصفاته وشرائعه فما كانوا سائلين عن الله وطلابين له كما قال الله تعالى في سورة آل عمران : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » (آل عمران : ١٦٤) ولا يجوز أن يراد بهم اليونانيون كما عرفت في البشارة الثانية ، والوصف المذكور في الآية الثانية والثالثة يصدق على كل واحد من اليهود والنصارى ، والأوصاف المذكورة في الآية الرابعة ألصق بحال النصارى ، كما أن الوصف المذكور في الخامسة ألصق بحال اليهود فردهم الباري واختار الأمة المحمدية •

البشارة الحادية عشرة : في الباب الثاني من كتاب دانيال في حال الرؤيا التي رآها بختنصر ملك بابل ونسى ثم بين دانيال عليه السلام بحسب الوحي تلك الرؤيا وتفسيرها : ٣١ « فكنيت أنت الملك وترى واذ تمثال واحد جسيم وكان التمثال عظيما ورفيع القامة واقفا قبالك ومنظره مخوفا » ٣٢ « رأس هذا التمثال هو من ذهب ابريز والصدر والذراعان من فضة والبطن والفخذان من نحاس » ٣٣ « والساقان من حديد والقدمان قسم منهما من حديد وقسم منهما من خزف » ٣٤ « فكنيت ترى هكذا حتى انقطع حجر من جبل لا بيدين وضرب التمثال في قدميه من حديد ومن خزف فسحقهما » ٣٥ « فانسحق حينئذ مع الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب وصارت كغبار البيدر في الصيف فذرتها الريح ولم يوجد لها مكان والحجر الذي قد ضرب التمثال صار جبلا عظيما وملا الأرض بأسرها » ٣٦ « فهذا هو الحلم

وتتبعى أيضا قدامك يا أيها الملك بتفسيره « ٣٧ » أنت هو ملك الملوك
واله السماء أعطاك الملك والقوة والسلطان والمجد « ٣٨ » وجميع ما يسكن
فيه بنو الناس ووحوش الحقل وأعطى بيدك طير السماء أيضا وأجعل
الأشياء تحت سلطانك فأنت هو الرأس من الذهب « ٣٩ » وبعدك
تقوم مملكة أخرى أصغر منك من فضة ومملكة ثالثة أخرى من نحاس
وتتسلط على جميع الأرض « ٤٠ » والمملكة الرابعة تكون مثل الحديد
كما أن الحديد يسحق ويغلب الجميع هكذا هي تسحق وتكسر جميع
هذه « ٤١ » أما فيما رأيت قسم القدمين وأصابعهما من الخزف
انفاخورى وقسما من حديد تكون المملكة مفترقة وإن كان يخرج من
نسبة الحديد حسبما رأيت الحديد مختلطا بالخزف من طين «
٤٢ » وأصابع القدمين قسم من حديد وقسم من خزف فتكون المملكة
بقسم صلبة ويقسم مسحوقة « ٤٣ » فيما رأيت الحديد مختلطا بالخزف
من طين انهم يختلطون بزرع بشرى بل لا يتلاصقون مثل ما ليس
بممكن أن يمتزج الحديد بالخزف « ٤٤ » فأما في أيام تلك الممالك
بيعت اله السماء مملكة وهي لن تنقضى قط ملكها لا يعطى لشعب
آخر وهي تسحق وتفتنى جميع هذه الممالك أجمعين وهي تثبت الى
الأبد « ٤٥ » وكما رأيت أن من جبل انقطع حجر لا بيدين وسحق
الخزف والحديد والنحاس والفضة والذهب فالاله العظيم أظهر للملك
ما سيأتى من بعد والحلم هو حقيقى وتفسيره صحيح « ٤٥ »

فالمراد بالمملكة الأولى سلطنة بختنصر وبالمملكة الثانية سلطنة
المسدين الذين تسلطوا بعد قتل بلشاصر بن بختنصر هو مصرح به
في الباب الخامس من الكتاب المذكور وسلطنتهم كانت ضعيفة بالنسبة
الى سلطنة الكلدانيين والمراد بالمملكة الثالثة سلطنة الكيانيين لأن
قورش ملك ايران الذى هو بزعم القسيسين كيخسر وتسلط على بابل
قبل ميلاد المسيح بخمسمائة وست وثلاثين سنة ولما كان الكيانيون
على السلطنة القاهرة فكانهم كانوا متسلطين على جميع الأرض ،
والمراد بالمملكة الرابعة سلطنة اسكندر بن فيلفوس الرومى الذى تسلط
على ديار فارس قبل ميلاد المسيح بثلاثمائة وثلاثين سنة ، فهذا
السلطان كان فى القوة بمنزلة الحديد ثم جعل هذا السلطان سلطنة
فارس منقسمة على طوائف الملوك فبقيت هذه السلطنة ضعيفة الى
ظهور الساسانيين ثم صارت قوية بعد ظهورهم فكانت ضعيفة تارة

وقوية تارة وتولد في عهد انوشيروان « محمد بن عبد الله » صلى الله عليه وسلم وأعطاه الله السلطنة الظاهرية والباطنية وقد تسلط متبعوه في مدة قليلة شرقا وغربا وعلى جميع ديار فارس التي كانت هذه الرؤيا وتفسيرها متعلقين بها ، فهذه هي السلطنة الأبدية التي لا تنتقض وملكها لا يعطى لشعب آخر ..

فهذا الحجر الذي انقطع لا بيدين من جبل وسحق الخزف والحديد والنحاس والفضة والذهب وصار جبلا عظيما وملا الأرض بأسرها هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

البشارة الثانية عشرة : نقل يهوذا الحواري في رسالته الخبر الذي تكلم به أخنوخ الرسول .. وأنا أنقل عبارته من الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ :

« الرب قد جاء في ربواته المقدسة ليدائن الجميع ويبكت جميع المنافقين غنى كل أعمال نفاقهم التي نافقوا فيها وعلى كل الكلام الصعب الذي تكلم به ضد الله الخطاة المنافقون » .

فجاء محمد في ربواته المقدسة فدان الكفار وبكت المنافقين والخطاة على أعمال النفاق وعلى أقوالهم القبيحة في الله ورسله فبكت المشركين لعدم تسليم توحيد الله ورسالة رسله مطلقا وعبادتهم الأصنام والأوثان ، وبكت اليهود على تفريطهم في حق عيسى ومريم عليهما السلام ، وبعض عقائدهم الواهية وبكت أهل التثليث مطلقا على تفريطهم في توحيد الله وإفراطهم في حق عيسى عليه السلام ، وبكت أكثرهم على عبادة الصليب والتماثيل وبعض عقائدهم الواهية .

البشارات : الثالثة عشر والرابعة عشر والخامسة عشر :

ملاحظة : لقد تصرفنا هنا في الكلام فدمجنا البشارات الثلاث وصغناها صياغة مختصرة مع أنه ذكر كلا على انفراد وشرح كلا ولكننا رأينا أن الموضوع واحد فدمجنا وأحببنا الاختصار .

في الباب الثالث عشر من انجيل متى هكذا :

٣١ « قدم لهم مثلا آخر قائلا : يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها انسان وزرعها في حقله » ٣٢ « وهي أصغر جميع البذور ولكن متى نمت فهي أكبر البقول وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتي وتأوى في أغصانها » ا.هـ .

وفي الباب العشرين من انجيل متى هكذا :

١٠ « فان ملكوت السموات يشبه رجلا رب بيت خرج من الصبح ليستأجر فعلة لكرمه فاتفق مع العملة على دينار في اليوم وأرسلهم لى كرمه ثم خرج نحو الساعة الثالثة ورأى آخرين قياما فى السوق بطالين فقال لهم : اذهبوا أنتم أيضا الى الكرم فأعطىكم ما يحق لكم فمضوا وخرج أيضا نحو الساعة السادسة والتاسعة وفعل كذلك ثم نحو الساعة الحادية عشرة خرج ووجد آخرين قياما بطالين فقال لهم لماذا وقفتم هنا كل النهار بطالين قالوا له : لأنه لم يستأجرنا أحد قال لهم اذهبوا أنتم أيضا ، الى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله ادع العملة وأعطهم الأجرة مبتدئا من الآخرين الى الأولين فجاء أصحاب الساعة الحادية عشر وأخذوا دينارا دينارا فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر فأخذوا هم أيضا دينارا دينارا وفيما هم يأخذون تدمروا على رب البيت قائلين هؤلاء الآخرون عملوا ساعة واحدة وقد ساويتهم بنا ، نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر فأجاب وقال لواحد منهم : يا صاحب .. ما ظلمتك أما اتفقت معى على دينار فخذ الذى لك واذهب فانى أريد أن أعطى هذا الأخير مثلك أو ما يحل لى أن أفعل ما أريد بمالى أم عينك شريرة لأنى أنا صالح ، هكذا يكون الآخرون أولين والأولون آخرين لأن كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون » •

وفي الباب الثالث عشر من انجيل متى :

« يشبه ملكوت السموات انسانا زرع زرعاً جيداً فى حقله » •

« يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها انسان وزرعها فى حقله » •

« يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها فى ثلاثة أكياس دقيق حتى اختمر الجميع » •

وفي الباب الحادى والعشرين من انجيل متى هكذا :

« لذلك أقول ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره » •

وفي الباب الثالث من انجيل متى هكذا :

١١ « وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية

قائلا : توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » •

وفي الباب الرابع من انجيل متى هكذا :

١٢ « ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف الى الجليل من ذلك الزمان ابتداء يسوع يكرز ويقول : « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » .

هذه النصوص كلها تشير الى نبوة محمد عليه السلام .

فالأمة البطالة التي هي الأخيرة والأولى هي أمته .

والأمة التي ورثت ملكوت الله وعملت أثماره هي أمته .

وحبة الخردل التي هي أصغر البذور ثم أصبحت أكبر الشجر هي أمته . وهكذا لا يمكن أن تفهم هذه النصوص فهما مستقيما الا اذا طبقتها على محمد رسول الله وأمته .

البشارة السادسة عشر : في الباب الحادي والعشرين من انجيل متى هكذا :

٣٣ « اسمعوا مثلا آخر : كان انسان رب بيت غرس كرما وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجاً وسلمه الى كرامين وسافر ولما قرب وقت الاثمار أرسل عبده الى الكرامين وسافر ليأخذ أثماره فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ورجموا بعضا ثم أرسل أيضا عبدا آخرين أكثر من الأولين ففعلوا بهم كذلك ، فأخيرا أرسل اليهم ابنه قائلاً يهابون ابني ، وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم : هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه » . . .

٤٠ « فمتى جاء صاحب الكرم فماذا يفعل بأولئك الكرامين »

٤١ « قالوا له : أولئك الأردياء يهلكهم هلاكاً ردياً ويسلم الكرم الى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها » ٤٢ « قال لهم يسوع : أما قرأتم قط في الكتب : الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا » ٤٣ « لذلك أقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره » ٤٤ « ومن سقط على هذا الحجر يترفض ومن سقط هو عليه يسحقه » ٤٥ « ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم » . . .

أقول : ان رب البيت كناية عن الله والكرم كناية عن الشريعة وأحاطته بسياج وحفر المعصرة فيه وبناء البرج كنايات عن بيان المحرمات والمباحات والأوامر والنواهي وان الكرامين الطاغين كناية عن اليهود ،

وكما فهم رؤساء الكهنة والفريسيون أنه تكلم عليهم والعبيد المرسلين كناية عن الأنبياء عليهم السلام ، والابن كناية عن عيسى عليه السلام ، وقد عرفت في الباب الرابع أنه لا بأس باطلاق هذا اللفظ عليه وقد قتله اليهود أيضا في زعمهم ، والحجر الذي رفضه البنائون كناية عن محمد

وهذا هو الحجر الذي كل من سقط عليه ترضض وكل من سقط هو عليه سحقه ، وما ادعى العلماء المسيحية بزعمهم أن هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام فغير صحيح لوجوه :
الأول : أن داوود عليه السلام قال في الزبور المائة والثامن عشر هكذا :

« الحجر الذي رذله البنائون هو صار رأسا للزاوية » ٢٣ « من قبل الرب كانت هذه وهي طجيية في أعيننا » فلو كان هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام وهو من اليهود من آل يهوذا من آل داوود عليه السلام فأى عجب في أعين اليهود عموما لكون عيسى عليه السلام رأس الزاوية سيما في عين داوود عليه السلام خصوصا لأن مزعوم المسيحيين أن داوود عليه السلام يعظم عيسى عليه السلام في مزاميره تعظيما بليغا ويعتقد الألوهية في حقه ، بخلاف آل اسماعيل ، لأن اليهود كانوا يحقرون أولاد اسماعيل غاية التحقير ، وكان كون أحد منهم رأسا للزاوية عجيبا في أعينهم .

والثاني : أنه وقع في وسط هذا الحجر كل من سقط على هذا الحجر ترضض وكل من سقط هو عليه سحقه ولا يصدق هذا الوصف على عيسى عليه السلام لأنه قال : « وان سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه لأنى لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم » كما هو في الباب الثاني عشر من انجيل يوحنا ، وصدقه على محمد غير محتاج إلى البيان لأنه كان مأمورا بتتبيه الفجار والأشرار فان سقطوا عليه ترضضوا وان سقط هو عليهم سحقهم .

الثالث : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مثلى ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بنيانه وترك منه موضع لبنة فطاف به الناظر يتعجبون من حسن بنيانه الا موضع تلك اللبنة ختم بى البنيان وختم بى الرسل » ولما ثبتت نبوته بالأدلة الأخرى كما ذكرت نبذا منها في المسالك السابقة فلا بأس بأن استدل في هذه البشارة بقوله أيضا .

والرابع : أن المتبادر من كلام المسيح أن هذا الحجر غير الابن •
البشارة السابعة عشر : في الباب الثاني من المشاهدات هكذا :
٢٦ « ومن يغلب ويحفظ أعماله الى النهاية فسأعطيه سلطانا على
الأمم فيرفعهم بقضيب من حديد كما تكسر آنية من خزف كما أخذت
أيضا من عند أبى وأعطيه كوكب الصبح ، من له أذنان فليسمع ما يقول
الروح بالكائنات » •

ونصوغ بعض تحليله لهذه البشارة باختصار :

« ان صاحب قضيب الحديد الذى يرعى به الأمم رسول الله
صلى الله عليه وسلم اذ اجتمع له سلطان الدين والدنيا ولخلفائه
الراشدين ودول المسلمين »

والكنيسة المذكورة بأنها ستعطى له اسمها الأصلي « تياثيرا » كما
قال القسيسان « ويت ووليم » اللذان ناظرا صاحب كتاب « صولة
الضيغم » وهذه الكنيسة قريبة من القسطنطينية التى حكمها المسلمون
من مئات السنين •

البشارة الثامنة عشر : وهذه البشارة واقعة في آخر أبواب انجيل
يوحنا وأنا أنقل عن التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١
وسنة ١٨٤٤ في بلدة لندن فأقول في الباب الرابع عشر من انجيل
يوحنا هكذا :

١٥ « ان كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الآب
فيعطىكم فارقليط آخر ليثبت معكم الى الأبد روح الحق الذى لن يطيق
العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ولا يعرفه وأنتم تعرفونه لأنه مقيم
عندكم وهو ثابت فيكم » ٢٦ « والفارقليط روح القدس الذى يرسله
الآب باسمى وهو يعلمكم كل شئ وهو يذكركم كل ما قلته لكم »
٣٠ « والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى اذا كان مؤمنون » •••

وفي الباب السادس عشر من انجيل يوحنا هكذا : ٧ « لكنى أقول
لكم الحق انه خير لكم أن أنطلق لأنى ان لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط
فأما ان انطلقت أرسلته اليكم » ٨ « فاذا جاء ذاك فهو يوبخ العالم
على خطية وعلى بر وعلى حكم » ٩ « أما على الخطية فلأنهم لم
يؤمنوا بى » ١٠ « وأما على البر فلأنى منطلق الى الآب ولستم
تروننى بعد » ١١ « وأما على الحكم فان اركون هذه قد دين » ١٢ « وان
لى كلاما كثيرا أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن » ١٣ « واذا

جاء روح الحق ذلك فهو يعلمكم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتي « ١٤ » وهو لمجدني لأنه يأخذ مما هو لي ويخبركم » .

وأنا أقدم قبل بيان وجه الاستدلال بهذه العبارات أمرين :
الأمر الأول : انك عرفت في الأمر السابع أن أهل الكتاب سلفا وخلفا عادتهم أن يترجموا غالباً الأسماء وأن عيسى عليه السلام كان يتكلم باللسان العبراني لا باليوناني ، فاذن لا يبقى شك في أن الانجيل الرابع ترجم اسم المشر به باليوناني بحسب عادتهم ، ثم مترجمو العربية عربوا اللفظ اليوناني « بفارقليط » وقد وصلت الى رسالة صغيرة في لسان أردو من رسائل القسيسين في سنة ألف ومائتين وثمان وستين من الهجرة وكانت هذه الرسالة طبعت في كلكتة وكانت في تحقيق لفظ « فارقليط » وادعى مؤلفها أن مقصوده أن ينبه المسلمين على سبب وقوعهم في الغلط من لفظ « فارقليط » وكان ملخص كلامه : أن هذا اللفظ معرب من اللفظ اليوناني فان قلنا : ان هذا اللفظ اليوناني الأصل باراكلي طوس فيكون بمعنى المعزي والمعين والوكيل ، وان قلنا ان اللفظ الأصلي بيركلوطوس يكون قريبا من معنى محمد وأحمد ، فمن استدل من علماء الاسلام بهذه البشارة فهم أن اللفظ الأصلي بيركلوطوس ومعناه قريب من معنى محمد وأحمد فادعى أن عيسى عليه السلام أخبر بمحمد أو أحمد لكن الصحيح أنه باراكلي طوس . انتهى ملخصا من كلامه فأقول : ان التفاوت بين اللفظين يسير جدا وان الحروف اليونانية كانت متشابهة فتبدل بيركلو طوس بـ باراكلي طوس في بعض النسخ من الكاتب قريب القياس ثم رجع أهل التثليث المفكرين هذه النسخة على النسخ الآخر ومن تأمل في الباب الثاني من هذا الكتاب والأمر السابع من هذا المسلك السادس بنظر الانصاف اعتقد يقينا بأن مثل هذا الأمر من أهل الديانة من أهل التثليث ليس بعيد بل لا يبعد أن يكون من المستحسنات والأمر الثاني أن البعض ادعوا قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلم أنهم مصاديق لفظ « فارقليط » مثلا منتسب المسيحى الذى كان في القرن الثانى من الميلاد ، وكان مرتاضا شديدا واتقى عهده ، ادعى في قرب سنة ١٧٧ من الميلاد في آسيا الصغرى الرسالة وقال اننى هو الفارقليط الموعود به الذى وعد بمجيئه عيسى عليه السلام وتبعه أناس كثيرون ، ذلك

كما هو مذكور في بعض التواريخ ، وذكر وليم ميور حاله وحال متبعيه في القسم الثاني من الباب الثالث من تاريخه بلسان اردو المطبوع سنة ١٨٤٨ من الميلاد هكذا :

« ان البعض قالوا انه ادعى انى فارقليط ، يعنى المعزى روح القدس وهو كان اتقى ومرتاضا شديدا ولأجل ذلك قبله الناس قبولا زائدا » انتهى كلامه .. فعلم أن انتظار فارقليط كان في القرون الأولى من المسيحية أيضا ، ولذلك كان الناس يدعون أنهم مصاديقه وكان المسيحيون يقبلون دعاويهم وقال صاحب « لب التواريخ » : « ان اليهود والمسيحيين من معاصري محمد — صلى الله عليه وسلم — كانوا منتظرين لنبي فحصل لمحمد من هذا الأمر نفع عظيم لأنه ادعى انى هو ذاك المنتظر » انتهى ملخص كلامه .

فيعلم من كلامه أيضا أن أهل الكتاب كانوا منتظرين لخروج نبي في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وهو الحق لأن النجاشي ملك الحبشة لما وصل اليه كتاب محمد صلى الله عليه وسلم « فقال أشهد بالله أنه للنبي الذي ينتظره أهل الكتاب » وكتب في الجواب : « أشهد أنك رسول الله صادقا ومصدقًا وقد بايعتك وبايعت ابن عمك — أى جعفر ابن أبى طالب — وأسلمت على يديه لله رب العالمين » .

وهذا النجاشي قبل الاسلام كان نصرانيا ، وكتب المقوقس ملك القبط في جواب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم هكذا : « لمحمد ابن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك .
أما بعد ..

فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو اليه وقد علمت أن نبيا قد بقى وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك » . والمقوقس هذا وان لم يسلم لكنه أقر في كتابه انى قد علمت أن نبيا قد بقى وكان نصرانيا . فهذان الملكان ما كانا يخافان في ذلك الوقت من محمد صلى الله عليه وسلم لأجل شوكته الدنيوية ، وجاء الجارود بن العلاء في قومه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « والله لقد جئت بالحق ونطقت بالصدق والذي بعثك بالحق نبيا لقد وجدت وصفك في الانجيل وبشرك ابن البتول فطول التحية لك والشكر نن أكرمك لا أثر بعد عين ولا شك بعد يقين ، مد يدك فأنا أشهد أن لا اله الا الله وأنت محمد رسول الله » ثم آمن قومه .

وهذا الجارود كان من علماء النصارى وقد أقر بأنه قد بشر بك ابن لبتول ، أى عيسى عليه السلام ، فظهر أن المسيحيين أيضا كانوا منتظرين لخروج نبي بشر به عيسى عليه السلام .

فاذا علمت ذلك ، فأقول ان اللفظ العبرانى الذى قاله عيسى عليه السلام مفقود واللفظ اليونانى الموجود ترجمة لكى أترك البحث عن الأصل وأتكم عن هذا اللفظ اليونانى وأقول ان كان اللفظ اليونانى الأصل بيركلوطوس فالأمر ظاهر وتكون بشارة المسيح فى حق محمد صلى الله عليه وسلم بلفظ هو قريب من محمد وأحمد وهذا وان كان قريب القياس بلحاظ عاداتهم لكى أترك هذا الاحتمال لأنه لا يتم عليهم الزاما ، وأقول ان كان اللفظ اليونانى الأصل باراكلى طوس كما يدعون فهذا لا ينافى الاستدلال أيضا لأن معناه المعزى والمعين والوكيل على ما بين صاحب الرسالة أو الشافع كما يوجد فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وهذه المعانى كلها تصدق على محمد صلى الله عليه وسلم وأنا أبين الآن أولا أن المراد بفارقليط النبي المبشر به ، أعنى محمد صلى الله عليه وسلم لا الروح النازل على تلاميذ عيسى عليه السلام يوم الدار الذى جاء ذكره فى الباب الثانى من كتاب الأعمال وأذكر ثانيا شبهات العلماء المسيحية وأجيب عنها فأقول : أما الأول فيدل عليه أمور :

١ - أن عيسى عليه السلام قال أولا : « ان كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى » ، ثم أخبر عن فارقليط ، فمقصوده عليه السلام أن يعتقد السامعون بأن ما يلقي عليهم بعد ضرورى واجب الرعاية ، فلو كان فارقليط عبارة عن الروح النازل يوم الدار لما كانت الحاجة الى هذه الفقرة لأن ما كان مضمونا أن يستبعد الحواريون نزول الروح عليهم مرة أخرى لأنهم كانوا مستقيضين به من قبل أيضا ، بل لا مجال للاستبعاد وأيضا لأنه اذا نزل على قلب أحد وحل فيه يظهر أثره لا محالة ظهورا بينا فلا يتصور انكار المتأثر منه وليس ظهوره عندهم فى صورة يكون فيه مظنة يكون الاستبعاد فهو عبارة عن النبي المبشر به . فحقيقة الأمر أن المسيح عليه السلام لما علم بالتجربة وينور النبوة أن الكثيرين من أمته ينكرون النبي المبشر به عند ظهوره فأكد أولا بهذه الفقرة ثم أخبر عن مجيئه .

٢ - أن هذا الروح على زعمهم متحد بالأب مطلقا وبالأبن نظرا

الى لاهوته اتحادا حقيقيا فلا يصدق في حقه فارقليط آخر ، بخلاف
النبي المبشر به فانه يصدق هذا القول في حقه بلا تكلف .

٣ — أن الوكالة والشفاعة من خواص النبوة لا من خواص هذا
الروح المتحد بالله — على زعمهم — فلا يصدقان على الروح ويصدقان
على النبي المبشر به بلا تكلف .

٤ — أن عيسى عليه السلام قال : « هو يذكركم كل ما قلته
لكم » ولم يثبت من رسالة من رسائل العهد الجديد أن الحواريين
كانوا قد نسوا ما قاله عيسى عليه السلام . وهذا الروح النازل يوم
الدار ذكرهم اياه .

٥ — أن عيسى عليه السلام قال : « والآن قد قلت لكم قبل أن
يكون حتى اذا كان تؤمنون » . وهذا يدل على أن المراد به ليس
الروح لأنك قد عرفت في الأمر الأول أنه ما كان عدم الايمان مظنونا
منهم وقت نزوله بل لا مجال للاستبعاد أيضا فلا حاجة الى هذا
القول ، فلو أردنا به النبي المبشر به يكون هذا الكلام في محله وفي غاية
الاستحسان لأجل التأكيد مرة ثانية .

٦ — أن عيسى عليه السلام قال : « هو يشهد لأجلي » وهذا
الروح ما شهد لأجله بين يدي أحد لأن تلاميذه الذين نزل عليهم
ما كانوا محتاجين الى الشهادة لأنهم كانوا يعرفون المسيح حق المعرفة
قبل نزوله أيضا فلا فائدة للشهادة بين أيديهم والمنكرون الذين كانوا
محتاجين للشهادة فهذا الروح ما شهد بين أيديهم ، بخلاف محمد
صلى الله عليه وسلم فانه شهد لأجل المسيح عليه السلام وصدقه
وبرأه عن ادعاء الألوهية الذي هو أشد أنواع الكفر والضلال وبرأ
أمه عن تهمة الزنا وجاء ذكر براعتهما في القرآن في مواضع متعددة
وفي الأحاديث في مواضع غير محصورة .

٧ — أن عيسى عليه السلام قال : « وأنتم تشهدون أيضا لأنكم معي
من الابتداء » وهذه الآية في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦
هكذا : « وتشهدون أنتم أيضا لأنكم كنتم معي من الابتداء » وفي
الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦١ هكذا : « وتشهدون أنتم أيضا
لأنكم معي من الابتداء » . فيوجد في هذه التراجم الثلاث لفظ « أيضا »
وكذا يوجد في التراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨
وسنة ١٨٤١ وفي ترجمة أردو المطبوعة سنة ١٨١٤ ترجمة لفظ « أيضا »

غلفظ « أيضا » سقط من التراجم التي نقلت عنها عبارة يوحنا سبوا أو قصدا . فهذا القول يدل دلالة ظاهرة على أن شهادة الحواريين غير شهادة فارقليط ، فلو كان المراد به الروح النازل يوم الدار فلا توجد مغايرة الشهادتين لأن الروح المذكور لم يشهد شهادة مستقلة غير شهادة الحواريين بل شهادة الحواريين هي شهادته بعينها . فلا يصح هذا القول بخلاف ما اذا كان المراد به النبي المبشر به فان شهادته غير شهادة الحواريين .

٨ — أن عيسى عليه السلام قال : « ان لم أنطق لم يأتكم الفارقليط فأما ان انطلقت أرسلته اليكم » .

فعلق مجيئه بذهابه وهذا الروح عندهم نزل على الحواريين في حضوره لما أرسلهم الى البلاد الاسرائيلية فنزوله ليس مشروط بذهابه فلا يكون مرادا بفارقليط ، بل المراد به شخص لم يستفرض منه أحد من الحواريين قبل زمان صعوده وكان مجيئه موقوفا على ذهاب عيسى عليه السلام ، ومحمد صلى الله عليه وسلم كان كذلك لأنه جاء بعد ذهاب عيسى عليه السلام وكان مجيئه موقوفا على ذهاب عيسى عليه السلام لأن وجود رسولين ذوى شريعتين مستقلتين في زمان واحد غير جائز بخلاف ما اذا كان الآخر متبعا لشريعة الأول أو يكون كل من الرسل متبعا لشريعة واحدة لأنه يجوز في هذه الصورة وجود اثنين أو أكثر في زمان واحد ومكان واحد كما ثبت وجودهم ما بين زمان موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام .

٩ — أن عيسى عليه السلام قال : « يوبخ العالم » فهذا القول بمنزلة النص الجلى لمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه وبخ العالم سيما اليهود على عدم ايمانهم بعيسى عليه السلام توبيخا لا يشك فيه الا معاند بحت ، وبخلاف الروح النازل يوم الدار فان توبيخه لا يصح على أصول أحد ، وما كان التوبيخ منصب الحواريين بعد نزوله أيضا لأنهم كانوا يدعون الى الملة بالترغيب والوعظ وما قال « رانكين » في كتابه المسمى بـ « دافع البهتان » الذي هو بلسان أردو في رده على خلاصة صولة الضيغم : « ان لفظ التوبيخ لا يوجد في الانجيل ولا في ترجمة من تراجم الانجيل ، وهذا المستدل أورد هذا اللفظ ليصدق على محمد صدقا بينا لأجل أن محمدا صلى الله عليه وسلم وبخ وهدد كثيرا الا أن مثل هذا التغليظ ليس من شأن المؤمنين والخائفين من الله » . انتهى كلامه فمردود .

وهذا القسيس اما جاهل غلط أو مغلط ليس له ايمان ولا خوف من الله لأن هذا اللفظ يوجد في التراجم العربية المذكورة التي نقلت عنها عبارة يوحنا ومن الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا : « ومتى جاء ذاك ييكت العالم على خطية الخ » وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ وفي التراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ و ١٨٤١ يوجد لفظ الالزام ، ولفظ التبكيث والالزام أيضا قريبان من التوبيخ لكن لا شكاية منه لأن مثل هذا الأمر من عادات علماء بروتستنت ولذلك ترى أن مترجمي الفارسية وأردو تركوا لفظ « فارقليط » لشهرته عند المسلمين في حق محمد صلى الله عليه وسلم ومترجم ترجمة أردو المطبوعة سنة ١٨٣٩ فان هؤلاء أسلافه أيضا حيث أرجع الى الروح ضمائر المؤنث ليحصل الاشتباه للعوام أن مصداق هذا اللفظ مؤنث وليس بمذكر .

١٠ — قال عيسى عليه السلام : « أما على الخطية فلأنهم لم يؤمنوا بي » وهذا يدل على أن فارقليط يكون ظاهرا على منكرى عيسى عليه السلام موبخا لهم على عدم الايمان به ، والروح النازل يوم الدار ما كان ظاهرا على الناس موبخا لهم .

١١ — قال عيسى عليه السلام : « ان لى كلاما كثيرا أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حظه الآن » وهذا ينافي ارادة الروح النازل يوم الدار لأنه ما زاد حكما على أحكام عيسى عليه السلام لأنه على زعم أهل التثليث كان أمر الحواريين بعقيدة التثليث وبدعوة أهل العالم كنه فأى أمر حصل لهم أزيد من أقواله التي قال لهم الى زمان صعوده ، نعم بعد نزول هذا الروح أسقطوا جميع أحكام التوراة التي هي ما عدا بعض الأحكام العشرة المذكورة في الباب العشرين من سفر الخروج وحللوها جميع المحرمات وهذا الأمر لا يجوز في حقه أن يقال انهم ما كانوا يستطيعون حمله لأنهم استطاعوا حمل سقوط حكم تعظيم السبت الذي هو أعظم أحكام التوراة الذي كان اليهود ينكرون كون عيسى عليه السلام مسيحا موعودا به لأجل عدم مراعاته هذا الحكم فقبول سقوط جميع الأحكام كان أهون عندهم ، نعم قبول زيادة الأحكام لأجل ضعف الايمان وضعف القوة الى زمان صعوده كما يعترف به علماء بروتستنت كان خارجا عن استطاعتهم فظهر أن المراد بفارقليط نبى تتراد في شريعته أحكام بالنسبة الى الشريعة العيسوية ويثقل حملها على المكلفين الضعفاء وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

١٢ — أن عيسى عليه السلام قال : « ليس ينطق من عنده بل يتكلم كل ما يسمع » وهذا يدل على أن فارقليط يكون بحيث يكذبه بنو إسرائيل فاحتاج عيسى عليه السلام أن يقرر حال صدقه فقال هذا القول ولا مجال لمظنة التكذيب في حق هذا الروح النازل يوم الدر على أن هذا الروح عندهم عين الله فلا معنى لقوله : بل يتكلم بما يسمع • فمصادقه محمد صلى الله عليه وسلم فانه كان في حقه مظنة التكذيب ، وليس هو عين الله وكان يتكلم بما يوحى اليه كما قال الله تعالى : « وما ينطق عن الهوى • ان هو الا وحي يوحى » (النجم : ٣ ، ٤) وقال : « ان اتبع الا ما يوحى الى » (الأنعام : ٥٠) •

١٣ — أن عيسى عليه السلام قال : « انه يأخذ مما هو لى » وهذا لا يصدق على الروح لأنه عند أهل التثليث قديم وغير مخلوق وقادر مطلق ليس له كمال منتظر بل كل كمال من كمالاته حاصل له بالفعل ، فلا بد أن يكون الموعود به من الجنس الذى يكون له كمال منتظر ، ولما كان هذا الكلام موهما أن يكون هذا النبى متبعا لشريعته دفعه بقوله فيما بعد : « جميع ما للأب فهو لى فلأجل هذا قلت مما هو لى يأخذ » يعنى أن كل شىء يحصل لفارقليط من الله فكأنه يحصل منى كما اشتهر من كان لله كان الله له ، فلأجل هذا قلت : ان مما هو لى يؤخذ •

وأما الثانى : أعنى الشبهات التى توردها علماء بروتستنت فخمسة :

الشبهة الأولى : جاء فى هذه العبارة تفسير « فارقليط » بروح القدس وروح الحق وهما عبارتان فى الأقنوم الثالث فكيف يصح أن يراد « بفارقليط » محمد — صلى الله عليه وسلم — ؟

أقول فى الجواب : ان صاحب « ميزان الحق » يدعى فى تأليفاته كون ألفاظ روح الله وروح القدس وروح الحق وروح الصدق وروح قم الله بمعنى واحد ، قال فى الفصل الأول الباب الثانى من مفتاح الأسرار فى الصفحة ٥٣ من النسخة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٥٠ : « ان لفظ روح الله ولفظ روح القدس فى التوراة والانجيل بمعنى واحد » انتهى •

فادعى أن هذين اللفظين يستعملان بمعنى واحد فى العهدين وتال فى حل الاشكال فى جواب كشف الأستار : « من له شعور ما بالتوراة

والانجيل فهو يعرف أن ألفاظ روح القدس وروح الحق وروح فم الله وغيرها بمعنى روح الله ، فلذلك ما رأيت اثباته ضروريا « انتهى » .

فاذا ما عرفت هذا القول نحن نقطع النظر عن صحة ادعائه وعدم صحته هاهنا ونسلم ترادف هذه الألفاظ على زعمه لكننا ننكر أن استعمالها في كل موضع من مواضع العهدين بمعنى الأقتنوم الثالث ونقول قولا مطابقا لقوله : من له شعور ما يكتب العهدين يعرف أن هذه الألفاظ تستعمل في غير الأقتنوم الثالث كثيرة ، في الآية الرابعة عشر من الباب السابع والثلاثين من كتاب حزقيال قول الله تعالى في خطاب ألوف من الناس الذين أحياهم بمعجزة حزقيال عليه السلام هكذا : « فأعطى فيكم روحى » ففى هذا القول روح الله بمعنى النفس الناطقة الانسانية لا بمعنى الأقتنوم الثالث الذى هو عين الله على زعمهم .

وفى الباب الرابع من الرسالة الأولى ليوحنا هكذا : ترجمة عربية سنة ١٧٦٠ : ١ « أيها الأحباء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هى من الله ، لأن الأنبياء الكذبة كثيرون قد خرجوا الى العالم » .

٢ « بهذا تعرفون روح الله كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد فهو من الله » .

٦ « نحن من الله فمن يعرف الله يسمع لنا ومن ليس من الله لا يسمع لنا من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال » .

وهذه الجملة الواقعة فى الآية الثانية : « بهذا تعرفون روح الله » وفى التراجم الأخر هكذا ترجمة عربية سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ « وبهذا يعرف روح الله » ترجمة عربية سنة ١٨٢٥ « فانكم تميزون روح الله » ولفظ روح الله فى الآية الثانية ولفظ روح الحق فى الآية السادسة بمعنى الواعظ الحق لا بمعنى الأقتنوم الثالث ولذلك ترجم مترجم ترجمة أردو المطبوعة سنة ١٨٤٥ لفظ كل روح بكل واعظ ولفظ الأرواح بالواعظين فى الآية الأولى ولفظ روح فى الآية الثانية بالواعظ من جانب الله ، ولفظ روح الحق فى الآية السادسة بالواعظ الصادق ، وترجم لفظ روح الضلال بالواعظ المضل ، وليس المراد بروح الله وروح الحق الأقتنوم الثالث الذى هو عين الله على زعمهم وهو ظاهر ، فتفسير « فارقليط » بروح القدس وروح الحق لا يضرنا لأنهما بمعنى الواعظ الحق ، كما أن لفظ روح الحق وروح الله بهذا المعنى فى الرسالة الأولى ليوحنا فيصح إطلاقهما على محمد صلى الله عليه وسلم بلا ريب .

الشبهة الثانية : ان المخاطبين بضمير « كم » : الحواريون فلا بد ان يظهر « فارقليط » في عهدهم ومحمد — صلى الله عليه وسلم — لم يظهر في عهدهم .

أقول هذا أيضا ليس بشيء لأن منشأه أن الحاضرين وقت الخطاب لابد أن يكونوا مرادين بضمير الخطاب ، وهو ليس بضروري في كل موضع ، ألا ترى أن قول عيسى عليه السلام في الآية الرابعة والستين من الباب السادس والعشرين من انجيل متى في خطاب رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع هكذا : « وأيضا أقول لكم من الآن تبصرون ابن الانسان جالسا عن يمين القوة وآتيا على سحب السماء » ، وهؤلاء المخاطبون قد ماتوا ومضت على موتهم مدة هي أزيد من ألف وثمانمائة سنة وما رأوه آتيا على سحب السماء ، فكما أن المراد بالمخاطبين هاهنا الموجودون من قومهم وقت نزوله من السماء فكذلك فيما نحن فيه .

الشبهة الثالثة : أنه وقع في حق « فارقليط » أن العالم لا يراه ولا يعرفه وأنتم تعرفونه وهو لا يصدق على محمد — صلى الله عليه وسلم — لأن الناس رأوه وعرفوه .

أقول : هذا أيضا ليس بشيء وهم أحوج الناس تأويلا في هذا القول بالنسبة إلينا لأن روح القدس عين الله عندهم والعالم يعرف الله أكثر من معرفة محمد صلى الله عليه وسلم فلا بد أن نقول ان المراد بالمعرفة المعرفة الحقيقية الكاملة ، ففي صورة التأويل لا اشتباه في صدق هذا القول على محمد صلى الله عليه وسلم ويكون المقصود أن العالم لا يعرفه معرفة حقيقية كاملة وأنتم تعرفونه معرفة حقيقية كاملة والمراد بالرؤية المعرفة ، ولذا لم يعد عيسى عليه السلام لفظ الرؤية بعد لفظ أنتم ، بل قال : وأنتم تعرفونه . ولو حملنا الرؤية على الرؤية البصرية يكون نفى الرؤية محمولا على ما هو المراد من قول الانجيل الأول في الباب الثالث عشر من انجيله . وأنقل عبارته عن الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ :

١٣ « فلذلك أضرب لهم الأمثال لأنهم ينظرون ولا يبصرون ، ويسمعون ولا يستمعون ولا يفهمون » ١٤ « وقد كمل فيهم تنبؤ أشعيا حيث قال : انكم تستمعون سمعا ولا تفهمون وتتنظرون نظرا ولا تبصرون » فلا اشكال أيضا وأمثال هذين الأمرين وان كانت

معانى مجازية ، لكنها بمنزلة الحقيقة العرفية ووقعت فى كلام عيسى عليه السلام كثيرا فى الآية السابعة والعشرين من الباب الحادى عشر من انجيل متى هكذا : « وليس أحد يعرف الابن الا الآب ولا أحد يعرف الآب الا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له » وفى الآية الثامنة والعشرين من الباب السابع من انجيل يوحنا هكذا : « الذى أرسلنى حق ، الذى أنتم لستم تعرفونه » وفى الباب الثامن من انجيل يوحنا هكذا : ١٩ « لستم تعرفونى أنا ولا أبى ، لو عرفتمونى لعرفتكم أبى أيضا » ٥٥ « ولستم تعرفونه أى الله » وفى الآية الخامسة والعشرين من الباب السابع عشر من انجيل يوحنا هكذا : « أيها الآب ان العالم لم يعرفك أما أنا فعرفتك » وفى الباب الرابع عشر من انجيل يوحنا هكذا : « لو كنتم عرفتمونى لعرفتكم أبى أيضا ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه » ٨ « قال له فيلبس يا سيد أرنا الآب وكفانا » •

٩ « قال له يسوع : أنا معكم زمانا هذه مدته ولم تعرفنى يا فيلبس الذى رآنى فقد رأى الآب فكيف تقول أنت أرنا الآب » فالمراد بهذه الأقوال بالمعرفة المعرفة الكاملة وبالرؤية المعرفة والا لا تصح هذه الأقوال يقينا لأن العوام من الناس كانوا يعرفون عيسى عليه السلام فضلا عن رؤساء اليهود والكهنة والمشايع والحواريين ورؤية الله بالبصر فى هذا العالم ممتنعة عند أهل التثليث أيضا •

الشبهة الرابعة : أنه وقع فى حق فارقليط « انه مقيم عندكم وثابت فيكم » ويظهر من هذا القول أن فارقليط كان فى وقت الخطاب مقيما عند الحواريين وثابتا فيهم فكيف يصدق على محمد — صلى الله عليه وسلم •

أقول : هذا القول فى التراجم الأخرى هكذا : ترجمة عربية سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ « لأنه مستقر معكم وسيكون فيكم » والتراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ وترجمة أردو المطبوعة سنة ١٨١٤ وسنة ١٨٣٩ كلها مطابقة لهاتين الترجمتين وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ « هكذا ماكث معكم ويكون فيكم » ظهر أن المراد بقوله : ثابت فيكم ، الثبوت الاستقبالى يقينا نلا اعتراض به لوجه من الوجوه وبقي قوله مقيم عندكم فأقول : لا يصح حمل هذا القول على معنى هو مقيم عندكم الآن لأنه يناقئ قوله : « أنا أطلب من الآب فيعطيك فارقليط آخر » وقوله : « قد

قلت لكم قبل أن يكون حتى اذا كان تؤمنون » وقوله : « ان لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط » واذا أول نقول بمعنى الاستقبال كما أن القول الذي بعده بمعنى الاستقبال ومعناه يكون مقيما عندكم في الاستقبال فلا خدشة في صدقه أيضا على محمد صلى الله عليه وسلم والتعبير عن الاستقبال بالحال بل بالماضي في الأمور المتيقنة كثير في العهدين ، ألا ترى أن حزقيال عليه السلام أخبر أولا عن خروج ياجوج ومأجوج في الزمان المستقبل واهلاكهم حين وصولهم الى جبال اسرائيل ثم قال في الآية الثانية من الباب التاسع والثلاثين من كتابه هكذا : « ها هو جاء وصار يقول الرب الاله هذا هو اليوم الذي قلت عنه » فانظروا الى قوله : ها هو جاء وصار .. فعبر عن الحال المستقبل بالماضي لكونه يقينا لا شك فيه وقد مضت مدة أزيد من ألفين وأربعمائة وخمسين سنة ولم يظهر خروجهم ، وفي الآية الخامسة والعشرين من الباب الخامس من انجيل يوحنا هكذا : « الحق الحق أقول لكم : انه تأتي ساعة وهي الآية حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون » فانظروا الى قوله : وهي الآن ، وقد مضت مدة أزيد من ألف وثمانمائة ولم تجيء هذه الساعة والى الآن أيضا مجهولة ، لا يعرف أحد متى تجيء .

الشبهة الخامسة : في الباب الأول من كتاب الأعمال هكذا : « وفيما هو مجتمع معهم أوصاهم أن لا يبرحوا من اورشليم بل ينتظروا موعد الآب الذي سمعتموه مني . لأن يوحنا عمد بالماء وأما أنتم فستعمدون بالروح القدس ليس بعد هذه الأيام بكثير » وهذا يدل على أن فارقليط هو الروح النازل يوم الدار لأن المراد بموعد الآب هو فارقليط .

أقول : الادعاء بأن المراد بموعد الآب هو « فارقليط » ادعاء محض بل هو غلط لثلاثة عشر وجها وقد عرفتھا ، بل الحق أن الاخبار عن فارقليط شيء والوعد بانزال الروح عليه مرة أخرى شيء آخر وقد وفي الله بالوعدين وقد عبر بالوعد الأول بمجيء فارقليط وهاهنا بموعد الآب ، غاية الأمر أن يوحنا نقل بشارة فارقليط ولم ينقلها الانجيليون الباقون ولوقا نقل موعد نزول الروح الذي نزل يوم الدار ولم ينقله يوحنا ولا بأس فيه فانهم قد يتفقون في نقل الأقوال الخسيسة كركوب عيسى عليه السلام على الحمار وقت الذهاب الى اورشليم . اتفق على نقله

الأربعة وقد يتخالفون في نقل الأحوال العظيمة • ألا ترى أن لوقا انفرد بذكر احياء ابن الأرملة من الأموات في نابين ويذكر ارسال عيسى عليه السلام سبعين تلميذا ، أو يذكر ابراء عشرة برص • ولم يذكر هذه الحالات أحد من الانجيليين مع أنها من الحالات العظيمة ، وأن يوحنا انفرد بذكر وليمة العرس في قانا الجليل وظهر من يسوع فيه معجزة تحويل الماء خمرًا وهذه المعجزة أول معجزاته ، وسبب ظهور مجده وايمان التلاميذ به ويذكر ابراء السقيم في بيت صيدا في أورشليم وهذه أيضا معجزة عظيمة ، والمريض كان مريضا من ثمانية وثلاثين سنة ، ويذكر قصة امرأة أخذت في زنا ويذكر ابراء الأكمه وهذا أيضا من أعظم معجزاته وهي مصرحة بهما في الباب التاسع ، ويذكر احياء العاذار من بين الأموات ولم يذكرها أحد من الانجيليين مع أنها حالات عظيمة وهكذا حال متى ومرقس فانهما انفردا بذكر بعض المعجزات والحالات التي لم يذكرها غيرهما ولما طال البحث في هذا المسلك فلنقتصر على هذا القدر من البشارات التي نقلتها عن كتبهم المعتبرة عندهم في زماننا •

* * *

٦

وهناك كتاب ظهر في أوروبا وأحدث ضجة وأخذوا وردا ثم كانت النتيجة أن رفضه العالم النصراني بلا مبرر • هذا الكتاب يسمى « انجيل برنابا » والكتاب أعطي قولاً فصلاً في المسائل الثلاث الأساسية وهي رسالة عيسى ورسالة محمد وعدم صلب المسيح •
فهل هناك مبرر لرفض هذا الكتاب :

١ — يذكر التاريخ ان البابا جيلاسيوس الأول الذي جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ ميلادية أي قبل ميلاد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بحوالى قرن أصدر أمراً ينهى فيه عن مطالعة كتب معينة من جملة كتاب اسمه « انجيل برنابا » • اذن من المعروف تاريخياً أن هناك كتاباً اسمه « انجيل برنابا » موجود قبل الاسلام •

٢ — وقد عثر لهذا الانجيل على نسختين : ايطالية وأسبانية :
ما الأسبانية فقد أقرضها الدكتور « هلم » من هدلى — بلدة من أعمال همبشير — المستشرق سايل ثم تناولها بعد سايل الدكتور منكروس

أحد أعضاء الكلية الملكية في أكسفورد فنقلها الى الانجليزية ثم دفع
الترجمة مع الأصل سنة ١٧٨٤ الى الدكتور هويت أحد مشاهير الأساتذة
ثم بعد ذلك طمس خبرها وامحى أثرها •

وأما النسخة الايطالية فموجودة في مكتبة بلاط فيينا وأول من
عثر عليها كريم أحد مستشاري ملك بروسيا وكان مقيما وقتئذ في
أمستردام فأخذها سنة ١٧٠٩ من مكتبة أحد مشاهير وجهاء المدينة
المذكورة فأقرضها كريم طولند ثم أهداها بعد ذلك بأربع سنين الى
البرنس ايوجين سافوي ثم انتقلت النسخة المذكورة سنة ١٧٣٨ مع
سائر مكتبة البرنس الى مكتبة البلاط الملكي في فيينا حيث لا تزال
هنالك • واذن هذا الكتاب في ورده وصدره أوروبى •

٣ — أنه لم يعرف بتاتا عند المسلمين أن هناك كتابا اسمه « انجيل
برنابا » قبل ظهوره في أوروبا ولو أن للمسلمين يدا في صنع هذا الانجيل
لذكروه وحاولوا نشره وكان مشهورا •

٤ — يذكر سائل أنه مذكور في النسخة الأسبانية المفقودة أنها
مترجمة عن النسخة الايطالية وفيها مقدمة عن الراهب الذي اكتشف
النسخة الايطالية والقصة هي ما يلي : أن الراهب اللاتيني فرامرينو
عثر على رسائل لايريناىوس وفي عدادها رسالة يندد فيها بالقديس
بولس الرسول وأن اريناىوس أسند تنديده هذا الى انجيل القديس
برنابا فأصبح من ذلك الحين الراهب فرامرينو المشار اليه شديد الشغف
بالعثور على الانجيل واتفق أنه أصبح حيناً من الدهر مقرباً من البابا
سكتس الخامس فحدث يوماً أنهما دخلا معا مكتبة البابا فأخذت البابا
سنة من نوم فأحب فرامرينو أن يقتل الوقت في المطالعة الى أن يفيق
البابا فكان الكتاب الأول الذي وضع يده عليه هو هذا الانجيل نفسه
فكاد أن يطير فرحاً من هذا الاكتشاف فخبأ هذه الذخيرة الثمينة في
أحد ردهيه ولبث الى أن استفاق البابا فاستأذنه بالانصراف حاملاً ذلك
الكنز معه فلما خلا بنفسه طالعه بشوق عظيم فاعتق على أثر ذلك
الدين الاسلامى •

٥ — ان الكتاب متماسك بشكل وحدة متكاملة ويدل على علم لا مثيل
له في كتب العهد القديم وفيه من براعة الحجة ووضوح المسلك ودقة
الخطاب وتوضيح خفايا في حياة المسيح عليه السلام وتشابه كثير بين

بعض مقاطعه والأنجيل الأخرى كل ذلك يجعل احتمال نسبته الى برنابا أكبر من أى احتمال آخر .

٦ — ان الكتاب لا يوجد فيه ما يشير الى تأثره بالمفاهيم الاسلامية بتاتا ولا يوجد فيه ما يشتم منه أن صاحبه قد قرأ القرآن أو عرف دين النبي محمد صلى الله عليه وسلم مما يؤكد أن الكتاب لم يؤلفه مسلم وأنه كتب قبل الاسلام .

٧ — والدارس للكتاب يرى أن له صولة في تهذيب النفس وترقيتها ويحس صدق العبارة وحرارة الاخلاص فيفتح له الكتاب آفاقا روحية لا يستطيع الانسان أن يتصور بعدها أن رجلا اختلق هذا الكتاب كذبا وزورا . وبعد هذه المقدمات ننقل فقرات من هذا الكتاب مما له علاقة ببحثنا من البشارات الصادرة على لسان المسيح به في رسالة رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام :

١ — في الفصل السابع عشر يقول : ولكن سيأتى بعدى بهاء كل الأنبياء والأطهار فيشرق نورا على ظلمات سائر ما قال الأنبياء لأنه رسول الله ، أى يبين غامض أقوالهم .

٢ — في الفصل الثالث والأربعين يقول : الحق أقول لكم ان كل نبى متى جاء فانه يحمل لأمة واحدة فقط علامة رحمة الله ولذلك لم يتجاوز كلامهم الشعب الذى أرسلوا اليه ولكن رسول الله متى جاء يعطيه الله ما هو بمثابة خاتم يده فيحمل خلاصا ورحمة لأمم الأرض الذين يقبلون تعليمه وسيأتى بقوة على الظالمين ويبيد عبادة الأصنام بحيث يخزى الشيطان لأنه هكذا وعد الله ابراهيم قائلا : انظر فانى بنسلك أبارك كل قبائل الأرض ، وكما حطمت يا ابراهيم الأصنام تحطيمًا ، هكذا سيفعل نسلك أجاب يعقوب : يا معلم .. قل لنا بمن صنع هذا العهد فان اليهود يقولون باسحاق والاسماعيليون يقولون باسماعيل . أجاب يسوع ابن من كان داوود ومن أى ذرية ، أجاب يعقوب من اسحاق لأن اسحاق كان أبا يعقوب ويعقوب كان أبا يهوذا الذى من ذريته داوود . فحينئذ قال يسوع : ومتى جاء رسول الله فمن نسل من يكون ؟ أجاب التلاميذ : من داوود ، فأجاب يسوع : لا تغشوا أنفسكم لأن داوود يدعو في الروح ربا قائلا هكذا : قال الله لربى اجلس عن يمينى حتى أجعل أعدائك موطئا لقدميك يرسل الرب قضيتك الذى سيكون ذا سلطان في وسط أعدائك فاذا كان رسول

الله الذى تسمونه مسيا ابن داوود فكيف يسميه داوود ربا صدقونى
لأنى أقول لكم الحق ان العهد صنع باسماعيل لا باسحاق •

٣ — وفى الفصل الرابع والأربعين يقول : لذلك أقول لكم ان
رسول الله بهاء يسر كل ما صنع الله تقريبا لأنه مزدان بروح الفهم
والمشورة روح الحكمة والقوة روح الخوف والمحبة روح التبصر
والاعتدال ، مزدان بروح المحبة والرحمة ، روح العدل والتقوى روح
اللطف والصبر التى أخذ منها من الله ثلاثة أضعاف ما أعطى لسائر
خلقه ، ما أسعد الزمن الذى سيأتى فيه الى العالم صدقونى انى
رأيتك وقدمت له الاحترام كما رآه كل نبي لأن الله يعطيهم روحه
نبوة ولما رأيتك امتلأت عزاء قائلا : يا محمد .. ليكن الله معك
وليجعلنى أهلا أن أحل سير حذائك لأنى اذا نلت هذا صرت نبيا
عظيما وقدوس الله •

٤ — وفى الفصل الرابع والخمسين يقول : فمتى مرت هذه العلامات
تغشى العالم ظلمة أربعين سنة ليس فيها من حى الا الله وحده الذى
له الاكرام والمجد الى الأبد ومتى مرت الأربعون سنة يحيى الله رسوله
الذى سيطلع أيضا كالشمس بيد أنه متألق كألف شمس فيجلس
ولا يتكلم .. وسيقيم الله أيضا الملائكة الأربعة المقربين الذين ينشدون
رسول الله فمتى وجدوه قاموا على الجوانب الأربعة للمحل حراسا له
ثم يحيى الله بعد ذلك سائر الملائكة الذين يأتون كالنحل ويحيطون
برسول الله ثم يحيى الله بعد ذلك سائر أنبيائه الذين سيأتون جميعهم
تابعين لآدم فيقبلون يد رسول الله واضعين أنفسهم فى كف حمايته
ثم يحيى الله بعد ذلك سائر الأصفياء الذين يصرخون : اذكرنا يا محمد
فتتحرك الرحمة فى رسول الله لصراخهم .. ، ١٧ ثم قال يسوع :
أرجو الله ألا أرى هذه الهولة فى ذلك اليوم ان رسول الله وحده لا يتهيب
هذه المناظر لأنه لا يخاف الا الله وحده .. ، ٢١ عند ذلك يخاف
رسول الله لأنه يدرك أن لا أحد أحب الله كما يجب .. ، ٢٣ ولكن اذا
خاف رسول الله فماذا يفعل الفجار المملؤون شرا ..

٥ — فى الفصل الثانى والثمانين يقول : ولكن صدقيني أنه يأت
وقت يعطى الله فيه رحمته فى مدينة أخرى ويمكن السجود له فى كل
مكان بالحق ويقبل الله الصلاة الحقيقية فى كل مكان برحمته • أجابت
المرأة : اننا ننتظر مسيا فمتى جاء يعلمنا ؟ .. أجاب يسوع : أتعلمين

أيتها المرأة أن مسيا لابد أن يأتى • أجابت : نعم يا سيد حينئذ تهال يسوع وقال : يلوح لى أيتها المرأة أنك مؤمنة فاعلمى أنه بالإيمان بمسيا سيخلص كل مختارى الله اذن وجب أن تعرفى مجيء مسيا قالت المرأة : لعلك أنت مسيا أيها السيد • أجاب يسوع : انى حقا أرسلت الى بيت اسرائيل نبي خلاص ولكن سيأتى بعدى مسيا المرسل من الله لكل العالم الذى لأجله خلق الله العالم ، وحينئذ يسجد لله فى كل العالم وتقال الرحمة حتى أن سنة اليوبيل التى تجىء الآن كل مئة سنة سيجعلها مسيا كل سنة فى كل مكان •

٦ — وفى الفصل الثالث والثمانين « وبعد صلاة نصف الليل اقترب التلاميذ من يسوع فقال لهم : ستكون هذه الليلة فى زمن مسيا رسول الله اليوبيل السنوى الذى يجىء الآن كل مئة سنة لذلك لا أريد أن ننام بل أن نصلى » • • ولعله أراد بهذه الليلة ليلة القدر أو ليلة براءة أى ليلة النصف من شعبان وعلى هذا نفهم أن تجلياتها كانت مرة كل مئة سنة من قبل وعلى هذا نفهم الكلمة • • أن سنة اليوبيل التى تجىء الآن كل مئة سنة فى الفقرة السابقة ، أن المقصود منها اصطلاح خاص بهذه الليلة • • والله أعلم •

٧ — فى الفصل السادس والتسعين : « أجاب يسوع : لعمر الله الذى تقف بحضرته نفسى أنى لست مسيا الذى تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا ابراهيم قائلا : بنسلك أبارك كل قبائل الأرض ولكن عندما يأخذنى الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأنى الله وابن الله فينجس بسبب هذا كلامى وتعليمى حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمنا حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذى خلق كل الأشياء لأجله الذى سيأتى من الجنوب بقوة وسيبيد الأصنام وعبداء الأصنام وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر وسيأتى برحمة الله لخلص الذين يؤمنون به وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا » •

٨ — فى الفصل السابع والتسعين : فقال حينئذ الكاهن : ماذا يسمى مسيا وما هى العلامة التى تعلن مجيئه ؟ أجاب يسوع : ان اسم مسيا عجيب لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها فى بهاء سماوى قال الله : اصبر يا محمد لأنى لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجما غفيرا من الخلائق التى أهبها لك حتى أن من يباركك

يكون مباركا ومن يلعنك يكون ملعونا ومتى أرسلتك الى العالم أجعلك
رسولي للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى أن السماء والأرض تهان
ولكن ايمانك لا يهن ان اسمه المبارك محمد .
هذه شذرات مما ورد في هذا الكتاب واذا ثبت أن الكتب كان
موجودا قبل الاسلام فقد ثبت عندئذ أن ذلك مما بقى صحيحا من
آثار عيسى .. والله أعلم .

* * *

٧

ونختم البحث بنصين كل منهما يدل بما لا يقبل الشك أن النصراني
أثناء بعثة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا ينتظرون رسولا
أوصافه هي نفس أوصاف السيد الرسول صلى الله عليه وسلم :
١ — قصة سلمان الفارسي الذي هرب من الأرض الفارسية باحثا
عن الدين الحق يقول سلمان : لما قدمت الشام قلت من أفضل أهل
هذا الدين ؟ قالوا : الأسقف في الكنيسة . قال : فجيئته فقلت : انى
رغبت في هذا الدين وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيسك وأتعلم
منك وأصلى معك . قال : فادخل ، فدخلت معه ، قال : فكان رجل
سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فاذا جمعوا له أشياء اكتتزا لنفسه
ولم يعطها المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق قال :
وأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع ثم مات فاجتمعت اليه النصراني
ليدفنوه فقلت لهم : ان هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم
فيها فاذا جيئتموه بها اكتتزا لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئا ،
قالوا : وما علمك بذلك ؟ قال : قلت : أنا أدلكم على كثره ، قالوا :
فدلنا عليه . قال : فأريتهم موضعه قال : فاستخرجوا منه سبع قلال
مملوءة ذهبا وورقا قال : فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنه أبدا فصلبوه
ثم رجموه بالحجارة . ثم جاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه قال : يقول
سلمان : فما رأيت رجلا لا يصلى الخمس أرى أنه أفضل منه وأزهد
في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلا ونهارا منه قال : فأحببته
حبا لم أحبه من قبل وأقمت معه زمانا ثم حضرته الوفاة فقلت له :
يا فلان .. انى كنت معك وأحببتك حبا لم أحبه من قبلك وقد حضرك
ما ترى من أمر الله فالى من توصى بى وما تأمرنى ؟ فقال : يا بنى ..
والله ما أعلم أحدا اليوم على ما كنت عليه ، فقد هلك الناس وبدلوا

وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجل بالموصل وهو فلان فهو على ما كنت عليه فالحق به • قال : فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل فقلت له : يا فلان •• ان فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك وأخبرني أنك على أمره ، قال : فقال لي : أقم عندي • فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان •• ان فلانا أوصى بي اليك وأمرني باللحوق بك وقد حضرك من الله عز وجل ما ترى فإلى من توصى بي وما تأمرني؟ قال : يا بني •• والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه إلا رجلا بنصيبين وهو فلان فالحق به • فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فجئته فأخبرته بخبري وما أمرني به صاحبي قال : فأقم عندي • فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه فأقمت مع خير رجل فوالله ما لبث أن نزل به الموت فلما حضر قلت له : يا فلان •• ان فلانا كان أوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان اليك فإلى من توصى بي وما تأمرني؟ قال : أي بني •• والله ما نعلم أحدا بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية فانه بمثل ما نحن عليه فان أحببت فأته •• فانه على أمرنا • قال : فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية وأخبرته خبري فقال : أقم عندي • فأقمت مع رجل على هدى أصحابه وأمرهم قال : واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة قال : ثم نزل به أمر الله فلما حضر قلت له : يا فلان •• اني كنت مع فلان فأوصى بي فلان إلى فلان وأوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان اليك فإلى من توصى بي وما تأمرني؟ قال : أي بني •• والله ما أعلم أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين ابراهيم يخرج بأرض العرب مهاجرا إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى : يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة ، فان استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل • والرواية متصلة السند رواها عدول •

٢ — وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حدثني أبو سفيان بن حرب قال : انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشام فبينما أنا بها إذ جاء بكتاب من النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل جاء به دحية الكلبي فدفعه إلى عظيم بصرى فدفعه إلى عظيم الروم هرقل فقال هرقل :

هل هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ قالوا : نعم •
 فدعيت في نفر من قريش فدخلنا عليه فاجلسنا بين يديه فقال : أيكم
 أقرب نسبا منه ؟ فقلت : أنا • فأجلسني بين يديه وأصحابي خلفي
 ثم دعا بترجمانه فقال : قل لهؤلاء اني سائل هذا عن هذا الرجل الذي
 يزعم أنه نبي فان كذبتني فكذبوه • قال أبو سفيان : وأيم الله لولا أن
 يؤثر على الكذب لكذبتة • ثم قال لترجمانه : سله كيف نسبه فيكم ؟
 قلت : هو فينا ذو نسب • قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت :
 لا • قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا •
 قال : فهل يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم •
 قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : لا ، بل يزدون • قال : هل
 يرتد أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطه له ؟ قلت : لا • قال :
 فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم • قال : كيف قتالكم اياه ؟ قلت :
 تكون الحرب بيننا وبينه سجالا ، يصيب منا ونصيب منه • قال :
 فهل يغدر ؟ قلت : لا • ونحن منه في هذه المدة ما ندري ما هو صانع •
 قال أبو سفيان : فوالله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه •
 قال : فهل قال هذا القول أحد قبله ؟ قلت : لا • فقال لترجمانه : قل
 له اني سألتك عن نسبه فيكم فزعمت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل
 تنبعث في أنساب قومها • وسألتك هل كان في آبائه من ملك ؟ فزعمت أن لا
 فقلت لو كان في آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه • وسألتك عن
 أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم فقلت : بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل
 وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا
 فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى •
 وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطه له
 فزعمت أن لا ، فكذلك الايمان اذا خالطت بشائسته القلوب • وسألتك
 هل يزدون أم ينقصون ، فزعمت أنهم يزدون وكذلك أمر الايمان
 حتى يتم • وسألتك هل قاتلتموه ، فزعمت أنكم قاتلتموه فتكون الحرب
 بينكم سجالا ينال منكم وتقالون منه وكذلك الرسل تبلى ثم تكون
 لهم العاقبة • وسألتك هل يغدر ، فزعمت أنه لا يغدر ، وكذلك الرسل
 لا تغدر • وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله ، فزعمت أن لا ،
 فقلت لو قال هذا القول أحد قبله قلت رجل ائتم بقول قيل
 قبله • ثم قال : بم يأمركم ؟ قلنا : بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف •

فقال : ان يك ما تقول حقا فانه نبي وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم • ولو أعلم أنى أخلص اليه لأحببت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه وليبلغن ملكه ما تحت قدمي • ثم دعا بكتاب رسول الله فقرأه فاذا فيه ••• فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط فأمر بنا فأخرجنا فقلت لأصحابي : لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة •• أنه ليخافه ملك بنى الأصفر •

* * *

٨

وأخيرا سأل الشيخ عبد الوهاب النجار مؤلف كتاب « قصص الأنبياء » الدكتور « كارلو نلينو » المستشرق الايطالى عن كلمة « بيركليتوس » الواردة فى الأناجيل فأجابه بقوله : ان القسوس يقولون ان هذه الكلمة معناها « المعزى » فقال له : انى أسأل الدكتور كارلو نلينو الحاصل على الدكتوراه فى آداب اللغة اليونانية القديمة ولست أسأل قسيسا • فقال : ان معناها الذى له حمد كثير • فسأله أيضا : هل ذلك يوافق « أفعال التقضيل » من حمد فقال : نعم • وهذا ما جاء فى القرآن على لسان المسيح :

« ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » (الصف : ٦) • عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من قال رضيت بالله تعالى ربا وبالإسلام ديننا وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا ، وجبت له الجنة » أخرجه أبو داود •

* * *

واذا مر معك فى المبحث الأول عن الله ما أثلج ضميرك يقينا نهيب بك أن ترضى بالله ربا •

واذا مر معك فى المبحث الثانى عن الرسول ما أثلج صدرك يقينا نهيب بك أن ترضى به رسولا •

وها نحن سنبدأ بعرض الاسلام دين الله الذى بلغه لنا رسول الله فى المبحث الثالث ونهيب بك أن ترضاه ديننا •

لتكون بعد هذا كله أهلا لنيل رضوان الله وجنته ولتتجو بهذا من سخط الله وعقوبته •• والله ولى أمرنا وأمرك •

* * *

محتويات الكتاب

الجزء الأول

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
١٢	الباب الأول : الصفات
١٣	المقدمة : تكوين الرسول الجسماني
١٦	الفصل الأول : الصفات الأساسية
١٧	١ — صدقه عليه السلام
١٧	(أ) شهادة الخصوم
٢٠	(ب) شهادة الاتباع
٢٥	(ج) شهادة الواقع
٢٦	(١) نماذج من صدقه في مزاحه ومداعباته
٢٧	(٢) نماذج من صدقه في وعوده وعهوده
٣٠	(٣) نماذج من حديثه الذي صدقته علوم عصرنا من غير النبوءات
٤٦	٢ — التزامه الكامل بتطبيق ما يدعو اليه عليه السلام
٤٧	(١) نماذج من تنفيذه للأمر الأول « بل الله فاعبد وكن من الشاكرين »
٥٦	(٢) نماذج من تنفيذه لأمر الله في المثال « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو »
٦١	(٣) نماذج من تنفيذه للأمر الثالث « واخفض جناحك للمؤمنين »
٦٦	(٤) نماذج من تنفيذه للأمر الرابع « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلق عليهم »
٧٠	(٥) نماذج من تنفيذه للأوامر في المثال الخامس « كونوا قوامين بالقسط »
٧٤	٣ — تبليغه عليه السلام دعوة الله وقيامه بذلك كاملاً
٧٦	(١) نماذج عن مواقف الكافرين منه عليه السلام
٧٦	(أ) ايذاؤه وصبره على ذلك
٨٠	(ب) محاولة اغرائه ورفضه ذلك
٨٤	(ج) محاولتهم أن يضغطوا عليه عائلياً
٨٥	(د) سلوكهم طريق الاستهزاء والسخرية والاعراض والاقهاسات

الصفحة

الموضوع

- (هـ) استعمال سلاح المقاطعة ٨٨
- (و) محاولتهم قتله ٩٠
- (ز) ملاحقة خطواته ومحاولة ايثاسه منهم ٩٢
- (٢) نماذج عن الطريق التي سلكها عليه السلام لايصال الدعوة الى الناس ٩٣
- (أ) دعوته الناس للاجتماع من أجل أن يبلغهم ٩٣
- (ب) ذهابه الى أماكن تجمع الناس وتبليغهم ٩٤
- دعوة الله ٩٤
- (ج) رحلته من أجل التبليغ ٩٦
- (د) تكليفه من أسلم تبليغ من لم يسلم ٩٦
- (هـ) تكليفه من تعلم أن يعلم من لم يعلم ٩٧
- (و) ارساله الرسل والرسائل لتبليغ الملوك والأمراء ٩٨
- ٤ — عقله العظيم وفطنته عليه السلام ١٠١
- من وصاياه ١١١
- الفصل الثاني : القدوة العليا ١١٦
- ١ (١) الاخلاق الأولى « وانك لعلى خلق عظيم » ١١٨
- أولا : نماذج من صبره ١٢٠
- ثانيا : نماذج من رحمته ١٢٥
- ثالثا : نماذج من حلمه ١٢٧
- رابعا : نماذج من كرمه ١٢٩
- خامسا : نماذج من تواضعه وتياسره ١٣٢
- (٢) رجل الأسرة الأول : أبا وزوجا ١٣٦
- التعريف بأزواجه عليه السلام ١٣٦
- (٣) المعلم والمربي الأول ١٥٧
- (٤) رجل الدولة الأول (سياسيا وعسكريا) ١٧٢
- القسم الأول : الرسول : القيادة السياسية العليا ١٧٣
- ١ — استيعابه عليه السلام لدعوته نظريا وعمليا وثقته بها وبانتصارها ١٧٤
- ٢ — استطاعته عليه السلام الاستمرار بدعوته تبليغا واقناعا ١٧٦
- ٣ — قدرته عليه السلام على استيعاب أتباعه تربية وتنظيما وتسييرا ورعاية ١٧٨
- ٤ — الثقة التي كان يتمتع بها عليه السلام عند أتباعه ١٨٣

١٨٧	٥ — استطاعة القائد الاستفادة من كل امكانيات الاتباع العقلية والجسمية أثناء الحركة ، مع المعرفة الحقيقية بامكانية كل منهم ووضعه في محله
١٩١	٦ — قدرته الكاملة عليه السلام على حل المشاكل الطارئة .
١٩٢	(١) حله لمشكلة وضع الحجر الأسود
١٩٣	(٢) نموذج من حلوله السريعة لمشاكل المنافقين
١٩٥	(٣) حله لمشاكل الهجرة
١٩٩	(٤) حله لمشكلة دفاع الأوس عن قريظة يوم قريظة
٢٠٢	(٥) حله لمشكلة هزيمة أحد
٢٠٣	(٦) بعد نظره عليه السلام وضرباته السياسية الموفقة
	٧ و ٨ — الوصول الى النصر وتطبيق ما كان العمل من أجله
٢١٤	بعد النصر
٢١٦	القسم الثاني : الشخصية القيادية العسكرية المثلى

الجزء الثاني

٢٣٧	الباب الثاني : المعجزات
٢٣٨	الفقرة الأولى : المعجزة القرآنية
٢٤٦	(أ) المثال الأول : سورة (ق)
٢٥٠	المثال الثاني : سورة الواقعة
٢٥٢	المثال الثالث : سورة الأنبياء
٢٦٠	(ب) وحدة القرآن المنتظمة المترابطة
٢٦٨	خصائص القرآن (ربانية المصدر)
٢٧٨	كلام القرآن الكريم عن الماضي والمستقبل
٢٨٨	صحة القرآن الكريم وتحريف الكتب السابقة
٢٩٨	لغة القرآن الكريم وأسلوبه
٣٠٩	الفقرة الثانية : معجزات أخرى
٣٤٠	تعقيب
٣٤٣	الباب الثالث : النبوءات
٣٦٣	الباب الرابع : الثمرات
٣٦٤	أولا : التوحيد

الصفحة	الموضوع
٣٦٥	(أ) عند العرب
٣٦٦	(ب) عند الهنود
٣٦٦	(ج) عند الفرس
٣٧٠	ثانيا : التبشير باليوم الآخر وطلب النجاة فيه
٣٨٤	ثالثا : انسانية واحدة كريمة
٣٨٤	١ — في الهند
٣٨٦	٢ — في فارس
٣٨٧	٣ — اليونان والرومان
٣٨٧	٤ — في ألمانيا وأمريكا وجنوبي أفريقيا
٣٩٤	رابعا : المسئولية الفردية
٤٠٠	خامسا : العدل
٤١١	سادسا : الطاعة المبصرة
٤١٦	سابعا : أجيال خيرة جريئة بالحق
٤٢٥	ثامنا : دولة هداية لا جباية
٤٣٠	تاسعا وعاشرا : جهاد وحرية
٤٣٨	الباب الخامس : البشارات
٤٥٣ — ٤٩٢	(من البشارة الأولى الى الثامنة عشر)
٤٩٣	محتويات الكتاب

للمؤلف

- ١- ... الله جل جلاله .
- ٢- الرسول صلى الله عليه وسلم (جزآن معاً) .
- ٣- الإسلام (أربعة أجزاء معاً) .
- ٤- جند الله ثقافة وأخلاقاً .
- ٥- من أجل خطوة إلى الأمام
على طريق الجهاد المبارك
- ٦- زبيتنا الروحية .
- ٧- في آفاق التعاليم .
- ٨- جولات في الفقهين الكبير والأكبر .
- ٩- المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين .
- ١٠- هذه تجربتي .. وهذه شهادتي .
- ١١- جند الله .. تخطيطاً